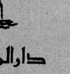
دكتور السيد الحسينى

علم الاجتماع السياسى

المفاهيم والقضايا

دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ السيد محمد بدوى

الاسكندرية

سلسلة علم الاجتمـاع المعاصر
الكتاب الـرابع والثلاثون

علم الاجتماع السياسى

المفاهيم والقضايا

دكتور السيد الحسينى

أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

الطبعة الثانية

١٩٨١



دار المعارف

الطبعة الأولى : ١٩٨٠

الطبعة الثانية : ١٩٨١

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل ـــ القاهرة ـــ ج ٠ م ٠ ع

محتـــويات الـــكتاب

مقدمة

بدأ العلماء الاجتماعيون خلال السنوات الأخيرة يظهرون اهتماما كبيرا بدراسة الاطار الاجتماعى للقضايا والمشكلات السياسية • وهنـاك عوامل عديدة تبرر مثل هذا الاهتمام • فلقد اتضح للعلماء الاجتماعيين ـ بعد عدة عقود من الجهد العلمى المتواصل ـ أن من العسير تفتيت الواقع الاجتماعى والنظر اليه على أنه مجرد مجموعة من الأجزاء • ان من الصعب تفسـير ظاهرة أو حادثة سياسية كنشوب ثورة أو تشكيل حزب سياسى أو سيطرة صفوة على مقاليد الحكم دون أن نأخذ فى الاعتبار الظـروف الاجتمـاعية والاقتصادية والثقافية المحيطة بذلك • كذلك فان مثل هذا التفسـير يزداد صعوبة اذا ما تجاهلنا التطورات التاريخيـة التى من خـلالها يمكن فهم الظواهر السياسية • ان الاطار التاريخى للأحداث السياسية هـو الذى يمكننا من التعرف على كيفية نشأة هذه الأحداث والتطورات التى خضعت لها • وعلى الرغم من استمرار النظرة التخصصية لكل من علمى الاجتمـاع والسياسة ، الا أن السنوات الأخيرة قد شهدت مزيدا من التداخل بينهما ، كان أحد ثماره ظهور علم الاجتماع السياسى كحلقة وصل تربط بين العلمين • فاذا كان البعض يميل الى تعريف علم السياسة بأنه دراسة السلطة أو نظم الحكم ، واذا كان البعض الآخر يفضل النظر الى علم الاجتمـاع على أنه دراسة العلاقات الاجتماعية أو التفاعل الاجتماعى ، فان علم الاجتمـاع السياسى هو ذلك الفرع الذى يهتم بابراز وتأكيد السياق الاجتماعى للظواهر السياسية • ولقد حقق علم الاجتماع السياسى نجاحا كبيرا خلال السنوات الأخيرة سواء على مستوى الموضوعات التى يتناولها بالدراسة ، أو مناهج البحث المستخدمة فيه • وبرغم الاستقلال النسبى الذى حققه هذا العلم ، الا أنه لا يزال يعتمد اعتمادا أساسيا على نماذج التحليل النظرى والمناهج العلمية التى يستعين بها كل من علمى الاجتماع والسياسة •

واذا ما عدنا الى تاريخ العلمين وجدنا تدعيما فكريا لما نذهب اليه • فالعلماء السياسيون ظلوا لفترة طويلة يؤكدون أهمية علم الاجتماع بالنسبة للدراسات السياسية • يؤكد ذلك التأثير المباشر الذى مارسته النظريات الكبرى فى علم الاجتماع (أمثال نظريات ماركس وفيبر وموسكا وباريتو وميشيلز) على التحليلات السياسية التاريخية والمعاصرة على السواء • ولقد أصبح من البديهيات المألوفة الآن أنه ما من نسق أو نظام سياسى يعمل فى فراغ ، وأن الدراسات السوسيولوجية هى وحدها القادرة على فهم الاطار الذى توجد فيه النظم السياسية وكيفية أدائها لوظائفها • وربما استطعنا تفسير ذلك فى ضوء الدراسات المقارنة التى بدأ علماء الاجتماع السياسى يجرونها على نطاق واسع بهدف تقديم أعمق وأشمل فهم ممكن للظواهر والأحداث التاريخية • وليس من الصعب علينا تحديد مجالات اهتمام علم الاجتماع السياسى• فهو يدرس ضمن ما يدرس موضوعات وقضايا ومشكلات كالصفوة السياسية ، والبيروقراطية ، والسلطة ، والشرعية ، والنظام السياسى والثورة والعنف ، والديموقراطية ، والحزب السياسى ••• إلخ[1] • ومع أن هذه الموضوعات ليست بعيدة عن اهتمام كل من علمى الاجتماع والسياسة ، الا أن علم الاجتماع السياسى قد استطاع تطوير أساليب دراسته وتنقيح مناهجه وأدواته ، بحيث أصبح قادرا على طرح المشكلات القديمة الكلاسيكية بأسلوب حديث عصرى ، واضعا فى اعتباره العوامل والظروف البنائية والثقافية (التاريخية والمعاصرة) المؤثرة على الظواهر السياسية •

وعلى الرغم من الاهتمام القديم بدراسة الاطار الاجتماعى والثقافى للظواهر السياسية ، الا أن جهود علماء الاجتماع خلال القرن التاسع عشر تمثل علامة جديدة على الطريق • وربما كان كارل ماركس Marx من أبرز العلماء الاجتماعيين اسهاما فى تطور علم الاجتماع السياسى ، حيث صاغ نظرية فى الحتمية التاريخية مستندة الى الصراع المادى بين القوى الاجتماعية المتصارعة ، ذاهبا الى أن النتيجة النهائية لمثل هذا الصراع تتمثل

---

(1) See Mackenzie, W., Politics and Social Science, London, 1967.

فى ظهور مجتمع يخلو تماما من الطبقات . ولقد خضعت نظرية ماركس لانتقادات عديدة بعضها يتعلق باعتبارات نظرية ، والبعض الآخر يتصل باعتبارات تنبؤية ، لكن ذلك لا يقلل من أهمية الاسهام الذى قدمه لعلم الاجتماع السياسى . ويكفى فى هذا المجال استعراض بعض المفاهيم الشائعة الآن فى التحليلات السياسية (كالصراع الطبقى ، والوعى الطبقى ، والاغتراب ، والطبقة) لندرك التأثير الهائل الذى مارسه فكر ماركس على علم الاجتماع السياسى[٢] . وفى مجال المنهج يمكن أن نلمس انعكاسات واضحة . فالاشتراكية العلمية كمنهج علمى صارم لا تزال تمثل نقطة انطلاق هامة لكثير من التحليلات السياسية ، فضلا عن أنها تمارس تأثيرا غير مباشر على الدراسات التى ترفض النظرية الماركسية ذاتها .

ويعد ماكس فيبر Weber واحدا من أبرز العلماء الاجتماعيين اسهاما فى ارساء معالم علم الاجتماع السياسى . والواقع أن أهمية فيبر لا تعود فقط الى كونه أبرز ناقدى نظرية ماركس ، بل أنها تعود أيضا الى قدرته على صياغة كثير من المفاهيم ذات الأهمية البالغة بالنسبة لهذا العلم . ونستطيع أن نلمس تأثير فيبر اذا ما تأملنا دراساته عن العلاقة بين الدين والاقتصاد ، وتعريفاته للطبقة والمكانة ، فضلا عن اسهاماته البارزة فى دراسة البيروقراطية والسلطة . ومن ذلك يبدو واضحا أن فيبر قد تناول كثيرا من مشكلات وقضايا علم الاجتماع السياسى . ففى مقال شهير له نجده يعرف السياسة « بأنها الكفاح من أجل المشاركة فى السلطة أو النضال من أجل توزيع السلطة سواء على المستوى الدولى أو مستوى الجماعات داخل الدولة الواحدة[٣] » . وفى موضع لاحق نجد فيبر يعرف الدولة بأنها « جهاز انسانى يستطيع احتكار الاستخدام الشرعى للقوة داخل منطقة جغرافية معينة »[٤] .

---

(2) Bramson, E., The Political Context of Sociology, Princeton, 1961. Chap. 1.

(3) Weber, M., «Politics as a Vocation», in From Max Weber : Essays in Sociology, translated and edited by Gerth, H., H., and C. Wright Mills, London, 1948, p. 78.

(4) Ibid, p. 88.

ومن ذلك يتضح أن فيبر قد أبدى اهتماما كبيرا بظاهرة ممارسة السلطة وما يتطلبه ذلك من شرعية وولاء ، فضلا عن أن التعريفات التى قدمها فى هذا المجال لا تزال تمثل حتى الآن نقطة انطلاق بالنسبة للدارسين المعاصرين •

وعلى الرغم من الاسهامات الهامة التى قدمها ماركس وفيبر لعلم الاجتماع السياسى ، الا أننا لا نستطيع تجاهل جهود علماء آخرين فى هذا المجال • وربما استطعنا الاشارة الى بعض أعمال هؤلاء العلماء ، خاصة وانها لا تزال تمارس تأثيرا كبيرا حتى الآن • ومن بين هؤلاء أليكس دى توكفيل Alex de Tocqueville • ففى مؤلفه « النظام القديم والثورة » نجده يذهب الى أن الثورة الفرنسية لم تسفر عن ظهور بناء اجتماعى مناقض تماما لذلك الذى كان قائما قبل نشوبها ، وأن الاستمرارية البنائية كانت أمرا حتميا • أما والتر باجوت Baghot فقد تناول العلاقة بين الثقافة والشخصية، فضلا عن العلاقة بين النظم السياسية والسلوك الانسانى[٥] • وفى كتاب « الدستور الانجليزى » نجد باجوت يسعى لتحديد الطابع القومى لعدد من الدول ، موضحا أن النظم السياسية الانجليزية قد تشكلت وتكونت من خلال التفاعلات الاجتماعية النوعية السائدة فى انجلترا • وأخيرا نجد باجوت فى مؤلفه « الطبيعة والسياسة » يطبق مفهوم التطور فى دراسة نشأة وتطور المجتمعات ، مؤكدا الدور الذى تلعبه المحاكاة فى هذا المجال[٦] • ولقد حاول جبرائيل تارد Tarde دراسة الجوانب السياسية لعملية المحاكاة ، مثيرا بذلك عددا من القضايا الهامة فى علم الاجتماع السياسى ، لعل أهمها أن النظام السياسى فى أى مجتمع من المجتمعات يرتبط ارتباطا وثيقا ببنائه • كذلك نجده يبرز الآثار الاجتماعية الناجمة عن استخدام أساليب الاتصال الحديثة،

---

(5) Lichtenberger, The Development of Sociological Theory, 1953, pp. 279-284.

(٦) لمزيد من التفصيل انظر : نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ؛ طبيعتها وتطورها ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، دار المعارف ، ١٩٧٧ ، ص ص ١٠٠ ــ ١٠٢ •

ممهدا بذلك الطريق لظهور نظريات حديثة تتنـاول علاقة الفرد بأسـاليب الاتصال الجماهيرى ، ثم مدى تأثير ذلك كله على السلوك السياسى • وفضلا عما سبق نجد تارد يبرز أهمية الصفوات السياسية فى المجتمـع ، والدور الذى تلعبه فى نشر الأفكار بين أفراد المجتمع •

أما علماء الصفوة فقد أسهموا اسهاما بارزا فى نشأة علم الاجتمـاع السياسى وتطوره • فلقد حاول كل من باريتو Pareto, وموسـكا Mosca تفنيد النظرية الماركسية من خلال التسليم بضرورة وجود طبقة أو صـفوة حاكمة[7] • بيد أن الرجلين ذهبا بعد ذلك الى أن الصفوة لا تدين ـ بالضرورة ـ فى وجودها لتفوق أو سيطرة اقتصادية ، وأن التغير الاجتماعى والتحول السياسى يحدثان من خلال مفهوم دورة الصفوة ، ذلك المفهوم الذى لا يستند الى دعائم اقتصادية قوية • ولسوف نناقش فى مواضع مختلفة من هـذا الكتاب مدى أهمية الاسهامات التى قدمها هذان العالمان فى مجال التحليلات السياسية للبناء الاجتماعى • غير أن ما يعنينا هنا هو الاشارة الى الدور الذى لعبه مفهوم الصفوة فى علم الاجتماع من حيث قدرته على فهم طبيعة الأحزاب السياسية المعاصرة ، وجماعات المصالح ، فضلا عن عملية اتخـاذ القرارات • وفى مجال دراسة الأحزاب السياسية نجد عالمين بارزين كان لهما تأثير بالغ هما : أوستروجورسكى Ostrogorski وروبرت ميشيلز Michels[8] • فلقد درس هذان العالمان التطور التنظيمى للأحزاب السياسية وتوصلا فى نهاية الأمر الى نتائج متشابهة أهمها ، أن مثل هذه الأحزاب تخضع لسيطرة جماعة صغيرة من النشطاء ، وأن الرقابة الشعبية على النشاطات السياسية صعبة ان لم تكن مستحيلة • ومنذ مطلع القرن العشرين زاد الاهتمام بدراسة الأحزاب السياسية والممارسات الديموقراطية بوجه عام • ففى سنة ١٩٢٨ نشر ستيوارت رايس Rice مؤلفا بعنوان «المناهج الكمية فى علم السياسة»،

---

(7) See Pareto, V., The Mind and Society, London, 1935; Mosca, G., The Ruling Class, London, 1939.

(8) Ostrogorski, M., Democracy and the Organization of Political Parties, London, 1961, Michels, R., Political Parties : A Sociological Study of the Oligarchical Tendencies of Modern Democracy, London, 1957.

حاول فيه تتبع اتجاهات التصويت للأحزاب السياسية فى الولايات المتحدة وعلاقة هذه الاتجاهات بعدد من المتغيرات الاجتماعية • ولقــد شجع ذلك بعض العلماء على دراسة العلاقة بين الشخصية والسياسة من زوايا عديدة كالتصويت والتعصب والتسلطية ، مما دعم الاهتمام بدراسة الأسس الثقافية للسلوك السياسى • ومن بين المؤلفات التى ظهرت فى هــذا المجال مؤلف ألموند Almond وفيربا Verba بعنوان « الثقافة المدنيــة » ، وكذلك مؤلف سيمور ليبست Lipset بعنوان « الانسان السياسى » • ومما سبق يبــدو واضحا أن الكتابات المبكرة فى علم الاجتماع السياسى كانت تميل الى تناول السلوك السياسى فى اطار كلى شامل • بيد أن هذا الموقف لم يدم طويلا[٩] ، اذ سرعان ما بدأ العلمــاء المعاصرون يهتمون بدراســة المواقف السياسية الجزئية ، عاون على ذلك التقدم الذى طرأ على مناهج البحث الحديثة وعلى الأخص فى مجال القياس والاحصاء •

ومن خلال مناقشتنا السابقة يتضح أن علم الاجتماع السياسى يستند فى دراسته لعدد من المناهج الملائمة للشواهد الواقعية التى يعنى بتحليلها • ومن بين هذه المناهج يمكننا الاشارة الى المنهج التــاريخى كما اســتخدمه كارل ماركس فى دراسة الطبقة الاجتماعية ، وماكس فيبر فى دراسة السلطة• أما المنهج المقارن فانه يميل الى دراسة الظــواهر السياسية فى ســياقات اجتماعية مختلفة أو أزمنة متباينة بهدف التعرف على العوامل التى تتحكم فى نشأتها وتطوراتها • ومن الأمثلة على ذلك دراسات ميشيلز وأوستروجورسكى للأحزاب السياسية • ولا شك أن هذين المنهجين قد أسهما اسهاما كبيرا فى تطور دراسات علم الاجتماع السياسى ، كما ساعدا على ظهور مناهج أخرى وان كانت أقل كفاءة ورواجا • من ذلك المنهج النظامى الذى يعتمد على تحليل الجوانب القانونية والنظامية للأجهزة السياسية المختلفة • وأحد الانتقادات التى توجه الى هذا المنهج تركيزه الشديد على المظاهر أو الجوانب الرسمية

---

(9) See Almond, G., Verba, S., The Civic Culture, Princeton, N. J., 1963, Lipset, S., Political Man, Garden City, New York, 1966.

للنظام السياسى ، وتجاهله للمارسات الفعلية السائدة فيه • ان السلوك السياسى يتم فى اطار نظم معينة بحيث يصعب علينا فهم دور كل منهما دون أن نقف على التفاعل بينهما • وعلى النقيض من المنهج النظامى نجد المنهج السلوكى يعتمد على الفرد بوصفه وحدة أساسية للتحليل ، ساعيا للفصل بين الشواهد الواقعية والقيم الخاصة التى قد تؤثر على تحليلات الدارسين[١٠] • ولا شك أن النزعة السلوكية قد ساعدت علماء الاجتماع السياسى على تقديم دراسات على درجة عالية من الدقة المنهجية ، بيد أنها تجاهلت البعدين التاريخى والبنائى مما حصرها (أى الدراسات) فى اطار محدود للغاية • والملاحظ أن الدراسات السلوكية فى علم الاجتماع السياسى قد اهتمت باستخدام المناهج الكمية بما فى ذلك المسوح الاحصائية واستطلاعات الرأى العام • وتستند هذه الدراسات فى أغلب الأحيان الى أساليب احصائية متطورة وعلى الأخص الارتباطات واختبارات الدلالة • غير أن العلاقة الموجبة أو السالبة بين متغيرين لا تعنى — بالضرورة — وجود علاقة سببية بينهما ، اذ قد تتدخل متغيرات وسيطة تحدد طبيعة هذه العلاقة • وعلى ذلك فان أهم ما يشير اليه معامل الارتباط بين متغيرين هو أنه يمثل مؤشرا على احتمال وجود العلاقة وضرورة التعرف على طبيعتها •

ويميل علماء الاجتماع السياسى المعاصرون الى تنويع مصادر البيانات الواقعية المتعلقة بالظواهر التى يدرسونها • فعلى سبيل المثال نجدهم يجرون مسوحا سياسية مكثفة كالاستفتاءات الدورية التى تجرى على عينات محددة من المبحوثين فضلا عن الملاحظات المباشرة وغير المباشرة التى يسجلونها • والمؤكد أن الاستبار كأداة منهجية قد حقق لعلماء الاجتماع السياسى فوائد عديدة من حيث قدرته على فهم دوافع واتجاهات الأفراد ، كما برهن على أهميته فى اختبار مدى صدق بعض النظريات الاجتماعية عند تطبيقها فى المجالات السياسية • كذلك فان منهج دراسة الحالة قد مكن الباحثين من

---

(10)Janowitz, M., «Political Sociology», in the International Encyclopedia of Social Science, New York, 1968, vol. 21, pp. 298-307.

الحصول على بيانات متعمقة تتعلق بديناميات العملية السياسية[١١] • ومن الطبيعى أن تستند هذه الدراسات الواقعية الى نظريات ونمـــاذج لتكون بمثابة موجهات للعمل الميدانى وتفسير النتائج • ويبـــدو ذلك واضـــحا اذا ما علمنا أن « النظرية » تعد وسيلة لتنظيم معلوماتنا حول قضية أو مشكلة معينـــة •

وتعد نظرية الأنساق من أكثر النظـــريات ذيوعا وانتشـــارا فى علم الاجتماع السياسى المعاصر وعلى الأخص فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية• وتنطلق هذه النظرية من النظر الى المجتمع باعتباره نسقا مؤلفا من مجموعة من الانساق الفرعية ، وان فهم هذا المجتمع يتطلب تحليل العلاقات المتبادلة بين هذه الانساق باعتبار أنها تتمتع بقدر كبـــير من التوازن[١٢] • ويعـــد تالكوت بارسونز Parsons واحدا من أبرز ممثلى نظرية الانســـاق ، حيث بسط فى مؤلفه « النسق الاجتماعى The Social System » العناصر الضرورية التى يتألف منها النسق والعلاقات المتبادلة بين أجزائه[١٣] • وبالاضافة الى بارسونز نجد بعض علماء الاجتمـــاع من أمثـــال روبرت ميرتون Merton وكنجزلى دافير Davis يطورون ما يعرف الآن « بالاتجاه الوظيفى » ، وهو اتجاه يعتمد فى جانب كبير منه على فكرة النسق الاجتماعى •

ولقد اعتمدت الوظيفية كنزعة فكرية على وجهة نظر بارسونز الذاهبة الى أن النسق يميل الى تحقيق أهداف معينة ، وأن كل ضروب الســـلوك موجهة لخدمتها • وكنتيجة لذلك ظهر الاتجاه البنائى الوظيفى الذى يؤكد فكرة النسق فى ضوء قدرة الأجزاء المكونة له على أداء وظائفها • ولا شك أن هذا الاتجاه قد تمكن من إلقاء الأضواء على كثير من المشكلات والقضـــايا وعلى الأخص فى المجال السياسى ، كما برهن على أهمية الفهم المتكامل للواقع

---

(11) Lipset, S., «Political Sociology», in Merton, R., Brown. L. and Cottrell, L. Jr., (eds.), Sociology Today, New York, 1959, pp. 81-114.

(12) Wiseman, H., Political System : Some Sociological Approaches, London, Routledge and Kegan, 1966, pp. 1-16.

(13) Parsons, T., The Social System, Glencoe, Illinois, 1951.

الاجتماعى • بيد أن هذا الاتجاه ما يزال يعانى من مشكلات نظرية ومنهجية عديدة أهمها اغفاله لقضايا الصراع والتغـير وتوزيع السـلطة(١٤) • ومن التطورات النظرية الهامة فى علم الاجتماع السياسى دراسات دافيد ايستون Easton عن الأنسـاق السياسية(١٥) ، التى حاول فيهـا توضـيح مبررات استمرار الانساق وأسباب التغيرات التى تطـرأ عليها ، مسـتخدما بعض المفاهيم الهامة كالمدخلات inputs والمخرجات outputs والتغذية المضادة feedback • ولقد أدت دراسات ايستون الى ظهور أحدث الاتجاهات فى علم الاجتماع السياسى وهو اتجاه تحليل النظم System analysis الذى يمثـل امتدادا للاتجاه البنائى الوظيفى ولكن فى صورة أكثر تعقيدا وشمولا •

وتكتسب مناقشاتنا السابقة أهميتها من كونها مقدمة لدراسة فى علم الاجتماع السياسى ، هى موضوع هذا الكتاب • ولقد آثرنا ألا يكون هـذا المؤلف تقليديا من حيث طريقة العرض وأسلوب التناول • اذ تعمدنا اختيار مجموعة من القضايا الأساسية فى علم الاجتماع السياسى ، ثم ناقشناها فى ضوء منظور تاريخى — بنائى نقدى يربط الفكر بالواقع • ولسوف يجـد القارىء التزاما واضحا بهذا المنظور فى كل المناقشات التى عقدناها فى هذا الكتاب • ولقد اختص الفصل الأول بمناقشة الطبقة والنظام السياسى ملقيا الضوء على العلاقة التى تربط بين البناء الطبقى والايديولوجية السياسية فى سياقات مختلفة • أما الفصل الثانى فيركز على قطاع محدد من البناء الطبقى هو الصفوة فيعرض لمعانيها المختلفة والنظريات التى حاولت تفسيرها • ثم يناقش فى نهاية الأمر الصفوة فى كل من الدول المتقدمة والنامية • أما الفصل الثالث فقد خصصناه لتناول الحراك والتغير السياسى ، باعتبار أن الحراك يمثل الجانب الدينامى للبناء الطبقى وأنه يرتبط أوثق الارتبـاط بالتغـير السياسى • وفى الفصل الرابع ننتقل الى دراسة البيروقراطية والسـلطة

---

(١٤) لمزيد من التفصيل انظر : السـيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسـة التنظيم ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ ، الفصل الثانى •

(15) Easton, D., Political System, A Framework For Political Analysis, New York, 1953.

فنعرض لأهم نظريات علم الاجتماع السياسى التى تناولت هذين المفهومين ، بالاضـافة الى مضامينهما السـياسية كما يتبـدى ذلك فى مختلف النظم الاجتماعية والاقتصادية • أما الفصل الخامس فيناقش الحركات الاجتماعية والسياسية وهو أحد الموضوعات الهامة فى علم الاجتماع السياسى المعاصر • ولقد عرضنا لمختلف صور الحركات الاجتماعية موضحين علاقتها بالبنـاء السياسى وقدرتها على احداث تغيرات بنائية • وفى الفصل السادس والأخير نجد مناقشة شاملة لمفهومى الثورة والعنف • ولقد دفعنا ذلك لعقد مناقشات لبعض نظريات الثورة وكذلك مختلف صور العنف التى يشهدها عالمنا المعاصر • وتستند هذه المناقشات الى أمثلة حية من واقع أهم الثورات التى شـهدها القرنان الأخيران •

وفى ختام هذه المقدمة أجد نفسى مدينا لزمـلائى وأصـدقائى الذين تعهدونى بالتشجيع وتقديم يد العون والمساعدة من أجل إنجاز هذا الكتاب • وأخص بالذكر زملائى مجموعة علم الاجتماع المعاصر الذى يعد هذا الكتاب واحدا ضمن سلسلتها • كما أتوجه بالشكر الى زملائى فى قسم الاجتمـاع بكلية الآداب بجامعة عين شمس • فلولا العلاقات الأخوية التى ربطتنى بهم لسنوات طويلة ما استطعت انجاز الكتاب على النحو الذى يبدو عليه • وفى النهاية لا أستطيع أن أحل نفسى من الاعتراف بفضل الدور الكبير الذى قامت به زوجتى خلال مراحل العمل بهذا الكتاب • لقد كان لتشجيعها الدائم وحثها المستمر أكبر الأثر فى مواصلة الكتابة فى موضوع من أكثر الموضوعات أهمية ودقة وحساسية • الى كل هؤلاء أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان •

السيد الحسينى

أكتوبر ١٩٧٩

الفصل الأول

الطبقة والنظام السياسى

من الحقائق المقررة أن المفكرين الاجتماعيين والسياسيين قد انشغلوا منذ فترة طويلة بدراسة العلاقة بين الطبقة والنظام السياسى ، حتى أصبحت هذه العلاقة دليلا قويا على الصلة الوثيقة التى تربط علم الاجتماع بالسياسة • اذ أن مفهوم الطبقة يعد أحد المفاهيم الاستراتيجية التى تعكس لنا طبيعة البناء الاجتماعى ــ السياسى فى مجتمع ما • فعندما نحاول المقارنة بين البناء الاجتماعى فى كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، فان فكرة الطبقة تطرح نفسها بالحاح لأنها قادرة على ابراز وجوه الاختلاف الحقيقة بين البنائين • والواقع أن المفكرين الاجتماعيين والسياسيين قد أدركوا منذ وقت مبكر نسبيا شمولية مفهوم الطبقة وقدرته على التعبير عن كثير من المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية • فعلى سبيل المثال نجد أفلاطون يهتم بتحليل المجتمع الذى يعبر فيه نمط التدرج الطبقى عن اختلاف الخصائص الفطرية للأفراد • كذلك نجد أرسطو فى مؤلفه « السياسة » يؤكد أن كل المجتمعات تشهد ثلاث طبقات أساسية : الأولى غنية ، والثانية فقيرة ، والثالثة تتوسط الاثنتين • ولما كان أرسطو يفضل « وساطة » الأشياء ، فانه قد اعتبر الطبقة الوسطى أفضل طبقات المجتمع • وبالاضافة الى ذلك نجد أرسطو يميز داخل المجتمعات بين الأحرار والعبيد ، كما يفرق بين الذين يعملون والذين لا يعملون[1] • والواقع أن هذا الاهتمام المبكر بدراسة الطبقة يعكس وعيا كبيرا بعلاقتها الوثيقة والظواهر الاجتماعية • فلو تتبعنا التراث الهائل الذى تناول هذا الموضوع ، وجدنا أن معظم المفكرين قد ركزوا على الجانب السياسى الهام لمفهوم الطبقة ، وهو

(1) Aristotle, Politics, trans. by Benjamin Jowett, New York : Modern Library, 1934, p. 190.

ـ بطبيعة الحال ـ ليس منفصلا عن الجـوانب الاقتصـادية والثقافيـة والقانونية والأخلاقية • ان من الصعب علينا فهم طبيعة الطبقة فى مجتمع معين دون فهم نظامه الاقتصادى والسياسى فضلا عن قيمه ومعتقـداته ودعائمه القانونية[٢] • ومن الطبيعى أن تلعب هذه العوامل جميعها دورا هاما فى تحديد طبيعة العلاقات الطبقية • واذن فالطبقات الاجتماعية لا تعكس فقط تفاوتا فى فرص الحياة بما فى ذلك الدخل والتعليم والمهنة ، انها تعكس أيضا النظام السياسى فى المجتمع • ومن خلال هذا التصور يمكننا مناقشـة التحليلات النظرية الأساسية التى تناولت العـلاقة بين الطبقـة والنظام السياسى ، على أن ندرس ـ فى موضـع لاحق ـ الشـواهد التاريخيـة والمعاصرة المؤيدة لهذه العلاقة •

(٢)

يعد كارل ماركس Marx من أبرز الذين اهتموا بدراسة العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والنظام السياسى وذلك فى اطار النظرية المادية التاريخية• وعلى الرغم من أن ماركس قد كتب الكثير عن الطبقة ، الا أن وجهات نظره فيها جاءت متناثرة فى كثير من مؤلفاته • لذلك فان معالجتنا لمفهوم الطبقـة عند ماركس سوف تعتمد على الاشارات العديدة المتضمنة فى كتاباته • وأول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال أن ماركس قد قسم التاريخ الانسانى الى عدة مراحل من بينها الحضارات القديمة ، والاقطاع ، والرأسـمالية ، وأن كل مرحلة منها تتسم بنمط انتاجى مميز يستند الى وجود بناء طبقى مؤلف من طبقة حاكمة قاهرة ، وأخرى محكومة مضطهدة • أما الصراع بينهما فهـو الذى يحدد طبيعة العلاقات بينهما • فالطبقة الحاكمة التى يتحدد وضعها من خلال ملكية وسائل الانتاج تتحكم أيضا ـ وبطريقة خفية ـ فى الحياة الأخلاقية والفكرية للناس • وهكذا يذهب ماركس الى أن القانون والحكم والفن والأدب والعلم والفلسفة تخدم جميعها مصالح الطبقـة الحاكمة •

---

(2) Lane, D., The End of Inecuality, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1971, Introduction.

كذلك يحاول ماركس توضيح الظروف التى من خلالها تحقق الطبقة المسيطرة قوتها . فالمصالح الاقتصادية لهذه الطبقة ترتبط ارتباطا مباشرا بالتقدم التكنولوجى ، وبالتالى زيادة الرفاهية الانسانية ، لكن سعيها لتحقيق هذه المصالح يعزلها عن القوى المعارضة لهذا التقدم التكنولوجى . وحينما تنتصر الطبقة المسيطرة تتحول الى طبقة حاكمة كما حدث بالنسبة للاقطاعيين والرأسماليين ، ومن ثم تبدأ فى ممارسة أدوار جديدة من بينها معارضة ومقاومة أى تغير من شأنه الحد من سيطرتها ونفوذها ، بحيث تتحول من قوة تقدمية الى جبهة رجعية[٣] .

ولقد حدد ماركس الطبقة الاجتماعية بأنها جماعة من الأشخاص يؤدون نفس العمل فى اطار عملية الانتاج . وتختلف الطبقة باختلاف موقعها من عملية الانتاج[٤] . والواقع أن ماركس قد تبنى فكرة معينة عن الطبقة كانت مستخدمة على نطاق واسع من قبل المؤرخين والمفكرين الاجتماعيين فى الوقت الذى بدأ فيه دراساته السوسيولوجية . ويبدو ذلك واضحا فى عبارته الشهيرة ، « ليس لى أى فضل فى اكتشاف وجود الطبقات فى المجتمع الحديث ، ولا فى وجود الصراع بينها . فقبلى بكثير استطاع بعض المؤرخين البورجوازيين وصف التطور التاريخى لهذا الصراع بين الطبقات ، كما قام بعض الاقتصاديين البورجوازيين بتشريح الطبقات اقتصاديا[٥] » . ومن القضايا الهامة التى أكدها ماركس أن العمل هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق الانسان لذاته ، فالانسان لا يستطيع أن يعيش دون عمل ، كما أنه يستخدم أدوات معينة لضمان مصدر عيشه ، مما يمكنه من الدخول فى عملية الانتاج . لذلك فان الانسان يهتم بتطوير أدواته الانتاجية ، لأن ذلك يمكنه من التحكم فى الطبيعة وتشكيل التاريخ . واذا كان العمل الانسانى يصنع التاريخ ، فان

(3) Marx, K., «Preface to the Critique of Political Economy», in Selected Works, vol. 1, Moscow, 1958.

(4) Barber, B., «Social Stratification», in International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968.

(5) Marx, K., Selected Writings in Sociology and Social Philosophy, edited by Bottomere, T., Pubel M., London, 1965.

فهم ظروف الانتاج أمر ضرورى لفهم التاريخ • ان اشباع الحاجات الأساسية للانسان يجعل من العمل حقيقة أساسية من حقائق الحياة الانسانية ، لكنه — فى نفس الوقت — يخلق حاجات جديدة • وكلما ظهرت حاجات جديدة ، أصبح تطوير أدوات الانتاج مطلبا ملحا ، وتقسيم العمل ضرورة أساسية • ومن هنا يبدأ الفرد فى اتخاذ وضع معين داخل التنظيم الاجتماعى للانتاج مشيرا بذلك الى الطبقة التى ينتمى اليها[٦] • وهكذا نجد أن العامل الرئيسى المحدد للطبقة يتمثل فى الطريقة التى من خلالها يتعامل الأفراد مع بعضهم من أجل اشباع حاجاتهم كالطعام والملبس والمأوى ، ثم الدخل والتعليم والمهنة • والملاحظ أن دخل أو مهنة الفرد ليست هى العامل المحدد لوضعه الطبقى ، أى موقعه داخل عملية الانتاج •

ويعتقد ماركس أن وضع الانسان داخل عملية الانتاج يمثل بالنسبة له أخطر تجارب حياته التى تحدد معتقداته وأفعاله • ومن ثم فان تجربة الكفاح من أجل ضمان مقومات الحياة تدفع أفراد الطبقة الاجتماعية الواحدة الى الايمان بمعتقدات واحدة والسلوك على نحو مشابه • ومن بين العوامل التى تسهم فى تحقيق ذلك صراع الطبقات على توزيع الموارد والدخول الاقتصادية ، وسهولة الاتصال بين أفراد المجتمع ، واستياء الطبقة الكادحة نتيجة لعجزها عن التحكيم فى البناء الاقتصادى • ان هذه العوامل جميعها تسهم فى تشكيل وعى طبقى واحساس عام مشترك بالاشتراك فى أوضاع مادية واحدة • وفضلا عن ذلك أوضح ماركس أن الظروف الاقتصادية الأوربية قد حولت كثيرا من أقنان الأرض الى عمال صناعيين ، بيد أنهم قد دخلوا بعد ذلك فى صراع مع رأس المال • وفى مواجهة هذا الموقف بدأ العمال يتحدون ويشكلون طبقة قائمة بذاتها • وهكذا نجد ماركس يتوصل الى أن تشكيل الطبقة مرتبط بتكون مصالح طبقية تعبر عنها • أما الصراع الذى ينشأ بين طبقة وأخرى فهو — فى نظره — صراع سياسى بالدرجة

---

(6) Marx, K., and Engels, F., The German Ideology, New York : International Publishers, 1939, p. 20.

الأولى (٧) .

والواقع أن عداء العمال للطبقة الرأسمالية وللنظام الاقتصادى السائد، لا ينشأ فقط نتيجة للصراع من أجل الحصول على مزايا اقتصادية . فبالاضافة الى الاستغلال الذى يخضعون له فى ظل النظام الرأسمالى ، فان العلاقات الاجتماعية التى يعيش فى ظلها العمال تحرمهم من الاشباع السيكولوجى الذى يتحقق نتيجة للعمل بسبب اغتراب العمل عن رأس المال ، ونمط تقسيم العمل فى الصناعة الحديثة الذى نزع من الانسان تلقائيته وحريته . ومن هنا يعتقد ماركس أن اغتراب العمل هو أحد الخصائص الأساسية المميزة للرأسمالية ، وأنه يمثل المصدر الرئيسى للحرمان السيكولوجى الذى يستشعره العمال ، والذى سيؤدى — تدريجيا — الى ثورة بروليتارية (٨) . وفى هذه النقطة نجد ماركس يقارن بين ظروف العامل فى ظل الرأسمالية الحديثة والظروف التى كان يعيش فيها خلال العصور الوسطى ، حينما كانت الطوائف المهنية تمثل نمطا انتاجيا مميزا . ففى الحالة الأولى افتقد العمال كل الفرص التى تتيح لهم تطبيق معرفتهم وأحكامهم فى عملية الانتاج (٩) .

ومما سبق يبدو واضحا أن الطبقة الاجتماعية عند ماركس ليست مجرد جماعة كبيرة من الناس تشغل نفس الموقع داخل البناء الاقتصادى للمجتمع . انها أيضا تتميز بوجود وعى ذاتى كشرط ضرورى لدخولها فى أى نضال سياسى واقتصادى ناجح . وفى نفس الوقت يؤكد ماركس أن الضغوط التى تمارسها الرأسمالية سوف تحدد تطوراتها المقبلة . ومن هنا فان وعى العمال بمصالحهم الطبقية يبدو أمرا محتما ، انه العامل الأساسى فى تشكيل الطبقة الاجتماعية ، وبالتالى اظهار التناقض الذى تنطوى عليه الرأسمالية ، وهناك ظرفان رئيسيان يدعمان توقع ماركس : الأول هو تركز العمال فى المدن ،

---

(7) Marx, K., The Poverty of Philosophy, New York, International Publishers, 1959, pp. 145-146.

(8) Marx, K., Capital, New York : Modern Library, 1954, pp. 396-397.

(9) Ibid, p. 709.

وبالتالى سهولة الاتصال فيما بينهم ، والثانى هو المعـاناة التى يستشعرها العمال نتيجة لاغتراب العمل . ولتوضيح هذه النقطة يمكننا أن نستشهد بنظرة ماركس الى الفلاحين . فهم يحتلون نفس الموقع داخل البناء الاقتصادى لمجتمعهم ، لكنهم لا يشتركون فى اتجاهات أو أفعال واحدة . لذلك فهم لا يشكلون طبقة ، لأنهم يعتمدون فى دخولهم الاقتصادية على مساحات زراعية منفصلة يمتلكونها ويفلحونها . ومن ثم لا يوجد أساس موضوعى للاتصال بينهم . أما فى حالة العمال الصناعيين فان هذا الأساس قائم بالفعل . فهم يتركزون فى مدن صناعية كبيرة ، بحيث يدفعهم العمل الصناعى الى الاحتكاك المباشر الوثيق . وبرغم ذلك نجد ماركس — فى مواضع أخرى — يؤكد أن التنظيم السياسى للطبقة العاملة ، ونمو وعى طبقى بينها ، لا يظهران كنتيجة حتمية لهذه الظروف الموضوعية . انها (أى الظروف الموضوعية) قد تساعد على تطوير الاستياء ، لكنها لا تكفى لقيام ثورة عمالية[١٠] . والمؤكد أن ماركس كان يؤمن ايمانا قويا بأن انتصار الطبقة العاملة الجديدة يتوقف على وعيها بموقفها وأهدافها ، وفاعلية تنظيمها السياسى ، ووضعها الاقتصادى الفعلى . لذلك فان من أهم سمات نظرية ماركس فى الطبقة تحليل التفاعل بين الموقف الواقعى للأفراد المشتركين فى عملية الانتاج من ناحيـة ، والتصـورات التى يكونونها عن موقفهم وعن اتجاهات الحركة الاجتماعية والسياسية المتاحة لهم من ناحية أخرى .

هذا وقد أثارت نظرية ماركس فى الطبقة انتقادات عديدة . من ذلك أنها أكدت أهمية العلاقات والصراعات الطبقية مغفلة أشكالا أخرى من العلاقات الاجتماعية تنشأ داخل المجتمعات القومية ، مما أدى بها الى التقليل من شأن تأثير القومية والصراع بين الأمم عبر التاريخ البشرى ، خاصة وأن المشاعر القومية فى أوربا قد قويت الى حد كبير خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . كذلك يقال ان النظرية الماركسية قد أثبتت كفاءتها فى تفسير العلاقات الطبقية داخل المجتمعات الرأسمالية ، لكنها لم تثبت هذه الكفاءة

(10) Marx, K., Engels, F., Manifesto of the Communist Party, New York : International Publishers, 109.

فى تحليل أنماط أخرى من التـــدرج الاجتماعى كما هـــو الحال بالنســـبة للمجتمعات الاقطاعية أو النمط الآسيوى من المجتمعات الذى حدده ماركس نفسه وضور ملامحه فى ايجاز شديد[١١] . ويرتبط هذا النقد بنقد آخر مؤداه أن تنبؤ ماركس بمستقبل الطبقة العاملة فى الدول الرأسمالية لم يتحقق ، اذ أنه (أى ماركس) كان قد تنبأ بأن الهوة بين البورجوازية والبروليتاريا سوف تزداد اتساعا . بيد أن التطورات اللاحقة تمثل تفنيدا لهذا التنبؤ . اذ أن المجتمعات الصناعية قد عملت على سد هذه الهوة باجراءات عديدة منها رفع مستوى المعيشة بشكل ملحوظ مما أثر على الأهداف الثورية للطبقة العاملة وحد من خطر قيامها بأية نشاطات سياسية هدفها قلب نظام الحكم . وفضلا عن ذلك فان المجتمعات الرأسمالية الحديثة تشهد نموا ملحوظا فى الطبقـــة الوسطى ، نموا لا يتسق مع النظرية الماركسية الكلاسيكية . يؤكد ذلـــك التعديلات العديدة التى أجريت على نظام الأجور والمكافآت لصلحة الطبقة العاملة ، وتوسيع نطاق الحراك الاجتماعى[١٢] ، وتلك قضايا سوف نزيدها تفصيلا فى موضع لاحق من هذا الفصل .

وازاء الانتقادات التى تعرضت لها النظرية الماركسية فى الطبقة ظهرت وجهات نظر بديلة تحاول وضع أسس ومعايير جديدة يمكن على أســـاسها دراسة الأشكال المختلفة للتدرج الاجتماعى . ويعـــد ماكس فيبر من أظهر الذين حاولوا دراسة الطبقة الاجتماعية من منظور مختلف عن منظـــور ماركس[١٣] . فهو (أى فيبر) يميز بين التدرج الطبقى الذى أولاه ماركس اهتمامه الأكبر ، والتدرج على أساس الهيبة الاجتماعية أو الاحترام ، كما درس توزيع القوة السياسية فى المجتمع كظاهرة مستقلة ، وهى التى اعتبرها ماركس نتيجة من نتائج التدرج الطبقى . كذلك يؤكد فيبر أن التدرج على

---

(١١) ت . ب . بوتومور ، الطبقات فى المجتمع الحديث ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرين ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٨٦ . صدرت لهذا الكتاب طبعة ثانية من دار الكتاب التوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(12) Titmuss, R., M., Income Distribution and Social Change, London, 1962.

(13) Weber, M., Essays in Sociology, translated by Gerth, H., H. and Mills, C. Wright, London, 1946, pp. 180-195.

أساس الهيبة — الذى يسمح بتكوين جماعات مكانه — يرجع فى الأصل الى الجماعات قبل الرأسمالية التى كانت تحظى بالاحترام الاجتماعى كجماعات النبلاء وكبار الموظفين • أما الطبقات الوسطى الجديدة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة فتتميز — على الأقل — ببعض هذه الملامح بحيث تكتسب مكانة اجتماعية معينة تعكس خصائصها التعليمية والاقتصادية والثقافية والمهنية • وعلى ذلك فان وجهة نظر فيبر تقدم رؤية مختلفة للتدرج الاجتماعى تؤكد أن الملكية ليست هى العامل الوحيد لتحديد الطبقة الاجتماعية ، وبالتالى يكون من الأفضل رؤية البناء الطبقى بوصفه جماعات أو شرائح تتميز كل منها بخصائص محددة ، بحيث تكون العلاقات بينها ذات طابع تنافسى لا صراعى • وعلى الرغم من أن تمييز فيبر بين الطبقة والمكانة قد ساعد على دراسة الصور العديدة للتدرج الاجتماعى ، خاصة تلك المتعلقة بالمجتمعات التقليدية ، الا أننا لا نستطيع أن نسلم بالفصل التام بين هذين المفهومين ، خاصة وأن كثيرا من علماء الاجتماع الأمريكيين قد بالغوا فى استقلالية مفهوم المكانة وقدرته على فهم كل أشكال التدرج الطبقى • وربما كانت دراسة لويد وارنر Warner أفضل مثال على ذلك • ففى دراسته للطبقات الاجتماعية فى عدد من المدن الأمريكية نجده يستعين بطريقتين فى تحديد جماعات المكانة : الأولى تقوم على الوعى الذاتى كما يدركه الأفراد ، والثانية تستند الى مؤشرات موضوعية كالمهنة والدخل والتعليم ومنطقة السكن ... الخ • واستنادا الى ذلك يحدد وارنرست طبقات أساسية هى : العليا — العليا ، والعليا — الدنيا ، والوسطى — العليا — والوسطى — الدنيا ، والدنيا — العليا ، والدنيا — الدنيا[١٤] • وبرغم الحبكة المنهجية التى تتميز بها دراسة وارنر ، الا أنها قد تعرضت لانتقادات عديدة • من ذلك أن الطبقة بدت وكأنها جماعة مهنية تشترك فى بعض الخصائص ، بحيث لا تسهم العناصر الأخرى للطبقة فى تحديد أبعادها ، كما أن الاعتماد الشديد على ادراك الأفراد

---

(١٤) السيد الحسينى ، عرض وجيز لأهم اسهامات لويد وارنر فى دراسة التدرج الاجتماعى المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الثالث ، ١٩٦٦ ، ص ص ٩١ — ١١١ .

لأوضاعهم الطبقية فيه تبسيط شديد لقضية معقدة كالطبقة الاجتماعية[١٥] . يضاف الى ذلك أن الدراسة جاءت خالية من أية اشارة للتحولات التاريخية التى طرأت على البناء الطبقى موضوع الدراسة .

(٢)

وفى ضوء المناقشات السابقة يمكننا القول ان الطبقة الاجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالنظام السياسى . فتوزيع الدخول والموارد هو أحد العوامل المؤثرة على الاستقرار السياسى فى أى مجتمع . ونظرا لأن الطبقة الغنية المسيطرة تكون عادة قليلة العدد ، فانها قد تواجه مشاكل كبيرة حينما تحاول السيطرة والتحكم فى الطبقة الفقيرة الخاضعة الكبيرة العدد . والسؤال الذى يمكن طرحه فى هذا المجال لا يتعلق بعدم تمرد الفقراء على الأغنياء ، بل بعدم تكرار هذا التمرد فى مختلف المجتمعات . ومن هذه الزاوية يمكننا مناقشة بعض الوسائل والأساليب الاجتماعية التى تساعد على استقراء البناء الطبقى واستمراره فى الوجود . والواقع أن هذه الوسائل تختلف من مجتمع لآخر . اننا لا نعرف مجتمعا غربيا رأسماليا واحدا استطاع حل مشكلة التفاوت الطبقى بقدر كبير من الانصاف لمصلحة الطبقة العاملة . وفى نفس الوقت لم يكن الاتحاد السوفيتى ليحل هذه المشكلة دون احداث تغييرات بنائية شاملة . وفى كل الأحوال فان كل طبقة حاكمة تسعى الى اكساب نمط التدرج الشائع طابعا شرعيا ، وتستخدم لذلك الايديولوجية والدعاوى الملائمة . كذلك يمكن القول ان كل مجتمع يعتمد فى تحقيق الضبط والامتثال على الجمع بين عناصر الاتفاق من ناحية ، وعناصر القهر من ناحية أخرى ، على الرغم من أن التوازن بين هذين الضربين من العناصر يختلف من مجتمع لآخر[١٦] . ان معظم المجتمعات الحديثة لا تلجأ عادة الى القهر وحده لضمان استقرار البناء الطبقى ، لكنها تتبنى وتستخدم وسائل وأساليب ــ مباشرة

(15) Pfautz, H., W., Duncan, O., «A Critical Evaluation of Warner's Work in Stratification», American Sociological Review, XV, 1950.

(16) Runciman, W. «Class, Status and Power», in Jackson J. (ed.), Social Stratification, Cambridge 1968.

وغير مباشرة ـــ من شأنها الحيلولة دون الجمود الطبقى من ناحية ، وتدعيم النظام السياسى القائم من ناحية أخرى •

ويعد الحراك الاجتماعى أحد الوسائل الهامة المرتبطة بالاستقرار السياسى • ففى كل المجتمعات الصناعية نجد بعض الجماعات تستطيع الانتقال من الطبقة الدنيا الى الطبقة الوسطى أو العليا • ومن الطبيعى أن يختلف مدى انفتاح البناء الطبقى من مجتمع لآخر ، وان كان البعض يقدر أن حوالى ربع أو ثلث الذين يولدون فى أسر الطبقة العاملة فى المجتمعات الغربية الحديثة يتمكنون من الانتقال الى الطبقة الوسطى • أما فى دول أوربا الشرقية فان فرص الترقى الاجتماعى أوسع من ذلك بكثير بسبب الاصلاحات التعليمية البعيدة المدى • وليس من الصعب علينا ادراك الدلالة السياسية للحراك الاجتماعى (١٧) • فبالنسبة للطموحين من أبناء الطبقة الدنيا يمثل الحراك الاجتماعى الوسيلة الوحيدة للانتقال الى الطبقة الوسطى ، مما يسهم فى تخفيف حدة التوتر الذى يحدثه التفاوت الطبقى • ان الانتقال الى الطبقة الوسطى يمثل حلا فرديا لمشكلات الشخص الذى ينتمى الى الطبقة الدنيا ، وبالتالى فانه يميل الى اضعاف الجهود الجماعية الرامية لتحسين ظروف الطبقة الدنيا فى مجموعها • ويعتقد البعض أن الحراك الاجتماعى الصاعد للعمال من شأنه أن يضعف الأساس السياسى للطبقة الكادحة عن طريق ولوج قيادتها طبقة أعلى • غير أن بعضا آخر يعتقد أن الطبقة العاملة لن تتعرض لمثل هذا الضعف ، لأن عملية الاختيار التعليمى والمهنى قادرة على تزويدها بالمواهب اللازمة • وربما كانت المشكلة الهامة التى تطرح نفسها هنا تتعلق بمعتقدات وأيديولوجيات العمال الذين يحققون حراكا اجتماعيا صاعدا • فثمة شواهد تشير الى أن هؤلاء العمال خاصة الذين يشغلون منهم أوضاعا قيادية يحولون ولاءهم السياسى من اليسار الى اليمين مفتقدين بذلك الروح الاشتراكية • ومن هنا تبدو النتائج السياسية للحراك الاجتماعى واضحة • وفى كل الأحوال فان الجانب الأكبر من الحراك الاجتماعى

---

(1) Bauman, Z. «Economic Growth, Social Structure, Elite Formation», International Social Social Science Journal, N. 2, 1964.

الذى يتحقق فى الدول الصناعية المتقدمة يكون من النوع القصير المـدى الذى لا يترتب عليه بالضرورة تغير جوهرى فى الهوية السياسية[١٨] • ولعل ذلك هو ما دفع البعض الى المطالبة بعدم المبالغة فى النتائج السياسية للحراك الاجتماعى الصاعد[١٩] •

واذا كان الحراك الاجتماعى الصاعد يستخدم كصمام أمن سياسى ، فان الحراك الاجتماعى الهابط يثير بدوره تساؤلات سياسية عديدة . خاصة وأن هناك دراسات عديدة أوضحت أن معدلات الحراك الهابط فى كثير من المجتمعات الأوربية أعلى من معدلات الحراك الصـاعد[٢٠] • ففى بريطانيا لوحظ أن ٤٠ ٪ من أبناء الطبقة غير اليدوية قد توقعوا هبوطهم الى الطبقة العاملة اليدوية • وللوهلة الأولى فان عجز الأبناء عن الوصول الى الطبقة التى ينتمى اليها آباؤهم يبدو أحد مصادر عدم الاسـتقرار السـياسى • فالذين يولدون فى نطاق الطبقة الوسطى ويتعودون على المزايا التى تتمتع بها هذه الطبقة لا يبدون تعاطفا مع النظام السـياسى الذى كان سـببا فى احباطهم • غير أن هذا الاحباط لا يتخذ ــ فى الغالب ــ شكل سخط أو تمرد عام • فأقصى ما يمكن أن يصل اليه هو الاحساس بالعداء والرفض للنظام السياسى • وهناك شواهد عديدة تشير الى أن الذين لم يصلوا الى الطبقات التى ينتمى اليها آباؤهم لا يغيرون بسهولة ولاءهم السياسى كى يتلاءم مع أوضاعهم الطبقية • ولقد درس ولينسكى Wilensky هذه الظاهرة فأوضح أن الذين هبطوا السلم الاجتماعى فى الولايات المتحدة قـد لا يستشعرون اليأس ، لأنهم ــ برغم ذلك ــ يعتقدون أن البناء الاجتمـاعى قادر على

---

(18) Lockwood, D. «Sources of Variation in Working Images of Society», Sociological Review, November, 1969.

(١٩) نستخدم مفهوم الحراك الاجتماعى الصاعد للاشارة الى انتقال الفرد من طبقة أدنى الى طبقة أعلى . ومعيار الانتقال هنا هو مقارنة الطبقة التى ينتمى اليها الفرد عند ميلاده بالطبقة التى ينتمى اليها بالفعل نتيجة عمله • وبنفس الكيفية سوف نستخدم مفهوم الحراك الاجتماعى الهابط • انظر السيد الحسينى ، معنى الحراك المهنى لتقويم امبيريقى ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٦٩ ، ص ١٧٤ وما بعدها •

(20) Miller, S. M., «Comparative Social Modility», Current Sociology, (9), No. 1, 1960.

تزويدهم بفرص الصعود الاجتماعى[٢١] • والى هذه النتيجة توصل سيمور ليبست Lipset وجوردون Gordon فى دراستهما عن العمال الصناعيين فى مدينة أمريكية • فالذين هبطوا من الطبقة الوسطى الى الطبقة الدنيا أبدوا مقاومة كبيرة فى الانضمام للحركة النقابية العماليـــة اذا ما قورنوا بالذين ولدوا أصلا داخل نطاق الطبقة الدنيا[٢٢] • وفى بريطانيا لوحظ أن العمال يعتبرن أنفسهم ضمن الطبقة الوسطى ، خاصة اذا ما كان آباؤهم يعملون فى وظائف الطبقة الوسطى[٢٣] •

واذا كان الحراك الصاعد يرتبط عموما بتحول سياسى من اليسار الى اليمين ، فاننا لا نجد فى حالة الحراك الهابط تحولا من اليمين الى اليسار • وهناك تفسيرات عديدة لهذا الموقف • فالشخص الذى يهبط من الطبقـــة الوسطى الى الطبقة الدنيا يكون أقل قلقا على هويته السياسية من الشخص الذى يصعد من الطبقة الدنيا الى الطبقة الوسطى • فالصعود الاجتماعى يتطلب اعادة تصور الفرد لنفسه واكتساب رموز جديدة ، بينما الهبـــوط الاجتماعى يؤدى الى مواجهة حادة بين الذات والواقع الاجتماعى ، وهى مواجهة يميل كثير من الناس الى تجنبها أو على الأقل التقليل من تأثيرها • وأحد الأساليب التى تتبع فى هذا المجال أن ينظر الشخص الى هبوطه على أنه موقف مؤقت ، وأنه سيتمكن ــ تدريجيا ــ من الصعود مرة أخرى • فان فشل فى ذلك فباستطاعته تعويض ذلك من خلال النجاح الذى قد يحرزه أبناؤه فى المستقبل • كذلك فان الشخص الذى يهبط من الطبقة الوسطى الى الطبقة الدنيا لا يميل الى قطع علاقاته بأفراد طبقته الأصلية ، لأن ذلك قد يعد اعترافا بانتمائه النهائى للطبقة الدنيا • ولقد أوضحت دراسات عديدة أنه برغم التوترات الاجتماعية التى يحدثها الحراك الهابط ، الا أن الاتجاهات

---

(21) Wilensky, H. Edwards H. «The Skidders : Ideological Adjustments of Downward Workers», American Sociological Review,)24), April, 1959.

(22) Lipset, S. Godon, J., «Mobility and Trade Union Membership», in Bendex, R. and Lipset, S. Class, Status and Power, Clencoe, 1953.

(23) Runciman, W., Relative Deprivation and Social Justice, London, 1966.

السياسية المصاحبة له لا تشكل خطرا على النظام السياسى . حيث لوحظ أن الهابطين لا يتحولون الى الاتجاهات اليسارية بقدر ما يزدادون ارتباطا بالاتجاهات اليمينية • وأحد أسباب ذلك أن الذين نشأوا فى أسر الطبقة الوسطى يميلون الى تأكيد القيم الفردية أكثر من تأكيدهم للقيم الجماعية • لكن الموقف ـ مع ذلك ـ قد يتخذ شكلا آخر اذا ما ارتبطت المعدلات العالية من الحراك الهابط بميول جماعية قوية تطالب باحداث تغييرات بنائية • حينئذ نكون بصدد حركة اجتماعية يتعين على النظام السياسى مواجهتها •

ومن اليسير فهم كيفية احتواء النظام السياسى للتواترات الناجمة عن الحراك الاجتماعى الهابط ، اذا ما علمنا أن هذا الحراك يتم داخل مسافة اجتماعية محدودة للغاية • فعلى الرغم من أن الهابطين يستشعرون عدم الارتياح بسبب انخفاض مكاناتهم ، الا أن المزايا المادية والاجتماعية التى يفتقدونها نتيجة لذلك ليست هائلة • فالحركة من الطبقة الوسطى الدنيا الى الطبقة العاملة ليست حركة واسعة المدى اذا ما قسناها فى ضوء المعايير الاقتصادية والاجتماعية المألوفة • كذلك فاننا لا نجد اختلافات كبيرة بين الطبقتين فيما يتعلق بأنماط الحياة الأسرية ، ومستوى التعليم ، وكيفية قضاء وقت الفراغ وغير ذلك من معايير المكانة الاجتماعية • ومن المتوقع بعد ذلك أن تشهد المجتمعات ذات معدلات الحراك العالية نسبا كبيرة من الأسر تنتمى الى كل من الطبقتين الدنيا والوسطى • وعلى أية حال يمكننا القول ان المجتمعات الصناعية الحديثة تعرف ما يمكن أن نطلق عليه « منطقة عازلة » تتوسط الطبقتين الوسطى والدنيا ، وأن الحراك يتم عبر مسافة اجتماعية محدودة ، بحيث نجد الفرد يدخل هذه المنطقة ويخرج منها • ويبدو أن ذلك هو السبب الرئيسى فى عدم ظهور مشكلات تكيف حادة • ومن الملاحظات الهامة التى سجلتها دراسات الحراك الاجتماعى فى المجتمعات الصناعية أن الأسر التى تتعرض لحراك هابط قد تتمكن من الصعود مرة أخرى ، اما خلال الجيل الحالى أو الجيل التالى ، كما أن أبناء الطبقة العاملة الذين ينتمى أحد أبويهم الى الطبقة الوسطى يكونون أكثر انجازا فى مجال التحصيل التعليمى ، وأن النساء اللائى هبطت مكانتهن بعد الزواج الى الطبقة

الدنيا يلعبن دورا كبيرا فى دفع الأبناء نحو الانجاز والتحصيل الدراسى[٢٤] • ومما سبق يبدو واضحا أن قدرة الأسر على الصعود الاجتماعى فى الجيل التالى لا تؤدى فقط الى زيادة التنقل بين الطبقات ، بل انها تخفف أيضا من التوترات التى قد يحدثها الهبوط الاجتماعى[٢٥] • لكن هذا الموقف قد يختلف فى حالة الهبوط من مستوى طبقى مرتفع الى مستوى طبقى منخفض • هنا قد يكون للحراك نتائج سياسية واضحة • ومع ذلك فان مثل هـذا الهبوط نادر الحدوث فى المجتمعات الصناعية • اذ أن الآباء الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى العليا يتمكنون عادة من توفير الفرص اللازمة لأبنائهم لكى يلتحقوا بمهن قريبة المكانة من مهنهم • وهذا يعكس لنا حجم التوريث المهنى الذى يمكن أن نلمسه فى هذه المجتمعات • ومن الحقائق الهامة التى ينبغى تأكيدها أن عددا قليلا من أفراد الطبقة الدنيا هـو الذى يتمكن من تحقيق حراك اجتماعى صاعد • اذ أن أغلب الذين يولدون داخل هذه الطبقة يظلون طيلة حياتهم منتمين اليها ، ثم يأتى أبناؤهم من بعدهم لينتموا اليها أيضا • وقد نتوقع من ذلك أن يكون احساس هؤلاء الأفراد بعدالة النظام الاجتماعى احساس ضعيف[٢٦] • فالبناء الاجتماعى لا يتغير بانتقال مجموعة من أفراد الطبقة الدنيا الى الطبقة الوسطى • وربما كانت هـذه النقطـة على وجه التحديد هى العامل الأساسى فى ظهور الحركات السياسية الراديكالية التى تطالب باعادة النظر فى البناء الطبقى للمجتمعات الرأسمالية • وعلى الرغم من أن الحركات الاشتراكية والماركسية تكتسب قوتها ودعمها من خـلال المستويات الطبقية الدنيا ، الا أن التحول والانتماء الى هذه الحركات يعـد استجابة للاحساس بالحرمان أكثر منه رغبة فى تغيير النظام السياسى •

---

(24) Lipset, S., Bendix, R., Social Mobility in Industrial Society. London, 1959.

(25) Krauss, I. «Sources of Educational Aspirations Among Working Class Youth», American Sociological Review, 29, December, 1964.

(26) Lenski, G., Power and Privilege, New York, 1966, p. 57.

(٣)

فى كثير من الأحيان يكون الاستسلام أو القبول هو أحد الاستجابات الشائعة للحرمان . ففى المجتمعات التقليدية البسيطة نجد الأفراد الذين يحتلون مكانات دنيا يعبرون عن مشاعرهم الطبقية فى ضوء تصورات قدرية بعيدة عن الاحساس بالاستياء والمواجهة . أما فى المجتمعات الصناعية فان أفراد المستويات الدنيا يكونون أقل استعدادا لقبول حتمية أوضاعهم الطبقية ، وبالتالى يكونون أقل تحمسا للاعتقاد بشرعيتها وعدالتها . ومع ذلك يتعين أن نسجل نقطة أخرى هى ، أنه برغم ظهور الحركات والقيم السياسية التى تتحدى وتعارض الأسس التى يستند اليها البناء الطبقى ، الا أن ميل الطبقات الدنيا للتكيف مع أوضاعهم هو أحد السمات التى تميزها[٢٧] . فالذين يدركون أنهم يشغلون مكانة متواضعة داخل هذا البناء يحاولون تحديد توقعاتهم وآمالهم فى ضوء الامكانات التى تتيحها لهم هذه المكانة . وحينما تنخفض التوقعات ، فان الاحباط الناجم عن الفشل يكون أخف حدة . ولقد سجلت بعض الدراسات البريطانية أن وعى الجماعات الطبقية الدنيا بمدى التفاوت الطبقى فى المجتمع بوجه عام كان وعيا ضعيفا . ولا يعود ذلك الى جهلها بالامتيازات التى تحصل عليها الجماعات الطبقية الوسطى (كالأطباء والمحامين ومديرى الشركات) ، بقدر ما يعود الى الاحساس بعدم كفاءة المقارنة وتعقد الموقف برمته[٢٨] . ويبدو أن الأمر الشائع هو لجوء الجماعات الطبقية الى المقارنة بين الدخول المختلفة التى يحققها الأفراد ذوو المكانة الواحدة .

والملاحظ أن النظام التعليمى فى كثير من الدول الأوربية الغربية يلعب

---

(27) Runciman, W., Relative Deprivation and Social Justice, op. cit., p. 112-120.

(28) Feinstein, W., «Income Distribution in the United Kingdom», in Marsnal, J., and Ducros, B., (eds.), The Distribution of National Income London, 1968.

دورا هاما فى تدعيم البناء الطبقى القائم وتحقيق أهداف النظام السـياسى السائد • اذ أن هناك أسسا معينة للاختيار التعليمى تحـدد نوعية التعليم الذى يحصل عليه الشخص • وعموما يمكن القول ان قلة قليلة من الطـلاب هم الذين يختارون للبرامج التعليمية المكثفة فى المدارس الراقية ، بينمـا تتجه الكثرة الكثيرة منهم الى تعلم المهارات العملية واكتساب المعرفة الأولية فى مدارس عادية أو مهنية • وهذان النوعان من المدارس يعدان الطـلاب للدخول فى مهن مختلفة • فالمدارس الأولى تتيح للطلاب فرصـة دخـول الوظائف الادارية أو الفنية أو الالتحاق بالجامعة ، بينما تتيح المـدارس الأخيرة للطلاب فرصة الحصول على الوظائف اليدوية الروتينية • والنقطة الهامة التى تعنينا هنا هى أن هذه المدارس لا تعلم فقط الطلاب من أجـل الحصول على مهن معينة ، ولكنها تحدد أيضا مستويات طموحهم وتوقعاتهم • ومن المتوقع اذن أن تمارس المدارس العادية تأثيرا كبيرا على التلاميذ بحيث تجعل طموحهم قريبا من الفرص المهنية المتاحة أمامهم • ولقد أوضحت بعض الدراسات البريطانية أن المطامح المهنية لدى تلاميذ المدارس العادية تكون عالية جدا خلال التعليم الابتدائى • ثم ما تلبث أن تهبط هبوطا كبيرا خلال التعليم الثانوى • بينما أشارت دراسات أخرى أجريت على تلاميذ المدارس الراقية أن مطامحهم المهنية التى عبروا عنها من قبل قد ظلت قائمة خـلال مرحلة التعليم الثانوى بل وازدادت تدعيما[٢٩] • ولا شك أن النظام التعليمى فى المجتمعات الغربية يستطيع أن يفسر لنا طبيعة التوقعات بوجـه عام • فهناك شواهد واقعية عديدة تؤكد أن النظام التعليمى يستطيع ــ بشـكل مباشر أو غير مباشر ــ أن يقنع تلاميذ الطبقة الدنيا بالتواضع فى مطامحهم • وبمرور الوقت يتلقى التلاميذ درسا هاما هو « فن » عدم رؤية تلاميـذ الطبقتين الوسطى والعليا حتى لا تسبب المقارنة نوعا من الاحباط • وليس من قبل التبسيط المبالغ فيه أن نؤكد التأثيرات السلبية التى يتركها النظـام

---

(29) Himmelwelt, H., Halsey, A., and Oppenheim, «The Views of Adolescents on Some Aspects of the Social Class Structure», British Journal of Sociology (2), June, 1952.

التعليمى فى المجتمع الغربى على تلاميذ الطبقة الدنيا سواء فيما يتعلق بنوعية المدارس أو المناهج الدراسية أو الاعـداد التعليمى • انه موجه لتـدعيم اتجاهات استسلامية وقدرية لدى هؤلاء التلاميذ[٣٠] •

والملاحظ أن الأنظمة التعليمية الغربية لا تسعى جميعها الى توجيـه قطاعات معينة من المجتمع نحو شغل أوضاع وظيفية محددة داخل البنـاء الطبقى • ففى الولايات المتحدة نجد معارضة واضحة لفكرة الاختيار التعليمى المبكر باعتبار أن ذلك يتناقض مع فكرة تكافؤ الفرص • ونتيجة لذلك نجـد النظام التعليمى الامريكى يعتمد اعتمادا أساسيا على فكرة الانجاز الدراسى دون افتراض مسبق بالاخفاق الدراسى الذى يمكن أن يصيب تلاميذ الطبقة الدنيا • وربما كان ذلك أحد أسباب ارتفاع المطامح المهنية والتعليمية عنـد الطلاب الامريكيين اذا ما قورنوا بقرنائهم البريطانيين • وللوهلة الأولى يبدو نمط التعليم الامريكى أكثر كفاءة بتشجيعه لنمو المواهب وعدم تأكيده على الجوانب الطبقية ، لكن المشكلة قد تطفو على السـطح حينمـا يتعلم التلاميذ قصص النجاح الاقتصادى دون أن يمتلكوا الوسائل والمواهب التى تمكنهم من تحقيق ذلك • والواقع أن الآفاق الاجتماعية التى يكونها الشخص لا تتحدد فقط من خلال المدرسة ، ولكن الأسرة والمجتمع المحلى قد يلعبان دورا فى هذا المجال لا يمكن تغافله • فثمة شواهد تشير الى أن آباء الطبقة العاملة لا يدعمون دائما المطامح المهنية العالية التى يعبر عنها أبناؤهم • وهنا تلعب الخبرات الشخصية للآباء دورا كبيرا ، خاصة اذا ما كانوا قد تعرضوا لاحباطات مهنية أو تعليمية[٣١] • وهذا يعنى أن النسق القيمى للطبقة الدنيا قد يشكل عائقا يحول دون تحقيق الأبناء للحراك الصاعد ، ذلك أن الطموح لا ينمو فى ظل معتقدات شائعة تؤكد خطر تبنى أهداف كبرى • وبرغم كل ما سبق يمكننا تأكيد المعوقات والمشكلات التى قد يخلقها النسق الطبقى فى

---

(30) Jackson, B., and Marsden, D., Education and the Working Class, London, 1962.

(31) Krauss, I., «Sources of Educational Aspirations Among Working Class Youth, op. cit.

مجتمع رأسمالي غربي كالولايات المتحدة الامريكية • فلا شك أن الفشل في تحقيق الحراك الاجتماعي ــ كما أشارت الى ذلك دراسات عديدة ــ يرتبط أوثق الارتباط بارتفاع معدلات الجريمة ، والانتحار ، والمرض العقلي ، وجناح الأحداث ، وادمان الخمور ، والمخدرات ، وأن ذلك ينتشر بصفة خاصة داخل الطبقة الدنيا ، وذلك بسبب تأكيد المجتمع لضرورة النجاح الاقتصادي وافتقاد الأفراد للوسائل التي تمكنهم من ذلك[٣٢] •

واذا كان التدرج الطبقي يعتمد على التعليم في تدعيم استقراره ، فان اعتماده على الدين في هذا المجال يبدو واضحا الى حد بعيد • فالمعتقدات الدينية تمثل بالنسبة لأفراد الطبقة الدنيا قدسية وأهمية خاصة ، من حيث إنها تزودهم بنسق بديل من المعاني قادر على تفسير التفاوت الاجتماعي[٣٣] • والواقع أن النظم الدينية تلعب ــ تقريبا ــ نفس الدور الذي تلعبه الحركات الثورية من حيث الربط الوثيق بين العناصر الفكرية والمادية في الحياة • على أن الدين قد يلعب دورا واضحا في اقناع الناس بقبول حظوظهم الاقتصادية وعلى الأخص في المجتمعات التقليدية التي تفتقر الى وجود تنظيم سياسي مركزي ، مما يزيد من ارتباط الأفراد بالنسق القيمي الذي يعد الدين أحد مكوناته ، ويبدو أن الاحساس بحدة التفاوت الاجتماعي قد يخف الى حد ما ، حينما يضم كل أفراد المجتمع عقيدة أو مذهب ديني واحد • وفي هذه الحالة فان دور الدين كوسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي يصبح حاسما •

والواقع أن علاقة الدين بالطبقة ليست بمثل هذه البساطة في المجتمعات الصناعية الغربية ، وذلك بسبب تعقد البناء الطبقي من ناحية ، وتنوع المذاهب الدينية وتغلغل العلمانية من ناحية أخرى • والملاحظ أن بعض المؤرخين الاجتماعيين قد حاولوا تفسير استقرار البناء الطبقي في بعض

---

(32) Cloward, R., and Ohlin, L., Delinquency and opportunity, Glencoe, 1960, pp. 105-107.

(33) Glock, C., and Stark, R., Religion and Society in Tension, Rand McNally, 1955, (Chapters 10 & 11).

المجتمعات الأوربية فى ضوء طبيعة المعتقدات الدينية وايمان الناس بالتبريرات التى تقدم لهم عند مناقشة قضية التفاوت الطبقى . فعلى سبيل المثال نجد محاولات عديدة لتفسير أسباب الاستقرار السياسى النسبى فى المجتمع الانجليزى خلال القرن التاسع عشر ، برغم أنه (أى المجتمع الانجليزى) قد شهد التناقضات الأساسية التى أشار اليها ماركس فى نظريته عن الرأسمالية . وأحد الأسباب التى يقدمها المؤرخون الاجتماعيون لهذا الموقف هو سيطرة الميثودية (وهى حركه دينية اصلاحية ظهرت فى بريطانيا فى سنة ١٨٢٩) على الطبقة العاملة الانجليزية ، مما جعل المجتمع الانجليزى أكثر استقرارا من المجتمعات الأوربية الأخرى[٣٤] . وعلى الرغم من تاكيد المؤرخين الاجتماعيين لدور هذه الحركة فى الاستقرار الطبقى فى بريطانيا خلال القرن التاسع عشر ، الا أن القضية بأكملها ما تزال موضع جدل شديد . وعلى أية حال فقد اهتم بعض علماء الاجتماع بدراسة العلاقة بين الدين والراديكالية . وأحد النتائج الهامة التى أوضحتها دراساتهم أن الدين فى المجتمعات الصناعية يلعب دورا هاما فى الحد من الاتجاهات السياسية اليسارية أو الراديكالية . ففى دراسة شهيرة لريدنفلت Rydenfelt عن الشيوعية فى السويد ، نجده يقارن بين اقليمين متجاورين فى شمال السويد يتشابهان فى ظروفهما الاقتصادية والطبيعية القاسية[٣٥] . ولقد اتضح لريدنفلت أن سكان الاقليم الأول كانوا يبدون تعاطفا وتأييدا قويا للحزب الشيوعى ، بينما لم يبد سكان الاقليم الثانى أدنى تأييد لهذا الحزب على الاطلاق . ولقد فسر الباحث ذلك فى ضوء حركة الاحياء الدينى التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر ، ثم نمت فى الاقليم الثانى بصفة خاصة ، مما دفعه الى نتيجة هامة هى ، أن وجود المذاهب الدينية القوية قد يكون أحد العوامل التى تبعد العمال عن الارتباط

---

(34) See for example : Elie Halévy, A History of the English People in the Nineteenth Century, London, 1949, Thompson, E., The Making of the English Working Class, London. 1963.

(35) Davison P., «A Review of Seven Rydenfelt's Communism in Sweden», in Public Opionion Quarterly, Winter, 1954-1955.

بالشيوعية • ويبدو أن ظروف الحياة القاسية فى شمال السويد قد خلقت نوعا من ضرورة الانتماء الى الأحزاب السياسية أو التنظيمات الدينية ، كما أن التنافس بينها قد زاد من حدة ارتباط الأفراد بأى منهما • وبالاضافة الى الدراسة السابقة نجد روبرت بلونر Blauner يحاول تفسير فشل التنظيمات العمالية الراديكالية بجنوب الولايات المتحدة فى مواجهة التصورات الدينية عن البناء الطبقى[٣٦] • فلقد شهدت فترة التصنيع السريع فى أقصى الجنوب الامريكى مذاهب دينية كان لها تأثير هائل على الافراد نتيجة للقلق والتفكك الاجتماعى المصاحبين للتحول من الحياة الريفية الزراعية الى الحياة الحضرية الصناعية • ولقد أوضح بلونر أن الاستعداد الذى أبداه العمال لتبنى الحلول الدينية لمشكلاتهم كان أحد العوامل التى أضعفت النشاطات والتنظيمات النقابية •

والواقع أن الاهتمام بقضية العلاقة بين الدين والبناء الطبقى لم يكن مقصورا على المؤرخين وعلماء الاجتماع • فلقد اهتم أيضا بعض رجال الدين من أمثال ريتشارد نيبور Niebuhr بالتحقق من قضية الصراع بين الجماعات الدينية والحركات السياسية من أجل السيطرة على عقول أفراد الطبقة الدنيا • ومن النتائج الهامة التى توصل اليها نيبور أنه فى حالة تنافس السياسات الدينية مع السياسات الراديكالية ، فان الأخيرة تحقق نجاحا ملحوظا بسبب ملاءمة وواقعية الحلول التى تقدمها لمشكلات الطبقة الدنيا[٣٧] • والملاحظ أن المشاعر الدينية قد تتعرض للضعف بسبب زيادة جاذبية الحركات الاجتماعية الساعية لتحسين الأحوال الراهنة وبطريقة فورية • وتميل الدراسات الواقعية التى تناولت العلاقة بين الراديكالية والدين فى الدول الأوربية الى تأييد وجهة نظر نيبور • فالمسوح الاجتماعية التى أجريت فى

---

(36) Blauner, R., «Industrialization and Labor Response : The Case of the American South», Berkeley Publications in Society and Institutions, Summer, 1958.

(37) Niebuhr, R., The Social Sources of Denominationalism, New York. 1958.

بريطانيا وفرنسا وهولندة تؤكد أن أفراد الطبقة الدنيا أقل ترددا على الكنائس وأضعف تحمسا لوجهات النظر الدينية اذا ما قورنوا بأفراد الطبقة العليا ، وأن مؤيدى الأحزاب الاشتراكية والشيوعية يكونون — فى معظم الأحيان — أقل تدينا اذا ما قورنوا بمؤيدى أحزاب اليمين والوسط[٣٨] • ومع ذلك فلقد أوضحت دراسات أخرى أن الحركات الدينية تحقق نجاحا أكبر فى التأثير على الطبقة ، حينما تكون القوة العاملة الصناعية حديثة العهد والتكوين ، وحينما يخلو المجتمع من تنظيمات عمالية راديكالية قوية • وفى كل الأحوال فان علماء الاجتماع المعاصرين ما يزالون بحاجة الى معرفة الظروف التى قد تدفع أفراد الطبقة الدنيا الى تبنى الحلول الدينية أو الراديكالية ، وذلك فى حالة وجود تنظيمات دينية وسياسية قوية • ومن الصعب التسليم بأن الذين ينجذبون للحركات الدينية يفقدون صلتهم بالحركات السياسية الراديكالية ، كما أن من الصعب القول بأن الأفراد يجدون بالفعل صعوبة فى الانتماء المشترك بين هذين النوعين من الحركات • واذا ما نظرنا الى المجتمعات الاسلامية نجدها لا تشهد مثل هذه العلاقة بين الدين والراديكالية • وهناك أسباب عديدة لذلك ، منها أن الاسلام يمثل فى حد ذاته نظرية عامة شاملة احتلت العدالة الاجتماعية فيها مكانا بارزا ، بحيث لا نجد حيزا كبيرا يمكن أن يظهر من خلال الراديكالية • يضاف الى ذلك أن الحركة العمالية فى معظم هذه المجتمعات لا تزال فى بدايتها بحيث لا تشكل ظرفا سياسيا ضاغطا •

والواقع أن هناك قدرا من المبالغة فى تأكيد الدراسات الحديثة للتعارض القائم بين التنظيمات السياسية والدينية فيما يتعلق بتبنى مصالح الطبقة العاملة • اذ قد نجد رجال الدين يتزعمون الحركات الاجتماعية الساعية لتحسين ظروف الطبقة العاملة • ففى جنوب الولايات المتحدة نجد رجال الدين يمثلون الزعامة السياسية للسكان الزنوج ، كما أن الكنيسة تمثل

---

(38) Glock, C., and Stark, R., Religion and Society in Tension, Rand McNally, 1965.

النواة التنظيمية لحملات الحقوق المدنية[٣٩] . وهـذا يعنى أن التنظيمات الدينية ذاتها قد تتخذ طابعا راديكاليا سياسيا فى ظل ظروف معينة ، خاصة حينما لا تتوافر أساليب سياسية رسمية للتعبير عن الظلم الاقتصـادى . وهناك شواهد عديدة تشير الى أن الكنائس البروتستانتية قد لعبت — فى بعض الأحيان — دورا مماثلا نيابة عن الأفريقيين وفى مواجهة المستوطنين البيض ، كما أن الاسلام لا يعدم ظهور اتجاهات ومواقف عديدة موجهـة لخدمة مصالح الفقراء . وفى ايطاليا نجد دلائل على صدق الفكرة الذاهبة الى عدم التعارض الشديد بين الدين والراديكالية . فالعمال يؤيدون بقـوة الحزب الشيوعى ، لكنهم يرتبطون فى نفس الوقت بكنائسهم ارتباطا قويا . وهنا نجد المسيحية تتسع لتشمل تفسيرات راديكالية سياسية لمصالح الطبقة الدنيا . واذا ما أخذنا فى الاعتبار قضية أن الانسـان يستطيع أن يتبنى معتقدات وقيم متعارضة — على الأقل ظاهريا — فاننا نستطيع أن نزن بدقة أكبر التعميمات التى تتناول العلاقة بين السلوك الدينى والانتماء السياسى .

(٤)

ولا يمكن فهم البناء الطبقى فى أى مجتمع بمعزل عن الثقافة المرتبطة به . ولا شك أن هذه القضية قد أثارت — ولا تزال — كثيرا من الجدل بين علماء الاجتماع الذين حاولوا دراسة العناصر الثقافية والفكرية المميـزة للطبقات المختلفة . فالبعض يذهب الى أن القيم التى تحكم النظم الاجتماعية الأساسية قيم عامة مشتركة بين كل الطبقـات الاجتمـاعية ولكن بدرجات مختلفة من الانتماء والالتزام . والبعض الآخـر يؤكـد أن القيم تختلف باختلاف الطبقات اختلافا كبيرا ، وبالتالى يصعب التسليم بوجـود نظام أخلاقى واحد يحكم المجتمع[٤٠] . وحينما حلل انجلز Engels قبل قرن من الزمان البناء الطبقى البريطانى خلال القرن التاسـع عشر ، أوضـح أن

(39) Ibid. p. 320.

(40) Barber, B., «Social Stratification», in International Encyclopedia of the Social Sciences, London, 1968.

البروليتاريا قد أصبحت منعزلة وبعيدة تماما عن البرجوازية[٤١] • فهى (أى البروليتاريا) لها مثل وأفكار ومعتقدات ومصالح تميزها عن البرجوازية ، مما يشير الى وجود « أمتين » متباينتين داخل الدولة الواحدة • وعلى الرغم من أن دارسى الطبقة المعاصرين لا يؤكدون وجهة النظر الراديكالية اللينينية، الا أن ثمة تأكيدا بوجود التباين الثقافى فى البناء الطبقى • وآية ذلك تلك الدراسات العديدة المعنية بحياة الطبقة العاملة فى بريطانيا والتى أوضحت فروقا ملحوظة بين أسلوب حياة هذه الطبقة وأسلوب حياة الطبقة الوسطى[٤٢] • وتميل هذه الدراسات الى استخدام تعبير « الثقافة الفرعية المميزة للطبقة العاملة » ، ذاهبة الى أنها (أى الطبقة العاملة) تمثل قطاعا من المجتمع له قيمه وأنماطه السلوكية المميزة • ويؤيد هـذه النقطة هاملتون Hamilton فى دراسته عن ألمانيا الغربية ، حيث أوضح أن الطبقتين الوسطى والعاملة تشكلان جماعتين كبيرتين تتميزان بقدر كبير من الاستقلال الثقافى[٤٣] • وفى الولايات المتحدة نجد ميلر Miller يتوصل الى نتيجة مشـابهة وهى أن « قطاعا كبيرا من المجتمع الامريكى يتبنى نسقا ثقافيا مميزا يعكس بوضوح أحد الخصائص المميزة للطبقة الدنيا »[٤٤] •

واذا كان بعض العلماء قد أكدوا اختلاف الثقافات المميزة للطبقات ، فاننا نجد بعضا آخر يميل الى ابراز الوحدة التى ينطوى عليها النسق القيمى فى المجتمع وما يترتب على ذلك من وجوه شـبه بين الطبقـات فيما يتعلق بالثقافة • ويمثل وجهة النظر هذه بوضوح أصحاب الاتجاه الوظيفى فى علم

---

(41) Engels, F., The Conditions of The Working Class in England in 1844, London, 1954, p. 154.

(42) Klein, J., Samples from English Culture, London, 1965.

(43) Hamilton, R., «Affluence and the Worker : The West German Case», American Journal of sociology, September, 1965, p. 152.

(44) Miller, W., «Lower Class Culture as a Generating Milieu of Gang Delinquency», Journal of Social Issues (14), No. 3, 1958, p. 6.

الاجتماع من أمثال تالكوت بارسونز [٤٥] Parsons وروبرت ميرتون [٤٦] Merton الذي ذهب الى أن المصدر الرئيسي للتوترات التي يشهدها المجتمع الحديث يتمثل في محاولة أفراد الطبقة الدنيا تبني قيم الطبقة العليا برغم افتقادهم للوسائل التي تدعم هذا التبني • كذلك أوضح ماير Mayer في تحليله للتدرج الاجتماعي في الولايات المتحدة أن الطبقة العاملة تتبنى كثيرا من المعتقدات والقيم المميزة للطبقة الوسطى [٤٧] • وبالمثل نجد علماء السياسة يركزون على مدى الاجماع القيمي السائد في « الديموقراطيات » المستقرة ، ووصل بهم ذلك الى وصف المجتمعات الغربية الصناعية بالمجتمعات « المتحضرة » تمييزا لها عن تلك التي تشهد اختلافا قيميا في المجال السياسي • والواقع أن وجهة النظر السياسية هذه تطرح قضية الضبط الاجتماعي من زاوية طبقية سياسية ، خاصة اذا ما تعلق الأمر بممارسة الطبقة المسيطرة للقوة من أجل فرض ثقافتها وقيمها على الطبقة الخاضعة • وعلى أية حال فان فهم هذه القضية المعقدة يتطلب منا دراسة النظام القيمي أو المعياري المميز لكل طبقة ، ثم تحليل المعاني المختلفة لدى كل منها عن الأساس الواقعي والمادي للتفاوت الاجتماعي • ان الحقائق وحدها لا تزودنا بفهم المعاني • اذ أن الطريقة التي بواسطتها يفسر الشخص عالمه الاجتماعي تتأثر بأنساق المعاني التي يتبناها • ومن هنا يمكننا أن نميز داخل المجتمعات الغربية بين ثلاثة أنساق قيمية هامة : الأول هو النسق القيمي المسيطر الذي يدافع عن حتمية التفاوت الطبقي ويمارس سيطرة واضحة • والثاني هو النسق القيمي الخاضع الذي يؤكد ضرورة تكيف الطبقة العاملة على حقائق التفاوت الطبقي والخضوع لمعاييره • والثالث هو النسق القيمي الراديكالي الذي يمثل تفسيرا معارضا للتفاوت الطبقي ويميل — بصفة عامة — الى خدمة المصالح المعبرة عن الطبقة العاملة •

---

(45) Parsons, T., The Social System, London, 1951.

(46) Merton, R., Social Theory and Social Structure, Glencoe, 1957

(47) Mayer, K., Class and society, New York, 1955, p. 41.

ويكتسب مفهوم النسق القيمى المسيطر أهميته من خلال عبارة ماركس الشهيرة : « ان أفكار الطبقة الحاكمة هى الأفكار الحاكمة أو المسيطرة فى كل عصر من العصور »[٤٨] • وتستند هذه العبارة الى افتراض مؤداه ، أن الجماعات التى تحتل الأوضاع المسيطرة تميل باستمرار الى التحكم فى الأساليب التى تضمن شرعيتها ووجودها • بعبارة أخرى أن المعانى الاجتماعية والسياسية التى تشيع بين ذوى الأوضاع الاجتماعية المسيطرة تتجه دائما الى الانتشار والتأثير على النسق الاجتماعى ككل • وبالتالى فان القيم المسيطرة فى مجتمع ما هى انعكاس لمصالح الطبقة الحاكمة التى تعمل بدورها على تدعيمها وترسيخها واعتبارها المعيار الأساسى للحكم على الأشياء • فالصواب أو الخطأ يمكن أن يتحدد فى ضوء طبيعة هذه القيم • ففى مجال الثقافة ـ مثلا ـ نجد الأذواق الموسيقية والادبية والفنية بوجه عام تتأثر بقيم واتجاهات الطبقة المسيطرة • ونتيجة لذلك نجد الأذواق المعبرة عن الطبقة المسيطرة تعكس الكمال والرقى ، بينما الأذواق المعبرة عن الطبقة الخاضعة تعكس النقص والهبوط • وهناك أمثلة عديدة تعبر عن ذلك بوضوح • فلهجات حديث الطبقة المسيطرة هى دائما اللهجات الصحيحة الراقية ، بينما لهجات الطبقة الخاضعة مليئة بالأخطاء وعدم التزامها بقواعد اللغة[٤٩] • واذا كان لنا أن نفسر ذلك أمكن القول أن ما يعد شيئا قيميا قد يتحول فى بعض المواقف ليصبح شيئا واقعيا بفضل التأثير الذى تمارسه الطبقة المسيطرة •

ولنا أن نتوقع بعد ذلك نتيجة هامة هى ، أنه كلما استطاعت الطبقة الخاضعة استيعاب وتمثل النسق القيمى المعبر عن الطبقة المسيطرة ، قلت فرص الصراع حول التفاوت الاجتماعى القائم • لكننا نلاحظ فى نفس الوقت أن هذا الموقف يختلف باختلاف المجتمعات • فاذا كان من الممكن فى دولة كالهند تتبنى الطوائف الدنيا قيم واتجاهات الطوائف العليا ، فان من الصعب

---

(48) Marx, K., Selected Writings in Sociology and Social Philosophy, edited by Bottomore, T. B., and Rubel, M.; London, 1956.

(49) Hoggart, R., The Uses of Literacy, London, 1956.

على الطبقة العاملة فى دولة كبريطانيا أن تتقبل بسهولة قيم واتجاهات الطبقة العليا . وبرغم ذلك فلقد أوضحت دراسات مكينزى Mckenzie وسيلفر Silver أن قطاعات كبيرة من الطبقة العاملة البريطانية قد عبرت عن التزامها الأخلاقى نحو كثير من الرموز والقواعد المعبرة عن الطبقة العليا ، وهى رموز وقواعد تميل الى تدعيم البناء القائم(٥٠) . والواقع أن من الصعب قبول هذه النقطة دون تحفظ . فالالتزام الأخلاقى الذى أبدته الطبقة العاملة يمكن تفسيره من زوايا عديدة . فهو قد يعد دليلا على وجود اجماع سياسى (بمعنى نظام اجتماعى مقرر خال من الصراعات الاجتماعية المفاجئة) ، وقد يعد دليلا على أن الطبقة المسيطرة قد تمكنت من فرض قيمها وتصوراتها على الطبقة الخاضعة . ان من أبرز الأخطاء الفادحة التى يرتكبها بعض علماء الاجتماع السياسى تأكيدهم للقضية التى مؤداها أن الاجماع السياسى والاجتماعى هو أفضل دليل على وجود مجتمع مثالى أو طبيعى ، مما دفعهم الى اعتبار فرنسا وايطاليا من « فصيلة » سياسية أدنى بسبب عجز الطبقة المسيطرة عن التحكم الكامل فى ثقافة الطبقة العاملة(٥١) .

ويقودنا ذلك الى تناول النسق القيمى الخاضع الذى يعبر عن الطبقة العاملة . وهناك فى الواقع دراسات معاصرة عديدة تناولت الاتجاهات والمعتقدات التى تميز الطبقة العاملة ، أو ان شئنا الدقة « الثقافة الفرعية » للطبقة الدنيا(٥٢) . ومن الملامح المميزة لثقافة الطبقة الدنيا فى المجتمعات الغربية الصناعية ميلها للتكيف مع ثقافة الطبقة العليا . ان مجرد تعايش الثقافتين هو أكبر دليل على هذا الطابع التكيفى . فالنسق القيمى الخاضع لا يدعم تصور البناء الاجتماعى فى ضوء تكافؤ الفرص ، كما أنه لا يؤكد

---

(50) McKenzie, R., and Silver, A., Angels in Marble, London, 1968, also Nordlinger, E., Working Class Theories, London, 1967.

(51) Waterman, H., Political Change in Contemporary France, Columbus, 1969, also, Almond, G., The Appeals of Communism, Princeton, 1954.

(52) Klein, J., Samples from English Culture, London, 1959.

فكرة الوحدة العضوية لهذا البناء ، انه ــ بدلا من ذلك ــ ينطلق من وجود التقسيمات والصراعات الاجتماعية كما يتبدى ذلك فى كلمتى «هم» و «نحن» . ويعنى ذلك أن هذا النسق القيمى يحاول القاء الشكوك على مدى أخلاقية توزيع الثروة فى المجتمع وما يتصل بذلك من تفاوت اجتماعى . ويجب ألا نستنتج من ذلك أن هذا النسق يمثل معارضة فكرية للنظام القائم ، انه مجرد وعى طبقى واضح ، أو بتعبير آخر راديكالية سياسية . ولقد بالغ بعض علماء الاجتماع فى ابراز الاهمية السياسية لهذا النسق القيمى ، مما دفع دارندورف Dahrendorf الى استخدام تعبيرى الطبقة العاملة « هم » و « نحن » فى صياغة نظرية عامة فى الصراع الطبقى[٥٣] . ومثل هذا يقال عن نيوتن Newton الذى أوضح فى دراسة حديثة نسبيا أن ثمة وعيا طبقيا قويا لدى الطبقة العاملة البريطانية[٥٤] .

ولقد حاول بعض علماء الاجتماع الكشف عن المضامين السياسية التى ينطوى عليها النسق القيمى الخاضع أو ما أطلقوا عليه فى بعض الاحيان « الثقافة الفرعية للطبقة العاملة » . فعلى سبيل المثال نجد هوجارت Hoggart فى تحليله للتعبيرات الشائعة لدى الطبقة العاملة يشير الى أن موقف هذه الطبقة من السلطة السياسية قد جعلها تستخدم تعبيرات وتراكيب لغوية تعبر عن خضوعها ، خاصة اذا ما كان الأمر متعلقا برجال البوليس وكبار الموظفين . والواقع أن من الصعب قبول وجهة نظر هوجارت اذا ما كان يقصد تأكيد وجود وعى طبقى سياسى . فتضامن الطبقة العاملة لا يعنى ــ بالضرورة ــ تبنيها لمنظور طبقى يحدد موقفها من السياسة والمجتمع[٥٥] . ذلك أن القول بتوافر وعى طبقى لدى العمال يعنى أنهم ملتزمون بوجهة نظر راديكالية أو معارضة تقوم على تغيير بناء المجتمع الرأسمالى لصلحتهم . ولقد أوضح

---

(53) Dahrendorf, R., Class and Class Conflict in Industrial Society, London, 1959.

(54) Newton, K., The Sociology of British Communism, London, 1959, p. 160.

(55) Hoggart, R., The Uses of Literacy, London, 1958.

وسترجارد Westergaard أن هناك تناقضا كامنا بين تضامن الطبقة وتضامن المجتمع ، ذلك أن وجود الأخير يؤثر ولا شك على قوة وفعالية الأول[٥٦] • كذلك أوضح وسترجارد كيف أن التفكير القدرى والغيبى يشيع بصفة خاصة لدى الطبقة العاملة فى محاولة لتفسير الوضع المتدنى الذى تتخذه داخل البناء الطبقى ، والتكيف مع المجتمع بوجه عام • ولا يتعارض ذلك ـ بطبيعة الحال ـ مع الدور الذى تلعبه نقابات العمال ، والذى يهدف عموما الى خدمة مصالح الطبقة العاملة فى مواجهة المصالح الرأسمالية • واذا كانت الحركة النقابية العمالية تمثل تعارضا صريحا للتفكير القدرى أو الغيبى الذى أشار اليه وسترجارد ، فاننا نؤكد حقيقة أخرى هى : أن ممارسة النقابات العمالية لوظائفها داخل المجتمع الرأسمالى تعنى قبولها لمبادىء هذا المجتمع ورغبتها فى التكيف معه • وهنا تصبح القضية مجرد الحصول على أكبر كسب ممكن للعمال من خلال عمليات المساومة والتفاوض • لذلك فان الحركة النقابية فى المجتمع الرأسمالى تمثل ـ بصفة عامة ـ محاولة تكيفية لحقيقة التفاوت الطبقى[٥٧] • فالمساومات الجماعية التى تقوم بها هذه النقابات لا تتعرض للأسس التى يستند اليها البناء الطبقى ، كما أنها ـ فى حد ذاتها ـ لا تشكل تهديدا للنظم والمؤسسات التى يستند اليها هذا البناء • لذلك يمكن القول ان الحركة النقابية تعمل على استقرار النظام الرأسمالى الحديث وذلك بالموافقة على القواعد والاجراءات القائمة التى تتولى توزيع الموارد والمصادر • واذا كانت بعض الدول الرأسمالية قد عبرت فى مواقف كثيرة عن حمايتها لنقابات العمال وتقديرها لقادتها ، فان ذلك يعنى أن استراتيجية المساومة الجماعية للنقابات لم تعد تشكل خطرا يذكر على امتيازات الطبقة العليا المسيطرة • هذا وقد أبدى لينين Lenin وعيا مبكرا بهذه النقطة حينما قارن بين « الوعى النقابى » و « الوعى الطبقى » ، ذاهبا الى أن الأخير هو

---

(56) Westergaard, J., «The Withering Away of Class : A Contemporay Myth», in Towards Socialism, London, 1965, pp. 107-108.

(57) Allen, V., Militant Trade Unionism, London, 1966.

القادر على قيادة تحول سياسى واجتماعى حقيقى[٥٨] •

وتدفعنا النقطة الأخيرة الى مناقشة النسـق القيمى الراديكالى الذى ينمو ويتبلور من خلال الحزب السياسى الجماهيرى الذى يتبنى مصـالح الطبقة الخاضعة • والواقع أن عناصر هذا النسق تشتق أهميتها وقوتها من النظرية الماركسية والحركة الاشتراكية بوجه عام • لذلك ليس من الغريب أن يتعارض هذا النسق مع الأسس والنظم التى يسـتند اليها المجتمـع الرأسمالى • واذن فهو يطور وجهة نظر محددة فى النظـام الاجتمـاعى تختلف اختلافا كبيرا عن وجهة النظر التى بسطناها قبل قليل والقائمة على الوعى النقابى • ان النسق القيمى الراديكالى يسعى باستمرار الى توضيح طبيعة التفاوت الطبقى ، ويحاول الكشف عن العلاقة بين المصير الشـخصى للانسان والنظام السياسى ككل • ومن أجل ذلك نجده يستخدم عـددا من المفاهيم والرموز السياسية حتى لا تتوه الحقائق فى عملية البحث عن السبب والنتيجة • فاذا كان النسق القيمى الخاضع يحدد وعى الانسـان بموقعه المحلى المباشر ، واذا كان النسق القيمى المسيطر يشجع على ظهور وعى ذى طابع قومى ، فان النسق القيمى الراديكالى يحاول ابراز الوعى الطبقى • ولو تأملنا تاريخ الحركات الاشتراكية الأوربية ، وجدنا تراثا فكريا هائلا يضم شعارات وتصورات متنوعة تعكس ثقافة سياسية محـددة تعبر عن مصالح الطبقة العاملة والأهمية التى تحتلها[٥٩] • والواقع أن هذه الحركات الاشتراكية لا تمثل فقط معارضة جماعية لنظام سياسى معين ، ولكنها تمثـل أيضا مصدرا كبيرا للالهام الفردى • ان ارتباط العامل بالمعتقدات الاشتراكية يمنحه الاحساس بالكرامة الشخصية التى قد لا تمنحها اياه المعتقـدات الرأسمالية • فالطبقة المسيطرة تعتبر الانجاز الذى يقدمه العمال اليدويون

---

(58) Lenin, V., «What is to be Done», Collected Works, vol. 1, Part 1, Moscow, 1950.

(59) Glennerster, H., «Democracy and Class», in Lapping, B., and Radice, G., More Power to the People, London, 1968.

ضئيلا ، وبالتالى لا يستحق مكانة اجتماعية عالية ، أما النسق الاجتماعى الراديكالى فانه يؤكد أهمية العمل ويمنح العامل مكانة متميزة داخل البناء الطبقى . ومن هنا يمكن القول ان العمال الذين يتبنون القيم الراديكالية لا يملكون فقط وسيلة لتفسير وفهم الوقائع الاجتماعية ، ولكنهم مزودون أيضا بكل ما يساعدهم على تحديد هويتهم الاجتماعية . ولقد أوضح أوسكار لويس Lewis فى دراسة شهيرة له[٦٠] أنه ما أن تصبح الاشتراكية هى الايديولوجية المسيطرة على المجتمع ، فانها تمارس تأثيرا ايجابيا على معنويات الطبقة الدنيا . والملاحظ أن لويس قد توصل الى هذه النتيجة بعد دراسته لحى متخلف فى كوبا قبل الثورة وبعدها . وفى تحليله للموقف فيما بعد الثورة يقول لويس : « لم يتغير الحى المتخلف بعد الثورة الا تغيرا محددا . ومع أن الفقر قد ظل قائما ، الا أن الاحساس باليأس والسلبية قد ضعف الى حد بعيد . ولقد عبر سكان الحى عن ثقتهم الشديدة فى قادتهم، كما عبروا عن أملهم الكبير فى تحقيق مستقبل أفضل . والملاحظ أن الحى قد شهد ظواهر جديدة لم تكن موجودة من قبل . فاجتماعات اللجان السياسية والتعليمية والثقافية لا تنقطع ، وبدا أن احساسا جديدا بالقوة والاهمية قد بدأ يتملك الناس، كما تدعم يقينهم بأن الطبقة الدنيا هى أمل الانسانية »[٦١] .

لكن هذا الموقف يختلف اختلافا شديدا فى المجتمعات الغربية الرأسمالية . اذ يصعب القول بأن الطبقة الدنيا تتمثل تماما القيم الراديكالية التى تعبر عن مصالحها . ففى الولايات المتحدة ــ مثلا ــ لا نجد حزبا قويا يعبر عن الطبقة العاملة ، مما أدى الى اضعاف التفسيرات الطبقية للتفاوت الاجتماعى . أما فى فرنسا وايطاليا فاننا نجد وعيا طبقيا سياسيا بسبب حيوية أحزاب الطبقة العاملة وقدرتها على تبنى مذاهب سياسية راديكالية . وفى بعض الدول الأوربية الأخرى التى تسيطر عليها « الديموقراطية الاشتراكية » نجد ميلا قويا لتفريغ الحركة العمالية من

---

(60) Lewis, O., A Study of Slum Culture, New York, 1968.
(61) Ibid, p. 14.

مضمونها الراديكالى deradicalization• وفى كل الأحوال نجد أن الاحزاب العمالية فى معظم الدول الأوربية الغربية تمثل مصدرا فكريا هاما للطبقة العاملة من حيث أنها تزودها بتصورات سياسية متطورة من شأنها الاسهام فى تحديد موقعها داخل البناء الاجتماعى(٦٢) • ومع ذلك فان الأمر قد يبدو أكثر تعقيدا اذا ما ناقشنا مدى تمثيل قيادة الأحزاب العمالية لقاعدتها العريضة ، ثم قدرة النظام السياسى على استقطاب هذه القيادة • ومع تسليمنا بامكانية حدوث ذلك فلا تزال الاحزاب الجماهيرية الراديكالية تزود أعضاءها بأفكار ومفاهيم تختلف عن تلك التى تروج لها القيادة السياسية • فالحزب فى نظر العمال لا يزال يمثل الموجه السياسى الذى يمنح الواقع الاجتماعى معنى معينا • ونظرا لافتقاد العمال للمعرفة الضرورية التى تساعدهم على فهم هذا الواقع ، فان الحزب يكتسب مكانة وأهمية خاصة من هذه الزاوية • واذا كان بعض الدارسين قد أوضحوا مدى تخلى الأحزاب الاشتراكية عن القيم الراديكالية فى بعض الدول الاوربية الغربية ، فان ذلك لا يعنى أن هذه القيم قد فقدت مكانتها داخل الثقافة السياسية • ولسوف تستمر هذه القيم فى تأثيرها على الجماعات وعلى الاخص المثقفين • لكن النقطة الحاسمة هنا تتمثل فى العلاقة بين المثقفين والطبقة الدنيا • ومن الحقائق التاريخية المألوفة أن الاشتراكية — كمعتقد سياسى — قد ظهرت وتبلورت بفضل جهود المثقفين الغربيين الذين ارتبطوا بمصالح العمال الصناعيين • ولقد عبر كاوتسكى Kautsky عن ذلك بوضوح حين قال : « ان التقدم العلمى لم يكن من صنع البروليتاريا ، بل من صنع المثقفين البرجوازيين • لقد طور هؤلاء المثقفون الاشتراكية الحديثة ثم احتكوا وتواصلوا مع أكثر العمال تطورا ، أولئك الذين دخلوا بدورهم فى كفاح طبقى حينما أتاحت الظروف الموضوعية ذلك • وهكذا نجد الوعى الاشتراكى قد دخل « قاموس النضال الطبقى العمالى من الخارج ، ولم يظهر من خلال البروليتاريا بطريقة تلقائية »(٦٣) •

---

(62) Crosland, C., The Future of Socialism, London, 1955.

(63) Lenin, V., Collected Works, op. cit. p. 243.

وإذا ما واصل المثقفون تدعيم القيم الراديكالية ، فمن المحتمل أن تظهر عملية التعبئة السياسية التى أشار اليها كاوتسكى . لكن المشكلة التى تبـــدو هامة هى أن تأثير المثقفين على العمال لا يتحقق على نحو فعال مالم تظهر مؤسسات وتنظيمات قوية تربط بينهما . فمن خلال الأحزاب استطاع المثقفون الراديكاليون فى أوربا الغربية خـــلال القرن التاســـع عشر نشر أفكارهم الاشتراكية وممارسة تأثير فكرى هام على الطبقة العاملة . ومن المشكوك فيه الآن أن يتمكن هؤلاء المثقفون من أداء هذا الدور بنجاح . واذا كان بعض المثقفين قد حققوا بعض النجاح فى اطار الأحزاب العمالية القائمة ، فان ذلك يمثل حالات خاصة . ومن العوامل الهامة التى أدت الى ظهور هذا الموقف افتقاد الاحزاب العمالية لطابعها الراديكالى ، مما عزل المثقفين عنها كما يبدو ذلك بوضوح بالنسبة لقادة اليسار الجديد فى أوربا الغربية . وقد يحـــاول بعض المثقفين اقامة علاقات مستقلة مع العمال ، لكنها غالبا ما تكون علاقات هشة قصيرة الأمد . ويجب أن يكون واضحا أن افتقاد الاحزاب العمالية لطابعها الراديكالى ليس مرادفا تماما لقبولها التام للتفاوت الطبقى القائم ، اذ لا يزال الخلاف قائما بين الطبقة المسيطرة والطبقة الخاضعة حول طبيعة البناء الطبقى فى أكثر الدول الرأسمالية تقدما ورخاء .

(٥)

وتظل الايديولوجية السياسية هى العامل الحاسم فى تحديد طبيعـــة البناء الطبقى فى أى مجتمع من المجتمعات . ففى كل المجتمعات الصـــناعية الرأسمالية نجد حركات سياسية تسعى الى احداث تغييرات بنائية لمصلحة الطبقة العاملة . فباستثناء الولايات المتحدة أدت حركة التصنيع الى ظهور أحزاب اشتراكية أو شيوعية تهدف الى تغيير موازين القوى سواء عن طريق أساليب ثورية أو دستورية[٦٤] . وبرغم ذلك فان تاريخ الاحزاب الاشتراكية الأوربية ما هو الا احياء ضعيف لهذه الأهداف الراديكالية المبكرة . يؤكد

---

(64) Hobsbawn, E., Industry and Empire, Weidenfeld and Nicolson, Penguin, 1969.

ذلك التغييرات الدستورية التى طرأت على أحزاب الطبقة العاملة ، وتخليها عن الأساليب الثورية ، ثم تبنيها لسياسة الاصلاح التدريجى التى تتبناها فى بعض الاحيان أحزاب الوسط • ان ضعف الطابع الراديكالى فى الدول الغربية الرأسمالية يجب ألا يدفعنا الى القول بأن الاختلافات الايديولوجية حول مسألة التفاوت الطبقى لم تعد قائمة بين الأحزاب الاشتراكية والأحزاب البرجوازية • فالاحزاب الاولى (الاشتراكية) لا تزال تحصل على تدعيم قوى من جانب الطبقة العاملة ، كما أنها لا تزال ملتزمة بتحسين الظروف المادية والاجتماعية لهذه الطبقة • ان انكار هذه الحقيقة يعنى — ببساطة — قبولنا لفكرة اختفاء التوترات والصراعات الاجتماعية بحيث لا تنال قضية التفاوت الاجتماعى ما تستحقه من الاهتمام والتعبير عنها من خلال المؤسسات السياسية • وربما كان السؤال الهام الذى يطرح نفسه علينا هو : الى أى مدى تمثل الايديولوجية الاشتراكية تحديا للبناء الطبقى الذى تفرضه الرأسمالية ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تعيننا على فهم أفضل لطبيعة العلاقة المركبة بين « الديموقراطية الاشتراكية » الأوربية من ناحية ، والتفاوت الطبقى من ناحية أخرى[٦٥] •

ان من الحقائق الواضحة أن الايديولوجية الاشتراكية تفرض نفسها على المجتمعات الرأسمالية حينما تتمكن أحزاب الطبقة العاملة من الحصول على السلطة السياسية • ذلك أن الحكومات المركزية الحديثة لديها القدرة على احداث تغييرات أساسية فى البناء الطبقى • ومن ثم تستطيع الحكومة من خلال الممثلين السياسيين للطبقة العاملة اجراء تعديلات على المزايا الاجتماعية والمادية بحيث تقيد توزيعها على أسس أكثر عدلا ، خاصة اذا ما سيطر هؤلاء الممثلون السياسيون سيطرة كاملة على سياسة الدولة • والواقع أن هذه النقطة تعكس لنا نظرية الانتخابات فى المجتمعات الغربية ، وأعنى بها على وجه التحديد نظرية « الصراع الطبقى الديمقراطى » • ومعنى ذلك أن

---

(65) Lipset, S. «The Changing Class Structure and Contemporary European Politics», Daedalus, 1964, p. 279.

البناء الطبقى يصبح أحد القضايا الهامة التى تتناولها المؤسسات والتنظيمات السياسية • فالحكومة العمالية قد تتخذ بعض الاجراءات التى من شأنها تحسين ظروف الطبقة الدنيا ، بينما قد تحجم الحكومة المحافظة أو « الرجعية » عن اتخاذ مثل هذه الاجراءات • وبرغم وضوح هذه الحقيقة ، الا أننا نجد وجهة نظر أخرى تؤكد أن الاحتياجات أو المتطلبات التى يفرضها النظام التكنولوجى الحديث تؤدى الى ظهور نمط معين من البناء الاجتماعى بغض النظر عن الفلسفة السياسية التى تتبناها الحكومة[٦٦] • ويدعم بعض العلماء وجهة النظر هذه بقضية أخرى هى : أن البناء الطبقى يؤدى وظائف هامة من بينها دفع الأفراد نحو الالتحاق بالأوضاع الاجتماعية المختلفة بطريقة على درجة عالية من الفعالية[٦٧] • وبذلك يصبح الموقف السياسى للحكومة بعيدا — الى حد ما — عن موضوع البناء الطبقى • ولقد وجه بعض الماركسيين انتقادات عديدة للديمقراطية الاشتراكية كما تمارس فى المجتمعات الغربية ، ذلك أن الحكومات العمالية لا تستطيع أن تحدث تغييرات جذرية لصلحة الطبقة العاملة بسبب عجزها عن مواجهة الطبقة البرجوازية • لكن الديمقراطيين الاشتراكيين يردون على ذلك بأن الحكومات العمالية قد اعتمدت بالفعل تشريعات اجتماعية لصلحة الطبقة العاملة فى مجالات الضرائب والتعليم والاسكان والصحة والعمالة ، مما أدى الى نهوض حقيقى فى الوضع الاجتماعى لهذه الطبقة[٦٨] •

وازاء الجدل السياسى المحتد حول هذه القضايا ، يمكننا مقارنة البناء الطبقى فى المجتمعات الأوربية ذات الحكومات المحافظة بالبناء الطبقى فى المجتمعات الأوربية ذات الحكومات العمالية • ومن الحقائق السياسية الهامة

---

(66) Kerr, C. et al, Industrialism and Industrial Man. London, 1962.

(67) Davis, K. Moore, W., «Some Principles of Stratification», in Bendix, R. Lipset, S. Class, Status and Power. Routledge and Kegan Paul, 1967, pp. 47-52.

G., More Power to the People, London, 1968.

(68) Glennerster, H., «Democracy and Class», in Lapping, B. and Radice,

أن الأحزاب العمالية أو الديمقراطية الاشتراكية قد أخذت دور المعارضـــة الرئيسية فى البرلمانات الغربية • وهذا يعنى أن عدد حكومات اليمين والوسط كان أكبر من عدد حكومات اليسار خلال هذا القرن • والاستثناء الوحيـــد لذلك يتمثل فى الدول الاسكندنافية وبدرجة أقل بريطانيا • فالحزب الديمقراطى الاشتراكى فى السويد ظل يحتكر السلطة السياسيه ابتداء من أوائل ثلاثينيات القرن العشرين • كما أن حزب العمـــال النرويجى ظل يحكم البلاد خـــلال العقود الثلاثة الماضية دون انقطاع تقريبا • وفى الدانمرك يعد الحـــزب الديمقراطى الاشتراكى أكبر الأحزاب فى هذه الدولة منذ سنة ١٩٢٤ حينما شكل الحكومة لاول مرة • ومع أن حزب العمال البريطانى لا يماثل الأحزاب السابقة فى قدرتها على الاستمرار فى الحكم • الا أنه قد حكم البلاد لفترة أطول من أية فترة أخرى تولى فيها الحكم أى حزب عمالى أوربى آخر • واذا ما أردنا التعرف على العـــلاقة بين التفـــاوت الطبقى والايديولوجية الاشتراكية ، يمكننا أن نقارن هنا الدول الاسكندنافية وبريطانيا ببقية الدول الأوربية الغربية • وقد تظهر هنا مشكلة قليلة الاهمية وهى أن الاشتراكيين فى بعض الدول الأوربية قد اشـــتركوا فى بعض الحكومات الائتلافية التى سيطر عليها المحافظون ، لكننا يمكن أن نتوقع فى مثل هذا الموقف ضـــغوطا سياسية عديدة يمارسها المحافظون على الاشتراكيين • ولقد أوضح رالف ميلباند Milband هذا الموقف بقوله : « ان الوزراء الديمقراطيين الاشتراكيين قد يستطيعون ــ بالفعل ــ تحقيق بعض الانجازات الضئيلة داخل حكومات المحافظين ، لكنهم فى نهاية الامر يقعون فى فخ الدفاع عن النظـــام القائم ومحاولة تبريره »(٦٩) • وأيا كان الامر فان حسم هذه القضايا يتطلب منا عقد مقارنات أولية بين الدول الأوربية الديمقراطية الاشتراكية (والتى تمثلها الدول الاسكندنافية وبريطانيا) وبقية الدول الأوربية • ان ذلك يعيننا على فهم أدق لعلاقة البناء الطبقى بالنظام السياسى •

---

(69) Miliband. R., The State in Capitalist Society, London, 1969, p. 98.

ولعل أول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال أن الحركة العمالية فى المجتمعات الغربية الصناعية قد سعت على الدوام الى تحقيق نوع من العدالة فى توزيع الدخول عن طريق فرض نظام ضريبى تصاعدى ، وتوسيع نطاق الخدمات الاجتماعية التى تقدم للطبقة الدنيا • ففى بريطانيا اعتبر البعض أن من أهم انجازات الحكومات العمالية بعد الحرب العالمية الثانية ادخالها لنظام الخدمات الاجتماعية والاقتصادية على مستوى قومى • كذلك نجد الديمقراطيين الاشتراكيين فى البلاد الاسكندنافية يطبقون نمـــاذج متطورة لتحقيق الرفاهية الاجتماعية والضمان الاجتماعى • ولقد دفع ذلك بعض الدارسين الى اعتبار فكرة « دولة الرفاهية » نموذجا متكاملا لتحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية ، خاصة اذا ما صاحب ذلك نوع من اعادة توزيع الدخـــول عن طريق فرض أنواع مختلفـــة من الضرائب • تلك هى الأهداف العامة التى تسعى الى تحقيقها الحكومات الاشتراكية فى المجتمعات الرأسمالية • ومن الطبيعى أن يثير ذلك نقطة أخرى تتعلق بمدى نجـــاح هذه الحكومات فى القضاء على التفاوت الطبقى الواسع • فبعض الدارسين يذهبون الى أن النظام الرأسمالى — بحكم طبيعته — يتجه نحـــو تعميق التفاوت الطبقى ، وانه برغم حرص الحكومات الاشتراكية على الحـــد من هذا التفاوت ، الا أنه ما يلبث أن يعود الى الظهور فى أشكال جديدة • غير ان بعضا آخر من الدارسين يؤكدون أن القرارات التى تتخذها الحكومات تؤثر تأثيرا فعالا على عملية توزيع الدخول • وللتدليل على ذلك يستشهدون بعملية تذويب الفوارق بين الدخـــول التى قامت بها الحكومات العمالية فى بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، على الرغم من الاحتجاجات العـــديدة التى أبدتها الطبقة الوسطى (٧٠) • والواقع أن هذه القضايا قد أثارت جدلا حادا فى بريطانيا منذ مطلع خمسينيات هذا القرن • فلقد أوضح تيتمس Titmuss فى مؤلف شهير له أن هناك مبالغة فى الدور الذى تلعبه الضرائب على

---

(70) Saville, J., «Labor and Income Redistribution», Miliband, R. and Saville, J., Socialist Register, 1965, London, p. 151.

الدخول فى تحقيق العدالة الاجتماعية [71] • وفى مقابل ذلك نجد وجهة نظر أخرى تؤكد أنه قد تحقق بالفعـل قدر ملحوظ من تذويب الفـوارق بين الدخول ، وان كان يصعب ادراكه فى بعض الاحيان [72] • والنقطة التى تستحق المناقشة هنا هى : ما اذا كان ذلك قد تحقق نتيجة للسياسات التى انتهجتها الحكومات الاشتراكية أم أنه قد تحقق نتيجةلعوامل لا علاقة لها بالايديولوجية السياسية ! اذ أن هناك وجهة نظر شائعة تؤكد أن الميل نحو تذويب الفوارق بين الدخول قد أصبح أحد السمات الهامة المميزة للمجتمعات الصـناعية المتقدمة ، وأن هناك عوامل اجتماعية واقتصادية عديدة تسهم فى هـذا المجال لعل أهمها : اتساع نطاق التعليم والمهارات بين القطاعات العريضة من السكان ، وانخفاض نسبة الدخل الذى يتحقق من الملكية اذا ما قورنت بنسبة الدخل الذى يتحقق من المهنة [73] • ومن ذلك يبدو واضحا أن زيادة نصيب العمال من الدخل القومى قد لا يكون نتيجة مباشرة لعملية تذويب الفوارق بين الدخول الفردية بقدر ما يكون أحد النتائج الهامة لاتسـاع البنـاء المهنى •

ولتوضيح ما سبق يمكن القول ان الضغوط من أجل تذويب الفـوارق بين الدخول الفردية فى المجتمعات الصناعية الغربية لم يكن نتيجة لسيطرة فلسفة سياسة قائمة على المساواة ، بقدر ما كان نتيجة لاتجاهات صناعية واجتماعية بعيدة المدى • ولقد أيد هذه النقطة عدد كبير من العلمـاء الاجتماعيين ، حتى أنهم ذهبوا الى أن هناك علاقة حتمية بين تقدم التصنيع وزيادة المساواة فى الدخول • لكن هناك بيانات احصائية حديثة تلقى الشكوك حول هذه العلاقة • من ذلك أن مـدى تباين الدخـول يختلف بين الدول

---

(71) Titmuss, R., Income Distribution and Social Change, London. 1962.

(72) Lipset, S., «The Changing Class Structure and Contemporary European Politics, op. cit. p. 283.

(73) Feinstein, W., «Income Distribution in the U. K.», in Marchal, J. Ducros, B., The Distribution of National Income, 1963.

الصناعية اختلافا واضحا ، بحيث يصعب القول ان التصنيع يؤدى بالضرورة الى ظهور شكل محدد للتباين الطبقى • كما أن تذويب الفـوارق الطبقية لا يرتبط ارتباطا واضحا بالايديولوجية السياسية للحزب الحاكم ، مما يوضح لنا سبب زيادة الفوارق الطبقية فى بريطانيا والسويد خلال الستينيات من هذا القرن • وهناك دلائل متزايدة تؤكد أن العقد التالى على الحرب العالمية الثانية قد شهد اتجاها ملحوظا نحو اعادة توزيع الدخول فى معظم الاقطار الأوربية الغربية ، وان كانت الفترة اللاحقة على ذلك قد شهدت اتجاها معاكسا برغم ظهور حكومات عمالية فى معظم هذه الأقطار(٧٤) ، مما يوحى بالقـول بأن تحقيق التوازن الطبقى فى أوربا الغربية كان أحد النتائج المباشرة لظروف الفترة التالية على الحرب العالمية الثانية •

ويدفعنا ذلك الى اثارة قضية أخرى تتعلق بقدرة الاحزاب العمالية أو الاشتراكية فى المجتمعات الغربية على احداث تغييرات هامة فى نظـــام الدخول لصالح الطبقة الدنيا(٧٥) • فبعد مرور أكثر من ثلاثة عقود على الحكم الاشتراكى فى السويد ، نجد أن الفوارق بين دخول الطبقة العاملة والطبقة الوسطى لم تقل عن نظيراتها فى الدول الغربية الاخرى التى تحكمها حكومات برجوازية • وربما اختلف هذا الموقف فى النرويج الى حد ما • فلقد تركت « الديموقراطية الاشتراكية » بصمات قوية على نظام الأجور والمكافآت • أما فى بريطانيا فلقد ارتبطت الحكومة العمالية فى ســنة ١٩٤٥ باتجاهات سياسية قائمة على تحقيق قدر من المساواة الاجتماعية والرفاهيـة لذوى الدخول الدنيا ، وهى اتجاهات كانت شائعة فى معظم الدول الأوربية الغربية خلال فترة اعادة البناء التى أعقبت الحرب العالمية الثانية • لكن عودة حزب العمال البريطانى الى السلطة خلال الستينيات قد ارتبط باتجاهات معاكسة ، مما يوحى بأن الحكومات الاشتراكية فى المجتمعات الرأسمالية لا تستطيع

---

(74) Bruce, M., The Coming of the Welfare State, London, 1965.

(75) Marchal, J. and Ducros, B., (eds), The Distribution of National Income, London, 1963.

أن تحقق للعمال الشيء الكثير الذى لا تستطيع أن تحققه الحكومات البرجوازية ، وان تقارب الدخول لم يكن نتيجة للايديولوجية السياسية بقدر ما كان نتيجة لتحول اقتصادى واجتماعى بعيد المدى . ومع ذلك فيبدو أن الفارق الوحيد بين الدول الغربية ذات التقاليد « الاشتراكية » والدول الغربية ذات التقاليد « البرجوازية » يتمثل أساسا فى الانفتاح النسبى فى البناء الطبقى . فالديموقراطيون الاشتراكيون يبدون استعدادا أكبر لتوسيع فرص الالتحاق بالأوضاع الاجتماعية الهامة ، بينما لا يبدون مثل هذا الاستعداد اذا ما تعلق الامر بتحقيق المساواة فى الدخول بالنسبة للأوضاع المختلفة . ويمكننا أن نعتبر الاصلاحات التعليمية فى بريطانيا خطوة فى هذا السبيل ، وهى الاصلاحات التى لقيت معارضة من جانب الجماعات ذات الامتيازات الموروثة بسبب تعرض موقفها للخطر نتيجة لصعود بعض أفراد الطبقة الدنيا الى الأوضاع القيادية .

والملاحظ أن الاجراءات التى اتخذتها الحكومات الديموقراطية الاشتراكية فى الدول الغربية لتقريب الفوارق الطبقية كانت تتم فى اطار الخدمات الاجتماعية وفكرة « دولة الرفاهية » . وعلى الرغم من أن قضية « الرفاهية » تعد أحد عناصر الاشتراكية الأوربية ، الا أنها (أى الرفاهية) تتم فى اطار نظام اجتماعى وأخلاقى قائم . ولقد أوضح بعض الدارسين أن تحقيق الرفاهية فى المجتمعات الرأسمالية الحديثة يتم على أسس بعيدة تماما عن مبدأ المساواة . فحصول الطبقة الدنيا على بعض المكاسب والمزايا قد يكون بهدف اضعاف الحركة الراديكالية أو الثورية . ومن هذه الزاوية فان التكاليف التى قد تدفعها الطبقة العليا لتحقيق ذلك تكون أقل بكثير من خطر الصراعات الطبقية[٧٦] . كذلك يمكن القول ان الطبقة العليا قد ترحب بتحسين أحوال الطبقة الدنيا لأن ذلك يؤدى الى الكفاية والفعالية . فالعمال الذين يتمتعون بصحة جيدة ، ومسكن ملائم ، وتعليم مناسب ، قد يكونون أكثر

(76) Bruce, M., The Coming of Welfare State, op. cit.

انتاجا من العمال الذين لا يتمتعون بهذه المزايا[٧٧] • وعلى ذلك فان المكاسب التى تحققها الطبقة العليا نتيجة لذلك تفوق ما تسهم به فى تحقيق الرفاهية للطبقة الدنيا • ويقال أيضا أن الانفاق على الخدمات الاجتماعية لا يعنى — بالضرورة — أن الطبقة الدنيا تحقق أفضل افادة منها • فلو دققنا النظر لاحظنا أن محاولة اعادة توزيع الدخول لا تتخذ شكلا رأسيا بقدر ما تتخذ شكلا « أفقيا » • فغالبا ما يخصص جزء من الضرائب التى يدفعها الأعزب أو المتزوج ذو الأسرة الصغيرة الحجم لمساعدة المريض والمسن وذى العائلة الكبيرة الحجم • ولنا أن نستنتج من ذلك أن توزيع الدخول قد لا يتخذ فقط شكلا طبقيا رأسيا ، ولكنه يتخذ أيضا شكلا طبقيا أفقيا • يضاف الى ذلك أن الاستفادة من الخدمات الاجتماعية تتأثر ببعض العوامل الطبقية • فاذا كان متوسط العمر عند كبار الموظفين — كما تشير الى ذلك دراسات عديدة — أعلى من متوسط العمر عند الطبقة العاملة ، فلنا أن نتوقع استفادة الأولين من معاشات التقاعد بدرجة أكبر من الاخيرين • ويتسق ذلك كله مع اتجـــاه عام آخر هو قدرة أفراد الطبقة العليا على الاستفادة — بطرق مختلفة — من المزايا والتسهيلات المتاحة بفضل اتصـــالاتها الشخصية ، وتمكنها من استيعاب البدائل العديدة • واذا ما أخذنا كل هذه الحقائق فى الاعتبار ، أمكن القول ان الالتزام بتحقيق « دولة الرفاهية » لم يكن نتيجـــة لدافع سياسى أو اجتماعى واحد • انه نتيجة لدوافع وعوامل عديدة من بينهـــا الاستخدام الأفضل للقوة البشرية ، والقناعة بنمط معين من توزيع الدخول ، وطبيعة المزايا الاجتماعية التى تحصل عليها الطبقة الوسطى ، فضلا عن مدى التعاطف السياسى والاجتماعى مع الطبقة الدنيا •

---

(77) Cutright, M., Income Redistridution : A Cross National Analysis», Social Forces, December, 1967.

(٦)

هذا وقد استرعت الاتجاهات المحافظة التى طرأت على الاحزاب الاشتراكية الغربية أنظار بعض الدارسين ، وبدا أن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على أوضاع الطبقة العاملة هى السبب الرئيسى فى ظهور هذه الاتجاهات المحافظة • وتذهب بعض التحليلات السياسية الى أن تغير اتجاهات الاحزاب نحو قضية التفاوت الطبقى عقب الحرب العالمية الثانية كان أحد النتائج المباشرة للتحسن العام الذى طرأ على الظروف المادية للطبقة العاملة • وتستند هذه التحليلات الى فرض أساسى هو : أن الظروف المادية والاجتماعية السيئة للعمال هى التى تدفعهم نحو الراديكالية ، بينما قد يؤدى الاحساس بالأمان الاقتصادى الى زيادة الاهتمام بالامور الخاصة والابتعاد عن القضايا العامة • وتستطرد هذه التحليلات موضحة هذا الموقف بوجهة نظر أخرى هى : أن أحزاب الطبقة العاملة يجب أن تحدد برامجها وفلسفاتها على نحو يعكس الاتجاهات السياسية والاجتماعية المتغيرة للعمال • بعبارة أخرى فان افتقاد هذه الأحزاب للروح الراديكالية ما هو الا استجابة لضغوط صادرة من أدنى (٧٨) • وخلال خمسينيات هذا القرن أثيرت مناقشات مستفيضة حول موقف أحزاب الطبقة العاملة فى أوربا الغربية ، خاصة بعد الهزائم العديدة التى منيت بها فى الانتخابات العامة ، مما دعا بعض الباحثين الى القول بأن وجود الاحزاب الاشتراكية لم يعد ضرورة فى مجتمع يستند الى الوفرة الاقتصادية والاستهلاك الوفير ، وأن العمال قد أصبحوا أقل حماسا وتمسكا بالطبقة العاملة بسبب تطلعاتهم الطبقية (٧٩) •

والواقع أن هذه التحليلات السياسية تفتقر الى قدر كبير من الصدق • اذ يصعب القول بأن تغير الاتجاهات الاجتماعية والسياسية للعمال فى مجتمع

---

(78) Abrams, M., and Rose, R., Must Labour Lose? London 1960. p. 100.

(79) Converse, p., «The Nature of Belief Systems in Mass Republics», in Apter, P., (ed.), Ideology and Discontent, Glencoe, 1964.

صناعى متقدم هــو السبب الرئيسى فى افتقاد الاحــزاب العمالية لطابعها الراديكالى • فاذا كان صحيحا أن زيادة الرخاء الاقتصادى تؤدى الى ظهور اتجاه سياسى محافظ ، فمن المتوقع اذن أن يكون أكثر العمال رخاء هم أبعد العمال عن تأييد الاحزاب الاشتراكية • بيد أن الدراسات الواقعية لا تدعم هذا الافتراض • اذ أوضحت أن تصويت العمال لصالح أحزاب اليسار لم يقل بزيادة دخولهم ، بل ان العمال الذين يتمتعون بمزايا مادية واجتماعية هائلة كانوا يبدون تأييدا أعلى من المتوسط للأحزاب الاشتراكية[٨٠] • ومن الأمور التى يسهل ملاحظتها أن هناك استقرارا كبيرا فى تدعيم الطبقة العامله الأوربية للأحزاب اليسارية • ولقد أوضح ليبست Lipset هذه النقطــة بقوله : « ان نظرة عابرة للتاريخ السياسى الأوربى تشير الى أنه لم يحدث قط أن اختفى حزب يسارى نتيجة لافتقاده للأصوات الانتخابية العمالية الضرورية [٨١] » • ومن الطبيعى أن يدفعنا ذلك الى الشك فى قضية فقدان الاحزاب الاشتراكية الأوربية لطابعها الراديكالى ، خاصة اذا ما أخــذنا استقرار وثبات التأييد العمالى لها كمؤشر على حيوتها • كما أن ولاء العمال للحزب يعنى أن قيادته السياسية تستطيع تعديل بعض الأفكار السياسية حتى يتمكن الحزب من أداء مهامه بفعالية أكبر • والشىء المتوقع بعــد ذلك أن الأعضاء يميلون الى الاهتداء بالمبادىء السياسية للحزب كما يعرضها القادة أكثر مما يميلون الى معارضتها • ومن ذلك يبدو واضحا أن موقف الاحزاب الاشتراكية الغربية يتحدد فى ضــوء عوامل عديدة أقواها عــلاقة القادة بالأعضاء •

وربما كان روبرت ميشيلز Michels من أشد العلماء الاجتمــاعيين اهتماما بهذه القضايا • فهو يذهب فى مؤلفه « الأحزاب السياسية »[٨٢] الى

(80) Goldthorpe. J. et al. The Affluent Worker : Political Attitudes and Behaviour, Cambridge, 1968.

(81) Lipset, S., «The Changing Class Structure and Contemporary European Politics», op. cit. p. 280.

(82) Michels, R., Political Parties, New York, 1962.

أن الأحزاب تفقد طابعها الراديكالى بسبب النمو البيروقراطى • فحينما تحقق الحركات الاشتراكية نجاحا فى جذب المؤيدين والأعضاء ، ما تلبث أن تخضع لسيطرة الموظفين المتفرغين ، أى البيروقراطيين الذين يهتمون بانجاز الأعمال الادارية أكثر من اهتمامهم بالتحول الراديكالى للمجتمع • كذلك يوضح ميشيلز أن الاحزاب الاشتراكية الأوربية قد حققت ثروات ضخمة مكنتها من ممارسة نشاطات تجارية واسعة • ونتيجة لذلك تسيطر على قادة هذه الاحزاب نظرة سياسية محافظة نحو قضايا التغير الاجتماعى • والملاحظ أن ميشيلز قد تأثر فى تحليله بما حدث فى بعض الاحزاب العمالية الأوربية ، حينما أشار الى اختفاء الروح الراديكالية بين قادتها ، وتبنى العمال المتفرغين سياسيا لاسلوب حياة الطبقة الوسطى • وهو يقصد بذلك سيطرة عملية التبرجز embourgeoisement على موظفى وقادة الاحزاب الاشتراكية على السواء • ومع ذلك فلقد أوضح ميشيلز فى موضع آخر أن القادة الاشتراكيين الذين يأتون من الطبقة الوسطى يكونون أكثر تمسكا براديكاليتهم من قرنائهم الذين يأتون من الطبقة العاملة ، لأن الأولين لم يحصلوا على أوضاعهم نتيجة لحراك اجتماعى صاعد ، ولأنهم ــ كقادة راديكاليين ــ قد قطعوا صلتهم بالطبقة الوسطى وارتبطوا سياسيا وايديولوجيا بالطبقة العاملة •

ومن العسير التسليم تماما بأن اختفاء الروح الراديكالية من الاحزاب العمالية كان نتيجة مباشرة لتبرجز قادتها • صحيح أن هناك تغيرات ملحوظة طرأت على الأصول الطبقية لقادة الاحزاب الاشتراكية الأوربية (بمعنى أن نسبة كبيرة منهم تأتى من الطبقة الوسطى) ، الا أننا لا نستطيع اعتبار ذلك سببا لضعف الروح الراديكالية • ومن الشواهد الملموسة التى تؤكد ذلك أن القادة الاشتراكيين ذوى الأصول الطبقية الوسطى هم الذين أسهموا اسهاما كبيرا فى دفع الحركة العمالية نحو الالتزام بمبادىء وقيم من شأنها تدعيم وضع البروليتاريا داخل البناء الاجتماعى[٨٣] • ومن هذه الناحية يمكننا اعتبار تحليل ميشيلز ملائما تماما لتفسير ظروف الحركة الاشتراكية فى بداية

(83) Glennerster, H., «Democracy and Class», in Lapping B. and Radice. G., More Power to the People, op. cit.

ظهورها ، حينما كانت تمثل تهديدا قويا ومباشرا للبرجوازية • ولا شك أن ميشيلز قد أصاب حين قال : « اذا ما غيرنا تربة الأرض ، فاننا نضمن بذلك تغيير نوع المحصول »[٨٤] • وتبدو هذه العبارة حاسمة للغاية لفهم ضعف الروح الراديكالية التى طرأت على بعض أحزاب الطبقة العاملة الأوربية • فمنذ البداية أوضح ميشيلز أن تبرجز قادة البروليتاريا وبيروقراطية الجهاز الادارى للحزب ظرفان أوليان كافيان لظهور استرخاء سياسى • وفى مرحلة لاحقة يتحول الحزب من مجرد حركة ثورية الى حركة تسعى الى تحقيق الاصلاح الراديكالى من خلال البرلمان • وما أن يقبل الحزب العمالى الدخول فى قواعد « اللعبة » البرلمانية حتى يتعرض لمرحلة ضعف أخرى تتمثل فى سيطرة قادة الطبقة الوسطى عليه • وهكذا يبدأ الحزب فى افتقاد خواصه الثورية بزيادة وسيطرة القادة البرجوازيين عليه [٨٥] •

وهناك صعوبات فعلية تواجه الأحـزاب العمالية وتعـوقها فى بعض الأحيان عن تحقيق انتصارات حاسمة فى الانتخابات السياسية • فهنـاك انتماءات دينية معينة لا تتسق تماما مع ارتباط وتوحد العمال مع أهـداف الحركة العمالية • وازاء هذه الصعوبة لجأت بعض هـذه الاحـزاب الى استقطاب صغار الموظفين ، برغم ما أدى اليه ذلك من مشكلات ايديولوجية أثارها الماركسيون داخل هذه الاحزاب[٨٦] • فالذين دافعوا عن انضمام صغار الموظفين الى الاحزاب العمالية استندوا الى نقطة أساسية هى ، أنهم يشغلون نفس الوضع الطبقى الذى يشغله العمال ، وأن هذه الجماعة (صغار الموظفين) تزداد عددا وكثافة ، وبالتالى يصعب تجاهلها • بيد أن جهـود الاحزاب السياسية العمالية فى استقطاب صغار الموظفين كان لها نتيجة أولية هى ضعف الروح الراديكالية لهذه الاحزاب • فالموظفون لا يزالون يعتبرون أن مصالحهم مختلفة عن مصالح العمال • ويترتب على ذلك أن تأييد الأولين

---

(84) Michels, R., Political Parties, op. cit. p. 298.

(85) Ibid., p. 351.

(86) Lipset, S., «The Changing Class Structure and Contemporary European Politics», op. cit.

للحزب العمالى ينبع من تصور مختلف للمساواة عن تأييد الاخــيرين له • فالموظف يميل الى قبول ايديولوجية تعبر عن تكافؤ الفرص وتحدد المكافأة على أساس الجدارة ، بينما لا يميل الى قبول ايديولوجية تطالب بالمساواة الكاملة فى المكافآت ومساواة المهن اليدوية بالمهن غير اليدوية • وعلى أية حال فلقد تعرضت أحزاب الطبقة العاملة لضغوط عديدة من بينها استقطاب صغار الموظفين • لكننا لا نستطيع القول إن هذه الضغوط قد أسهمت بشكل مباشر فى تغيير جوهر المبادىء السياسية التى تبنتها هذه الاحزاب • ويبدو أن ضعف الروح الراديكالية الذى طرأ على بعض الاحزاب العمالية لم يكن نتيجة لتبرجز قادتها بقدر ما هو نتيجة للتحولات التى طرأت على البناء الطبقى فى المجتمعات الغربية • وربما ساعدتنا هذه النقطة على فهم أفضل لوجهة نظر ميشيلز • فخلال الفترة التى كان يكتب فيها مؤلفــه الشــهير « الاحزاب السياسية » ، لم يتمكن حزب أوربى اشتراكى واحد من الوصول الى السلطة• أما الآن فلا نجد حزبا اشتراكيا واحدا لم يحصل على السلطة مرة على الاقل سواء بشكل مستقل أو فى شكل ائتلاف سياسى •

ومن الطبيعى أن يتخذ قادة الاحزاب العمالية موقفا محددا من النظام السياسى القائم ، طالما أن أحد أهدافها احداث تعديلات على البناء الاجتماعى تلائم مصالح الطبقة العاملة • ولتحقيق هذه الأهداف نجد هــؤلاء القادة يدخلون فى علاقات مباشرة ومستمرة مع ممثلى الطبقة البرجوازية بهــدف الاتفاق على خطوط عريضة لعملية ممارسة السلطة وتحديد أدق للعــلاقات الطبقية • ومن الحقائق المألوفة أن الطبيعة التعددية للمجتمع الرأسمالى الحديث تضمن وجود مصادر عديدة لممارسة السلطة خارج نطاق البرلمان • ولما كانت هذه المصادر تكتسب قوتها ودعمها من الطبقــة المسيطرة ، فانها تمارس ضغوطا على الحكومة من أجل تغيير القواعد المنظمة للأجور وتوزيع الدخول • ونظرا لالتزام قادة الاحزاب الاشتراكية بالأساليب البرلمانية ، فانهم يدركون القيود المفروضة على الحكومات الاشتراكية لتغيير معــالم البناء الطبقى[87] • وهكذا نجد حكومات الاحزاب العمالية مضطرة الى تبنى

---

(87) Miliband, R., The State in Capitalist Society, op. cit. p. 120.

برامج « معتدلة » تلائم ــ بدرجة ما ــ مصالح الطبقة المسيطرة ، وتلك حقيقة تفرضها القيود المفروضة على عملية ممارســة السلطة السياسية فى المجتمع الغربى • وفى ظل هذا الموقف نجد الحكومات أو الاحزاب الاشتراكية تدافع عن الاصلاحات الاجتماعية ، ولكنها لا تطبق الا تلك الاصــلاحات « الواقعية » التى تتفق مع الخطوط العريضة للنظام الرأسمالى الحــديث كتقديم الخدمات الاجتماعية للجماعات الطبقية الدنيا • وفضلا عن ذلك تميل هذه الاحزاب الى الاعتقاد بأن زيادة الانتاج ــ وليس تغيير البناء الطبقى ــ هو الذى يضمن حصول الطبقة العاملة على حقوقها الاقتصادية والاجتماعية • ولقد عبر جالبريث Galbraith عن هذه النقطة بقوله : « ان الضغط من أجل زيادة الانتاج القومى هو البديل الوحيد للضغط من أجل اعادة توزيع الدخل القومى • فبزيادة حجم الغلة القومية يمكن أن تحصل الطبقة العاملة على شريحه أكبر دون أن يكون ذلك على حساب الطبقات الأخرى »(٨٨) • والواقع أن كل الحكومات تهتم اهتماما خاصا بتحقيق زيادة ملحوظة فى مجــــال الانتاج ، لكن يبدو أن الحكومات الاشتراكية أكثر اهتماما بذلك بســبب التزامها بتحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية للطبقة العاملة •

وهناك دلائل عديدة تشير الى أن قضية الأجور تعد واحدة من أعقــد القضايا التى تواجه حكومات الطبقة العاملة فى الدول الغربيــة • فهــذه الحكومات ملتزمة ــ من ناحية ــ بالقواعد الأساسية المنظمة لتوزيع الدخل القومى ، لكنها ــ من ناحية أخرى ــ ملتزمة ايديولوجيا بتحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية للجماعات الطبقية التى تدافع عنها • وتزداد هذه القضية تعقيدا بالنسبة لقادة النقابات العمالية الذين يندمجون فى الجهــاز الادارى والســياسى للدولة • ولقــد أوضح ألين Allen أن قادة النقابات العمالية فى بريطانيا قد أصبحوا يسهمون بدور بارز فى اللجان الحكومية التى تخصص لدراسة قضايا الأجور ، وأن ذلك يوحى بأن هؤلاء القادة يقعون تحت ضغوط عديدة من جانب الحكومة ، مما يعنى أن دفاعهم عن « المصالح

---

(88) Galbraith, J., The Affluent Society, London, 1958.

القومية » قد أصبح أقوى من دفاعهم عن « المصالح الطبقية »[٨٩] • ولا شك أن هذا الموقف هو أحد العوامل الرئيسية التى تهدد فعاليه الحركة العمالية فى العالم الغربى بأسره • ففى مجتمع طبقى تكون قضية المصلحة « القومية » عرضة للجدل والنقاش • واذا ما أخذنا قضية توزيع الدخول كمثال يوضح ما نذهب اليه ، قلنا إن الدخل الذى لا يتجه الى الطبقة العامله سوف يتجه حتما الى الطبقة البرجوازية • ان الحكومات الغربية الآن تحاول استقطاب الحركة العمالية باشراكها فى ادارة الدولة . مما خفف — الى حد ما — من طابعها الراديكالى ، وجعلها أقرب الى تبنى وجهة النظر الحكومية القومية من تبنى وجهة النظر العمالية الطبقية • ويكاد ينطبق هـذا التحليـل على الاحزاب الشيوعية الغربية التى تخلت عن كثير من مبادئها الثوريه متبنية الطريق الدستورى لاحداث التغير الاجتماعى • ومع ذلك كله فان هـذه الاحزاب لم تتخل تماما عن مطلبها الرئيسى وهو تعديل نظام الأجور السائد فى الدول الرأسمالية • وفى هذا المجال نجدها تقدم تصورات أكثر راديكالية من تلك التى تقدمها الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية • ولا نستطيع القول هنا بأن مستقبل الاحزاب الشيوعية فى أوربا الغربية سيكون مماثلا لمستقبل الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية ، فتلك قضية تحتاج الى مزيد من التأمل• وعند هذا الحد نجد من الضرورى الانتقال لمعالجة العلاقة بين الطبقة والنظام السياسى فى الدول الاشتراكية [٩٠] •

(٧)

عند دراسة البناء الطبقى فى الدول الاشتراكية يبدو أمامنا تساؤل هام لا يكف عن طلب الجواب هـو : الى أى مـدى يمكن القـول ان الدول الاشتراكية تتميز ببناء طبقى يعكس تفاوتا اجتماعيا — اقتصاديا مشـابها لذلك الذى يميز الدول الرأسمالية ؟ • وهناك تراث هائل اهتم بالاجابة على

---

(89) Allen, V., Militant Trade Unionism, London, 1966, p. 51.
(90) Miliband, R., The State in Capitalist Society, op. cit. p. 180.

هذا التساؤل بحيث لا يتسع النطاق هنا لمعالجته معالجة تفصيلية[٩١] • على أن النظرة الفاحصة لهذا التراث تشير الى أن جانبا كبيرا من الجدل الذى أثير حول طبيعة الطبقة فى المجتمعات الاشتراكية قد اهتم باثارة القضايا السطحية والمشكلات العارضة أكثر من اهتمامه بالدعائم والأسس التى نمكننا من فهم أفضل لنوعية البناء الطبقى فى هذه المجتمعات • والقضية الأساسية التى تظهر من خلال هذا الجدل هى تلك التى تؤكد أن المجتمع الاشتراكى (ذا النمط السوفييتى) هو مجتمع لا طبقى بالضرورة • ويدعم هذه القضية تياران فكريان متعارضان : الأول يمثله التيار الماركسى المتزمت ، والثانى يمثله التيار الديموقراطى الغربى • فالماركسيون يذهبون الى أن التقسيمات الطبقية مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلاقات الملكية الخاصة ، وأنه اذا كان المجتمع الاشتراكى لا يعرف الملكية الخاصة للمشروعات الانتاجية ، فان الطبقات لا تعرف طريقها الى الظهور • والواقع أن الماركسيين لا ينكرون وجود اختلافات مادية واجتماعية بين الجماعات المختلفة (كتلك التى توجد بين العمال الصناعيين والمثقفين) ، ولكنهم يذهبون الى أن العلاقات التى تربط بين هذه الجماعات ليست علاقات صراعية قائمة على تناقض ، لأنها تشترك جميعها فى موقف واحد من العملية الانتاجية • وفى مجتمع لا يمنح أى حق قانونى خاص للملاك ، تختفى فيه التناقضات الطبقية بين البروليتاريا والبرجوازية • ومن هنا فان التباين الاجتماعى والمادى الذى يظهر فى ظل الاشتراكية لا يؤدى الى ظهور طبقات اجتماعية بقدر ما يؤدى الى ظهور « مستويات اجتماعية غير متناقضة » • وفضلا عن ذلك فان الفروق بين هذه المستويات الاجتماعية آخذة فى التناقص بتقدم المجتمع نحو تحقيق الشيوعية الحقيقية • وعلى الرغم من وجود شبه ظاهرى بين نظام الأجور فى كل من المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية ، الا أن الفارق الرئيسى بينهما يكمن فى

---

(٩١) أنظر على سبيل المثال ت . ب . بوتومور ، الطبقات فى المجتمع الحديث ، المرجع السابق وانظر أيضا :

Dahrendorf, R., Class and Class Conflict in Industrial Society, op. cit.
Ossowski, S., Class Structure in the Class Consciousness, London, Routledge, Kegan Paul, 1963.

أن الاخير يمر بمرحلة انتقالية ليصبح جزءا من نظام اجتماعى جديد ، بينما لا يتميز الأول بذلك (٩٢) • ويحاول علماء الاجتماع فى دول أوربا الشرقية توضيح هذه النقطة بابراز السيولة الاجتماعية التى تتميز بها مجتمعاتهم ، والتى تحول ــ بالتالى ــ دون ظهور حدود طبقية واضحة • وهم يعتقدون أيضا أن التفاوت الاجتماعى قائم بالفعل ، وسيظل قائما فى المستقبل القريب، لكنه لا يمثل دليلا على تشكل بناء طبقى • انه ظرف موقفى مرتبط بمرحلة التحول الحالية • وللتدليل على ذلك يؤكدون أن الأجور والامتيازات تشكل متصلا ، ولا تتخذ شكل حلقات منفصلة مستقلة كما هو الحال فى المجتمعات الرأسمالية • بعبارة أخرى فان التوزيع الرأسى للأجور لا يؤدى ــ بالضرورة ــ الى تجمع أفقى فى الأوضاع الاجتماعية ، ذلك التجمع الذى يمثل أحد معالم البناء الطبقى فى المجتمعات الغربية •

أما الديموقراطيون الغربيون فقد قدموا تصورا آخر لقضية المجتمع اللاطبقى • فلقد ذهب ريمون آرون Aron ووليام كورنهاوزر Kornhauser وآخرون الى أن أهم سمة تميز المجتمعات ذات النمط السوفييتى وجــود هوة واسعة بين الحزب والجماهير (٩٣) • فالفاصل الاجتماعى الذى يفصل بين طاقم الحزب والجماهير غير المنتمية يحول دون ظهور أية تقسيمات أخرى • كما أن القهر الذى يمارسه كل من الحزب والبوليس السرى يتغلغل فى كافة وجوه الحياة الاجتماعية اليومية بحيث يصبح الخوف من الحزب هو الحقيقة الأساسية التى تشغل اهتمام الانسان • وفى ظل الظروف التى يتعرض فيها الناس لخطر القبض عليهم ، فان المشاعر والاحاسيس الطبقية لا تميل الى

---

(92) Ossowski, S., Class Structure in the Social Consciousness, op. cit; Gleezerman, «From Class Differentiation to Social Homogeneity», in Hollander, P., (ed.), American and Soviet Society, Englewood Cliffs, 1969.

(93) Aron, R., «Social Structure and the Ruling Class», British Journal of Sociology, January and March, 1950. Kornhauser, W., The Politics of Mass Society, London, 1959.

الظهور بسهولة • فالاختلافات الاجتماعية والمهنية والاقتصادية والتعليمية تضعف الى حد كبير فى مواجهة القلق المتزايد • ويذهب هؤلاء العلماء الى أن هذا الموقف يتكرر فى الدول التى تشهد تفرقة عنصرية عميقة • ففى جنوب آفريقيا وفى أقصى جنوب الولايات المتحدة نجد أن حقيقة التمييز العنصرى تحول دون ظهور تقسيمات طبقية واضحة • كذلك يؤكد هؤلاء العلماء أن حرص الحزب الشيوعى على عدم تشكل طبقات اجتماعية انما ينبع من الرغبة فى عدم تشكيل أى جماعة أو تنظيم يمكن أن يقاوم أو يعارض سلطة الحزب• واذا ما استخدمنا تعبير جيمس بيرنهام Burnham قلنا ان الحزب يحول دون تبلور « طبقة ادارية » قد تشكل قوة اجتماعية تهدد مصالحه [٩٤] • ويضيف هؤلاء العلماء الى ذلك نقطة أخرى هى ، أن البناء الاجتماعى فى المجتمعات الاشتراكية لا يعرف جماعات أو منظمات تتوسط المواطن والدولة • وكنتيجة لذلك تصبح الجماهير منعزلة اجتماعيا ، مغتربة نفسيا ، خاضعة سياسيا[٩٥] • وفضلا عما سبق يحاول بعض الدارسين الكشف عن النمطية المعيارية والثقافية التى تميز المجتمعات الاشتراكية • فبينما تشهد المجتمعات الغربية طبقات اجتماعية مختلفة تعكس تفاوتا ثقافيا ملحوظا — تشهد المجتمعات الاشتراكية تجانسا ثقافيا الى حد بعيد • ولقد عبر فيلدميسر Feldmesser عن ذلك بقوله : « ان العلاقة بين الأوضاع الرئاسية المختلفة فى الدول الاشتراكية لا تعكس تباينا ملحوظا فيما يتعلق بالايديولوجية والثقافة ، وتلك حقيقة لا وجود لها فى الدول الرأسمالية » [٩٦] •

والواقع أن طبيعة بناء السلطة فى كل من المجتمعات الاشتراكية والغربية هى أحد العوامل الهامة التى تسهم فى ظهور شكلين متباينين من التفاوت الطبقى فى كل منهما • فالسلطة السياسية فى المجتمعات الغربية تتوزع على

---

(94) Burnham, J., The Managerial Revolution, Indiana University Press, Penguin, 1945.

(95) Aron, R., «Social Structure and the Ruling Class», op. cit.

(96) Feldmesser, R., «Social Classes and Political Structure», in Black, C., (ed.) The Transformation of Russian society, Harvard, 1960.

نحو جماعى بحيث يتحقق قدر من الاستقلال لكل مصدر من مصادرها • أما فى المجتمعات الاشتراكية فان السلطة تتخذ طابعا شموليا ، بحيث يتــولى الحزب كل عمليات صنع القرار وينكر اســتقلال أى مؤســسة أو نظــام اجتماعى • وعلى ذلك يمكننا توقع نمو الطبقات فى المجتمعات الأولى ، بينما لا يتحقق ذلك فى المجتمعــات الثانية • ولقــد عبر جولد ثورب Goldthorpe عن ذلك بقوله : « ان التدرج الطبقى والنظام السياسى الشمولى لا يتلاءمان ولا يتسقان مع بعضهما البعض »[٩٧] • وأيا كان الامر فلقد شهدت السنوات الاخيرة هجوما واسع النطاق على كل من النظام الاشتراكى (ذى الطــابع السوفييتى) والنظام الرأسمالى ، حيث ذهب البعض الى أنهما يشتركان فى خاصية واحدة هى الاستغلال • ذلك أن هنــاك طبقة متميزة فى كل من النظامين تستغل العمال سواء من خلال الملكية القانونية لوسائل الانتاج أو من خلال التحكم السياسى فى هذه الوسائل[٩٨] • كذلك نجد ديجلاس Djilas يرفض التفرقة الماركسية بين الملكية الانتاجية من ناحية ، والتحكم فيها من ناحية أخرى ، ذاهبا الى أن هناك « طبقة جديدة » من المستغلين قد ظهرت فى المجتمع الاشتراكى نتيجة لملكيتها الصورية ــ وان لم تكن القانونية ــ لموارد الدولة[٩٩] • ويعتقد ديجلاس أن الذين يتحكمون فى الملكية ويتمتعون بحق التصرف فى السلع والخدمات هم فى الحقيقة « ملاكا » • ومن هــذه الزاوية يصبح الفارق ضئيلا بين البرجوازية المالكة فى المجتمع الرأســمالى و « الطبقة البيروقراطية الجديدة » فى المجتمع الاشتراكى • ولقد دافــع ديجلاس عن وصفه هذا بقوله ان قادة الحزب الشيوعى يشكلون طبقــة لأنهم يدخلون فى علاقات عدائية واستغلالية مع أولئك الذين يبيعون لهم قوة عملهم • ولما كان العمال فى المجتمع الســوفييتى يفتقرون الى المنظمــات السياسية والصناعية التى تمكنهم من التحكم فى مصادر الانتاج ، فاننا ــ كما

---

(97) Goldthorpe, J., «Social Stratification in Industrial Society» Sociological Review, No. 8, 1964.

(98) Cliff, T., Stalinist Russia : A Marxist Analysis, London, 1956.

(99) Djilas, M., The New Class, London, 1957.

يقول ديجلاس ـــ نكون بصدد « رأسمالية دولة » بما يتضمنه هذا التعبير من تفاوت طبقى [١٠٠] .

وفضلا عما سبق نلمس وجهة نظر أخرى تتخذ موقفا محايدا الى حد ما ، فلقد أوضح جالبريث Galbraith وكير Kerr وانكلز Inkeles وآخرون أن المجتمعات الصناعية سواء أكانت اشتراكية أم رأسمالية تتجه عموما نحو اتخاذ نمط أو شكل واحد[١٠١] ، ذلك أن قوى وعوامل التصنيع الجديدة تفرض ضربا من الانتظام على المجتمع أيا كانت ايديولوجيته وتنظيماته السياسية . فالتقدم التكنولوجى والنمو الاقتصادى يؤديان الى ظهور بناء متماثل للأجور فى كل من المجتمعات الاشتراكية والرأسمالية . ومثل هذا يقال أيضا عن التنظيم الصناعى ، والنظام التعليمى ، والبناء المهنى . اذ أنها تمثل جميعها ضغوطا من أجل التحديث . وفى ظل هذه الظروف يفقد البناء الطبقى كثيرا من خصائصه الحادة التى كانت تميزه خلال مراحل التصنيع الاولى . لكن هذا البناء لن يختفى فى ظل الرأسمالية أو الاشتراكية[١٠٢] . تلك هى القضايا الأساسية التى رددها علماء الاجتماع عند تناولهم للبناء الطبقى فى المجتمع الاشتراكى . وقد نجد هذه القضايا مطروحة بشكل نهائى أو بشكل يحتمل الجدل والنقاش . لكن المنطلق الفكرى الذى تصاغ من خلاله واحد فى كلا الحالين . لذلك نجد من الضرورى هنا مناقشة هذه القضايا فى ضوء الشواهد الواقعية المتاحة ، تماما كما فعلنا ذلك عند مناقشتنا للبناء الطبقى فى المجتمع الرأسمالى . ونحن لا نطمح فى حسم كل هذه القضايا ليس فقط بسبب ضيق النطاق هنا ، ولكن أيضا بسبب قلة الشواهد المتاحة . ومع ذلك كله فان بالامكان مناقشة هذه القضايا مناقشة تحليلية فى ضوء ما هو متاح لدينا من بيانات ، على أن تكون هذه المناقشة مستندة الى موقف فكرى محـــدد .

---

(100) Ibid. p. 102.

(101) Inkeles, A., «Social Stratification and the Modernization of Russia», in Black, op. cit. Galbraith, J., The New Industrial State, London, 1967; Kerr, C., et al. Industrialism and Industrial Man, Harvard, 1960.

(102) Ibid. p. 209.

وإذا ما بدأنا بتناول بناء الأجور فى المجتمعات الاشتراكية الأوربية ، أمكننا التمييز بين الفترة التالية على نجاح الاحزاب الشيوعية فى الاستيلاء على السلطة من ناحية ، والفترة الحديثة نسبيا التى ارتبطت بالتقدم الاقتصادى والنمو الصناعى . فالفترة الاولى تمثل «اعادة البناء الاشتراكى» حيث شهدت سلسلة من الاصلاحات الاجتماعية الاساسية بهدف تحقيق أكبر قدر من المساواة . ويمكننا أن نلمس ذلك بوضوح فى مجال اعادة توزيع الدخول . ففى الاتحاد السوفييتى — وبعد استيلاء البولشفيك على السلطة — كادت فوارق الدخول تتلاشى بين العمال وصغار الموظفين[١٠٤] . وفى بولندا ويوغوسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا قامت الانظمة الجديدة باحداث تغييرات جذرية فى مجال الأجور والدخول . وبالاضافة الى ذلك فلقد حصل العمال اليدويون فى هذه الدول على امتيازات اجتماعية هامة فى مجالى الاسكان والطعام . بينما عانى أفراد البرجوازية القديمة من الحرمان فى كثير من الأحيان . أما الذين كانوا يشغلون أوضاعا هامة فى النظام القديم (ما قبل الثورة) فقد ألحقوا بالوظائف الكتابية الروتينية وحل محلهم أولئك الذين أبدوا صدقا واخلاصا ثوريا سواء كان ذلك قبل حدوث الثورة الشيوعية أو خلال فترة المقاومة السرية ضد الغزو النازى . وعموما فلقد كانت أصولهم الاجتماعية متواضعة الى حد كبير . فهم أبناء فلاحين سابقين وعمال صناعيين لديهم ميول فكرية راديكالية . وفى النهاية نجد القلة التى تمكنت من الاستيلاء على السلطة تحقق حراكا اجتماعيا صاعدا سريعا من خلال الحزب ، الى أن تمكنت من الحصول على الأوضاع الادارية والسياسية الهامة[١٠٥] .

وخلال هذه الفترة طرأت تغيرات اجتماعية بالغة الاهمية . فلقد تعرض النظام التعليمى لتحولات أساسية حتى يتمكن من خلق جماعات من المثقفين

---

(104) Carr, E., The Bolshevik Revolution, Indiana University Press, Penguin, 1966.

(105) Crosland, C., The Future of Socialism, Cape, 1956.

من أبناء العمال والفلاحين الذين تعرضوا خلال النظام القديم لأشكال عديدة من الحرمان • ولقد اقتضى ذلك احداث تغييرات جذرية على النظام التعليمى وعلى الاخص الجامعات والمعاهد العليا • فخلال الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية كانت الجامعات تخدم أساسا أبناء الطبقتين الوسطى والعليا • ولقد تغير هذا الوضع تماما خلال فترة « اعادة البناء الاشتراكى » بادخال نظم تعليمية معينة تخدم الطلاب الذين ينتمون الى أسر بروليتارية• ولتحقيق ذلك تم تخصيص نسبة محدودة من الاماكن فى الجامعات لأبناء الموظفين ، بينما خصصت النسبة الكبيرة المتبقية من هذه الاماكن لأبناء العمال والفلاحين• ومن هذه الناحية يمكن القول ان التركيب الطبقى لطلاب الجامعات والمعاهد العليا قد تعرض لتحولات أساسية • وفى بعض الدول الاشتراكية فاقت نسبة الطلاب من أبناء العمال اليدوين نسبة قرنائهم من أبناء العمال غير اليدويين(١٠٦) • ولعل ذلك كله يعكس لنا الدور الذى لعبته الايديولوجية فى احداث تحولات أساسية على البناء الطبقى بأكمله •

ويبدو أن اجراءات المساواة التى اتخذت فى بداية مرحلة اعادة البناء قد تعرضت للتجميد فى فترة لاحقة • فلقد ضعف الحماس الشديد نحو المساواة الكاملة فى الامتيازات الاجتماعية والمادية ، وان كان ذلك يختلف من دولة اشتراكية لأخرى • ففى الاتحاد السوفيتى كان رد الفعل ازاء اجراءات المساواة أكثر حدة من أية دولة أوربية شرقية أخرى • وفى بداية الثلاثينيات شن ستالين Stalin هجوما عنيفا على مبادىء المساواة الكاملة التى شكلت سياسة الدخول فى الاتحاد السوفييتى خلال العقد الاول التالى على حكم البولشفيك ، ذاهبا الى ضرورة تقديم حوافز وامتيازات مادية أكبر للذين يمارسون الاعمال الماهرة بما فى ذلك الفئات الجديدة من الاداريين والفنيين • ولقد أوضح ستالين أنه بدون فوارق ملموسة فى الدخول فلن يكون هناك دافع لتعلم المهارات اللازمة فى مجتمع يمر بعملية تصنيع سريعة

---

(106) Parkin, F., «Class Stratification in Socialist Societies», British Journal of Sociology, December, 1969.

وواسعة . ونتيجة للأساليب المختلفة التى أدخلها ستالين فى مجال الأجور ، بدأ التفاوت فى الدخول يظهر بشكل جلى حتى أصبح بالامكان تحديد معالم التدرج الاجتماعى . ولقد استمر هذا الاتجاه طوال الأربعينيات حتى أن التعديلات التى طرأت على ضرائب الدخل قد بدأت تلائم الجماعات ذات الدخول الاعلى . وهذا يعنى — ببساطة — أن الجماعات ذات الدخول العالية لا تستطيع فقط تجميع الثروات خلال حياتها ، ولكنها تستطيع أيضا أن تنقلها الى ورثتها(١٠٧). وبوفاة ستالين وادانته فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى بدأ الاتجاه نحو التفاوت فى الدخول يتخذ وضعا معاكسا . فلقد ارتفعت الأجور الدنيا كما قلت الهوة التى تفصل بين أجور العمال الذين يعملون فى مختلف الوظائف الماهرة . كذلك أدت التعديلات التى طرأت على ضرائب الدخل الى تخفيف العبء على جماعات الدخل الدنيا بجعل هذه الضرائب تصاعدية(١٠٨). ومرة أخرى نجد الحكومة تتدخل خلال الخمسينيات للحد من التفاوت المتزايد فى الدخول ، الى أن تحقق للعمال فى أوائل الستينيات أوضاعا اقتصادية أفضل من ذى قبل .

ولا نستطيع أن نغفل التأثير الذى أحدثه تغير البناء المهنى على قضية تفاوت الدخول فى الدول الاشتراكية . فبزيادة عدد المؤهلين نتيجة لتحسن الفرص التعليمية ، بدأت ندرة المهارات تقل الى حد بعيد . وفى ظل هذا الموقف ظهرت مبررات اقتصادية قوية لتخفيض أجور العمال المهرة وزيادة أجور العمال غير المهرة . وهنا يبدو أن العوامل التى أدت الى تذويب الفوارق بين الدخول فى الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية ليست بعيدة عن تلك التى أدت الى ذلك فى دول أوربا الغربية . ومن الظواهر التى يسهل التعرف عليها أن نظام الاجور فى كل من دول أوربا الشرقية والغربية يتحدد طبقا للمهارة والخبرة الفنية ، وان كان الاقتصاد الاشتراكى فى أوربا الشرقية

---

(107) Feldmesser, R., «Towards the Classless Society» in Inkeles, A., Geiger, K., (eds), Soviet Society, Englewood Cliffs, 1969.

(108) Kostin, L., Wages in the Soviet Union, Moscow, 1960.

يخضع لعوامل أخرى ــ بجانب السـوق ــ فى تحديد الاجـور كطبيعة الجهد العضلى الذى يتطلبه العمل ، ومدى ارتباطه بالأولويات الاقتصادية • فالاجور فى القطاعات الهامة كالبناء والتشييد أعلى من نظيراتها فى القطاعات الاقل انتاجا كالتجارة والنشاط الاجتماعى[١٠٩]• ولقد دفعت هذه الاعتبارات بعض الدارسين الى القول بأن المجتمع الاشتراكى ــ شأنه فى ذلك شـأن المجتمع الرأسمالى ــ يشهد هوة بين المهن اليدوية والمهن غير اليدوية[١١٠] • وقد تبدو هذه الهوة واضحة اذا ما أخذنا فى الاعتبار التفرقة بين العمـال الصناعيين ومديرى المصانع • لكن ذلك يجب ألا يدفعنا الى الاعتقاد بأن نمط التدرج الطبقى فى المجتمع الاشتراكى يشترك فى بعض الخصائص مع نظيره فى المجتمع الرأسمالى • فهناك شواهد عديدة تشير الى أن الـدول الأوربية الشرقية تمنح العمال المهرة مزايا مادية واجتماعية تفوق تلك التى تمنحها لصغار الموظفين • لكن النظرة العامة توضـح أن صـغار الموظفين يحصلون على دخول تتوسط تلك التى يحصل عليها العمال المهرة ، وتلك التى يحصل عليها العمال غير المهرة • ففى يوغوسلافيا ــ مثلا ــ كان دخل العامل الماهر فى سنة ١٩٦١ يزيد بنسبة ٢٥ ٪ عن دخل الموظف الصغير ، بينما كان دخل الاخير أعلى بنسبة ٣٥٪ من دخل العامل غير الماهر[١١١] • ولقد حاولت بعض الدراسات منح هذه التفرقة أهمية ودلالة خاصة ، حينما درست الهيبة المهنيـة فى الدول الاشـتراكية • من ذلك دراسـة سـاراباتا Sarapata وفيسولوفسكى Wesolowski التى أوضحت أن الوظائف اليدوية الماهرة فى بولندا تتمتع بهيبة اجتماعية أعلى من تلك التى تتمتع بها وظائف صـغار

---

(109) Baykov, A., The Development of Soviet Economic System : An Essay on the Experience of Planning in the USSR. Cambridge University Press, 1955.

(110) Goldlthorpe, J., «Social Stratification in Industrial Society», op. cit.

(111) Parkin, F., «Market Socialism and Class Structure : Some Aspects of Social Stratification in Yuogoslavia», in Giner, S. and Morton, M. (eds.) Social Stratification in Europe, London, 1974.

الموظفين ، وهو عكس ما كان سائدا تماما قبل التحول الاشتراكى[١١٢] • وفى يوغوسلافيا أيضا أوضحت بعض الدراسات أن العمل اليــدوى الماهر هو العمل المفضل على العمل الكتابى حينما عبر الآباء عن المهن التى يفضلونها لأبنائهم • ومن خلال الدراسات المختلفة التى تناولت التدرج المهنى فى دول أوربا الشرقية يمكن القول ان مهن المثقفين (الفنية العليا) تحتــل المكانة العليا ، تليها المهن الماهرة ، فمهن صغار الموظفين ، وأخيرا المهن اليــدوية غير الماهرة •

(٨)

وتحتل جماعات المثقفين مكانة هامة داخل بناء المجتمع الاشتراكى • وتضم هذه الجماعات فيما تضم ذوى المهن الفنية العليا كأساتذة الجامعات والأطباء والمهندسين والفنيين فضــلا عن القادة المحليين داخــل الحــزب الشيوعى • ولقد أوضحت دراسات عديدة أن الفارق بين الدخول التى تحصل عليها هذه المهن والدخول التى تحصل عليها المهن اليدوية يفوق الفارق بين دخول العمال الفنيين ودخول صغار الموظفين • بعبارة أخرى فان الدخول التى تحصل عليها جماعات المثقفين (ذوى المهن الفنية العليا) فى الــدول الاشتراكية تفوق بشكل ملحوظ تلك التى تحصــل عليها أية جماعة مهنية أخرى ، مما يوحى بأنها تحتل مكانة هامة داخل البناء الاجتماعى • وبالاضافة الى المرتبات الاساسية العالية نسبيا التى تتمتع بها جماعات المثقفين ، فانها تحصل أيضا على مكافآت اضافية مختلفة وامتيازات أخرى تعمل جميعها على زيادة التفاوت بينها وبين الجماعات الاخرى • كذلك فان جمــاعات المثقفين تتمتع بتسهيلات وخدمات خاصة كالحصول على مسكن أفضــل ، وفرص السفر الى الخارج ، واستخدام السيارات الحكومية وغير ذلك من امتيازات الوظيفة[١١٣] • ومن غير المحتمل أن تمتد هــذه التســهيلات الى

---

(112) Sarapata, A. Wesolowski, «The Evaluation of Occupations by Warsaw Inhabitants», American Journal of Sociology, May, 1961.

(113) Bergson, A., The Structure of Soviet Wages, A study in Socialist Economics, Harvard University Press, 1954.

الجماعات المهنية الادنى كما يحدث أحيانا فى الدول الأوربية الغربية • وفى كل الأحوال يمكن القول ان هناك مسافة اجتماعية ملحوظة تفصل ذوى المهن الفنية العليا عن صغار الموظفين فى كل من النظامين الاشتراكى والرأسمالى ، وان كنا لا نستطيع اعتبار هذه المهن ضمن الطبقة الوسطى فى حالة النظام الاشتراكى •

والمحقق أن الحدود التى تفصل جماعات المثقفين عن بقية الجماعات المهنية تزداد وضوحا وتبلورا اذا ما أخذنا فى اعتبارنا العامل السياسى ، وأعنى العضوية فى الحزب الشيوعى ، والحصول على الامتيازات المرتبطة بهذه العضوية • ففى معظم دول أوربا الشرقية تعرضت الاحزاب الشيوعية لعمليات بعيدة المدى ، من بينها الانخفاض التدريجى فى نسبة عضوية العمال والفلاحين • فخلال فترة اعادة البناء كانت البروليتاريا تمثل العمود الفقرى لهذه الاحزاب(١١٤)• لكن هذا الوضع ما لبث أن تغير — الى حد ما — فى فترة لاحقة بنمو عدد المثقفين الذين يعملون فى المهن الفنية العليا والتحاقهم بهذه الاحزاب ثم قدرتهم على التأثير فيها • ففى يوغوسلافيا كان العمال والفلاحون يشكلون أربعة أخماس العضوية فى الحزب خلال سنة ١٩٤٨ ، وما لبثت هذه النسبة أن انخفضت الى النصف فى سنة ١٩٥٧ • وتشير البيانات الصادرة عن الحزب فى سنة ١٩٦٧ الى استمرار انخفاض نسبة تمثيل العمال والفلاحين فى عضوية الحزب وارتفاع نسبة تمثيل المتخصصين الفنيين • والواقع أن التغيرات التى طرأت على البناء المهنى للحزب لم تكن فقط نتيجة لتغير نسب الالتحاق به ، ولكنها كانت بسبب نمط الاستقالة والتطهير • ففى سنة ١٩٦٦ وحدها كان أكثر من نصف العمال الذين طهروا من بين العمال الصناعيين ، بينما وصلت نسبة العمال الذين استقالوا طواعية ٥٤ ٪ • ويمكننا أن نجد نفس هذا الموقف فى بولندا • ففى سنة ١٩٥٤ لم تكن تزيد نسبة العاملين فى المهن غير اليدوية فى عضوية الحزب عن ٤٣ ٪ ، ثم ارتفعت فى سنة ١٩٦١ الى ٤٣ ٪ • كذلك أوضحت دراسة لاحقة أن

---

(114) **Parkin, F.,** «Class Stratification in Socialist Societies» op. cit.

احتمال التحاق ذوى التعليم العالى بالحزب يزيد عن احتمال التحاق ذوى التعليم الابتدائى به بمعدل ثلاثة أضعاف ، وأن معظم المتفرغين السياسيين فى الحزب هم من المثقفين ذوى المهن الفنية العليا[١١٥] . وفى تشيكوسلوفاكيا كان ٦٠٪ من أعضاء الحزب من العمال اليدويين عند بداية الحكم الاشتراكى، ثم ما لبثت أن انخفضت هذه النسبة الى ٣٦٪ فى سنة ١٩٥٦ . ومثل هذا عن المجر يقال . اذ زادت نسبة ذوى المؤهلات الفنية العليا فى عضوية الحزب زيادة ملحوظة خلال السنوات الاخيرة . ويصل هذا الاتجاه أقصاه فى الاتحاد السوفييتى ، حيث أوضحت بعض التقديرات أن واحدا من كل ثلاثة من ذوى المهن الفنية العليا هو عضو الآن فى الحزب الشيوعى[١١٦] .

وتوضح لنا هذه الشواهد أن المثقفين (ذوى المهن الفنية العليا) فى البلاد الاشتراكية قد ارتبطوا بالاحزاب الشيوعية ارتباطا قويا ، وأن ذلك فى حد ذاته يمثل ظرفا لاكتساب مكانة متميزة داخل البناء الاجتماعى . على أن معظم المزايا التى يحصل عليها المثقفون تتعلق أساسا بمكاناتهم المهنية ، وأنهم بذلك يتماثلون مع قرنائهم فى الدول الغربية . وفضلا عن ذلك فان التحاق المثقفين فى الدول الاشتراكية بالاحزاب الشيوعية يتيح لهم فرصة الحصول على مزايا اضافية أخرى قد تأخذ فى بعض الاحيان شكلا ماديا ، وقد تأخذ فى أحيان أخرى شكلا أدبيا[١١٧] . ومن الامور المألوفة أن عضو الحزب الذى يحصل على تقارير جيدة قد يجد تسهيلات عديدة ، من بينها الترشيح لوظائف أعلى وأهم . ومن هنا يمكن القول انه بزيادة ارتباط الجماعات المهنية بالحزب ، تزداد فرصهم فى الحصول على مزايا مادية واجتماعية لا ترتبط بالضرورة بتقسيم العمل . وبهذا المعنى فان المثقفين

---

(115) Bauman, Z., «Economic Growth, Social Structure, Elite Formation», International Social Science Journal, No. 2, 1964, p. 213.

(116) Lane, D., Politics and Society in the USSR, Weidenfeld and Nicolson, 1970.

(117) Armstrong, J., The Soviet Bureaucratie Elite : A Case Study of the Ukranian Apparatus, Praeger, 1959.

ذوى المهن الفنية العليا فى المجتمع الاشتراكى يحصلون على مزايا لا تقل عن تلك التى يحصل عليها قرناؤهم فى المجتمع الرأسمالى .

وازاء الوضع الاجتماعى والمادى المتميز الذى يتمتع به المثقفون فضلا عن ارتباطاتهم القوية بالاحزاب الشيوعية ، بدأ بعض الدارسين يعتقدون أنهم يشكلون « طبقة مسيطرة » . ولقد رأينا فى موضع سابق كيف ان بعض العلماء قد أرادوا قصر استخدام هذا المفهوم على أولئك الذين يشغلون الأوضاع السياسية الهامة فى الدولة . ومن هؤلاء ميلوفان ديجلاس Djilas الذى عرف « الطبقة الجديدة » بأنها تضم أولئك الذين يتمتعون بالامتيازات الاجتماعية والاقتصادية بفضل احتكاراتهم الادارية(١١٨) . ولقد قصد ديجلاس بذلك أن أولئك الذين يشغلون وظائف حزبية دائمة هم أكثر المنتفعين من النظام السياسى اذا ما قورنوا بأصحاب المهن الفنية العليا والادارية الذين لا تزيد علاقتهم بالحزب عن مجرد العضوية العادية . ومع ذلك فمن الصعب التسليم بهذه التفرقة فى بعض الاحيان . اذ أن التفرغ السياسى للحزب يرتفع بين الحاصلين على مؤهلات تعليمية عليا ، وقد يحدث أن تكون لهم خبرات مهنية سابقة فى بعض المجالات العملية قبل تفرغهم . كذلك فان العضو المتفرغ apparatchiki قد يغير أحيانا خطه المهنى ويلتحق ببعض الوظائف الادارية البعيدة عن المجال السياسى . ولقد ذهب بعض الباحثين الى أن من الخطأ اعتبار أصحاب المهن الفنية العليا والمتفرغين السياسيين طبقتين مستقلتين ذات مصالح متعارضة . انهما يمثلان وحدة أساسية ذات أهداف واحدة . ومع أن بالامكان التمييز بين هاتين الجماعتين ، الا أن الاختلافات بينهما ليست أكبر من تلك التى توجد بين الجماعات المختلفة التى تشكل الطبقة المسيطرة فى المجتمع الرأسمالى(١١٩) ، وعندما ناقش ديجلاس مفهوم « الطبقة الجديدة » فى الدول الاشتراكية ، كان واعيا بالمكانة

(118) Djilas, M., The New Class, op. cit.

(119) Schapiro, L., The Communist Party of the Soviet Union, Constable, 1960.

المتميزة التى تحققها جماعات المثقفين خارج نطاق الحزب . لذلك نجـده يبدى اهتماما بمقارنة « الطبقة الجديدة » فى المجتمع الاشتراكى بالطبقة « المالكة البرجوازية » فى المجتمع الرأسمالى . ذاهبا الى أن الاولى تمتلك حقوق الملكية التى تتمتع بها الثانية . فاذا كانت الملكية تتحدد على أسـاس سيطرة الانسان على ممتلكات الآخرين (وليس مجرد الحق القانونى فى ذلك)، فانه يمكن اعتبار الطبقة المسيطرة فى المجتمع الاشتراكى طبقة مالكة . وبهذا المعنى فانها تمارس وضعا استغلاليا شأنها فى ذلك شأن نظيرتها فى المجتمع الرأسمالى . فكلتاهما تحصل على مكانة متميزة داخل المجتمع بفضـل استغلالهما لفائض القيمة الذى تحققه الطبقة الخاضعة[120] . واذا ما استبدلنا التصور القانونى للملكية بالتصور السوسيولوجى لها . أمكن القول ان ثمة تماثلا فى السيطرة التى تمارسها البرجوازية الكلاسيكية فى المجتمع الرأسمالى، والطبقة الجديدة فى المجتمع الاشتراكى[121] .

ومع ما تنطوى عليه وجهة نظر ديجلاس من جاذبية . الا أن من الصعب التسليم بكل عناصرها . ففى المجتمع الاشتراكى لا يوجد حق قانونى فى توريث الملكية الانتاجية وانتقالها من جيل لآخر . لذلك فان امتيازات الطبقة الجديدة تعتمد أساسا على تلك المرتبطـة بالوظائف السياسية . كمـا أنها لا تنتقل من الآباء الى الأبناء كما يحـدث للممتلكات الخاصـة . ان أهم الخصائص التى تميز البرجوازية وتمنحها طابعها الخاص هو قدرتها على الاستمرار عبر الزمن بانتقال الملكية والثروة عبر أجيالها ، ثم ظهور خصائص ثقافية مميزة تعمل على تأكيد ذاتيتها الاجتماعية . ولا نجد نظيرا لهـذا الموقف فى المجتمع الاشتراكى ، مما يجعل المقارنة عند هذا الحد غير مجدية . ومع ذلك فهناك اعتبارات أخرى يمكن الاشـارة اليها هنا . من ذلك أن « الطبقة الجديدة » فى المجتمع الاشتراكى قد تتمكن من تزويد أبنائها ببعض المزايا التى تؤهلهم الحصول على وضع اجتماعى متميز . فاذا ما تمكن أبناء

---

(120) Djilas, M., op. cit.
(121) Ibid. p. 120.

« الطبقة الجديدة » من الحصول على مؤهلات تعليمية عالية نتيجة لأصولهم الاسرية المتميزة ، فانهم بذلك يكونون قد بدأوا حياتهم بداية قوية شأنهم في ذلك شأن أبناء الطبقة البرجوازية في المجتمع الغربي ، الذين يبدأون حياتهم بالثروات التي تنتقل اليهم من آبائهم • واذا ما أخذنا بوجهة نظر الاقتصاديين الذاهبة الى أن التعليم العالي يشكل استثمارا يدر عائدا عاليا ، فان المقارنة بين الملكية الموروثة والتعليم المكتسب عن طريق الآباء تصبح ملائمة • وأيا كانت المزايا التي تنتقل من الآباء الى الأبناء (سواء كانت ملكية أو تعليم) ، فان الشيء الواضح هو أن الطبقة المسيطرة في كلا النظامين تتمكن من تزويد أبنائها ببعض الفرص الهامة التي لا تتاح لأبناء الطبقة الخاضعة • واذ ما تأملنا وجهة نظر ديجلاس في ضوء هذه الاعتبارات ، سنجد ان معالجته لمفهوم « الطبقة الجديدة » ومقارنتها « بالطبقة البرجوازية » تكتسب مزيدا من القوة • وهناك شواهد عديدة تؤيد ذلك • ففي دول أوربا الشرقية لوحظ أن أبناء المثقفين ذوي المهن الفنية العليا يحصلون على أعلى الدرجات العلمية ، وأنهم غالبا ما يتمكنون من التفوق على أبناء الطبقة العاملة ، وبالتالي فانهم يلتحقون بمهن تشبه مهن آبائهم بحيث يندر أن يعمل أحد منهم في المهن اليدوية[١٢٢] • وحينما تصبح المؤهلات التعليمية هي شرط الحصول على المهن المتميزة ، فان الطبقة المسيطرة تحاول تدعيم مواقعها بحصول أبنائها على هذه المؤهلات ، خاصة اذا لم تكن هناك سياسات طبقية تعمل على موازنة هذا الموقف لصالح الطبقة[١٢٣] • ولقد كان ذلك هو الحال في كل البلاد الاشتراكية خلال فترة اعادة البناء حينما كان أبناء البروليتاريا يحصلون على الظروف التي تمكنهم من الحصول على أوضاع اجتماعية متميزة • ومع أن هذا الاتجاه لا يزال قائما ، الا أنه قد أصبح أقل صرامة •

---

(122) Linnemann, H., et al. «Convergence of Economic Systems in East and West», in Bornstein, M. and Fusfeld, D. (eds.), The Soviet Economy, Homewood, Illinois, 1970.

(123) Glezerman, G., «From Class Differentiation to Social Homogeneity», in Hollander, P. (ed.), American and Soviet Society, Englewood Cliffs, 1969.

واذا كانت مناقشاتنا السابقة قد كشفت عن بعض وجوه الشبه بين النظامين الاشتراكى والرأسمالى فيما يتعلق بقضية الأجور ، فان ذلك يجب ألا يدفعنا الى تجاهل الاختلافات الاساسية بين النظامين • ولتوضيح ذلك يمكننا تناول ظاهرة الحراك الاجتماعى الصاعد فى الدول الاشتراكية • فعلى الرغم من أن أبناء الجماعات المتميزة يحصلون على بعض التسهيلات التى تمكنهم من تحقيق حراك اجتماعى صاعد ، الا أن أبناء العمال والفلاحين لديهم أيضا فرص عديدة لاحراز التقدم الاجتماعى • فزيادة أعداد المهن الفنية العليا فى دول أوربا الشرقية لم تتح لابناء المثقفين فقط الالتحاق بهذه المهن ، بل أيضا لابناء الفلاحين والعمال • بعبارة أخرى فان « الطبقة الجديدة » (اذا ما استخدمنا تعبير ديجلاس) لم تصبح جماعة اجتماعية مغلقة ترفض أن ينتمى اليها أبناء « الطبقات الاولى » • وهناك شواهد متنوعة تؤكد أن وصول أبناء العمال والفلاحين الى المهن الفنية العليا قد أصبح ظاهرة مألوفة الى حد كبير • فلقد كشفت دراسة مجرية عن أن ٧٧٪ من الذين يشغلون وظائف ادارية وفنية عليا كانت أصولهم بروليتارية • كذلك أوضحت نفس الدراسة أن ٥٣٪ من الأطباء والعلماء والمهندسين قد أتوا من أسر الطبقة العاملة ، وأن هذه النسبة تعد مؤشرا هاما على فعالية الاصلاحات التعليمية(١٢٤) • وفى يوغوسلافيا نجد مؤلفا مشابها • فلقد أوضح تعداد سنة ١٩٦٠ أن ٨ر٦١ ٪ من الذين يشغلون أوضاعا ادارية هامة قد أتوا من أسر عمالية ، وان كان من المحتمل هنا أن نجد العوامل السياسية تلعب دورا رئيسيا فى تشكيل هذه النسبة ، خاصة وأنها تضم المتفرغين السياسيين فى الحزب الشيوعى (١٢٥) •

وربما كانت القضية الهامة التى يمكن أن تثار هنا تتعلق بمدى انفتاح البناء الطبقى فى الدول الاشتراكية على المدى البعيد • ذلك أن ارتفاع

---

(124) Wesolwski, W., The Nations of strata and Class in Socialist Society», in Béteille (ed.), Social Inequality, Penguin Books, 1970.

(125) Milic, V., «General Trends in Social Mobility in Yugoslavia», Acta Sociologica, Nos 1/2, 1965.

معدلات الحراك الاجتماعى فى هــذه الدول تعــود لاعتبــارات ســياسية وايديولوجية بقدر ما تعود لاعتبارات بنائية لعل أبرزها النمو السريع فى المهن الفنية العليا • وهنا نجد تساؤلا هاما يفرض نفسه علينا وهو : هل سيسمح أفراد الطبقة الجديدة لأبناء الطبقة العاملة بالحصول على أوضاع قيادية استنادا لاعتبارات ايديولوجية ؟ ان المستقبل هــو الذى ســيحدد الاجابة على هذا التساؤل • والواقع أننا لا نستطيع أن نحسم هنا كثيرا من القضايا المتعلقة بمستقبل المجتمعات الاشتراكية ، على الرغم من أن ذلك يساعدنا على فهم أفضل لعملية التفاوت الاجتماعى •

الفصل الثانى

الصفوة وبناء القوة

يعد مفهوم الصفوة Elite أحد المفاهيم المحورية فى الكتابات الاجتماعية والسياسية المعاصرة • وعلى الرغم من الحداثة النسبية لاستخدامه ، الا ان معناه قد تردد فى الفكر الاجتماعى منذ زمن بعيد • منذ ظهور الاهتمام بدراسة طبيعة المجتمع الانسانى ، وهناك تساؤلات عديدة حول طبيعة الجماعة الحاكمة وعلاقتها بالجماهير ، ونوعية النظام السياسى وقدرته على التعبير عن الارادات الجمعية ، فضلا عن معنى المساواة السياسية وعلاقتها بالبناء الطبقى • ان باستطاعة أى متتبع للفكر الاجتماعى والسياسى منذ ظهوره أن يجد اجابات عديدة ومتباينة على هذه التساؤلات ابتداء من افلاطون وأرسطو مرورا بماركس Marx وباريتو Pareto • وصولا الى رايت ميلز Mills ودال Dahl • ومن الطبيعى أن تختلف معالجة العلماء الاجتماعيين لهذا المفهوم باختلاف الفترة الزمنية التى ينتمون اليها ، وباختلاف المنطلقات الفكرية التى ينطلقون منها • ولسوف نجد هؤلاء العلماء يستخدمون مفاهيم مختلفة للتعبير عن وجود جماعة أو جماعات تتحكم فى القرارات الاساسية وممارسة السلطات على نطاق واسع كالطبقة الحاكمة ، والصفوة السياسية ، والقلة المسيطرة • وعلى الرغم من وجود اختلاف ملحوظ بين المعانى التى تشير اليها هذه المفاهيم ، الا أن القضية المشتركة هى وجود قلة مسيطرة تتحكم فى القرارات السياسية والاقتصادية ، وغالبية خاضعة لهذه القرارات ، وذلك برغم الأساليب الديموقراطية الهادفة الى التعبير عن الارادات الجمعية[1] • لكننا نلحظ — مع ذلك — تضاربا شديدا فى مواقف العلماء الاجتماعيين من حتمية وجود الصفوة واستمرارها كأسلوب للحكم • فالبعض يؤكد أن مفهوم الصفوة مرتبط بوجود بناء طبقى استغلالى

---

(1) Cole, G., Studies in Class Structure, London, Routledge and Kegan Paul, 1955, Chap. V.

يفرز ـــ بالضرورة ـــ جماعات أو طبقات حاكمة ، وبالتالى فان وجود الصفوة فى مجتمع معين مرتبط بطبيعة بناء هذا المجتمع • والبعض الآخر يؤكد أن ظهور الصفوة مطلب حتمى يفرضه التباين الاجتماعى وضرورة التنسيق بين النشاطات المختلفة ، فضلا عن بعض الاعتبارات السيكولوجية التى تتمثل فى القدرات الخاصة التى يتمتع بها من يحتلون أوضاع الصفوة[٢] • ولسوف نتناول فى هذا الفصل أهم النظريات الاجتماعية والسياسية التى حاولت فهم طبيعة الصفوة وعلاقتها بالبناء الاجتماعى ؛ موضحين تأثير المنطلقات الايديولوجية على هذه النظريات ، مستشهدين ـــ قدر الامكان ـــ بالشواهد الواقعية فى تقييمها •

(١)

من الصعب فهم نظريات الصفوة فى علم الاجتماع الغربى دون توضيح مفهوم « الطبقة الحاكمة » عند كارل ماركس Marx ، ذلك أن هذه النظريات ـــ كما أكدنا ذلك فى دراسة سابقة[٣] ـــ تمثل استجابة أو رد فعل طبيعى لنظريته العامة فى المجتمع الانسانى • ولقد أوضح ماركس أنه باستثناء المجتمعات البدائية ، نجد التاريخ الانسانى بمراحله المختلفة يشهد طبقتين : الأولى حاكمة تملك الوسائل الاساسية للانتاج وتمد سيطرتها على المجالات العسكرية والثقافية والاجتماعية ، والثانية محكومة لا تملك سوى قوة عملها ؛ وأن هناك صراعا دائما بين هاتين الطبقتين (السادة والعبيد ، كبار ملاك الأرض والاقنان ، البرجوازية والبروليتاريا) • غير أن ماركس قد اهتم اهتماما خاصا بتحليل موقف الطبقة الحاكمة فى المجتمع الرأسمالى ، ذاهبا الى أن وجود هذه الطبقة مرتبط بوجود التقسيمات الطبقية النابعة من الرأسمالية ، وأن اختفاء هذا المجتمع الرأسمالى هو أمر حتمى تفرضه

---

(2) Butler, D., The Study of Political Behaviour, Hutchinson University Library, 1958, p. 58.

(٣) انظر مقدمتنا للترجمة العربية لكتاب ت.ب. بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ص ص ٥ ـــ ٣٠ . صدرت للكتاب طبعة ثانية عن دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

طبيعة القوانين التى تحكمه وهى : فائض القيمة ، وتراكم رؤوس الاموال ، والافقار المطلق[٤] . ان كل هذه القوانين تسهم فى انهيار الرأسمالية وتدعيم الوعى الطبقى للبروليتاريا ، بما يؤدى فى نهـاية الامر الى ظهـور مجتمع شيوعى خال تماما من الطبقات . ومن ذلك يبدو واضحا أن الطبقة الحاكمة عند ماركس تكتسب سيطرتها من خلال تحكمها فى وسائل الانتاج . وأن ذلك يؤدى الى تشكيل النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية بطابع خاص يتلاءم مع أوضاعها[٥] . وفى ضوء هذه النقطة نجـد ماركس يؤكد أن المجتمـع الشيوعى هو ــ بالضرورة ــ مجتمع لا طبقى يمارس فيه الناس سـيطرة كاملة على أقدارهم ويتحررون من طغيان أجهزة وأشياء صنعوها بأنفسهم مثل الدولة ، والبيروقراطية ، ورأس المال . والتكنولوجيا . ويبـدو ذلك واضـحا فى مؤلفـه « الايديولوجيـة الالمـانيـة » German Ideology حيث يقول : « ان العلاقة الجماعية التى كان يدخل فيها أفراد الطبقة ، والتى تتحدد طبقا لمصالحهم المشتركة المعارضة لمصالح طرف ثالث ، مثل هـذه العلاقة كانت تخلق مجتمعا ينتمى اليه الافراد بوصفهم أفرادا عاديين ، وأن هذا الوضع يظل قائما طالما ظلت أوضاعهم الطبقية هذه قائمة ، وفى هـذه العلاقة لم يكن الافراد يشاركون بوصفهم أفرادا . بل بوصفهم أعضاء فى طبقة ، أما فى مجتمع البروليتاريا الثورية (حيث تسيطر الطبقة العاملة على ظروف وجودها ووجود بقية أفراد المجتمع) فان هذا الموقف ينعكس تماما ، ذلك لأن الافراد سيشاركون فى صنع هذا المجتمع بوصفهم أفرادا ، وباتحاد هؤلاء الافراد تظهر الى حيز الوجود الظروف المهيئة للتطور الحر والنشاط الخلاق للأفراد ، وهى ظروف تركت قبل ذلك للصدفة ، ثم اكتسبت بعد ذلك وجودا مستقلا فرض نفسه على الناس فرضا[٦] » . ومن ذلك نجد أن ماركس

---

(4) Avineri, S., The Social and Political Thought of Karl Marx, Cambridge University Press, London, 1968.

(5) Marx, K. and Engels, Manifesto of the Communist Party, Foreign Languages House, Moscow, 1957.

(6) Marx, K., The German Ideology, Lawrence and Wishart, 1965.

يؤكد ضرورة تحرير الانسان من سيطرة الحكومة والادارة ، اللتين تتخذان وضعا متسلطا على الافراد ، بحيث يتمكن من المشاركة الكاملة فى اتخاذ القرارات ذات الاهمية الاجتماعية العامة •

ولقد ترك مفهوم « الطبقة الحاكمة » عند ماركس تأثيرا هائلا على الفكر الاجتماعى الغربى خلال القرن التاسع عشر ، بحيث نستطيع القول ان كل المحاولات النظرية التى عالجت فكرة الصفوة كانت بمثابة نقد لنظرية ماركس بعامة ومفهوم الطبقة الحاكمة بخاصة • فلقد سعى بعض علماء الاجتماع خلال القرن التاسع عشر — وعلى نحو ما سنرى بعد قليل — الى صياغة نظريات سياسية ذات طابع « علمى » خالص[٧] • وفى سعيهم هذا نجدهم يحاولون اقامة علم سياسى جديد يقوم على « الموضوعية » ، والتحرر من « الاعتبارات الاخلاقية » ، والتخلص من التأثير الطاغى لمفهوم الايديولوجية • ومعنى ذلك أن هذا العلم سوف يتفادى — فى نظرهم — الأخطاء العديدة التى ارتكبتها الماركسية عندماخلطت بين العلم والايديولوجية فى دراسة ظاهرة كالصفوة السياسية • وهكذا نجد موسكا Mosca فى تناوله لمفهوم « الطبقة الحاكمة » يحرص حرصا شديدا على ابراز النجاح الذى أحرزته العلوم الطبيعية فى تفسير ظواهرها واخفاق العلوم الاجتماعية فى أداء هذه المهمة فى مجال ظواهرها • لذلك نجده فى الفصل الأول من مؤلفه « الطبقة الحاكمة »[٨] يعقد مناقشة مستفيضة تناول فيها المناهج الملائمة للعلوم السياسية بوجه عام ، ذاهبا الى أن المفكرين السياسيين قد حصروا مهمتهم فى تقديم توصيات وتصورات ، ولم ينشغلوا اطلاقا بالتوصل الى الأسس والدعائم التى تقوم عليها النظم السياسية ذاتها • ولقد دافع موسكا عن وجهة نظره الى حد القول بأن علماء السياسة السابقين (بما فيهم ماركس) قد افتقدوا المعرفة التاريخية التى هى متاحة لنا الآن ، فضلا عن

---

(7) Runciman, W., Social Sciences and Political Theory : Cambridge University Press, 1971, pp. 22-42.

(8) Mosca, G., The Ruling Class, New York, McGraw-Hill, 1939, p. 45.

أنهم لم يستطيعوا — استنادا الى القدر من المعرفة الذى كان متاحا لديهم — أن يصوغوا ويتناولوا الظواهر السياسية تناولا موضوعيا [٩] • ويمكننا أن نلمس هذا الاتجاه عند باريتو Pareto حينما تناول فكرة « الطبقة الحاكمة » عند ماركس • فهو يقول : « لا يعنينا على الاطلاق صدق دين أو عقيدة معينة ، كما أننا نرفض مناقشة ما اذا كانت حقيقة معينة عادلة أم ظالمة ، أخلاقية أم غير أخلاقية » • ومن الواضح هنا أن باريتو يرفض أى التزام خلقى فى دراسة الصفوة ، بل ويعتبر أن أكبر الاخطاء الكامنة فى نظرية ماركس هو تأكيدها للجوانب الاخلاقية •

والواقع أن الانتقادات التى وجهت لمفهوم ماركس عن « الطبقة الحاكمة » قد تبدو أكثر وضوحا اذا ما وضعناها فى سياق التيارات الفكرية التى كانت سائدة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين • فمعظم هذه التيارات كانت تميل الى الدفاع عن ايديولوجية تحمى المصالح السياسية للطبقة الوسطى بوجه عام[١٠] • فموسكا — مثلا — لم يذهب فقط الى أن سيطرة الصفوة ضرورية أو حتمية فى أى مجتمع من المجتمعات ، بل ذهب أيضا الى أن الصفوة يجب أن تتألف — أساسا — من أفراد الطبقة الوسطى ، وأن المواهب والمزايا التى تتمتع بها هذه الطبقة تضمن لها سيطرة دائمة • ومن هنا يمكن القول ان موسكا قد سعى الى ابراز الوسائل التى من خلالها تتمكن الصفوة من الاستمرار فى أوضاعها المتميزة • وفضلا عن ذلك فان كتابات موسكا — فى مجموعها — تتضمن دفاعا حارا عن الحكم النيابى الذى كان سائدا فى أوربا خلال القرن التاسع عشر ، ذلك الحكم الذى شهد سيطرة كاملة للطبقة الوسطى فى البرلمانات والاحزاب السياسية بفضل ذكائها السياسى وقدرتها على التكيف مع الضغوط التى خضعت لها من جانب القوى الاجتماعية والاقتصادية الاخرى • والواقع أن كتابات موسكا وباريتو — التى كانت بمثابة نقد مباشر لنظرية ماركس — قد شكلت سندا قويا للطبقة الوسطى فى أوربا بعامة وايطاليا بخاصة • بيد أن هذه

---

(9) Ibid. P. 41.

(10) Sereno, R., The Rulers : Theory of the Ruling Class, Harper & Row, 1968, p. 20.

الطبقة ظلت فى نفس الوقت خاضعة لتهديد قوى من جانب الطبقة العاملة التى حققت وقتئذ وعيا سياسيا شديدا وقدرا كبيرا من التنظيم[١١] • وازاء هذا الموقف سعى موسكا وباريتو الى تقديم ضمان قوى للطبقة الوسطى بأن مجرى التاريخ سيكون بالتأكيد لصالحهم • ولقد كان هذا الضمان عاجلا وضروريا لأن الطبقة العاملة حينئذ كانت قد وجدت فى الاشتراكية الماركسية ايديولوجية علمية ونظرية شاملة تفسر كل العلاقات الطبقيــة التى عرفتها المجتمعات الانسانية • والمحقق أن نظرية ماركس لم تواجه بنظرية شاملة مقابلة ، ذلك لأن ماركس قد حدد موقع القيادة السياسية ، ودور الطبقــة العاملة والمنظمات النيابية ، وموقف الجماهير بشكل عام •

ويبدو صدى النظرية الماركسية أوضح ما يكون فى نظريات الصــفوة التى ظهرت فى أواخر القرن التاســع عشر وأوائل القــرن العشرين والتى سنعرض لها بالتفصيل بعد قليل • فلقد بذل باريتو وموسكا جهودا مستميتة للكشف عن « زيف » التحليل الماركسى ، وتقديم نسق فكرى بديل عنها ، حتى تصبح الماركسية بعد ذلك ــ فى نظرهما ــ مجرد ايديولوجية وهمية خالية من أى سمة « علمية »[١٢] • وأحد أسباب ذلك أن ماركس قــد هاجم ــ بشدة ــ كل الاساطير الليبرالية المتعلقة بالنظم السياسية فى المجتمعــات الحديثة • وهو فى ذلك يرى أن الســياسيين والاقتصــاديين والفلاســفة البرجوازيين قد تصوروا أن تحليلاتهم للنظم والمثاليات التى دافعوا عنها ، تحليلات تتصف بالصدق العام ، بينما هى ــ فى حقيقة الامر ــ موجهة لخدمة مصالح الطبقة الحاكمة • ومع أن علماء الصفوة الكلاسيكيين قد وافقــوا ماركس على بعض ما ذهب اليه ، الا أنهم افترقوا عنه حينما ذهب الى أن الاوضاع القائمة ما هى الا مثير أو منبه يدفع الطبقة العاملة الى القيــام بعمل ثورى • ولقد كان قصدهم بهذا الافتراق منح الطبقة الوسطى سندا

---

(11) Runciman, W., Social Sciences and Political Theory, op. cit.

(12) Zeitlin, J., Ideology and the Development of Sociological Theory, Prentice-Hall, Inc. Englewood Clifss, 1968, Chap. 13.

ودعما ، ثم مهاجمة الماركسية على أسس أكثر صلابة • فباريتو ــ مثلا ــ يذهب الى أن الماركسية لم تقم تفرقة بين ما هو واقعى وما هو قيمى ، وأن النظرية العلمية ــ متفقا فى ذلك مع ماركس ــ يجب أن تقــود الى عمــل تطبيقى • غير أن باريتو هنا قد عالج العلاقة بين النظرية والتطبيق على نحو يختلف أشد الاختلاف عن معالجة ماركس ، مما دفع باريتو الى القــول بأن الجانب العلمى للماركسية لم يكن ملائما لكى تكتسب مزيدا من الاتباع • فالماركسية ــ كما يقول باريتو ــ يجب أن تفهم بوصفها تبريرا وانعكاســا ملائما للوقت الذى ظهرت فيه • وأنها ــ شأن أى معتقد ــ ما هى الا تعبير عن غرائز انسانية عامة •

وهكذا نجد علماء الصفوة الكلاسيكيين يعارضــون تفســير ماركس المادى للتاريخ • ويكاد يجمع هؤلاء العلماء على أن سياسة المجتمع ليست انعكاسا مباشرا للبناء الطبقى • فبناء القوة فى المجتمع عند باريتو وموسكا يتحدد أساسا وفقا لطابع قدرات قيادته السياسية • بعبــارة أخرى فان المهارة السياسية هى التى تحدد من الذى سيحكم والى أى اتجاه سيتغير ميزان القوة (١٣) • أما ماركس فيذهب ــ على النقيض من ذلك ــ الى أن القائد السياسى ما هو الا تعبير عن الطبقة الاقتصادية المسيطرة • والواقع أن علماء الصفوة الكلاسيكيين لا ينكرون تماما أهمية العوامل الاقتصادية ، ولكنهم يصرون على أن الوضع السياسى للصفوة يمكن أن يحدث تأثيرا أو تعديلا على القوى الاقتصادية • وفضلا عن كل ما سبق نجد تعارضا ملحوظا بين ماركس وعلماء الصفوة الكلاسيكيين فيما يتعلق بتفسير ما يمكن أن يطلق عليه « بالتوترات الاجتماعية » • فماركس يرد هذه التوترات الى الصراع بين الطبقة التى تملك وسائل الانتاج السائدة والتى تحكم بالتالى ، والطبقة أو الطبقات المحكومة التى يفرض عليها وضعها الاقتصادى اتخــاذ موقف معادى من الطبقة الحاكمة • أما علماء الصفوة فيردون هذه التوترات الى

---

(١٣) السيد الحسينى ، مقدمة كتاب ت.ب. بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، الترجمة العربية ، المرجع السابق ، ص ٢٠ •

الصراع الذى قد ينشأ بين الصفوة السياسية القائمة وأية صفوة منافسة أخرى تظهر لمنافستها فى الاخذ بمقاليد القوة(١٤) • ومما سبق يتضح أن التأثير الاساسى الذى أحدثته نظرية ماركس كان ظهور نظريات منافسة سعت الى انقاذ القادة السياسيين من وضع يتصف بالخضوع والاستسلام لعوامل خارجية • واذا ما حاولنا تحديد الانتقادات الاساسية التى وجهها علماء الصفوة الكلاسيكيون الى الماركسية ، أمكننا الاشارة الى أنهم قد سعوا الى وصف نظرية ماركس بأنها ايديولوجية محدودة النطاق زمانيا ، وأنها لذلك لا يمكن أن تكون علما للمجتمع وموجها للعمل وهو ما سعت الماركسية الى تحقيقه • ثم أنهم قد عارضوا تنبؤ ماركس بوجود مجتمع لا طبقى قائم على المساواة المطلقة ، وأنه لا يوجد أى مبرر لما ذهب اليه ماركس من أن البناء الطبقى فى المجتمع حتمى • وفضلا عن ذلك كله نجدهم يتحدون وجهة النظر الماركسية القائلة بأن العوامل الاقتصادية هى بمثابة القوى المحددة للتاريخ والرابطة التى توحد بين المجتمعات (١٥) •

(٢)

وتدفعنا هذه المناقشات الى تحليل الكتابات الكلاسيكية التى تناولت الصفوة بمعانيها المختلفة • وعلى الفور يبدو أمامنا فلفريدو باريتو Pareto واحدا من أظهر علماء الاجتماع اهتماما بمفهوم الصفوة • والواقع أن من الصعب فهم وجهة نظر باريتو حول هذا المفهوم دون الاشارة الى نسقه الفكرى العام ، ذلك النسق الذى يمثل فى خطوطه العريضة نقدا وهدما للنظرية الماركسية • فلقد ذهب باريتو الى أن سلوك الانسان عموما يتصف باللامنطقية ، لكنه لم يوضح تماما الظروف التى تسهم فى ذلك • ويكاد باريتو يقصر السلوك المنطقى الرشيد على المجالات الاقتصادية والعلمية ،

---

(14) Bachrach, P., The Theory of Democratic Elitism : A Critique, Little, Brown, 1967.

(15) Keller, S., Beyond the Ruling Class : Strategic Elites in Modern Society, Random House, 1963.

ثم يستبعد أية صفة منطقية على أى سلوك آخر • واستنادا الى ذلك نجده يستخدم مفهومين هامين هما : « العواطف » sentiments و « الرواسب » residues التى تشير الى « الثوابت » فى مجال السلوك الانسانى • ويؤكد باريتو بعد ذلك أن الافعال الاجتماعية برغم تنوعها واختلافها تصدر عن دوافع ثابتة ، وأن الانسان يميل باستمرار الى منح هذه الافعال تفسيرات وتبريرات معينة ، تلك التى أطلق عليها المشتقات derivations (بمعنى أنها مشتقة من العواطف) • غير أن باريتو لم يوضح لنا تماما كيف تحدد الثوابت (أو الرواسب) أنماط السلوك المختلفة على نحو محدد . وان كان قد حدد ست فئات أساسية من الرواسب كل منها تضم عددا من الفئات الفرعية • وهذه الفئات هى : أولا : غريزة التكامل وتعنى القدرة على الربط بين الاشياء • ثانيا : رواسب استمرار التجمعات ودوامها ويشير الى المحافظة على بناء العلاقات الاجتماعية القائمة • ثالثا : راسب ظهور العواطف أو تجليها فى أفعال خارجية ويدخل فى نطاقها صياغة التبريرات العقلية أو التعبير عن الذات • رابعا : راسب الألفة الاجتماعية أو الدافع نحو تكوين مجتمعات وفرض سلوك محدد • خامسا : راسب التكامل الشخصى وهو يعمل على إتيان أفعال تعمل على استعادة التكامل اذا ما طرأ عليه تغيير مثل الافعال التى تعتبر مصدرا للقانون الجنائى • سادسا : الراسب الجنسى • ومن الملاحظ أن هذه الرواسب تتداخل مع بعضها فى الحياة الاجتماعية بصور مختلفة • فتحقيق التكامل بين راسبى التوازن واستمرار الجماعات — مثلا — يعمل على ايجاد قوى مركبة ذات أهمية اجتماعية كبيرة ترتبط بعواطف واضحة وقوية من النوع الذى يمكن أن نطلق عليه مصطلحا غامضا هو « مثال العدالة »[١٦] • أما تحليل باريتو للمشتقات فكان أقل تفصيلا ووضوحا من معالجته للرواسب • فالمشتقات هى تجليات أو مظاهر سطحية ؛ أو بعبارة أخرى هى تفسيرات لقوى كامنة فى الحياة الاجتماعية • وبعد أن نظر

---

(16) Henderson, L., Pareto's Sociology. A Physiologist Intepretation, Harper, Row, 1953, p. 40 ff.

وانظر أيضا مناقشة شاملة لفكر باريتو الاجتماعى فى : تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، ترجمة محمود عودة وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ص ٢٣٨ — ٢٥١ •

باريتو فى البداية للمشتقات من منظور يعكس الطابع الذاتى لهذه التفسيرات، لخص أربع فئات أساسية من المشتقات هى : أولا مشتقات التأكيد التى تؤكد الواقع والعواطف . ثانيا : مشتقات السـلطة سـواء تعلقت بالافراد أو الجماعات أو العادات أو القوة الالهية . ثالثا : المشتقات المتصلة بالعواطف والمبادىء العامة (والتى تعمل كذلك على المحافظة عليها) . وأخيرا مشتقات خاصة بالبراهين اللفظية مثل الاستعارات الادبية والمماثلة .

وفى ضوء هذه المفاهيم التحليلية يمكننا تناول مفهوم الصفوة عنـد باريتو . وأول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال أنه (أى باريتو) قد استخدم تعبير التباين الاجتماعى للاشارة الى حقيقة اختـلاف الناس فيما يتعلق بخصائصهم الفيزيقية والاخلاقية الفكرية ، بحيث نجد بعضا منهم يتفوق على الآخرين فيما يتعلق بهذه الخصائص[١٧] . ولقد استخدم باريتو مفهوم الصفوة للاشارة الى « التفوق » فى مجالات الذكاء ، والطابع ، والمهارة ، والقدرة ، والقوة .. الخ . وعلى الرغم من أنه قد اعترف بامكانية حصول بعض الافراد على لقب « صفوة » دون امتلاكهم للصـفات التى تؤهلهم لذلك ، الا أنه قد أكد ـ فى نفس الوقت ـ القضية الذاهبة الى أن الذين يتميزون بخصائص الصفوة سوف يشكلون ـ بالضرورة ـ صفوة مقبلة . ويذهب باريتو الى أن بالامكان قياس درجات التفـوق أو الامتياز فى كل مجالات النشاط الانسانى : « ففى مجالى البغاء والسرقة ، وفى مجـالى القانون والطب ، يمكن تحديد درجات الافراد ابتداء من صـفر حتى عشر درجات . فالذى يحصل على الدرجة العاشرة يكون قد وصـل الى أقصى درجات التفوق فى مجاله . أما الذى لا يحصل على درجة عالية فيكون اما ضعيف العقل أو أن لديه صفات يمكن أن تتجلى فى نشاط انسانى آخر » . ويؤكد باريتو وجهة نظره قائلا : « لم يكن نابليون مجنونا أو شخصا عاديا كملايين البشر . لقد كان يتمتع بخصائص نادرة » [١٨] . وعلى ذلك فان

(17) Ginsberg, M., «The Sociology of Pareto», in Reason and Unreason in Society, London, Longmans, Green and Co., 1947.

(18) Ibid, p. 211.

الصفوة تتألف من أولئك الذين يحصلون على أعلى الدرجات فى مجـالات نشاطهم • ولقد ميز باريتو بين نوعين من الصفوات : صفوة حاكمة وهى التى تمارس الحكم بشكل مباشر أو غير مباشر ، وصفوة غير حاكمة وهى تتمتع بالصفات المميزة الصفوة الاولى ولكنها لا تمارس الحكم • وتشكل هاتان الصفوتان الطبقة العليا فى المجتمع • أما بقية أفراد المجتمع فيشكلون — فى نظر باريتو — اللاصفوة ، وهم لا يمثلون وزنا سياسيا كبيرا • وفى كتاباته المستفيضة نجده يستخدم هاتين الفئتين للاشارة الى وجود قلة حاكمة بحكم خصائصها وصفاتها ، وغالبية محكومة بحكم افتقادها للمؤهلات الشخصية التى تمكنها من ممارسة السلطة •

ويعتقد باريتو أن الراسب الأول (التكامل والقـدرة على الربط بين الاشياء) يسيطر على الطبقة العليا ، بينما يحكم الراسب الثانى (استمرار التجمعات ودوامها) الطبقة الدنيا فى المجتمع • بعبارة أخرى فان الراسـب الثانى يفقد قوته تدريجيا لدى الطبقة العليا بحكم سـيطرته على الطبقـة الدنيا • ومن هذه الزاوية نجد باريتو ينظر الى التاريخ على أنه مقبـرة الارستقراطيات ، بمعنى أن الصفوة الحاكمة تميل الى افتقاد العنـاصر الكمية والكيفية التى تمكنها من الاستمرار فى القبض على مقاليد القـوة نتيجة لضعف راسب التكامل لديها ونموه لدى الصفوة غير الحاكمة • وتتمكن الصفوة الحاكمة من الاستمرار فى الوجود ليس فقط بنمـو عددها ، ولكن أيضا بصعود أفراد من الطبقة الدنيا لتمتعهم بخصـائص الصفوة • واذا توقفت هذه الدورة ، فان الطبقة الحاكمة تنهار تلقائيا ويتدهور المجتمـع نتيجة لذلك • ويعتقد باريتو أن استقطاب العناصر المتفوقة من الطبقـة الدنيا وربطها بالصفوة الحاكمة يحول دون حدوث ثورات واضطرابات سياسية[١٩] • والواقع أن باريتو قد استند فى تحليله هـذا الى قضية أسـاسية هى : أن المجتمعات تتمكن — عموما — من الاستمرار فى الوجود بسبب قوة التعاطف المرتبطة براسب الألفة الاجتماعية • فغريزة التجمع تعمل على ربط الناس

(19) Keller, S., Beyond the Ruling Class : Strategic Elites in Modern Society, op. cit.

ببعضهم البعض • لذلك فان قدرة المجتمــع على التكامل تتوقف على قوة المشاعر الاجتماعية بين أفراده • وبقدر ما تنتشر وتشتد هذه العواطف بين الافراد بقدر ما يميل المجتمع الى الاستقرار والتوازن • بعبارة أخرى فانه كلما زاد راسب الألفة الاجتماعية قوة ، زاد الامتثال الاجتماعى • ويؤكد باريتو ذلك بقوله : « ان كل المجتمعات متباينة فيما يتعلق بمدى الرواسب • فالرغبة فى تحقيق الامتثال قد تكون قوية عند بعض الافراد ، وقد تــكون ضعيفة عند البعض الآخر » • ثم يحاول الربط بين هذه الفكرة ووجهــة نظره فى الصفوة ، ذاهبا الى أنها (أى الصفوة) هى القادرة على تحــديد المصلحة الاجتماعية ، وأن على بقية أفراد المجتمع المحافظة على النظـــام الاجتماعى حتى تتمكن الصفوة من أداء مهامها • وعلى الرغم من لباقة باريتو فى صياغة وجهة نظره هذه ، الا أنها تعنى ــ فى مضمونها ــ أن الجماهير لا تستطيع بمفردها تحديد مصالحها وأهدافها [٢٠] •

وفى كتابات باريتو نجد معالجة مستفيضة لقضية لجوء الصفوة للقوة فى حالة تعرضها للخطر • فالصفوة الحاكمة التى تفشل فى مواجهة القوة بالقوة قد تجد نفسها بعيدة عن السلطة حينما تتمكن صفوة غير حاكمة من الاطاحة بها • وعندما تتردد الصفوة الحاكمة فى استخدام القوة والقهر وتلجأ الى المناورة والخداع للمحافظة على وضعها ، فانها بذلك تكون قد حولت السلطة من أيدى « الأسود » الى أيدى « الثعالب » ، مما يعنى ظهور أفراد داخل الصفوة الحاكمة يتمتعون بالقدرة على الايهام والتضليل واستغلال الفرص المتاحة • وحينما يظهر تباين بين الافراد فيما يتعلق بالرواسب ، فان ذلك يمثل ــ من وجهة نظر باريتو ــ ظرفا ملائما للثورة • وهذا يعنى أن نظرية الثورة عنده تستند الى الرواسب والعواطف ، مؤكدا ذلك بقوله : « سوف يتمكن الذين لم يتخلو عن عادة استخدام القوة من الانتصار على أولئك الذين تخلوا عن هذه العادة » • والواقع أن باريتو قد كرر مرارا فكرته الذاهبة الى أن الصفوة الحاكمة تستطيع تحقيق أهدافها بفعالية حينما تجهل الجماهير

---

(20) Stark, W., «In Search of The True Pareto», British Journal of Sociology, vol. 14, 1963, pp. 25 ff.

الديناميات التى تحكمها • وهذا يعنى أن الجماهير يجب أن تكون بعيدة تماما عن كيفية وصول الصفوات الى الحكم والصراع الداخلى الذى قد ينشـأ بينهـا [٢١] •

والواقع أن معالجة باريتو لمفهوم الصفوة قد تعرضـت لانتقـادات عديدة • من ذلك تبنيه للتغير السيكولوجى لظهـور الصـفوة وتدهورها ، وتأكيده لنمط الشخصية الملائم للدخول فى مراتبها ، فضلا عن أنه لم يحاول الجمع والتأليف بين كل الامثلة المتاحة للتوصل الى نظرية أكثر شمولا وعمقا• اذ أن الامثلة التاريخية التى اعتمد عليها كانت مستقاة من السياسة الايطالية المعاصرة وتاريخ روما القديمة • كذلك فان باريتو لم يقدم لنا حلا لكيفية ظهور وسقوط الجماعات الاجتماعية ، وكيفية ارتباط هاتين العمليتين فيما بينهما • فلقد ذهب الى أنه اذا كانت الصفوة الحاكمة مفتوحة نسبيا للنبهاء من المستويات الدنيا ، فستكون لدى هذه الصفوة فرصة أفضل فىالاستمرار• وعلى العكس من ذلك فان احلال صفوة قائمة بصـفوة أخرى يعنى فشـل دورة الافراد المكونين للصفوة الاولى • وكنتيجة لذلك نجـد باريتو يذهب الى أن الثورات تحدث فى المستويات العليا من المجتمع ، سواء حدثت هذه التراكمات نتيجة لاتجاه دور الطبقة الحاكمة نحو الهبوط ، أو لاسباب أخرى مثل ظهور عناصر الانهيار فى الرواسب التى تسند الاحتفـاظ بالقـوة ، أو أخيرا نتيجة للخوف من استخدام القوة • وفى نفس الوقت الذى تبدو فيه عناصر الضعف واضحة لدى المستويات العليا ، نجد عناصر التفوق تنمـو لدى المستويات الدنيا من المجتمع ، ممتلكة بذلك الرواسب الملائمة لمارسة وظائف الحكم والاستعداد الكافى لمارسة القوة • والواقع أن كتابات باريتو فى هذا الموضوع لا تخلو من شواهد تاريخية هامة تدعم القضايا التى ذهب اليها ، سواء فيما يتعلق بدراسته المقارنة للثـورات أو المجتمعـات ، تلك المقارنات التى قصد بها توضيح الفروق الهامة فى مـدى دورة الافراد بين الصفوة والجماهير [٢٢] •

---

(21) Aron, R., «Social Structure and the Ruling Class» British Journal of Sociology, I (1), March, 1950, pp. 6-16.

(٢٢)ت.ب. بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٣)

أما موسكا Mosca فقد نظر الى مفهوم الصفوة من زاوية مختلفة الى حد ما • فهو يؤكد أن كل المجتمعات الانسانية عبر تاريخها قد انقسمت الى طبقة حاكمة قليلة العدد ، وطبقات محكومة كثيرة العدد • وعلى الرغم من أن هذه الفكرة قديمة قدم الفكر السياسى ، الا أن موسكا قد أكد أن سان سيمون Saint-Simon قد بلورها وطورها • فحينما يحقق المجتمع قدرا من التطور والنمو ، يتعين على طبقة خاصة أو أقلية منظمة تولى مهمة التوجيه السياسى بالمعنى الواسع لهذا المصطلح (أى التوجيه فى المجالات الادارية والعسكرية والدينية والاقتصادية والاخلاقية)[٢٣] •والواقع أن سان سيمون لم يؤكد فقط فكرة الضرورة الحتمية لظهور الطبقة الحاكمة ، ولكنه أوضح أيضا ضرورة تمتع هذه الطبقة بكل الاستعدادات والقدرات اللازمة للقيادة الاجتماعية فى زمن معين وفى حضارة معينة • وفى موضع آخر نجد موسكا يبدى تأثرا واضحا بأفكار سان سيمون حينما أوضح أن النظام الديموقراطى يتطلب وجود أقلية منظمة برغم استناد هذا النظام الى ارادة عامة • ومن ذلك يبدو واضحا أن موسكا يسلم بأن الطبقة الحاكمة حقيقة واقعة فى كل المجتمعات بما فى ذلك الديموقراطية منها ، مما يعنى تعارضا صريحا مع النظرية الماركسية • اذ أن ماركس قد أكد أن تاريخ كل المجتمعات الانسانية حتى الآن هو تاريخ الصراع بين الطبقات • وفى موضع لاحق من « المنشور الشيوعى » يؤكد ماركس أن المجتمع البرجوازى الحديث قد خلق طبقات جديدة ؛ وأساليب جديدة للقهر ، وأشكال جديدة للصراع • ولو كان ماركس قد اكتفى بذلك لما اختلفت نظريته كثيرا عن نظرية موسكا ، ولكنه (أى ماركس) قد ذهب بعد ذلك الى أن الطبقات (بما فى ذلك الطبقات الحاكمة) والصراع الطبقى يتحددان فى ضوء الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، وأن القضاء على هذه الظروف سوف يؤدى الى ظهور مجتمع لا مكان فيه للطبقة

---

(23) Mosca, G., The Ruling Class, translated by Kahn, H., New York : McGraw-Hill Book Company, 1965, 239.

الحاكمة . أما موسكا فقد أكد — مناقضا ماركس — أن التاريخ لا يزودنا الا بأساس غير واقعى لهذه الظروف الاجتماعية والاقتصـــادية . طالما أن القانون السيكولوجى هو الذى يحدد الطبيعة الحقيقية للانسان . وعلى ذلك فان كل ما ينطبق على المجتمعات التى ظهرت حتى الآن سوف يظل قائما فى مجتمعات المستقبل . وبهذه الطريقة نجد موسكا يقلب النظـرية الماركسية ويحولها الى نظرية محافظة بعد تجريدها من طابعها الثورى ، ثم نجده بعد ذلك يؤكد أن الطبقة الحاكمة تمثل خاصية من خصائص المجتمعات الانسانية، وأنها سوف تظل تشهد الطبقتين الاساسيتين : الحاكمة و المحكومة[٢٤] .

ويسلم موسكا بأن الجماهير تستطيع ممارسة الضغوط على الحكام . وتنشأ هذه الضغوط نتيجة لاستياء الجماهير من بعض السياسات التى ينفذها الحكام [٢٥] . وقد يؤدى هذا الموقف الى الاطاحة بالطبقة الحاكمة . وفى هذه الحالة تظهر الى حيز الوجود طبقة حاكمة من بين الجماهير تتبنى سياسة جديدة أكثر تلاؤما مع مصـــالح الشعب . ويعتقد موسكا أن قوة الطبقـــة الحاكمة تنبع من أنها تشكل «أقلية منظمة» فى مواجهة « أغلبية غير منظمة » ، كما أن افتقاد الاغلبية للتنظيم يجعل كل فرد فيها ضعيفا فى مواجهة الاقلية المنظمة . ان الاقلية بحكم قلة عددها تستطيع أن تحقق مالا تستطيع الاغلبية تحقيقه ، خاصة اذا ما كان الامر متعلقا بالتفاهم المتبادل والعمل المشترك . ويتوصل موسكا من ذلك الى نتيجـــة عامة هى : « أنه كلما كبر المجتمـــع السياسى ، قلت نسبة الاقلية الحاكمة بالنسبة للأغلبية المحكومة ، وبالتالى ضعفت فرص الاخيرة فى القيام بنشاط معاد للأولى »[٢٦] . ثم نجده يؤكد فى موضع لاحق أن ثمة قانونا اجتماعيا كامنا فى طبيعة الانسان ، بمقتضـــاه يتحول ممثلو الشعب — سواء كانوا معينين أو منتخبين — من خـــدم الى سادة . فحينما يعينون أو ينتخبون للدفاع عن المصـــالح العامة للمجتمـــع ككل ، فانهم يتبنون حينئذ مصالحهم الخاصة ، ويكون ذلك أســـاسا قويا

---

(24) Meisel, J., The Myth of the Ruling Class, Ann Arbor : The University of Michigan Press, 1962.

(25) Mosca, G., The Ruling Class, op. cit. p. 50.

(26) Ibid. p. 53.

لتشكيل أقلية مسيطرة قوية • والواقع أن الاقلية الحاكمة لا تكتسب قوتها من طبيعة تنظيمها فقط ، بل أيضا من خصائصها المادية والفكرية والاخلاقية التى تميزها عن الاغلبية المحكومة • ويذهب موسكا بعد ذلك الى أن القانون السيكولوجى الاساسى الذى يجبر الناس على النضال من أجل التفوق يؤدى فى النهاية الى ظهور القلة الحاكمة ، تلك التى تتحكم — بفضل قدراتها التنظيمية وخصائصها الفردية — فى القوى الاجتماعية المختلفة • اذ أن التحكم فى أى قوة اجتماعية (كالجيش والاقتصاد والسياسة والادارة والدين والاخلاق) يؤدى الى تداعى التحكم فى القوى الاخرى[٢٧] • وفى كل المجتمعات — بما فى ذلك المجتمعات الديموقراطية النيابية — يستطيع الاغنياء ممارسة التأثير الاجتماعى على الهيئات والمؤسسات بدرجة أكبر من الفقراء • ولقد شهد التاريخ مجتمعات كانت السيطرة الدينية فيها تؤدى الى مزيد من القوة الاقتصادية والسياسية ، وفى مجتمعات أخرى ارتبطت المعرفة العلمية المتخصصة بنفوذ سياسى هام[٢٨] •

ولقد اتخذ موسكا موقفا معارضا من الداروينية الاجتماعية بخاصة ، والنظريات العنصرية بعامة ، حينما أكد أهمية الاساس الاجتماعى والثقافى « لتفوق » الارستقراطيات المختلفة والطبقات الحاكمة عبر التاريخ • فالخصائص الفريدة التى تتمتع بها لا تعود الى عوامل فطرية مكتسبة بقدر ما تعود الى عوامل اجتماعية • ومعنى ذلك أن هناك عوامل عديدة تسهم فى ظهور الخصائص الفردية التى يتمتع بها بعض الافراد كالوضع الاجتماعى والتقاليد الاسرية والعادات الطبقية[٢٩] • ومع أن موسكا قد رفض فكرة التفوق العضوى لافراد الطبقة الحاكمة ، الا أنه — فى نفس الوقت — قد رفض النتائج المترتبة على النقطة التى أشار اليها ، والمتعلقة بتأثير العوامل الاجتماعية على تفوق أفراد الطبقة الحاكمة • فهو لم يبد استعدادا للتسليم بأن الخصائص السيكولوجية للأفراد يمكن أن تتغير بتغير الظروف والنظم

---

(27) Ibid. p. 55.
(28) Ibid. p. 57.
(29) Ibid. p. 63.

الاجتماعية ، مؤكدا أن النظم القائمة برغم تأثرها بالظـروف الاجتمـاعية والثقافية ، الا أنها تمثل نتاجا للطبيعة الاساسية الثابتة للانسان[٣٠] • ومن خلال هذه الفكرة حاول موسكا الدفاع عن نظريته ، ذاهبا الى أن الناس ــ فى ظل كل الظروف ــ يناضلون من أجل التفوق . وأن ذلك يؤدى فى نهـاية الامر الى تقسيم المجتمعات الانسانية الى أقليات حاكمية وجماهير محكومة •

وعلى الرغم من أن الطبقة الحاكمة تستطيع ممارسـة القـوة لتدعيم أوضاعها ، الا أنها لا تلجأ لذلك الا فى حالة الضرورة القصوى • وفى كل الاحوال فان الطبقة الحاكمة تحاول ضمان استقرار الحكم عن طريق تأييد الجماهير لها • ويتم ذلك بمقتضى صيغة سياسية معينة[٣١]، تحاول من خلالها الطبقة الحاكمة تبرير ممارستها الفعلية للسلطة بالاستناد الى أية مبـادىء أخلاقية عامة[٣٢] • ويذهب موسكا الى أن الصيغة السياسية ليست مجرد اختراع يمكن بواسطته خداع الجماهير واجبارها على الطاعة ، انها تمثـل أساسا اجتماعيا هاما ، بدونه لا تتمكن المجتمعات من الاستمرار فى الوجود• ومعنى ذلك أن الصيغة السياسية مفهوم واسـع يشمل القيم والمعتقـدات والعادات التى تتشكل خلال تاريخ المجتمع ، بحيث تحتل أهمية خاصة فى نظر الافراد ، مما يدفع الطبقة الحاكمة الى تبنيها والاعتماد عليها فى اكسـاب حكمها طابعا شرعيا • ويؤكد موسكا وجهة نظره هذه بقوله : « ان القومية تمثل صيغة سياسية ملائمة فى العصر الحديث • فالانسان يشعر ويعتقـد ويحب ويكره فى ضوء البيئة التى يعيش فيها • وخلال فترات زمنية سـابقة كان الحق الالهى للملوك هو الصيغة السياسية الملائمة »[٣٣] • ومعنى ذلك أن الصيغ السياسية تتغير بتغير الظروف الاجتماعية والتاريخية • كذلك نجد موسكا يؤكد ضرورة تعبير الصيغة السياسية عن ثقافة المحكومين • اذ أن

---

(30) Ibid. p. 82.

(٣١) يقترب مفهوم « الصيغة السياسية » عند موسكا من مفاهيم سياسية أخرى مثل « ايديولوجية الطبقة الحاكمة » عند ماركس ، و « الشرعية » عند فيبر ، و « الاسطورة » عند سوريل و « المشتقات » عند باريتو . انظر :
Meisel, J., The Myth of the Ruling Class, op. cit.

(32) Mosca, G., The Ruling Class, op. cit. p. 62.

(33) Ibid. p. 73.

الاخفاق فى تحقيق ذلك قد يؤدى الى صراعات وتناقضات تهدد بقاء المجتمع • ومعنى ذلك أن مبادىء الصيغة السياسية يجب أن تكون معبرة عن أفكار ومشاعر القطاعات العريضة من المجتمع(٣٤) • ان ذلك يمثل ضمانا لاستقرار الحكم حتى وان بدت عليه بعض مظاهر الفساد والقمع •

وفضلا عما سبق نجد موسكا يولى اهتماما ملحوظا بعملية اجتماعية أخرى هى ، ظهور « أقلية موجهة داخل الطبقات الدنيا تتخذ موقفا معاديا من الطبقة الحاكمة »(٣٥) • فالاقلية الموجهة تعتبر دولة داخل الدولة وتمارس تأثيرا كبيرا على الجماهير يفوق ذلك الذى تمارسه الطبقة الحاكمة الشرعية • وكلما ازدادت الطبقات عزلة عن بعضها البعض ، وانتشر الاستياء بين الطبقات الدنيا ، ازداد حماس الاقلية الموجهة للاطاحة بالحكومة الشرعية القائمة • والنتيجة المترتبة على ذلك ظهور طبقة حاكمة جديدة تحل محل الطبقة الحاكمة القديمة دون أن تشارك فى ذلك الجماهير مشاركة فعلية • ومن ذلك يبدو أن نمو التفاوت الثقافى بين الطبقات وما يترتب عليه من عزلة ثقافية بينها قد يضعف من موقف الطبقات العليا ، مما يجعلها — فى نهاية الامر — تفقد قواتها الرادعة وتلجأ الى الاستسلام • ومن الواضح أن ثمة تشابها واضحا بين وجهتى نظر موسكا وباريتو ، وان كان الاول قد أكد أن مصير الطبقة الحاكمة يتوقف على حيويتها وحكمتها وقدرتها السياسية • ومن ذلك يتضح أن الطبقة الحاكمة — فى نظر موسكا — تمثل حقيقة واقعة دائمة، وأن محاولة الغائها تبدو ضربا من العبث •

ومن الصعب فهم وجهة نظر موسكا فى الطبقة الحاكمة دون توضيح منطلقاته الفكرية والمؤثرات المختلفة التى خضع لها • وأول ما يمكن أن يقال هنا أن موسكا قد تبنى التصورات الليبرالية فى تحليلاته السياسية ، ذاهبا الى أن المبدأ الليبرالى أكثر فائدة ونفعا من المبدأ الاوتوقراطى(٣٦) • والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن المبادىء الليبرالية تعتمد — أساسا — على الاتفاق

---

(34) Ibid. p. 107.
(35) Ibid. p. 116.
(36) Ibid. p. 406.

بين غالبية المواطنين • ولم يخف موسكا اعجابه بنمــوذج « دولة المدينة » الذى تناوله أرسطو ، كما أبدى حماسه الشديد للنظام الانجليزى قبل ادخال الاقتراع العام • وهو النظام الذى دافع عنه مونتسكيو دفاعا حارا • وتتخذ الليبراليــة موقفا وســطا بين نظامين أســاسيين همــا : الارســتقراطية والديموقراطية • فهى (أى الليبرالية) تسمح لهــذين النظامين بالوجــود والتعايش فى حالة توازن • والواقع أن دفاع موسكا عن الليبرالية انما ينشأ من قدرتها على تحقيق التوازن الاجتماعى وتمكين المجتمعات الانسانية من التقدم • وبرغم ذلك كله نجد موســكا يوافق الماركســيين على أن الصراع الطبقى هو القوة الاساسية المحركة للتقدم والتطور حيث يقــول : « ان الصراع بين الذين يشغلون أوضاع القمة والذين يولدون فى القاع ولكنهم يطمحون فى الصعود الاجتماعى ، سيظل العامل الرئيسى الذى يدفع الافراد الى توسيع آفاقهم والبحث عن وسائل جديدة لتقدم الحضارة الانسانية[٣٧] • ويكشف هذا النص عن سمة أساسية تميز فكر موسكا وهى محاولة التوفيق بين المذاهب السياسية المختلفة • فلقد أبدى إعجابه بمونتسكيو • لكنه عارض روسو فى نفس الوقت • اذ أن الاول (مونتسكيو) قد أكد أهمية الاعتدال مما يعد أساسا هاما لاستقرار النظام السياسى • أما الثانى فقــد دافع عن السيادة الشعبية والمساواة المطلقة ، لكنه — فى نفس الوقت — قد أكد ضرورة وجود الطبقة الحاكمة • وفضلا عما سبق فلقد دافع موســكا عن تصنيفه أرسطو الشهير لنظم الحكم (الملكية والارستقراطية والديموقراطية) ذاهبا الى أنه من أفضل ابتكارات العقل الانسانى • وتكمن عبقرية أرســطو فى توصله الى تصنيف ســياسى لا يزال يحظى بالقبــول العام بين العلمــاء الاجتماعيين ، على الرغم من أن الدارسين المحدثين قد كشفوا عن عـــدم اكتمال هذا التصنيف وعجزه عن التمييز بين النظم السياسية المختلفة[٣٨] • ومن الافكار الهامة التى أكدها أرسطو أن استقرار أى تنظيم سياسى يتوقف على وجود مستويات اجتماعية وسيطة كبيرة ومستقلة بحيث تتوسط المستويات

---

(37) Ibid. p. 416.

(38) Meisel, J., The Myth of the Ruling Class, op. cit. p. 210.

الاجتماعية العليا والدنيــا • وحتى يتم ذلك لابد من تحقيق الاعتــدال فى الملكية • ونستطيع أن نجد صدى لهذه الفكرة فى نظرية موسكا حينما ذهب الى أن انهيار الاوضاع الاقتصادية للمستويات الاجتماعية الوسطى ، انما هو علامة على أن النظام النيابى الحديث قد وصل الى أسوأ مراحله ، كما أنه (أى موسكا) يبدى اعجابه بوجهة نظر أرسطو الذاهبة الى عدم السماح لأفراد الطبقة العاملة بالحصول على الوظائف العامة ، وأن تحسين أحوال الفقراء يجب ألا يكون على حساب المساس بالملكية الخاصة للأغنياء • ومن بين الاجراءات التى تسهم فى تحسين أحوال الفقراء ــ فى نظر موســكا ــ تحديد ساعات العمل ، والتأمين ضد الشيخوخة والمرض والبطالة ، وفرض قيود على تشغيل النساء والاطفال • ولقد كان موسكا واعيا كل الوعى بأن هذه الاجراءات تسهم فى تحقيق الاستقرار السياسى • اذ أن تحسين أحوال الطبقة العاملة يجعلها أقل عرضة للجوء الى العنف والتمرد ، مما يمكن النظام السياسى من الاستمرار فى الوجود[٣٩] • ومن ذلك يبدو واضحا أن موسكا قد بذل جهودا مستميتة لكى يفرق بين نظريته ونظرية ماركس عن طريق تأكيد قصور التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وابراز الدور الذى تلعبه الافكار فى احداث التغير الاجتماعى • والواقع أن موقف موسكا من هذه النقطة لا يختلف كثيرا عن موقف ماكس فيبر ، خاصة فيما يتعلق برفض التفسير الاقتصادى للتاريخ[٤٠] • ومع ذلك فان موسكا يبدو وكأنه أقل اســتعداد من فيبر فى اقرار تأثير فكر ماركس عليه ، وهذا يعود فى حقيقة الامر الى أن موســكا قد أظهر عدواته للحركة العمالية وللاشتراكية بوجه عام •

(39) Mosca, G., The Ruling Class, op. cit. p. 472.

(40) Salomon, A., «German Sociology», in Gurvitch, G. Moore. W. Twentieth Century Sociology, New York : Philosophical Library, 1945, p. 596.

(٤)

وباستطاعتنا أن نجد معالجة مختلفة لفكرة الصفوة وعلاقتها بالجماهير فى مؤلف روبرت ميشيلز Michels الشهير « الاحزاب السياسية »[٤١] Political Parties • وفى هذا المؤلف نجد تفنيدا لتفسير ماركس للتاريخ ، ودفاعا عن تفسير بديل يقوم على التعدد • ذلك أن الاشياء تتحدد من خلال قوى مختلفة ذات طبيعة متباينة • وعلى الرغم من أن ميشيلز قد أقر أهمية العوامل الاقتصادية فى احداث التغير الاجتماعى متفقا فى ذلك مع ماركس ، الا أنه (أى ميشيلز) قد أوضح أن هناك عوامل وقوى عديدة تحدد مصير الديموقراطية والاشتراكية • وتتمثل هذه العوامل فى طبيعة الانسان ، ونوعية الصراع السياسى ، فضلا عن شكل التنظيم • وبالاضافة الى ذلك يعتقد ميشيلز أن ماركس لم يتنبه بالقدر الكافى الى ظاهرة هامة هى ؛ أن الديموقراطية تؤدى الى الاوليجاركية ، ذلك أن التنظيمات قد تنشأ نشأة ديموقراطية قائمة على المساواة ، ثم تتحول بمرور الوقت الى تنظيمات خاضعة لحكم قلة من الافراد يتحكمون فى مواردها لخدمة أغراضهم الخاصة • ولكى يدلل ميشيلز على هذه القضية نجده يقدم وصفا تفصيليا للأحزاب الاشتراكية الديموقراطية فى أوربا ، حيث أوضح أنه ليس من الغريب أن تكون الاحزاب المحافظة ذات طابع أرستقراطى وأوليجاركى ، طالما أنها لا تلتزم التزاما واضحا بمصالح الجماهير • أما اذا كانت الاحزاب الاشتراكية الثورية قائمة على نفس مبادىء الاحزاب المحافظة ، فان ذلك يعنى أن ثمة اتجاهات أوليجاركية تنتشر فى أى تنظيم سياسى يسعى لتحقيق أهداف محددة[٤٢] • ومعنى ذلك أن هناك صفوات معينة تميل الى التحكم فى التنظيمات السياسية مبتعدة بذلك عن تحقيق الديموقراطية الحقيقية •

ويحاول ميشيلز تفسير ظهور الاتجاهات الاوليجاركية فى التنظيمات السياسية ، ذاهبا الى أن ثمة ميولا انسانية فطرية تدفع الانسان لنقل

---

(41) Michels, R., Political Parties, New York : Dover Publications, Inc., 1959.

(42) Ibid. p. 11.

ممتلكاته الى ورثته الشرعيين ، كما تدفعه أيضا الى نقل السلطة السياسية التى يتمتع بها الى أبنائه من بعده • وعلى الرغم من أن ميشيلز قد عزا هذه الظاهرة الى غرائز كامنة فى الجنس البشرى ، الا أنه قد أكد أن هذه الغرائز تنمو وتتدعم من خلال النظام الاقتصادى المستند الى الملكية الخاصة لوسائل الانتاج[٤٣] • والواقع أن ميشيلز لم يوضح لنا ما اذا كانت الامتيازات المادية والسياسية تعتبر نتاجا للنظام الاجتماعى ـ الاقتصادى أم أنها نتيجة للاتجاهات السيكولوجية الثابتة عند الانسان ، خاصة وأنه قد أقر بصعوبة تحقيق الديموقراطية المثالية فى ظل الظروف الاقتصادية والاجتماعية القائمة• والمحقق أن ميشيلز قد بنى فكرته عن حتمية الاوليجاركية فى ضوء تصور للطبيعة الانسانية مناقض تماما لتصور ماركس لها • فهو (أى ميشيلز) يؤكد أن لدى الانسان ميلا طبيعيا للقبض على مقاليد السلطة ، وما أن يحصل عليها حتى يسعى الى تدعيمها ما استطاع الى ذلك سبيلا • واستنادا الى هذا الافتراض السيكولوجى توصل ميشيلز الى استنتاج هام هو ، أن الديموقراطية تتطلب وجود التنظيم ، ذلك الذى يؤدى بدوره الى الاوليجاركية ، مؤكدا أن هذا الاستنتاج يرقى الى مرحلة القانون السوسيولوجى[٤٤] • ومن الواضح أن ميشيلز هنا قد عارض ماركس معارضة واضحة ، ذلك أن الاخير قد أكد مرارا أن ما يبدو قانونا فى ظل ظروف اجتماعية معينة (كالقيم والنظم الرأسمالية) يجب ألا يعتبر قانونا فى ظل كل الظروف • بمعنى أنه من الخطأ التسليم بأن القانون الاجتماعى يتصف بالعمومية والصدق والاستقلال عن ارادة الناس فى ظل ظروف معينة •

ولا شك أن ميشيلز قد عرض من الشواهد التاريخية القدر الكافى للبرهنة على « صدق القانون الحديدى للاوليجاركية » ؛ مما مكنه من تقديم تحليل سوسيولوجى رائع لمشكلة الديموقراطية بعامة والقلة الحاكمة بخاصة• وبرغم ذلك فان دراسة ميشيلز تستند الى مفاهيم سيكولوجية واضحة • فهو

---

(43) Ibid. p. 12.

(44) Easton, The Comparative Study of Elites (Hoover Institute Studies Series B : Elites, No. 1, Standford; 1952.

يسلم بأن الناس لا يستطيعون حكم أنفسهم ، وأن السيطرة على حشد كبير أيسر بكثير من السيطرة على عدد قليل من المستمعين • اذ أن سلوك الحشد يخضع للانفعالات والعواطف • كذلك فان هناك مشكلة هامة تتعلق بديموقراطية اتخاذ القرارات فى التنظيمات الكبيرة الحجم • فاذا كانت الديموقراطيه تعنى الاشراك المباشر لكل الناس فى حل المشكلات واتخاذ القرارات ، فانها تكون مستحيلة بهذا المعنى • ولو طبقنا ذلك على الأحزاب السياسية الكبرى ، سنجد من الصعب عليها اشراك كل الاعضاء فى اتخاذ كثير من القرارات • وحينما ينشأ التنظيم وينمو عند حجم معين ، يصبح تقسيم العمل مطلبا أساسيا حتى تتعقد الوظائف وتبدأ معالم البيروقراطية فى الظهور الى حيز الوجود (بما فى ذلك بناء السلطة والمكافآت والاتصال ... الخ)• وفى المراحل الاولى من نشأة التنظيمات — وعلى الاخص الديموقراطية والاشتراكية منها — ينشأ تعاون وتنسيق بين الوظائف والاوضاع المختلفة، حيث تسود روح المساواة ، فيصبح الرئيس — كما يقول ميشيلز — خادم الجماهير[٤٥] • وفى بداية الامر يبدو الطابع الديموقراطى للتنظيم واضحا من خلال سيطرة روح الزمالة والمساواة • بيد أن هذه الروح تنتشر فقط فى التنظيمات الصغيرة الحجم نسبيا • فبنمو التنظيم يصبح هذا الشكل من الديموقراطية عسير التحقيق • وبالاضافة الى قضية الحجم هناك متغيرات أخرى تعوق تطبيق الديموقراطية • ففى اطار تقسيم العمل تزداد المهام والادوار تعقيدا ، كما تتطلب تدريبا ومعرفة فنية متخصصة[٤٦] • ذلك أن تباين الوظائف يعنى التخصص ، كما أن التخصص يعنى — بدوره — الخبرة الفنية • ومن النتائج المترتبة على ذلك كله أن نجد الذين انتخبوا لخدمة مصالح الجماهير يسعون الى تحقيق مصالحهم الخاصة • وهكذا تتحول الديموقراطية داخل التنظيم البيروقراطى الى أوليجاركية • ويعتقد ميشيلز أن كل تنظيم يشهد بالضرورة اتجاهات بيروقراطية وأوليجاركية بسبب نمو حجمه ، وتعدد وظائفه ، وتخصص أعماله • ويبدأ قادة التنظيم

(45) Ibid. p. 27.
(46) Ibid. p. 28.

فى تأكيد أهمية الخبرة الفنية ، ثم يستخدمونها كوسيلة لطبع سلطاتهم بطابع شرعى ، ثم يتكون فى نهاية الامر انطباع عام لدى العاملين بأن القادة هم أكفأ العناصر القادرة على ادارة التنظيم •

ويحاول ميشيلز الدفاع عن نظريته بابراز سلبية الجماهير خلال النشاطات السياسية • وتبدو هذه السلبية واضحة فى عدم المواظبة على حضور الاجتماعات السياسية العادية ، وترك ادارتها للموظفين المتفرغين • ذلك أن العامل ـ بطبيعته ـ مستغرق فى عمله بحيث يجد المشاركة السياسية عبئا ثقيلا عليه • ومن النتائج المترتبة على ذلك ظهور القادة بمظهر الأبطال القادرين على صنع أشياء يعجز الاشخاص العاديون عن أدائها • والواقع أن الجماهير ـ فى نظر ميشيلز ـ لا تتصف فقط بالسلبية السياسية ، بل أيضا بعدم الكفاءة السياسية ، حتى أنها تميل باستمرار الى تفويض من يتولى نيابة عنها المهام السياسية المختلفة حتى ولو كانت مؤهلاته وقدراته محدودة للغاية • ومن الشواهد التى يستخدمها ميشيلز للتدليل على ذلك أن بيرنشتاين Bernstein ـ وهو مفكر اشتراكى بارز ـ قد ظل شخصية مجهولة بين العمال والموظفين بسبب افتقاده لموهبة الخطابة والتوجيه السياسى المباشر • وهناك عوامل أخرى تسهم فى زيادة سلبية الجماهير وتفوق القادة • من ذلك البناء العمرى للأحزاب والنقابات الاشتراكية • فالغالبية العظمى من الاعضاء تقع فى الفئة العمرية الشابة (فيما بين ٢٥ و ٣٩ سنة) • ومن المعروف أن الشباب فى هذه المرحلة يميلون الى الاستمتاع بأوقات فراغهم ، والبحث عن وسائل وأساليب تمكنهم من تحسين أوضاعهم الاجتماعية ، مما قد يؤدى الى ترددهم فى الالتحاق بنقابات العمال[٤٧] • وفضلا عن ذلك يبرز ميشيلز عاملا آخر يسهم فى تعميق الهوة بين الجماهير والقادة ، ذلك أن زعماء الاحزاب السياسية فى كثير من الدول يأتون من الطبقة الوسطى ، وبالتالى فهم يتمتعون بتفوق ثقافى أو فكرى منذ البداية[٤٨] • وهكذا نجد ميشيلز يبذل

(47) Ibid. p. 81-82.
(48) Ibid. p. 86.

جهدا جبارا للبرهنة على صحة افتراضه القائل بأن الجماهير عاجزة عن ممارسة النشاطات السياسية الفعالة ، وأن هذا الموقف يشكل أساسا قويا لاكتساب القادة للقوة التى يتمتعون بها • وبالاضافة الى ذلك فان المعرفة الفنية التى يمتلكها القادة تؤدى الى ظهور الاوليجاركية ـ طالما أن الجماهير تسلم أمورها لهؤلاء القادة مما يؤدى فى نهاية الامر الى اختفاء المبادىء الديموقراطية •

وبرغم الألمعية الثاقبة التى تميز بها تحليل ميشيلز ـ الا أنه لا يخلو من الخلط والغموض • فاذا كان يعنى ضرورة الحاجة الى وجود نوع معين من القيادة ـ فانه لم يميز بين القيادة (كما هو الحال فى قيادة فرقة موسيقية) والاوليجاركية (بمعنى تحكم فئة من الافـراد وفرض سـيطرتهم على المجتمع ككل)[٤٩] • والواقع أن فشل ميشيلز فى التمييز بين هذين النمطين من القيادة يعـود الى تسليمه المسبق بأن أية قيـادة (حتى ولو كانت ديموقراطية) لابد وأن تتحول فى النهاية الى أوليجاركية • ففى حالة قيادة الفرقة الموسيقية بذلت محاولات عديدة للعزف دون قادة موسيقيين ، لكن تقدم فن الموسيقى جعل من القائد الموسيقى ضرورة فنية • والواقع أن الحكم على هذا القائد لا يتم فى ضوء ديموقراطيته أو أوتوقراطيته بقـدر ما يتم فى ضوء النتائج الجمالية التى يحققها بقيادة الفرقة الموسـيقية • والمحقق أن ميشيلز لم يقدم لنا معايير موضوعية يمكن على أساسها تحديد الاوليجاركية • بعبارة أخرى لم يوضح لنا النقطة التى يتحول عندها الفرد من مجرد قائد الى أوليجاركى • وفى بعض المواضع كان ميشيلز يستخدم مصطلح الاوليجاركية للاشارة الى طول فترة القيادة واستقرارها ، وفى مواضع أخرى كان يستخدم المصطلح للاشارة الى « الارستقراطية » التى تتمتع بالمواهب وتمتلك الخبرات الفنية والتى تنفصل بالتالى عن الجماهير •! ويدلل ميشيلز على ذلك بقوله : « ان التخصص يخلق السلطة • فاذا كان المريض يطيع الطبيب بسبب المامه بطبيعة الجسم الانسـانى وعـلاج

(49) Keller, S., Beyond the Ruling Class, op. cit.

الامراض التى تصيبه ، فان المريض السياسى — بالمثل — يطيع القـادة السياسيين الذين يتمتعون بالكفاءة السياسية التى لا يتمتع بهـا الافراد العاديون »[٥٠] . والمؤكد أن هذه المماثلة لم تكن لتخدم الاهداف التى سعى اليها ميشيلز . فهو لم يكن يقصد مجرد التدليل على أن التخصص يؤدى الى السلطة ، وانما كان يقصد — فى المحل الاول — تأكيد حتمية سوء استغلال القوة والسلطة مما يؤدى الى اهدار الروح الديموقراطية . اذ أن الذين يقبضون على مقاليد الحكم بهدف خدمة المصالح العامة ، سرعان ما يتحولون الى خدمة مصـالحهم الشخصية . وخـلال عمليـة التحول هـذه تظهر الاوليجاركية الى حيز الوجود كنمط من أنماط القيادة .

وفضلا عما سبق نجد ميشيلز يؤكد أن الجماهير لا تثـور بطريقة تلقائية ، أى بدون قيادة موجهة . وفى حالة الثورة تظهر عناصر قيادية من داخل الجماهير تحاول القبض على مقاليد الحكم باسم الشعب ، ثم ما تلبث أن تتحول الى طبقة مقفلة مبتعـدة بذلك عن الجمـاهير التى مكنتها من الحصول على السلطة . وفى المواقف غير الثورية تتعرض القيادات الموهوبة لاغراءات عديدة ، من بينها الحصول على وظائف قيادية داخل الحـركة العمالية . ويبدو من تحليل ميشيلز أن العمـال والموظفين لا يستطيعون بمفردهم تشكيل قوة جديدة قادرة على التعبير عن المعارضة التى قد تبديها الجماهير[٥١] . اذ أن الصراع الحقيقى لا يحتدم بين الجماهير والقيادة ، بل بين القيادة الرسمية والقيادة غير الرسمية التى تحاول الحصول على السلطة . وأيا كانت نتيجة هذا الصراع ، فان القيـادة الاولى لا تفقـد تماما سيطرتها وقوتها ، مما يعنى تعارضـا صريحا مع نظـرية باريتو فى « دورة الصفوة » . يضاف الى ذلك أن ميشيلز قد أوضح أن اللامركزية ليست عاملا معوقا للاوليجاركية . فهى (أى اللامركزية) لا تؤدى الى مزيد من الحرية ، وحصول العمال والموظفين على سلطة اصدار القرارات .

(50) Michels, Political Parties, op. cit. p. 89.

(51) Ibid. p. 161.

وفى كل مجال من مجالات النشاط الانسانى يحاول القائد الضعيف الحصول على مزيد من السلطة ، مما يعنى التحول نحو الاوليجاركية • ومن الطبيعى الا تتعارض السلطة التى يتمتع بها القادة المحليون مع السلطة التى تتمتع بها القيادة المركزية ، لان الاخيرة مطلقة ولا تقبل التحدى[٥٢] • وأسباب ذلك — فى نظر ميشيلز — ليسـت اجتمـاعية فقط (الحاجة الى التنظيم وسلبية الجماهير) ، ولكنها نفسية أيضا (سعى القادة للحصول على السلطة فضلا عن خصائص الطبيعة البشرية) •

وليس من الصعب علينا اكتشاف تأثير الماركسية على ميشيلز • ففى مؤلفه « الاحزاب السياسية » نجد معـالجة لمفاهيم الطبقات ، والصراع الطبقى ، والوعى الطبقى • ومن القضايا الهامة التى أكدها ميشيلز فى هذا المجال أن الصراع الطبقى لا يتحدد فقط فى ضوء ظروف القهر ، بل أيضا فى ضوء الوعى بهذه الظروف[٥٣] • ثم يوضح بعد ذلك أن البرجوازية قد لعبت الدور الرئيسى فى نمـو وعى طبقى بروليتارى • فلـكى تدافع البرجوازية عن نفسها فى مواجهة الارستقراطية المعارضة للنمو الصناعى ، بدأت فى حشد البروليتاريا وزودتها بسلاح هام هو الوعى السياسى والخبرة الفنية ، ذلك السلاح الذى قد يستخدم ضد البرجوازية ذاتها • وبالاضافة الى ذلك فهناك بعض المثقفين البرجوازيين الذين استطاعوا — لاسـباب عديدة — الانفصال على طبقتهم الاصلية والارتباط بالعمال والموظفين من أجل خدمة أهداف جماهيرية • ويصف ميشيلز هؤلاء المثقفين بأنهم مجموعة من العلماء حاولوا توظيف العلم لخدمة الطبقة العاملة ، مما أدى الى حركة اشتراكية • ثم يقول فى موضع آخر : « ان البروليتارى يسلك سـلوكا منطقيا حينما ينضم الى حزب طبقى ، وحينما يعى بأن النضال ضـد البرجوازية — بمختلف درجاتها — هو السبيل الوحيد لاقامة نظام اجتماعى لا تصبح فيه المعرفة والصحة والملكية حكرا على قلة قليلة من الناس »[٥٤] •

(52) Ibid. p. 205.
(53) Ibid. p. 236.
(54) Ibid. p. 247.

والواقع أن ماركس لم يتوقع أن انضمام المثقفين البرجوازيين الى الحركة الاشتراكية وشغلهم للأوضاع القيادية فيها يمكن أن يؤدى الى تغـيرات أساسية عليها من بينها نمو عملية « التبرجز » داخل أحزاب الطبقة العاملة. وعلى الرغم من أن ماركس كان واعيا بوجود مستويات متباينة داخل الطبقة العاملة ، الا أنه قد مال الى تجاهل الصراعات التى يمكن أن تنشأ بينها . ومن المفارقات الطريفة هنا أن ميشيلز قد أوضح أن الحركة الاشتراكية قد أفرزت « برجوازيات صغيرة » ، وأن قيادات جديدة قد بدأت تظهر ، ثم ظهرت عوامل وظروف (اجتمـاعية ونفسية) أدت الى ابتعـادها عن الجماهير وتحولها الى أوليجاركيات متحكمة ؛ مما يمثل — فى نظر ميشيلز — انتهاكا للكرامة الاشتراكية . والواقع أن الميل نحـو الاوليجاركية هـو خاصية أساسية من خصائص التنظيمات السياسية حتى ولو كانت القيادة منتخبة ومعبرة تعبيرا أصيلا عن الجماهير . ويبدو ذلك واضحا فى عبارته الشهيرة : « اذا قلنا تنظيما ، قلنا أوليجاركية »(٥٥) .

ولا شك أن ميشيلز قد قصد بدراسته ابراز بعض العوامل الاجتماعية والنفسية التى تحول دون تحقيق الديموقراطية ؛ لكنه تبنى منظورا واحديا أدى به فى نهاية الامر الى التعبير عن الديموقراطية بطريقة تشـاؤمية . فلقد استخدم تعبير « القانون الحديدى » لكى يبالغ فى شأن الصعوبات والعقبات التى تحول دون اقامة حكم ديموقراطى ، وان كان لم يستبعد امكانية تحقيق هذا الحكم . وهنا نجد ميشيلز يؤكد ضرورة بذل مزيد من الجهود للحد من نمو الاتجاهات الاوليجاركية فى التنظيمات السياسية . ومن الاجراءات التى تسهم فى ذلك حرية البحث والاستقصاء ، وتوجيه النقد وممارسة الرقابة ، فضلا عن توسيع نطاق التعليم ، لأنه يمثل أحـد وسائل الضبط والمراقبة . وعلى الرغم من أن تحقيق الديموقراطية المثالية أمر مستحيل التحقيق ، الا أن هذه الاجراءات تضمن — على الاقـل — الحد الأدنى من الديموقراطية .

---

(55) Ibid. p. 307.

(٥)

هذا وقد تركت النظريات الكلاسيكية فى الصـــفوة تأثيرا بالغا على العلماء الاجتماعيين والمحدثين المعنيين بدراسة البناء الطبقى . فاذا كان موسـكا وميشيلز وباريتو قد سعوا الى تفنيد النظـرية الماركسـية فى « الطبقة الحاكمة » ، واذا كان الماركسيون ــ بدورهم ــ قــد رفضــوا نظرية الصفوة بوصفها تعبيرا عن ايديولوجيــة برجوازية ، فاننا نجـد جيمس بيرنهام Burnham يحاول المزاوجة بين النظريتين . ولقد عرض بيرنهـام أفـكاره فى مؤلف شـهير بعنـــوان « الثـورة الادارية »[٥٦] Managerial Revolution . والقضية الاسـاسية التى ينهض عليها هـذا الكتاب هى ، أن النظام الرأسمالى فى تدهور مستمر ، وأنه سـيتحول ــ تدريجيا ــ الى مجتمع تسيطر عليه صفوة ادارية تتولى شئونه الاقتصادية والسياسية . ولقد لجأ بيرنهام الى كتابات علماء الصفوة فاستعان بها فى صياغة فروضه الاساسية . وأهم هذه الفروض أن السياسة ما هى الا كفاح وصراع بين الجماعات من أجل الحصول على القوة ، وأن الجماعة الصغيرة فى كل المجتمعات هى التى تتولى ــ حتما ــ اتخاذ القرارات الاساسية[٥٧] . وفضلا عن ذلك نجد بيرنهام يستعين بكتابات علماء الصفوة الكلاسيكيين فى تحليل وتفسير مجرى التغير الاجتماعى . فمصدر هذا التغير يكمن فى بناء الصفوة ذاتها أو استبدالها بصفوة أخرى .

ويبدو تأثر بيرنهام بالنظرية الماركسية أوضـح ما يكون فى فهمـه وتفسيره للأسس التى تستند اليها الصفوة . فتحكمها فى وسائل الانتاج هو الذى يمنحها الوضع المسيطر فى أى مجتمع . وفى ذلك يقول بيرنهام : « اذا أردنا أن نبحث عن الطبقة الحاكمة فعلينا أن نبحث عن الطبقة التى تحصل على أعلى الدخول »[٥٨] . وتتخذ السلطة عند بيرنهام ــ شأنه شأن

---

(56) Burnham, J., The Managerial Revolution, London, Putman, Co. 1943.

(57) Ibid. p. 59.

(58) Ibid. p. 27.

علماء الصفوة الكلاسيكيين والماركسيين — طابعــا تراكميا • فالتحكم فى وسائل الانتاج يصاحبه بالضرورة قوة اقتصادية وسياسية واجتماعية • ومن ذلك يبدو واضحا أنه على الرغم من أن تفسير بيرنهام للتغير الطبقى يعد تفسيرا ماركسيا ، الا أنه عاد الى علماء الصفوة وأخــذ منهم الفكرة القائلة بأن هذا التغير سيؤدى بالضرورة الى ظهور طبقة حاكمة جديدة • ويحاول بيرنهام بعــد ذلك تشخيص الازمة التى تمر بهــا الرأســمالية المعاصرة ، تلك الازمة التى تتمثل فى أن « ملاك » القوى الانتاجية (أى الرأسماليين) يزدادون انفصالا عن العمليات الانتاجية • وكنتيجة لذلك سيجد الملاك الرأسماليون أنفسهم فى موقف أشبه « بطبقة الاعيان » التى تنفق أرباحها دون أن تسهم فى عملية الانتاج • وسيتيح ذلك — بالتالى — للطبقة الادارية السيطرة على القوى الانتاجية[٥٩] •

ولقد ذهب بيرنهام الى أننا نعيش مرحلة تحول من نمــوذج معين للمجتمعات الى نموذج آخر ، أى من المجتمع الرأســمالى (الذى يتميز باسلوب خاص للانتاج يسيطر عليه أصحاب المصانع والبنــوك ، ووجود نظام خاص للمعتقدات والايديولوجيات) الى نموذج آخر للمجتمع أطلق عليه « المجتمع الادارى » • وقبل أن يفسر بيرنهام عملية التحول الى هذا المجتمع ، ناقش النظرية الماركسية ، موضحا أن الثورة الروسية لم تحقق بعد مجتمعا اشتراكيا ، وأنه فى معظم المجتمعات الصناعية المتقدمة لم تكن هناك أية ثورات بروليتارية ، وأن الحالات البسيطة التى ظهرت فيها مثل هذه الثورات لم تكن ناجحة كما هو الحال بالنسبة لألمانيا فى عام ١٩١٨ • كذلك تضمنت نظرية بيرنهام تحليلا لدور المديرين ، موضحا أنهم سيشكلون صفوة حاكمة • ولقد فرق بين فئتين من المديرين : الاولى تشمل العلماء والمتخصصين فى التكنولوجيا ومديرى عملية الانتاج والقائمين على تنظيمها ،

---

(٥٩) عبر ثورشتاين فيبلن عن هذه الفكرة فى مؤلف له بعنوان « نظــرية طبقة الاعيان » انظر :

Veblen, T., The Theory of the Leisure Class, Macmillan, 1899 republished Mentor Books, 1953.

أما الثانية فتضم المديرين بالمعنى الدقيق للكلمة الذين يشغلون قمة الاوضاع الادارية • ويعتمد تحليل بيرنهام لدور المديرين فى المجتمع على الفترة القائلة بأن المجتمعات الصناعية الحديثة قد شهدت انفصالا كبيرا بين ملكية الصناعة وادارتها • ومع أن هذه الفكرة قد ترددت فى كتابات ماركس ، الا أن بيرنهام يحاول أن يكسبها دلالة معينة ، حيث يؤكد أن المديرين قد اكتسبوا ما هو أكثر من القوة الاقتصادية التى تعد من الناحية الرسمية فى حوزة الملاك الرأسماليين للصناعة ، ومن ثم فانهم يكتسبون قوة تشكيل البناء الاجتماعى ككل • ولقد دعم نظريته بمحاولة الكشف عن أن الايديولوجية الفردية للرأسمالية قد تلاشت لتحل محلها ايديولوجية ادارية • ويبدو أن دفاع بيرنهام الشديد عن « الثورة الادارية » قد جعله يتجاهل بعض التطورات الحديثة • فثمة رابطة وثيقة بين الملاك ومديرى الصناعة فى مجالات عديدة • فالملاحظ أن المديرين غالبا ما يكونوا من بين الملاك - بمعنى أن لهم حصصا فى أسهم الشركات التى يعملون فيها • وحتى اذا ما افترضنا أن المديرين ليسوا من كبار أصحاب الاسهم فى شركاتهم ، فانهم غالبا ما ينتمون الى الطبقة الوسطى العليا • وفضلا عن ذلك فان تعيين المديرين غالبا ما يكون من بين الطبقات العليا فى المجتمع • وهكذا يبدو واضحا أن كبار المديرين وذوى الملكية يرتبطون بروابط وثيقة بحيث يؤلفون جماعة متماسكة الى حد ما[٦٠] • ولا يختلف الامر عن ذلك كثيرا فيما يتعلق بالمستويات الادارية الوسطى والدنيا ، ذلك أن النطاق الاجتماعى الذى يتم التعيين منه لهذه الوظائف ليس شديد الاتساع • وفى ضوء هذه الظروف يصعب القول بوجود ثورة ادارية وشيكة الحدوث كما يذهب بيرنهام •

أما رايت ميلز Mills فيتفق مع بيرنهام على أن مكانة الصفوة وبناءها لا يتوقفان على مواهب الافراد أو خصائصهم السيكولوجية ،

---

(60) Clements, R., Managers : A Study of Their Careers in Industry, London, Allen and Unwin, 1958.

ولكنهما يتحددان فى ضوء البناء الاجتماعى ــ الاقتصادى لمجتمع معين • واذا كان بيرنهام قد وجد أن القوة فى المجتمع تؤدى الى ظهور تحكم فى وسائل الانتاج ، فان ميلز قد وجد أن هذه القوة تؤدى الى ظهور منظمات كبيرة الحجم كالمؤسسات العسكرية ، والشركات الكبرى ، والهيئات السياسية • والصفوة عند ميلز هى نتاج للطابع النظامى الذى يسيطر سيطرة كاملة على المجتمع الحديث ، وبالتالى فان القوة تميل الى اتخاذ طابع نظامى عام • ويؤدى هذا الموقف الى ظهور منظمات تحتل أهمية محورية فى المجتمع ، وأن هذه المنظمات تشكل فى مجموعها الاوضاع القيادية فى البناء الاجتماعى[٦١] • ويشكل قادة المنظمات والمؤسسات المختلفة صفوة قوة على مستوى قومى ، بحيث تنشأ بينهم صلات وروابط وثيقة • ويذهب ميلز الى أن مثل هذه الروابط تكون فى أوج قوتها حينما « يتبادل الافراد فيما بينهم الوظائف العليا الممثلة لقطاعات المجتمع المختلفة »[٦٢] • ويكشف ميلز بعد ذلك عن أن السلطة فى المنظمات الامريكية قد أصبحت مركزة فى يد القلة المتحكمة فيها ، وأن حصول هذه القلة على السلطة يعد فى نظرها « صنعا للتاريخ »[٦٣] ، أى القدرة على تغيير مجرى نشاط عدد كبير من الافراد على نحو معين • ويعتقد ميلز أن قوة « صنع التاريخ » التى تتمتع بها الصفوة كافية لتغيير الوضع القائم ، أى أن تضع العلاقات الاجتماعية القائمة موضع تساؤل ، وأن تقيم ــ استنادا الى ذلك ــ بناء اجتماعيا من نوع جديد •

والملاحظ أن ميلز قد عرف « صفوة القوة » بنفس الطريقة تقريبا التى عرف بها باريتو « الصفوة الحاكمة » • فهو يقول : « يمكن تعريف صفوة القوة بأنها تضم أولئك الذين يشغلون الاوضاع القيادية »[٦٤] •

---

(61) Mills, C. Wright, The Power Elite, Oxford University Press, New York, 1962.

(62) Ibid. p. 288.

(63) Ibid. pp. 20-25 and the Sociological Imagination, Oxford University Press, Inc. 1959, p. 40.

(64) Mills, C. Wright, The Power Elite, op. cit. p. 23.

بيد أن تحليلاته النظرية التى أسسها على هذا التعريف لم تكن مقنعه فى عدد من الوجوه • فلقد ميز منذ البداية بين ثلاث صفوات أســاسية فى الولايات المتحدة الامريكية هى : رؤساء الشركات ، والقادة السياسيين ، وأخيرا القادة العسكريين ، ثم وجد نفسه بعد ذلك مضطرا لمواصلة البحث عما اذا كانت هذه الجماعات الثلاثة تشكل ـــ مجتمعة ـــ صفوة قوة واحدة• فاذا كان ذلك صحيحا ، فما هى اذن القوى التى توحــد بينها ؟ وأحــد الاجابات الممكنة على هذا السؤال هى ، آن هذه الجماعات تشكل بالفعل صفوة واحدة ، لأنها تمثل طبقة عليا يتعين أن نطلق عليها «طبقةحاكمة»(٦٥) • وبرغم ما ذهب اليه ميلز من أن غالبية أعضاء هذه الصفوات قد أتوا بالفعل من طبقة عليا مرموقة اجتماعيا ، الا أنه لم يؤكد أن هذه الطبقة العليــا تحكم المجتمع من خلال الصفوات المختلفة • وحينما عاود الاهتمام بهذه المشكلة فى موضع آخر من مؤلفه ، لم يفعل ســوى أن رفض التصـــور الماركسى للطبقة الحاكمة • ولقد سبق لميلز أن رفض وجهة النظر القائلة بأن هناك رقابة شعبية على صفوة القوة ، تلك الرقابة التى تتم من خــلال عملية التصويت ، كما سبق أن أكد فكرة وحدة الصفوة وتجانس أصولها الاجتماعية ، وهى أمور تشير الى اتحاد الطبقة الحاكمة • بيد أن الصياغة التى قدمها ميلز كانت غامضة وغير مقنعة • اذ أنها لا تعدو أن تكون اشارة الى « التداخل المعقد بين القوى الاقتصادية والعسكرية والسياسية » ، والذى سعى من خلاله الى تفســير الصراع الدولى الذى كانت الولايات المتحدة طرفا من أطرافه • ولكى يدلل ميلز على ترابط الصفوات الثــلاث (الاقتصادية والسياسية والعسكرية) فى الولايات المتحدة ، نجده يحاول الكشف عن تماثل أفراد هذه الصفوات فيما يتعلق بأصولهم الاجتماعية ، موضحا العلاقات الشخصية والاسرية بينهم • واذا كان ميلز قــد رفض فكرة تشبيه الجماعة بالطبقة الحاكمة ، فانه قد وجد نفســه ـــ حينئذ ـــ عاجزا عن تقديم تفسير مقنع للتضامن بين أفراد الصفوة ، فضلا عن أنه

---

(65) Ibid. p. 59.

باستبعاده لفكرة الطبقة الحاكمة قد وجد نفسه مضطرا أيضا لاستبعاد النظريات التى تأخذ موقفا معارضا من هذه الطبقة[٦٦] .

ولقد انعكست وجهات نظر ميلز على تحليله لبناء المجتمع الامريكى ، ذلك التحليل الذى يتصف بقدر كبير من التشاؤم . فهو يذهب الى أن هذا المجتمع قد تحول الى جماعات صغيرة مستقلة تمارس تأثيرا كبيرا فى عملية اتخاذ القرارات السياسية . ومعنى ذلك أن الصفوة هى التى تتخذ القرارات المصيرية مبقية الجماهير فى حالة سكون وهدوء ، مستعينة لتحقيق ذلك بمدح الجماهير وخداعها والتفنن فى الترويح عنها . وفضلا عن ذلك كشف ميلز عن الفساد المتفشى داخل الصفوة ذاتها ، وهو فساد يعود الى الحالة التى لا تكون فيها الجماهير منظمة تنظيما دقيقا يسمح لها باتخاذ القرارات الملائمة فضلا عن سيطرة قيمة جمع المال . والملاحظ أن تحليل ميلز للتغيرات التاريخية التى طرأت على بناء القوة فى المجتمع الامريكى كان تحليلا تشاؤميا الى حد بعيد ، خاصة حينما ناقش الملامح الهامة للسياسة الحديثة ، ذلك أنه (أى ميلز) لم يقدم لنا مخرجا من الموقف الذى شخصه وأدانه . ومع ذلك فيبدو أنه — متفقا فى ذلك مع باريتو وموسكا — يؤمن بالقضية الذاهبة الى أنه برغم الطابع الديموقراطى الذى تتسم به المجتمعات الحديثة ، الا أنها خاضعة — فى حقيقة الامر — لحكم الصفوة . وأنه برغم المزايا التى صاحبت مجتمعا كالولايات المتحدة ، فان التطورات المختلفة قد أدت الى ظهور صفوة حاكمة لم يسبق لقوتها مثيل فى أى مجتمع انسانى حتى الآن[٦٧] .

ومن منظور مختلف درس بيرن Pirenne مشكلة دورة الصفوة فى مقال له بعنوان « مراحل التاريخ الاجتماعى للرأسمالية » ، ذاهبا الى أن كل مرحلة مميزة من مراحل تطور الرأسمالية كانت تتميز بسيطرة طبقة

---

(٦٦) ت.ب. بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٦٧) Mills, C. Wright, The Power Elite. op. cit. p. 304.

مختلفة من الرأسماليين • فبحدوث التغير فى النمو الاقتصادى ، يحـدث انقطاع فى الاستمرار ، ذلك أن الرأســماليين الذين ظلوا يسيطرون على الاقتصاد حتى تلك النقطة التى سبقت الانقطاع قد أصبحوا عاجزين عن مواءمة أنفسهم مع الظروف التى نتجت عن الحاجات التى لم تكن معروفة قبل انقطاع الاستمرار ، وهى ظـروف تقتضى ظهـور وسـائل جديدة لاشباعهم • وما يلبث هؤلاء الرأسماليون أن يعلنوا تقاعدهم ، ساعين الى اتخاذ وضع الارستقراطية حتى يستطيعوا المشاركة فى ادارة شئون المجتمع والاسهام فقط بتقديم رأس المال • وتظهر بعد ذلك فئة من الناس تتصف بالجسارة والاقدام على انجاز المشروعات لكى تحل محل فئة الرأسماليين القدامى[٦٨] • ولقد ميز بيرن بين ثلاث فترات أساسية حدثت فيها مثل هذه التحولات هى : ظهور تجار المدن ابتداء من القرن الحادى عشر ، ونمـو التجارة الدولية فى القرن السادس عشر ، وأخيرا الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر • ويمكننا الاشارة بعد ذلك الى تحليل شومبيتر Schumpeter لفكرة دورة الصفوة ، وهو تحليل يشبه فى خطوطه العريضة ذلك الذى قدمه بيرن • فلقد اهتم شومبيتر بدراسة العوامل الفردية والاجتماعية المؤثرة على دورة الصفوة[٦٩] • فعند معالجته لحركة الاسر عبر الطبقات نجـده يذهب الى أن عملية الصعود الاجتماعى تتأثر — اذا ما نحينا عملية الصدفة جانبا — بنشاط الفرد وذكائه ، كما تتأثر بالظروف الاجتماعية مثل انفتاح الطبقة العليا ، وفرص القيام بمشروعات فى ميادين جديدة من النشـاط الاقتصادى • كذلك نجد شومبيتر عند معالجته لظهور وانهيار الطبقـات ككل يمنح خصائص الافراد وزنا معينا ، ولكنه يؤكد أن التأثير الاعظم فى هذا المجال يأتى عن طريق التغيرات البنائية المؤثرة على وظائف جماعات الصفوة • ومن الواضح أن شـومبيتر يتفق مع بيرن على أن الجمـاعات

---

(٦٨) انظر ت.ب. بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، المرجع السـابق ، ص ٦٤ .

(69) Schumpeter J., Imperialism and Social Classes, Oxford, Basil Blackwell, 1951.

الاجتماعية قد تتشكل فى المجتمع نتيجة لتغيرات اقتصادية أو سياسية ، وأن مثل هذه الجماعات قد تزيد بالتالى من تأثيرها الاجتماعى الى المدى الذى تزداد فيه حيوية النشاطات التى تمارسها بالنسبة للمجتمع ككل ، وأن هذه النشاطات قد تؤدى الى احداث تغييرات فى النظام السياسى وفى البناء الاجتماعى ككل • كذلك يلاحظ أن الرجلين قد اهتما بظهور وانهيار الجماعات الاجتماعية وعلى الاخص تلك التى تلعب أدوارا اقتصادية هامة ، مما يكشف عن تأثر ملحوظ بنظرية ماركس فى الطبقات • ويبدو هذا التأثر واضحا بصفة خاصة حينما فضلا مصطلح « الطبقة » على مصطلح « الصفوة » لوصف هذه الجماعات وتقديم نموذج تصورى للمجتمع ، فيه تسود امكانية التباين البنائى والتاريخى للطبقة اذا ما قورنت بالتفرقة العامة الجامدة التى تميز بين الصفوة الحاكمة والجماهير •

(٦)

وفى ضوء الاعتبارات السابقة يمكننا مناقشة الصفوات فى المجتمعات الغربية الصناعية • ويعد ماركس — على نحو ما أشرنا فى موضع سابق — من أبرز الذين عالجوا هذه القضية • فهو يؤكد أن « الطبقة الحاكمة » فى المجتمع الرأسمالى هى الطبقة التى تملك أساليب الانتاج وتتحكم فيها ، والتى تملك — بالتالى — القوة الاقتصادية التى تمكنها من استخدام الدولة كوسيلة للسيطرة على المجتمع • وعلى النقيض من وجهة نظر ماركس نجد أصحاب النظريات الديموقراطية الليبرالية يرفضون وجود طبقة «رأسمالية» بالمعنى الذى يقصده ماركس ، ذلك أن القوة الاقتصادية فى المجتمع الرأسمالى تميل الى الانتشار والتفتت ، بحيث لا تتاح لها الفرصة للتركز فى طبقة معينة • لذلك فان الطابع الجماعى للقوة الاقتصادية — وبالتالى القوة السياسية — هو السمة المميزة للمجتمعات الغربية الصناعية • ويعد ألكس دى توكفيل De Tocqueville من أشهر ممثلى النظريات الديموقراطية الليبرالية • ففى مقدمة كتابه « الديموقراطية فى أمريكا Democracy in America » يقول : « لقد كتبت مؤلفى هذا ولدى انطباع قوى بأن

المساواة فى المجتمعات الغربية هى حقيقة آتية لا ريب فيها ، برغم ما قد يواجهها من عقبات »[٧٠] • ومنذ آن نشر مؤلف دى توكفيل ، ونحن نشهد سيلا من الكتابات التى تؤكد فكرة اتجاه المجتمعات الغربية الرأسمالية نحو المساواة وتكافؤ الفرص ، حتى أن أحد علماء السياسة المعاصرين قد ذهب الى حد القول « بأن المساواة فى الديموقراطيات الغربية egalitarianism تمثل الخلاص الاجتماعى السياسى لشعوب غرب أوربا »[٧١] • كذلك ذهب مفكرون آخرون الى أن روح المساواة التى بدأت تنتشر فى مختلف أرجاء العالم الغربى ، انما تعود الى عوامل عديدة كالتصنيع ، والضغوط الشعبية، والنظم الديموقراطية ، مما شجع أحد علماء الاجتماع على القول بأن فترة ما بعد خمسينيات القرن العشرين تمثل حقبة « نهـاية الايديولوجية » ، واختفاء مرحلة الاستقطاب الطبقى بسبب الامتيازات العديدة التى حصلت عليها الطبقة العاملة الصناعية[٧٢] • بيد أن هناك وجهات نظر معارضة لتلك التى تؤكد انتشار روح المساواة فى المجتمعات الغربية • فلقد أوضح تيتمس Titmuss فى دراسة شهيرة له أن من الصعب القول بأن ثمة قوى فعلية تسهم فى تحقيق مزيد من المساواة الاقتصادية فى بريطانيا ابتداء من سنة ١٩٣٨ ، بل ان هناك قوى مضادة تعمل على ظهور اتجاه عكسى[٧٣] • وفى الولايات المتحدة تجد تأييداً لهـذه الفكرة ، حيث ذهب كولكو Kolko الى أنه ليست هناك شواهد تشير الى الاتجاه نحو مزيد من المسـاواة فى الدخول خلال الفترة فيما بين سنتى ١٩١٠ و ١٩٥٩[٧٤] • وهنـاك بيانات احصائية تؤكد هذه الافكار • ففى سنة ١٩٦٠ اتضح أن ١ ٪ من السكان

(70) De Tocqueville, A., Democracy in America, Doubleday, Garden City, N. Y. 1955. The Introduction.

(71) Meisel, J. H., The Myth of the Ruling Class : Gaetano Mosca and the Elite, London, 1962, p. 6.

(72) Saville, J. «Labour and Income Redistribution», The Socialist Register, 1965.

(73) Titmuss, R., Income Distribution and Social Change, London, 1965, p. 198.

(74) Kolko, G., Wealth and Power in America, London, 1962, p. 13.

البريطانيين يملكون ٤٢ ٪ من مجموع الثروات الخاصة • وفى الولايات المتحدة (فى سنة ١٩٥٣) اتضح أن ٢ ٪ من مجموع الاسر الامريكية تملك ٣٩ ٪ من مجموع الثروات الخاصة(٧٥) • والملاحظ أن علماء الاجتماع الذين يؤكدون انتشار مبادىء المساواة وتكافؤ الفرص انما يستندون فى ذلك الى ما يطلق عليه « ثورة الاستهلاك » فى المجتمعات الغربية ، تلك الثورة التى مكنت أفراد الطبقة العاملة من الحصول على رموز مكانة الطبقة الوسطى • بيد أن من الصعب التسليم بصدق هذه الفكرة تسليما كاملا . ذلك أن الفروق الطبقية (الكمية والكيفية) لا تزال قائمة فى مجالات عديدة ليس أقلها الاستهلاك ، كما أن الحصول على السلع والخدمات لا يعنى أن ثمة تغيرا قد طرأ على العلاقة بين العمل ورأس المال •

والمحقق أن الدول الصناعية الرأسمالية المتقدمة تضم طبقة اجتماعية صغيرة العدد (أو صفوة) تحصل على نسبة ملحوظة من الدخل القومى وتتمتع بالامتيازات المختلفة التى تتيحها لها الملكية الخاصة • ومع ذلك يذهب بعض الدارسين الى أن الملكية الخاصة قد بدأت تفقد جانبا من أهميتها فى هذه الدول بسبب القيود القانونية والاجتماعية والسياسية المفروضة عليها ، فضلا عن الاتجاه المتزايد نحو الفصل بين الملكية الخاصة وادارتها . ذلك أن ادارة المشروعات الخاصة قد أصبحت من نصيب فئة من المديرين المتفرغين • ومعنى ذلك أن الملكية الخاصة وان كانت تتيح فرصة الحصول على امتيازات معينة ، الا أنها لا تشكل وحدها العنصر الحاسم المحدد للسلطة الاقتصادية أو السياسية • ويبدو أن هذه الاعتبارات هى التى دفعت بعض العلماء الى القول بأن المجتمعات الرأسمالية الصناعية لم تشهد بعد « طبقة حاكمة » تعتمد اعتمادا أساسيا على ملكية وسائل الانتاج • والواقع أن الجماعات الادارية تشكل عنصرا هاما داخل المجتمع الرأسمالى • فلقد أشار ماركس قبل قرن من الزمان الى امكانية ظهور قيادات ادارية قوية فى

---

(75) Meade, J., Efficiency, Equality and the Ownership of Property, London, 1964.

ظل مجتمع رأسمالى قائم على المشروعات الصناعية والتجارية الضخمة ، وأن مثل هذه القيادات سوف تتولى ادارة رؤوس الاموال بحيث يتحول الرأسماليون بمرور الوقت الى مجرد أشخاص يمتلكون مقادير هائلة من الثروة[٧٦] • بيد أن ماركس كان يشير الى عملية لا تزال فى بداياتها المبكرة • ففى فترة لاحقة — وعلى الاخص خلال القرن العشرين — ظهر انفصال واضح بين الملكية والادارة خاصة بالنسبة للمشروعات الكبيرة الحجم • وفى الولايات المتحدة لوحظ ظهور اتجاه مواز يتمثل فى السيطرة الاقتصادية المتزايدة التى تمارسها بعض العائلات الامريكية • فمن بين خمسمائة شركة أمريكية ضخمة ، كان أكثر من مائة منها تخضع لسيطرة فرد واحد أو مجموعة من الافراد ينتمون الى عائلة واحدة[٧٧] • كذلك أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن كثيرا من مديرى الشركات والمؤسسات الكبرى فى الولايات المتحدة لم يحصلوا على أوضاعهم دن خلال الملكية ، ولكن من خلال التعيين والاستقطاب ، مما يعنى أن الاتجاه نحو انفصال الملكية عن الادارة هو اتجاه مستمر وفى خط صاعد • وعلى الرغم مما يذهب اليه البعض من أن العنصر الادارى قد أصبح مستقلا الى حد كبير عن الملكية ، وأن المشروعات الكبرى قد أصبحت تعتمد أساسا على أعداد هائلة من حملة الاسهم ، على الرغم من ذلك كله فان الواقع العملى يشير الى أن هناك قلة حاكمة تسيطر تماما على هذه المشروعات وتوجهها لخدمة مصالحها الخاصة• ومن هذه الزاوية يمكن القول ان هذه الصفوة الادارية تشكل جماعة اجتماعية — اقتصادية لها خصائصها ودوافعها ومصالحها التى تميزها وتبعدها عن مصالح الملاك •

ولقد أوضحت دراسات عديدة أجريت على المجتمعات الغربية أن نسبة ملحوظة من أفراد الصفوة الادارية تنتمى الى أصول اجتماعية معينة تتمثل

---

(76) See Strachey, J., Contemporary Capitalism, London, 1956, pp. 150-151.

(77) Berle, A., The XXth Century Capitalist Revolution, London, 1960. p. 180.

بجلاء فى المهن الفنية العليا • بيد أن هذه الدراسات لا تعكس بدقة ديناميات الالتحاق بوظائف الصفوة الادارية فى هذه المجتمعات • فالواقع أن الالتحاق بأوضاع الصفوة عموما يتم فى ضوء قواعد وراثية واضحة • اذ أن فرص أفراد الطبقة الدنيا فى الوصول الى الطبقتين الوسطى والعليا تبدو ضئيلة للغاية • ولقد أشار ويسترجارد Westergaard فى مقـال له(٧٨) الى أن جانبا كبيرا من حركة الافراد بين الطبقات تتم فى حدود اجتماعية ضيقة كالانتقال من المهن اليدوية الى المهن غير اليدوية ، وأن هـذا الانتقال لا يصـاحبه بالضرورة تغير أساسى فى نظام توزيع الدخول • وتشير البيانات المنشورة حتى سنة ١٩٦٠ الى أن نسبة أبناء العمال اليدويين الذين اسـتطاعوا أن يحققوا ما أطلق عليه ميلر Miller « بالقفزة الكبرى » نحو المهن الفنيـة العليا لا تتعدى ٥ ٪ فى أوربا الغربية ، و ٨ ٪ فى الولايات المتحدة(٧٩) • كذلك لوحظ أن انتشار الطابع الادارى للتنظيمات الحديثة قد لعب دورا كبيرا فى تحديد فرص الحراك الاجتماعى بالنسبة لافراد الطبقة الدنيا • اذ أن الوظائف الادارية العليا تتطلب ــ بادىء ذى بدء ــ مؤهلات تعليمية لا يستطيع الحصول عليها الا أفراد الطبقتين الوسطى والعليا • ولقد لاحظ أندرسون Anderson أن هناك اتجاها متزايدا نحو عدم تكافؤ الفرص فى مجال التعليم العالى فى دول أوربا الغربية والولايات المتحدة(٨٠) • كذلك أكد بيندكس Bendix أن معظم طلاب الجامعات الامريكية ينتمون الى رجال الاعمال ، وكبار المزارعين ، وذوى المهن الفنية العليا(٨١) • ويبدو أن

---

(78) Westergaard. J., «The Withering Away of Class. A. Contemporary Myth». in Anderson. P. Blackburn. R. (eds.). Towards Socialism. London. 1965. p. 89.

(79) Miller, S. M., «Comparative Social Mobility», in Current Sociology, New York, 1960, vol. 9.

(80) Anderson. C., «The Social Status of University Students in Relation to the Type of Economy : an International Comparison». in Transactions of the Third World Congress of Sociology, 1956. vol. 5. pp. 51-52.

(81) Bendix. R. Lipset, S., Social Mobility in Industrial Society, p. 94.

التعليم العالى فى الولايات المتحدة يتطلب امكانيات وتسهيلات لا تقدر عليها الا أسر الطبقتين الوسطى والعليا ، وان كان ذلك لا يتعارض — بطبيعة الحال — مع الاتجاه المتزايد نحو زيادة نسبة أبناء الطبقة الدنيا فى مراحل التعليم العالى • وهناك دراسات عديدة تشير الى أن المؤهلات التعليمية لا تكفى وحدها لتحقيق الحراك الاجتماعى السريع ، وأن هناك عوامل طبقية وعرقية وأسرية تلعب فى هذا المجال دورا لا يمكن تغافله •

هذا وقد ظهرت مناقشات عديدة حول الدور السياسى لكبار الرأسماليين فى الدول الصناعية الغربية ، وتأثير ذلك على طبيعة بناء القوة فيها • فلقد أشار كارل كاوتسكى Kautsky الى أن الطبقة الرأسمالية تسيطر على المجتمع الغربى لكنها لا تحكمه[٨٢] • ولقد لفتت هذه العبارة أنظار كثير من العلماء الاجتماعيين ، مما حدا ببعضهم الى جمع الشواهد المتناثرة عن بدايات الرأسمالية فى المدن الايطالية للتعرف على الدور المسيطر الذى مارسه كبار رجال الاعمال آنئذ[٨٣] • وبرغم ظهور صراعات مبكرة بين الطبقة الرأسمالية والجهاز السياسى للدولة ، الا أن هذه الطبقة قد استطاعت — بمرور الوقت — ممارسة تأثيرات سياسية متزايدة ، بدت أوضح ما تكون فى تمثيل كبار الرأسماليين فى الاجهزة السياسية التنفيذية • وبرغم الانجازات العديدة التى حققتها الطبقة الرأسمالية فى الدول الصناعية الغربية ، الا أن بعض المفكرين الاجتماعيين يميلون الى التقليل من أهمية التوجيه السياسى لهذه الطبقة • فعلى سبيل المثال نجد ماكس فيبر Weber يعتقد أن كبار رجال الصناعة لا يمتلكون الوقت ولا يتمتعون بالمهارات التى تمكنهم من دخول الحياة السياسية[٨٤] • كما أشار شومبيتر Schumpeter الى نقطة مماثلة حينما أكد أن الرأسمالى يميل بحكم تكوينه

---

(82) Kautsky, K., The Social Revolution, London. 1947, p. 13.

(83) Cox, O., The Foundations of Capitalism, New York, 1959.

(84) Bendix, R., Max Weber, An Intellectual Portrait, New York, 1960.

الشخصى الى خلق عالم خاص به قد يغنيه عن الدخول فى عالم السياسة[٨٥] .
وهناك شواهد تشير الى أن رجال الاعمال يميلون الى تأكيد حقيقة ابتعادهم عن الشئون السياسية . بيد أن الواقع العملى يشير الى غير ذلك تماما . اذ أن القوة الاقتصادية تميل باستمرار الى تدعيم نفسها بقـوة سـياسية موازية . ففى الولايات المتحدة لوحظ أن رجال الاعمال كانوا يشكلون أكبر جماعة مهنية ممثلة فى الحكومات الامريكية فى الفترة فيما بين سنتى ١٨٨٩ و ١٩٤٩ . فمن بين العدد الكلى للوزارة خلال هذه الفترة ، كان أكثر من ٦٠ ٪ منهم من رجال الاعمال[٨٦] . كذلك لوحظ خلال فترة حكم ايزنهاور (بين سنتى ١٩٥٣ و ١٩٦١) أن عدد رجال الاعمال من الوزراء كان كبـيرا نسبيا[٨٧] . وفى بريطانيا اتضح أن عدد رجال الاعمال فى الوزارات فيما بين سنتى ١٨٨٦ و ١٩٥٠ كان يصل الى الثلث بما فى ذلك رؤساء الوزارات .

والواقع أن الحكومة ليست هى المجال الوحيد الذى يلعب فيه رجال الاعمال دورا هاما ، فهم يمارسون أيضا تأثيرا هاما فى المجال الادارى . ففى فرنسا — مثلا — لوحظ وجود تحالف كبير بين رجال الاعمال وكبـار الموظفين الحكوميين[٨٨] . ذلك أن نشاطات رجال الاعمال ليست بمعزل عن النشاطات الحكومية . ولعل ذلك يوضح لنا زيف القضية الذاهبـة الى أن رجال الاعمال لا يمارسون سيطرة كبيرة على الحكومة والادارة والاقتصاد . ان الدور الذى يؤديه رجال الاعمال من خلال مناصبهم السياسية لا يتعلق فقط بالدفاع عن مصالحهم داخل الدولة ، بقدر ما يتعلق بالاسهام فى تحديد خطوطها السياسية والايديولوجية . ومن هنا نجدهم يقدمون تصـوراتهم الخاصة عن بعض القضايا الهامة « كالمصلحة القوميـة » ، « والنمـو الاقتصادى » ، « والحرية السياسية » . وبرغم ذلك كله فان هنـاك من

---

(85) Schumpeter, J., Capitalism, Socialism and Democracy, 1950, pp. 137-38.
(86) Laswell, H. et al. The Comparative Study of Elites, N. Y., 1952.
(87) Mills, C. W., The Power Elite, New York, 1954, pp. 232 ff.
(88) Schonfield, Modern Capitalism, London, 1959, p. 128.

يذهب الى أن الصفوة الاقتصادية فى المجتمعات الصناعية الحديثة لا تشكل طبقة متماسكة خاصة اذا ما قارناها بتلك التى سيطرت على المجتمعات الاوربية خلال القرن الثامن عشر • وفى ضوء هذه النقطة يفسر البعض التباعد بين رجال الاعمال وكبار موظفى الدولة فى ضوء الامتيازات المتباينة التى يحققها كل منهم ، برغم انتمائهم جميعا الى الطبقتين الوسطى والعليا[٨٩] • وهناك دراسات عديدة تناولت الاصول الاجتماعية للصفوة الادارية فى المجتمعات الصناعية الغربية • فعلى سبيل المثال أوضح مينود Mynoud أن كبار موظفى الدولة فى فرنسا ينتمون فى الاصل اما الى الطبقة الوسطى ــ العليا أو الطبقة العليا ــ العليا ، وأن ذلك ينطبق أيضا على كبار قادة الجيش والقضاة • كذلك لوحظ فى بريطانيا أن كبار الموظفين المدنيين يحصلون عادة على تعليم متميز وينتمون الى أصول طبقية عليا[٩٠] • وفى الولايات المتحدة أوضح بعض الدارسين وجود اتجاهات مماثلة لتلك التى توجد فى فرنسا وبريطانيا • فلقد أشار ماتيوس Matthews الى أن الذين يتحكمون فى القرارات الاساسية فى الولايات المتحدة ينتمون الى أسر أصحاب المهن الفنية العليا وكبار الملاك ، وأن نسبة قليلة منهم تنتمى الى أسر الطبقة العاملة وصغار الموظفين[٩١] • أما رايت ميلز Mills فلقد أوضح أن كبار ضباط الجيش فى الولايات المتحدة ينتمون عموما الى أسر الطبقة الوسطى العليا ، وأن نسبة ضئيلة منهم هى التى تنتمى الى الطبقة العاملة[٩٢] • وفيما يتعلق بألمانيا فلقد أشار رالف دارندورف Dahrendorf الى أنه برغم انهيار الاحتكار القديم الذى كانت تمارسه طبقة النبلاء ، فان جماعات الصفوة فى ألمانيا أصبحت تتألف منذ سنة ١٩١٨ من أفراد ينتمون ــ

---

(89) Goodwin, A. (ed.) The European Nobility in the 18th Century, London, 1953.

(90) Kelsall, R., The Higher Civil Servants in Britain, London, 1955.

(91) Matthews, D., The Social Background of Political Decision Makers, New York, 1954, pp. 23-24.

(92) Mills, C. Wright, The Power Elite, op. cit, p. 1952.

بشكل أو بآخر — الى الطبقتين الوسطى والعليا[٩٣] • وهناك عوامل عديدة تشجع على ظهور هذه الاتجاهات • من ذلك أن الذين يتحكمون فى الاختيار للوظائف المدنية الكبرى ينتمون الى الطبقتين الوسطى والعليا سواء أكان ذلك من خلال الاصل الاجتماعى أو من خلال النجاح المهنى ، وأنهم بذلك يكونون صورة معينة لأسلوب تفكير وسلوك كبار الموظفين والقادة العسكريين • ولقد أشار ماكس فيبر Weber الى أن تطور ونمو البيروقراطية يؤدى الى الحد من الامتيازات الطبقية ، وذلك من خلال الاعتماد على المعايير الموضوعية فى التعيين والترقية والمكافأة[٩٤] • لكن يبدو — مع ذلك — أن البيروقراطية تعبر فى نهاية الامر عن طبيعة البناء الطبقى الذى يميز المجتمع بوجه عام •

ولا شك أن هناك تغيرات عديدة طرأت على بناء الصفوات فى الدول الصناعية الغربية خلال العقود الاخيرة • فهناك محاولات تسعى الى اتاحة الفرصة أمام أبناء الطبقة العاملة للدخول فى الوظائف المدنية الرئيسية • بيد أن هذا الاتجاه لا يعبر عن اتجاه ديموقراطى حقيقى ، بقدر ما يعبر عن اتجاه برجوازى يتبناه الصاعدون من أفراد الطبقة العاملة الى قمة الهرم الادارى • فحينما يحصل هؤلاء الافراد على الوظائف الادارية العليا ، فانهم يتكاملون شيئا فشيئا مع الصفوة الادارية ، وبالتالى يكتسبون كل الرموز المعبرة عن انتمائهم الجديد • ومن الطبيعى ألا تضعف هذه العملية بناء الصفوة الادارية ككل ، بل ان عكس ذلك هو الصحيح • ذلك أن احساس أفراد الصفوة بالانفتاح والتكافؤ يقوى من اعتقادهم بأن حصولهم على أوضاعهم انما تم فى ضوء معايير الكفاءة والجدارة • ان دخول أعداد محدودة من أفراد الطبقة الدنيا الى الصفوات المختلفة فى الدول الصناعية من شأنه تدعيم المعتقدات السياسية الشائعة التى أهمها الديموقراطية

---

(93) Dahrendorf, R., Society and Democracy in Germany, London, 1969, p. 228.

(94) Weber, M., The Theory of Social and Economic Organization, New York, 1974, p. 340.

والمساواة والحراك الاجتماعى • بيد أن انتشار هذه المعتقدات وسيطرتها لا يعنى أنها تجد تطبيقا واقعيا حقيقيا •

(٧)

وخلال السنوات الاخيرة ظهر اهتمام ملحوظ بدراسة دور الصفوات فى الدول النامية • ولقد اتخذ هذا الاهتمام أشكالا عديدة تبدأ بالخصائص العامة المميزة للصفوات ، لتنتهى بموقفها من عمليات التنمية والتحديث • وهناك مبررات قوية لدراسة الصفوات فى الدول النامية . لعل أهمها ذلك التحول الذى طرأ على هذه الدول بحصولها على الاستقلال ، وظهور صفوات جديدة حلت محل الصفوات القديمة فى ادارة الشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية • ويميل بعض الدارسين الى اعتبار الصفوات الجديدة بمثابة الوريث الشرعى للصفوات القديمة التى كانت قائمة فى الدول النامية خلال الحقبة الاستعمارية • ويبدو أن الظروف التى تمر بها الدول النامية تشكل مجالا خصبا لدراسة العوامل المؤدية الى ظهور الصفوات وعلاقتها بالجماهير ، فضلا عن الدور الذى تلعبه فى مجالات التنمية الاقتصادية والتغير الثقافى • ومع التسليم بأن هناك اختلافات كبيرة بين الدول النامية فيما يتعلق بالموارد الطبيعية والبشرية والموقع الجغرافى والظروف التاريخية ، الا أن ذلك لا يمنع من الوصول الى بعض الاحكام العامة المتعلقة بقضية الصفوة فى الدول النامية[٩٥] •

وعلى الرغم من اختلاف العلماء الاجتماعيين حول تصنيف الصفوات المختلفة فى الدول النامية ، الا أن هناك اتفاقا على وجود مجموعة من

---

(٩٥) خلال السنوات الاخيرة ظهرت دراسات عديدة تتناول طبيعة جماعات الصفوة فى الدول النامية من زوايا مختلفة . انظر على سبيل المثال :

Shils, E., «The Intellecuals in the Political Development of the New States», in Finkle, J. and Gable, R. W. Political Development and Social Change, New York, 1971, pp. 249-276, Pye, L. «Armies in the Process of Political Modernization, in Finkle, J. and Gable, R. Ibid. pp. 277-283, Riggs, F. «Bureaucrats and Political Development», in Ibid, pp. 331 ff.

الصفوات يبدو أنها شائعة فى معظم الدول النامية • من ذلك الطبقة الوسطى والمثقفون الثوريون ، والقادة الوطنيون • وهناك فى الواقع صفوات أخرى توجد فى بعض الدول النامية كالصفوة ذات الصلة بالجماعة الحاكمة (وتضم كبار ملاك الارض أو الارستقراطية التجارية) • والواقع أن الدور الذى تلعبه هذه الصفوة محدود دائما بمصالحها الخاصة واستمرار الاوضاع القائمة • ولقد أحدثت هذه الصفوة بعض التعديلات الطفيفة كتشجيع فرص الحراك الاجتماعى لبعض الجماعات • بيد أن ذلك لا يستطيع وحده تحقيق الاحتياجات الجماهيرية المتمثلة فى النمو الاقتصادى السريع • وارتفاع مستويات المعيشة ، وتحقيق عدالة التوزيع فى الدخول الاقتصادية والخدمات الاجتماعية •

وتتجه كثير من الدول النامية الى تدعيم الطبقة الوسطى وتوسيع نطاقها بزيادة فرص الحراك الاجتماعى اليها • وهناك مبررات قوية تدعو الى ذلك • فلقد تشكلت الطبقة الوسطى فى الدول النامية خلال الفترة الاستعمارية نتيجة للنظم التعليمية والادارية التى أدخلتها القوى الأوربية الى هذه الدول • كذلك فلقد حققت الصفوة المتعلمة سيطرة كبيرة على الطبقة الوسطى بسبب ضعف طبقة رجال الاعمال وانخفاض معدل النمو الاقتصادى[٩٦] • ومع ذلك فاننا نلاحظ فى بعض دول أمريكا اللاتينية والشرق الاوسط تشكل طبقة من رجال الاعمال تنتمى — بشكل أو بآخر — الطبقة الوسطى ، مما منحها (أى الطبقة الوسطى) قوة سياسية اضافية • وفى داخل الطبقة الوسطى نجد جماعة كبار موظفى الحكومة الذين يتولون الاشراف على كثير من النشاطات التنفيذية خاصة فى ظل ظروف التخطيط الاقتصادى والاجتماعى • ويحاول بعض العلماء تشبيه موقف الصفوة الادارية فى الدول النامية الآن بموقف أصحاب المشروعات الرأسمالية فى الدول الغربية خلال القرن التاسع عشر ، وذلك من حيث القدرة على

---

(95) Matossian, M., Ideologies of Delayed Industrialization, in Finkle, J. and Gable, R. Ibid., pp. 101-112.

التوجيه وممارسة التأثير السياسى[٩٧] .

ويميل بعض الدارسين الى عقد مقارنة بين جماعات الصفوة القديمة والجديدة فى الدول النامية ، استنادا الى موقفها من التنمية الاقتصادية والتغير الثقافى . فلقد أشار الجوهرى فى دراسة له[٩٨] الى أن الدول النامية وهى تسعى الى تحقيق استقلالها السياسى ونموها الاقتصادى قد شهدت تكون طبقة جديدة تضم فيما تضم المدرسين . والموظفين الاداريين ، والاطباء ، والمهندسين الزراعيين ، وصغار الضباط . وأن أفراد هذه الطبقة قد تلقوا تعليمهم فى الخارج أو على أيدى خبراء ومستشارين أجانب داخل الوطن . ويمكن اعتبار أبناء تلك الطبقة الجديدة — على الاقل من الناحية العددية البحتة — أقوى دعاة التقدم ومجنديه والمتطلعين الى التفكير الثقافى والتحديث بصفة عامة . ومن الطبيعى أن يجد أبناء جماعة الصفوة القديمة طريقهم الى هذه الطبقة الفكرية الجديدة ، خاصة فى المراحل الاولى من عملية التنمية . بيد أن انتماءاتهم الطبقية الاصلية قد تحول بينهم وبين تبنيهم للقيم والاتجاهات المرتبطة بالتحديث . لذلك قد تقتصر حياتهم على الاندفاع نحو الاستهلاك باسراف أو الاقتصار على المشاركة الروتينية المحافظة فى النشاط السياسى العام . أما أفراد وجماعات الصفوة الجديدة فانهم يتبنون قيما واتجاهات مختلفة الى حد ما . فالذين لم يصلوا منهم الى احتلال مواقع مؤثرة على سلم السلطة يميلون الى عدم الامتثال لبناء السلطة القائم ، بل ويعملون على تعديله وتغييره . وفى بعض الاحيان لا يفكرون فى تحقيق ذلك بالطرق الاصلاحية ، وانما يتجهون الى الاساليب الثورية . وعند هذا الحد يبدأ حدوث صدام حاد فى المصالح وخلاف ايديولوجى بين جماعات الصفوة القديمة وجماعات الصفوة الجديدة . اذ تتحول الصفوة الجديدة الى أداة لتحريك عمليات التنمية الاجتماعية

---

(٩٧) ت.ب. بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٩٨) محمد الجوهرى ، البناء الطبقى فى الدول النامية ، فى السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق .

وتنشيط الحراك الاجتماعى على نطاق واسع • ومعنى ذلك أن الصفوة الجديدة تستمد مبررات وجودها من وظيفة التحديث التى تضطلع بها فى المجتمع ، ومن كونها تمثل مصدرا دائما للتطور ولو بصورة شكلية على الأقل •

وهناك اهتمام حديث بدراسة البناء الاجتماعى للصفوات فى الدول النامية فى محاولة للتعرف على أصولها الاجتماعية • وهنا نجد بعض الدارسين يتوصلون الى استنتاجات متعجلة حول المواقف السياسية المقبلة لهذه الصفوات • بيد أن مؤلفى كتاب « التركيب الطبقى للبلدان النامية » يؤكدون صعوبة التوصل الى أحكام صادقة فى هذا المجال • فالملاحظ أن الجانب الاكبر من مثقفى الدول النامية ينتمون الى فئات غنية ؛ كما أن الوسط الاجتماعى الواحد فى الدول النامية قد يفرز أشخاصا يتبنون الماركسية ويدافعون عنها ؛ كما قد يفرز زعماء لمنظمات رجعية عاتيه[٩٩] • ويميل بعض الدارسين الى القول بأن الصفوة السياسية فى الدول النامية ترتبط ارتباطا قويا بالقادة الوطنيين والمثقفين الثوريين • ففى معظم الدول الآسيوية والافريقية لعب المثقفون دورا بارزا فى الصراع ضد الحكم الاستعمارى • وفى دراسة عن الصفوات الاندونيسية الجديدة التى اتصلت بالمراحل الاولى من حركة الاستقلال ، لوحظ انتشار المبادىء الراديكالية بين طلاب الجامعات ، والاثر العميق الذى أحدثه المثقفون ذوو العقليات السياسية • كما كشفت هذه الدراسة أيضا عن أن الاندونسيين المتعلمين يشكلون غالبية المشاركين ذوى الكفاءة فى الحركات المعادية للاستعمار[١٠٠] • وفى نيجيريا حلت صفوة جديدة من الذين أتموا تعليمهم فى الغرب محل الصفوة القديمة التى كانت تتألف من العائلات التقليدية الحاكمة بعد تطور حركة الاستقلال[١٠١] • ولقد أشار هودجكن Hodgkin فى دراسة له الى أن

---

(٩٩) مقتبس من المرجع السابق ، ص ٢٧١ •

(100) Niel, W. V., The Modern Indonesian Elite, London, 1965.

(101) Smythe, H. and Smythe, M., The New Nigerian Elite, London, 1965.

الصفوات السياسية الافريقية تتألف ــ الى حد كبير ــ من الطبقات الوسطى الجديدة وبخاصة القطاعات المتعلمة منها • ففى المجلس الحكومى بغانا ، لوحظ بعد انتخابات عام ١٩٥٤ أن ٢٩ ٪ من الاعضاء كانوا من بين المدرسين و ١٧ ٪ من الكتبة والمحامين و ١٧ ٪ من الذين يزاولون أعمالا حرة • أما بالنسبة لاعضاء المجلس التشريعى للمقاطعات التسعة التى كانت تدخل ضمن القسم الغربى الفرنسى من أفريقيا ، فقد لوحظ بعد انتخابات عام ١٩٥٧ أن ٢٢ ٪ كانوا من المدرسين و ٢٧ ٪ من موظفى الحكومة و ٢٠ ٪ من المشتغلين بالمهن الحرة[١٠٢] •

هذا وقد خضعت المعتقدات السياسية للصفوات فى الدول النامية لاهتمام كبير خلال السنوات الماضية • فلقد أشار ريمون آرون Aron الى الماركسية كعقيدة سياسية تتبناها بعض القطاعات المثقفة فى الدول النامية كمدخل للتنمية والتحديث[١٠٣] • وهنا تبدو الماركسية عقيدة تقرر بوضوح الاهداف أو الغايات التى يتعين تحقيقها ، وتقدم تبريرا أخلاقيا للصفوة الحاكمة ولسياستها • كذلك فان الماركسية تأخذ صورة المذهب التقدمى القائم على المساواة ، كما أنها تمثل فى الوقت ذاته نظرية للتصنيع السريع • غير أن فشل الدول النامية فى تشكيل أحزاب سياسية ثورية ، فضلا عن الانتقادات التى أثيرت ضد الماركسية ذاتها ، قد حالا دون تبنى كثير من المثقفين لهذه العقيدة كمدخل حتمى للتغيير الاجتماعى والاقتصادى • لذلك نجد فكرة القومية أو الوطنية تمثل بديلا لكثير من مثقفى الدول النامية • ففى أفريقيا ــ مثلا ــ تختلط النزعة الوطنية بالمذاهب الاشتراكية من جهة ، وبالأفكار الخاصة بحركة الشعوب الافريقية التى تشترك فى مشروعات فعلية لاتحاد فيدرالى من جهة أخرى • وفى معظم دول آسيا نجد النزعة الوطنية تأخذ طابعا اشتراكيا واضحا ، كما أننا نجد هذه النزعة ترتبط فى مجتمعات

(102) Ibid. p. 25.

(103) Aron, R., «Social Structure and the Ruling Class», British Journal of Sociology, I (2), 1950, p. 155.

الشرق الاوسط ارتباطا قويا بالاشتراكية بسبب معارضتها للمصالح الاجنبية •

وبالاضافة الى الصفوة المثقفة هناك أيضا صفوة رجال الاعمال • وعلى الرغم من أن الحجم العددى لهذه الصفوة صغير نسبيا فى الدول النامية، الا أنها قد بدأت مؤخرا تمارس تأثيرات مختلفة الاشكال • والملاحظ أن صفوة رجال الاعمال فى هذه الدول تضم جماعات عديدة من بينها أبناء أصحاب السلطة التقليدية الذين يتميزون بقدر أكبر من المرونة والاستعداد للتكيف ، ويملكون كمية كافية من رؤوس الاموال • كذلك نجد بعض الجماعات والفئات الهامشية فى بعض الدول النامية تشكل صفوات تجارية كما هو الحال بالنسبة للبنانيين فى أمريكا اللاتينية ، والعرب والهنود فى أفريقيا جنوب الصحراء والصينيين فى جنوب شرق آسيا • ولقد كان أبناء هذه الجماعات يمارسون بعض الحرف ، ولم يتكاملوا الا بشكل جزئى فقط مع المجتمعات التى يعيشون فيها ، ومن ثم لم تكن تقيدهم أو تكبت حركتهم المعايير والقيم التقليدية السائدة فيها ، كما كانوا أكثر انفتاحا على المؤثرات الاجنبية وأكثر استعدادا لاقامة علاقات مع الخارج[١٠٤] • ويمكن أن نضيف الى الفئتين السابقتين فئة جديدة تضم بعض أقارب وأصدقاء أصحاب السلطة الجدد وأتباعهم السياسيين الذين يستفيدون أعظم الفائدة من علاقاتهم بتلك الفئة • ومن الواضح أن هذه الفئة الجديدة من أصحاب الاعمال الوطنيين تختلف بصفة عامة عن نظيرتها فى الغرب التى قادت عملية التنمية وذلك من حيث الاستعداد لتكوين رأس المال المستقل ، والاقدام على المخاطر الاقتصادية ، والارتباط بأهداف الاستقلال الاقتصادى الوطنى • ولعل ذلك يجعلنا نذهب الى أن ظاهرة عدم تكافؤ توزيع الدخول والارباح العالية فى الدول النامية لا تؤدى بالضرورة الى تكوين رؤوس أموال جديدة ، ومن ثم لا تسهم فى التنمية الاقتصادية حتى فى صورتها

---

(104) See for example Geerts, C., Peddlers and Princes, New York, 1966.

الرأسمالية وعلى نحو ما شهدته أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[١٠٥] ولقد أوضح فرانتز فانون Fanon في مؤلفه «معذبو الارض»[١٠٦] أنه اذا كانت البرجوازية الوطنية في أوربا هي التي حققت الوحدات القومية فيها، فان البرجوازية الوطنية في الدول النامية لا تهتم الا بمصالحها الخاصة . ولا تستطيع أن توظف هذه المصالح في خدمة بناء مجتمع جديد . بل ان فانون قد أكد بجلاء أن البرجوازية الوطنية في البلاد الافريقية التي استقلت حديثا ، قد أيقظت الخلافات الاقليمية والمنازعات القبلية وفتتت الوحدة القومية من أجل الحفاظ على مصالحها . ويستنتج فانون من ذلك حقيقة أساسية هي ، أن الوحدة الافريقية لا يمكن أن تتحقق الا باندفاع الشعوب . واذن فعلى الدول المتخلفة أن تثب فوق المرحلة البرجوازية ، وأن تكون هذه الوثبة متجهة ــ بالتأكيد ــ نحو الاشتراكية[١٠٧] .

وأخيرا فان رجال الجيش في الدول النامية يشكلون صفوة متميزة[١٠٨] . وتلعب هذه الصفوة دورا حاسما في المجتمعات المستقلة حديثا التي لا تزال فيها النظم السياسية في طور التشكيل ، مما يتيح لضباط الجيش فرصة كبيرة لممارسة التأثير السياسي . والواقع أن تدخل الجيش في الشئون السياسية يعتمد على عوامل عديدة منها : التقاليد التي تلقنها ضبط الجيش ، وأصولهم الاجتماعية ، ونطاق تأثيرهم في الفرق العسكرية الخاضعة لسلطاتهم ، فضلا عن طبيعة علاقاتهم بالسياسيين . وهناك اتفاق ملحوظ بين العلماء الاجتماعيين على أن الجيوش الحديثة في الدول النامية تشكل قنوات أساسية للحراك الاجتماعي الصاعد . ففي المجتمعات التي يتاح فيها التعليم العالي للطبقة الوسطى يمثل الجيش مجالا لتكوين صفوة

---

(١٠٥) انظر محمد الجوهري ، المرجع السابق .

(106) Fanon, F., The Wretched of the, Earh, Penguin Books, 1970.

(107) Ibid. p. 190.

(108) Pye, L., «Armies in the Process of Political Modernization, in Finkle, J. Gable, R., Political Development and Social Change, New York, 1971, pp. 277-283.

جديدة ينتمى أعضاؤها الى الطبقات الوسطى فى المجتمع ، وهى غالبا ما ترتبط بالطبقة العاملة والفلاحين وتنشغل بالصراع من أجل السيطرة السياسية[١٠٩] • ففى مصر وسوريا والعراق حدثت ثورات بزعامة ضباط من الجيش ينتمون أساسا للطبقتين الوسطى والدنيا • وفى أمريكا اللاتينية أيضا اتخذ التدخل العسكرى فى مجال السياسة شكلا جديدا خلال القرن الحالى • ولم يكن نموذج هذا التدخل هو نموذج الزعيم الذى ينتمى الى الطبقة العليا من ملاك الأرض ، ويستولى على القوة عن طريق صراع حزبى . بل ظهرت ثورات شعبية قادها صغار الضباط • ولقد أوضحت احدى الدراسات التى تناولت هذه الظاهرة فى بعض دول أمريكا اللاتينية أن نموذج الثورة قد تغير تغيرا ملحوظا فى الربع الثانى من القرن العشرين • فصغار الضباط الذين أحبطت مطامحهم ، أقاموا حركة عامة مع الجماعات الشعبية الصاعدة، واستطاعوا أن يتعاونوا معها فى اسقاط النظام القديم بالقوة المسلحة[١١٠] •

وتستمد الجيوش فى الدول النامية أهميتها باعتبارها رمزا من رموز الاستقلال الوطنى • فمع التقدم الهائل فى تكنولوجيا الاسلحة . وضعف الأحلاف الموجودة بين الدول الكبرى ، وارتفاع مكانة الدول النامية على الصعيد العالمى ، بدت بشكل واضح ضرورة رفع المستوى الثقافى والفنى لضباط الجيش • ولهذا السبب أرسلت كثير من الدول النامية بعثات من طلابها للتدريب والتعليم فى الدول الغربية أو الشرقية (طبقا لمصدر التسليح الذى تعتمد عليه الدولة النامية) ، كما استقدمت خبراء ومدربين من تلك الدول المتقدمة لتوصيل العلم الحديث الى قاعدة أعرض من العسكريين فيها • ويضطر بعض ضباط الجيش فى الدول النامية الى تدعيم مكانتهم بالارتباط بتيارات سياسية أو فكرية ، مما قد يدفعهم الى ممارسة نشاطات سياسية متنوعة • وهذا يدفعنا الى القول بأن الدور الذى تؤديه الجيوش فى الدول

---

(109) Johnson, J. (ed.), The Role of the Military in Underdeveloped Countries, Princetion University Press, 1962.

(110) Lieuxen, E., Arms and Politics in Latin America, London, 1962.

النامية متنوع أشد التنوع ويتوقف على عوامل عديدة • ففى بعض هـذه الدول يمثل الجيش مؤسسة وطنية وحيدة قادرة على تجاوز الروابط العائلية والقبلية والعشائرية والدينية • وفى البعض الآخر نجد الجيش بالنسـبة للفلاحين الأميين يمثل فرصـة فريدة للاحتكاك بالعالم الخـارجى وتدعيم الاحساس بالذات • كذلك فان الجيش فى الدول النامية يمثل حلقة الوصل بين المجتمع المتخلف والتكنولوجيا الحديثة • اذ أن هذه الدول قد تتسامح فى قبول تخلف المستوى الثقافى او الخدمات الصحية أو الاجتمـاعية • لكنها تحرص كل الحرص على تدعيم قواتها العسكرية وتوفير أحدث الامكانيات لها[١١١] • وبالاضافة الى ذلك كله فان هناك انجازات محددة يحدثها الجيش فى جنوده والعاملين به • ففى تنظيماته يلمس القروى المجند ــ لأول مرة فى حياته ــ أساليب التنظيم العصرى ، وقواعد الانضـباط ، وبفضله يمكن المساهمة بدور فعال فى محو أمية قطاع المجندين الذين يمثلون ــ فى تعاقبهم وفى ظل نظام التجنيد الاجبارى ــ قطاعا لا يستهان به من الثروة البشرية للدولة[١١٢] •

وتشير الشواهد التاريخية الى أن الجيوش فى بعض الدول النامية قد تؤدى أدوارا مزدوجة • فبعض منها يميل الى تأييد الحركات الاشتراكية والثورات القومية التقدمية ، والبعض الآخر يعمل على حماية النظم الرجعية المحافظة أو حتى الاطاحة بالنظم الاشتراكية الوطنية • ويمكننا أن نستشهد على ذلك بما حدث فى أمريكا اللاتينية خلال الستينيات من هذا القرن وما يحدث الآن فى أفريقيا • ومعنى ذلك أن الجيوش فى الدول النامية قد تلعب دورا حاسما فى تحريك الأحداث السياسية ، لكنها قد تلعب فى نفس الوقت دورا آخر يتمثل فى تعويق التنمية الاقتصادية والتغير الثقـافى • ونتيجة

---

(١١١) التركيب الطبقى للبلدان النامية ، تاليف عدد من العلماء السوفييت ، ترجمة داود حيدر ومصطفى الدباس ، منشورات وزارة الثقافة ، الجمهـورية العربية السورية ، دمشق ، ١٩٧٢ ، ص ص ٤١٢ ــ ٤١٣ •

(١١٢) حسن الخولى، الاثار الاجتماعية للخدمة العسكرية على ثقافة الفلاحين المصريين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ •

لذلك أصبح من المشكلات الملحة التى تواجه هـذه الدول ضرورة ترشـيد القوات المسلحة والحد من تدخلها فى الشئون السياسية ، والا تحولت الى ألغام تهدد النظم السياسية • وهنـاك محاولات عديدة يبذلها بعض الحكام للاستفادة من القوات المسلحة فى خدمة بعض مشروعات التنمية • ويبرر ذلك الانفاق الهائل الذى يوجه الى هذه القوات • بيـد أن النجاح الذى أحرزته هذه المحاولات لا يزال ضئيلا بسبب بعض التصورات الايديولوجية لدى بعض المستويات القيادية العليا التى ترى أن الكرامة العسكرية تتعارض والاشتغال بالأعمال اليدوية ذات النفع الاجتماعى العام • ففى الأرجنتين — مثلا — حاول قادة الجيش استخدام القوات المسلحة فى بعض المشروعات المدنية كشق الطرق وبناء الجسور ، لكنهم ما لبثوا أن واجهوا مقاومة من جانب صغار الضباط بدعوى أن ذلك ينال من كرامة الجنـدى ويضعف من مكانة المثل العليا العسكرية •

الفصل الثالث

الحراك والتغير السياسى

يحتل مفهوم الطبقة مكانا بارزا فى الدراسات السياسية • فعلى سبيل المثال نجد أرسطو Aristotle يميز بين المجتمعات المستقرة وغير المستقرة طبقا لموقع الجماعات المختلفة من بناء القوة[1] ، ثم يحـدد أنماط النظم السياسية فى ضوء الطبقات الاجتماعية المسيطرة • ومن بعد أرسطو ظهرت تحليلات سياسية عديدة حاولت الربط بين البنـاء الاجتمـاعى والسلطة السياسية بهدف التوصل الى فهم مقارن للبناءات السياسية • وفى هـذا السياق يمكن اعتبار نظرية ماركس Marx مثالا حيا على الربط بين الطبقة الاجتماعية كما تحددها وسائل الانتاج من ناحية ، والسلطة السياسية من ناحية أخرى • ذلك أن الطبقة عند ماركس ليست مفهوما استاتيكيا بقـدر ما هى تجسيد للتغير الاجتماعى والسياسى • والواقـع أننا لا نهتم هنـا بدراسة الطبقة الاجتماعية فى حد ذاتها ، فمثل هذه الدراسة أصبحت متاحة بوفرة فى التراث السوسيولوجى المعـاصر • ان ما يعنينا هنـا على وجه التحديد هو علاقة الطبقة بالتحولات التى تطرأ على توزيع القوة فى المجتمع • ولقد شهدت المجتمعات الصناعية الحديثة تغيرات هامة فى بناءاتها ، مما أدى الى اثارة تساؤلات عديدة تتعلق بطبيعة القيم التى تربط البناء السـياسى بالأفراد • ومنذ بداية القرن التاسع عشر نجد علماء الاجتمـاع فى كل من بريطانيا وفرنسا يؤكدون أن الحراك الاجتماعى وما صاحبه من قيم هـو أحد العوامل الهامة المفسرة للتصنيع فضلا عن الاصلاحات التى شـهدتها النظم السياسية • ولقد عبر عن ذلك ادموند بيركه Burke قائلا : « ان الانسان الحديث لا يعيش غالبا فى المكان الذى يولد فيه ، كما أن لديه الحرية

---

(1) Aristotle, Politics, Trans, Benjamin Jowett, Clarendon Press, Oxford. 1931.

فى استخدام ملكاته وقدراته » • ولو تأملنا كتابات العلماء السياسيين ابتداء من دى توكفيل De Tocqueville حتى ليبست Lipset ، وجدنا تأكيدا ملحوظا للدور الذى لعبه الحراك الاجتماعى داخل الحياة السياسية فى المجتمعات الغربية[٢] •

وطالما أننا نهتم فى هذا الفصل بدراسة العلاقة بين الحراك الاجتماعى والتغير السياسى ، فان تركيزنا سينصب على حالات التحول السياسى التى تخضع لها المجتمعات وما يرتبط بذلك من تغير فى القوة السياسية المتباينة التى تتمتع بها الجماعات المختلفة • ولقد عبر بيتريم سوروكين Sorokin قبل نصف قرن من الزمان عن أهمية مثل هذه الدراسة قائلا : « أصبحت التحولات السياسية خلال هذا العصر أوسع مدى وأبعد عمقا • ففى كثير من المجتمعات الغربية يستطيع أفراد من الطبقة الدنيا الوصول الى مرتبة الأرستقراطية السياسية • بل ان هناك تغيرا ملحوظا طرأ على الوضع النسبى للطبقات داخل الهرم الاجتماعى »[٣] • وخلال خمسينيات هذا القرن أجريت دراسات عديدة بهدف التعرف على مدى تغير الاتجاهات السياسية للجماعات التى حققت حراكا اجتماعيا صاعدا • ومن الامثلة البارزة على ذلك انخفاض نسبة أصوات العمال لحزب العمال البريطانى بسبب زيادة الرفاهية وانساع نطاق الحراك الاجتماعى من الطبقة الدنيا الى الطبقة الوسطى[٤] • وأيا كان الأمر فان قضية العلاقة بين الحراك الاجتماعى والاتجاهات السياسية لا تزال تثير جدلا حادا حتى اليوم برغم كثرة الدراسات فى هذا المجال • ومن الواضح أن هذه القضية تنطوى على أهمية أكاديمية بقدر ما تنطوى على أهمية تطبيقية • وقبل أن نتعمق فى هذه التفاصيل نجد من الضرورى

---

(2) See for example, Lipset, S., Bendix R., Social Mobility in Industrial Society, Heinemann, London, 1959.

(3) Sorokin, P., Social and Cultural Mobility, Free Press, Harmondeworth Middlesex, 1960.

(4) Abrams, M. Rose, R., Must Labour Lose, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1960.

العودة الى التراث السوسيولوجى الكلاسيكى لنتعرف على المضمون السياسى للحراك الاجتماعى ، ثم نناقش بعد ذلك أبعاد العلاقة المعقدة بين الحراك والتغير السياسى •

(١)

من الحقائق المقررة أن النظريات الكلاسيكية التى تناولت الحراك والتغير السياسى قد ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر . وأن الشواهد التاريخية التى استندت اليها هذه النظريات تتعلق أساسا بالتحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى أحدثتها الثورة الصناعية من ناحية . والثورة الفرنسية من ناحية أخرى • وفى كل هذه النظريات نجد تأكيدا شديدا لتحول المجتمعات الأوربية من مرحلة الاقطاع الى مرحلة الرأسمالية . واتخذ ذلك تعبيرات شتى • من ذلك الانتقال من المجتمع القروى التقليدى الى المجتمع الحضرى الحديث . والتحول من السلطة التقليدية الى السلطة القانونية الرشيدة ، وظهور الاغتراب والفردية فى المدن الصناعية الضخمة • ومن الطبيعى أن يحتل مفهوم الحراك الاجتماعى مكانة هامة داخل هذه النظريات والتصورات • اذ نجد اهتماما بتناول الجماعات الصاعدة التى احتلت مكانا جديدا داخل البناء الطبقى والجماعات الهابطة التى لم تستطع الصمود فى مواجهة التغيرات الجديدة الحاسمة(٥) • وبدون الدخول فى تفاصيل الاسهامات التى قدمها علماء الاجتماع خلال القرن التاسع عشر ، فاننا نجدهم يهتمون بتسجيل التغيرات التى طرأت على البناء الطبقى فى المجتمعات الاوربية منذ ظهور الثورة الصناعية • فلقد اختفت الطبقات القديمة وظهرت طبقات جديدة ، كما تغير النظام السياسى مؤديا بذلك الى ظهور مزيد من المركزية • ولقد اهتم دى توكفيل De Toqueville بمعالجة هذه النقطة ذاهبا الى أن الثورة الصناعية فى بريطانيا قد أدت الى

---

(5) Nisbet, R., The Sociological Tradition, Routledge and Kegan Paul, London, 1967.

ظهور طبقة دنيا جديدة طالبت بمركزية السلطة من أجل حمايتها من السلطة المحلية التى تمارسها الطبقة العليا • وبمرور الوقت انعكس هــذا الموقف فأصبحت الطبقة الدنيا هى التى تسعى الى تحقيق الاستقلال الذاتى والطبقة العليا تصر على تدعيم المركزية[٦] • ولقد مثل القرن التاسع عشر فترة انتقال هامة فى المجتمعات الأوربية • فالطبقات العليا ظلت تكافح من أجل تدعيم اللامركزية وتقوية الارستقراطية • غير أن زيادة الحراك الاجتمــاعى وما صاحبه من مرونة شديدة فى البناء الطبقى قــد حالا دون تحقيق أهــداف الطبقات العليا • وفى ذلك الوقت لم تعد القضــايا المثارة متعلقة بظهــور الصفوات السياسية وانهيارها ، بقــدر ما كانت متعلقة بطبيعــة التنظيم السياسى وموقع الجماهير فيه • وربما اختلفت الصــورة بعض الشىء فى الولايات المتحدة اذا ما قورنت بالمجتمعــات الاوربيــة • ففى الأولى كان الحراك أكثر شيوعا ، مما دعا توكفيل الى وصف المجتمع الامريكى بالقوة والحيوية ، وان أفتقد الافراد الحرية والمبادأة[٧] • والواقع أن دى توكفيل قد اعتمد فى تحليلاته للنتائج السياسية للحراك الاجتماعى على ملاحظــاته للعمليات الثقافية فى ثلاث دول مألوفة له تماما هى : انجلتــرا وفرنســا والولايات المتحدة • وكان يهدف بذلك الى البرهنة على أن الديموقراطيات الصناعية قد أدت الى فقدان الأفراد لحرياتهم الشخصية •

أما تحليل ماركس Marx لهذه القضايا فقد تم على أسس مختلفة ، وانتهى الى نتائج مناقضة لتلك التى توصل اليها دى توكفيل • فهو (أى ماركس) يعتقد أن التحول الى المجتمع الصناعى (الرأسمالى) قد أدى الى تغير فى أسلوب الانتاج ، وتلك نقطة تفوق فى مضمونها النقطة التى أكدها دى توكفيل والخاصة بظهور الديموقراطية • ولقد أدى تغير أساليب الانتاج وتراكم رأس المال الى الاسراع بتحول المجتمع الأوربى من النظام الاقطاعى

---

(6) Tocqueville, A., Democracy in America, Doubleday, Garden City, N. Y. 1955, p. 298.

(7) Ibid, p. 585.

الزراعى الى النظام الرأسمالى الصناعى[٨] • ومن هنا نجد ماركس يذهب الى أن المجتمع الرأسمالى الصناعى هو فى نهاية الامر نتاج لتغير أساليب الانتاج، وأن أفراد هذا المجتمع يرتبطون فيما بينهم بروابط قوامها المصلحة الخاصه• ومعنى ذلك أن ماركس قد نظر الى قضية الحراك الاجتماعى فى ضوء تقسيم العمل الذى فرضته الرأسمالية • والملاحظ أن ماركس فى دراسته للتباين الطبقى لم يهتم بمسألة الدخول قدر اهتمامه بمسألة العلاقات الانتاجية • فهو يشير الى ثلاث طبقات محددة هى : كبار ملاك الارض ، والرأسماليين ، والعمال المأجورين • واذا كان الوصول الى الطبقة الأولى (كبار ملاك الأرض) صعبا ، فان دخول الطبقة الثانية (الرأسماليين) ممكن بالحصول على رأس المال • وعندما تناول ماركس الطبقة البرجوازية الصغيرة ، أوضح المخاطر التى تتهددها نتيجة للنفوذ الذى يمارسه أصحاب المشروعات الكبيرة بما يمتلكونه من تكنولوجيا متقدمة ومعرفة فنية متطورة[٩] • ومن النتائج المترتبة على استخدام التكنولوجيا الجديدة نمو الثروات وظهور طبقات جديدة معتمدة على الرأسماليين • والواقع أن ماركس هنا لا يهتم بقضية الحراك الاجتماعى فى حد ذاتها قدر اهتمامه بالعلاقات الانتاجية والايديولوجية التى تحكم كلا من الرأسماليين والعمال • بعبارة أخرى فاذا كان الحراك يعنى انتقال العامل من عمل يدوى الى عمل فنى ، فان ذلك لا يعدو أن يكون أحد النتائج العديدة المترتبة على علاقة العامل بالانتاج •

ولقد أفاض ماركس فى تحليل الآثار السياسية لهذه العمليات الاقتصادية ، فأوضح ضرورة ظهور صراعات بين كبار ملاك الأرض والرأسماليين ، بل وبين الرأسماليين أنفسهم حول مدى استخدام التكنولوجيا المتقدمة واعادة توزيع الارض الزراعية • وتمثل هذه الصراعات السمة الأساسية للتغير السياسى ، ذلك التغير الذى ينجم عن تغير أساليب

---

(8) Marx, K., Selected Writings in Sociology and Social Philosophy, edited and introduced by Bottomore, T. B. and Rubel, M., Penguin Books, Harmondworth, Middlesex, 1963. p. 233.

(9) Ibid. pp. 195-196.

الانتاج • فاذا كان التجار قد حلوا محل كبار ملاك الارض ، فان الرأسماليين الصناعيين سوف يلعبون نفس الدور الذى لعبه التجار من قبل • وبوصول النظام الرأسمالى الى قمة ازدهاره وقوته ، تبدأ الطبقة العاملة فى اتخاذ وضع جديد بنشوب ثورة البروليتاريا • وهكذا نجد التاريخ السياسى — فى نظر ماركس — يبدو وكأنه مستند الى حراك جماعى أو طبقى • ذلك الحراك الذى هو أحد نتائج التغير الاقتصادى البعيد المدى • وعندما حلل ماركس موقف الطبقة الحاكمة الرأسمالية ، ذهب الى أنها تميل الى تدعيم سيطرتها من خلال التحكم فى الأجهزة الحكومية وممارسة الاستغلال الاقتصادى ، ثم فرض ايديولوجيتها على العمال بقبولهم للقيم التى ينهض عليها المجتمع الرأسمالى • واذا كانت الرأسمالية تسعى الى ايجاد فروق موضوعية بين قطاعات أو مستويات المجتمع ، فانها تحاول — فى نفس الوقت — تدعيم ايديولوجية تقوم على تقدير العمل الشاق ، واحترام النظام . وتقديس تراكم رأس المال • اذ أن ذلك يمكن أفراد الطبقات الدنيا من الوصول الى الطبقات الأعلى • وهنا تبدو أهمية « فكرة » الحراك . لأنها تغرس « وهم التقدم » ، بمعنى أن يعتقد أفراد الطبقة الدنيا بامكانية ارتفاعهم الى الطبقات الأعلى دون امتلاكهم للوسائل والأساليب التى تمكنهم من ذلك ، فضلا عن أن طبيعة البناء الطبقى فى المجتمع الرأسمالى لا يسمح الا لعدد محدود من الأفراد بالانتقال من الطبقة الدنيا الى الطبقة العليا[١٠] • وفى كتابات ماركس عن قضية الحراك الاجتماعى (وان لم يستخدم المصطلح) نجد تأكيدا للتناقض بين ايديولوجية الرأسمالية بما تؤكده من نجاح وانجاز ، والظروف الموضوعية للعمال بما تنطوى عليه من اغتراب واخفاق • وفضلا عن ذلك نجد ماركس يحاول فهم النظام السياسى فى ضوء العلاقات الطبقية السائدة فى المجتمع • فنمو جهاز الدولة ليس فقط مجرد نتيجة لتطور الرأسمالية ، انه أيضا علامة على ضعف السلطة التى تتمتع بها الطبقات

---

(10) Lefebvre, L., The Sociology of Marx, Allen Lane, The Penguin Press, London, 1968, Chap. 5.

الاجتماعية المختلفة • فالطبقة القوية اقتصاديا (كالرأسماليين فى انجلترا خلال القرن التاسع عشر) تكون حاجتها الى جهاز الدولة أقل اذا ما قورنت بالطبقة الضعيفة اقتصاديا (كالفلاحين فى فرنسا فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) • ومعنى ذلك أن الطبقة الأخيرة تكون بحاجة الى جهاز الدولة للتعبير عن مصالحها ، لأنها لا تستطيع التعبير عنها[١١] • والواقع ان ماركس لم يهتم اهتماما خاصا بديناميات التنظيم السياسى • فلو قبلنا تحليله للأسس الاجتماعية للتطور السياسى ، فستكون نظريته بحاجة الى فهم دقيق وشامل للأساليب المختلفة التى يتبعها السياسيون والبيروقراطيون فى ممارسة السلطة والتحكم فى المجتمعات •

ويمكننا أن نجد صدى قويا لهذه الأفكار فى كتابات ماكس فيبر Weber وباريتو Pareto وموسكا Mosca • فعلى سبيل المثال نجد فيبر يؤكد أن السياسة لا تستند مباشرة الى المصلحة الاقتصادية ، وان كان مفهوم المكانة يلعب دورا هاما فى هذا المجال • ويشير مفهوم المكانة ــ كما يستخدمه فيبر ــ الى فرص الحياة المتاحة أمام كل جماعة اجتماعية ، وهى فرص متفاوتة باختلاف الجماعات • ومعنى ذلك أن المكانة تشير ــ بصفة عامة ــ الى أسلوب الحياة المميز لكل جماعة من الجماعات[١٢] • ويحتل مفهوم المكانة أهمية خاصة فى دراسة الحراك الاجتماعى • ومن الممكن تحديد الحراك الذى يحققه الشخص اما من خلال التغيرات المهنية أو من خلال المكانة أو من خلال الوصول السياسى • وبذلك نجد فيبر يميز بين كل من الحراك المهنى ، وحراك المكانة ، وأخيرا الحراك السياسى[١٣] • فالشخص الذى يحقق

---

(11)Marx, K., «The Eighteenth Brumaire of Louis Napoleon», in Marx and Engels, Selected Works, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1950, p. 303.

(12) Gerth. H., and Mills, C. W., (eds.), From Max Weber, Routledge and Kegan Paul. London, p. 186.

(١٣) لمزيد من التفصيل انظر : السيد الحسينى ، معنى الحراك المهنى : تقويم امبيريقى ، المجلة الاجتماعية القومية ، ١٩٦٩ .

حراكا مهنيا قد يحصل على وظيفة تتمتع بسلطة أكبر ودخل أعلى • لكن ذلك لا يتحقق على الدوام ، اذ قد يصبح العامل زعيما سياسيا بسبب انتمائه الى الطبقة الكادحة • والواقع أن التحليل السياسى للحراك الاجتماعى لا يتطلب منا معرفة عدد الذين ينتقلون من طبقة لأخرى بقدر ما يتطلب معرفة كيفية تحديد السلطة وتوزيعها على مختلف الجماعات • بعبارة أخرى فان تحليل العلاقة بين الحراك والتغير السياسى يفرض علينا اقامة تصور متكامل عن النظام السياسى ذاته من حيث درجة المركزية فيه ، ومدى تغلغل البيروقراطية بداخله ، فضلا عن قضية الشرعية السياسية • ولقــد كان فيبر واعيا كل الوعى بهذه القضايا مما دفعه الى تصنيف النظم السياسية الى ثلاث فئات : الأولى تعتمد على التقاليد ، والثانية تستند الى الالهام ، والثالثة تنهض على القانون الوضعى • وعندما حلل فيبر هذه النظم السياسية ، أشار الى الحراك الاجتماعى موضحا أنه لا يشكل العامل الأساسى فى تحول النظــام السياسى كما ذهب الى ذلك بيركه Burke ، كما أن المجتمعات لا تتحــول ببساطة من النظم الاقطاعيةالارستقراطية الى النظم الرأسمالية الاوليجاركية كما ذهب ماركس • ان تحول المجتمعات وتغيرها يتوقف ــ كما يذهب فيبر ــ على عملية الترشيد القانونى والاقتصادى ، فضلا عن العلاقة بين التنظيمات السياسية والعوامل الاقتصادية والايكولوجية المختلفة •

ومن الصعب فهم الحراك الاجتماعى دون فهم القيم المرتبطة به • وهنا نجد حوارا طويلا بين فيبر وماركس • فلقد ذهب الأول الى أن التغــيرات التى تطرأ على القيم لا تتحدد أساسا فى ضوء النشــاطات الاقتصــادية والعلاقات الانتاجية ، بل ان هناك تفاعلا متبادلا بينهما • والواقع أن فيبر قد توصل الى هذه الفكرة فى معرض دراسته للعلاقة بين القيم الدينيــة والنشاطات الاقتصادية ، حيث أوضح أنه برغم ارتباط بعض القيم بظهور الرأسمالية فى العالم الغربى ، الا أن هذا الارتباط يقل فى مناطق أخرى • ولكى يبرهن فيبر على ذلك حاول عزل القيم المرتبطة بالرأسمالية ، ثم درس كيفية نشأتها وتطورها ، الى أن وصل الى أن ثمة توازيا بين القيم الدينية (كما تتمثل فى البروتستانتية) والنشاطات الاقتصــادية (كما تتبــدى فى

الرأسمالية)[١٤] • والمحقق أن مناقشة فيبر للعلاقة بين الدين والنشـاط الاقتصادى ، فضلا عن تحليله لظاهرة البيروقراطية ، كان لهما أكبر الأثر فى تطوير الدراسات السوسيولوجية المعنية بالحراك الاجتماعى • اذ أن فهم النتائج السياسية للحراك تتطلب دراسة البناء الاجتماعى والثقافة وتحليل التفاعل المتبادل بينهما •

وبالاضافة الى الاسهامات التى قدمها ماركس وفيبر ، نجد دوركايم Durkheim يهتم بدراسة العوامل المؤدية الى انهيار « النظام القديم » وظهور مجتمع صناعى قائم على تقسيم العمل والتخصص • ويحاول دوركايم فى مؤلفيه « تقسيم العمل الاجتماعى » The Division of Labour in Society « والانتحار » Suicide مناقشة عوامل التضامن الاجتماعى ، مؤكدا أن المجتمعات الصناعية الحديثة تعتمد على التضامن العضوى القائم على التباين الاجتماعى ، بينما تعتمد المجتمعات البدائية على التضامن الآلى القائم على التشابه الاجتماعى[١٥] • غير أننا نجد دوركايم فى مؤلفه « الانتحار » يحاول ابراز الآثار التى أحدثتها الروح الرأسمالية على معدلات الانتحار ؛ موضحا كيفية تأثر معدلات الانتحار بالعوامل الثقافية الناجمة عن تغلغل النظـام الرأسمالى فى المجتمعات الاوربية • وهو فى ذلك يقول : « ان الانتحـار ظاهرة لها وجود فعلى فى كل المجتمعات ، وان كانت معدلاته تزداد بوضوح فى المجتمعات البروتستانتية الصناعية الحضرية » • ويحاول دوركايم بعد ذلك تفسير هذا الموقف فى ضوء مفهوم « الأنومى » Anomie الذى قصـد به عموما حالة فقدان المعايير وضوابط السلوك •

هذا وقد اهتم علماء الاجتماع خلال القرن التاسع عشر بدراسة تأثير الحراك الاجتماعى على التنظيمات السياسية • فعلى سـبيل المثال نجـد

---

(14) Bendix, R., Max Weber, an Intellectual Portrait, Heinemann, London, 1960. Aron, R., Main Currents in Sociological Theory, vol. 2 Weidenfeld and Nicolson, London, 1967.

(15) See Durkheim, E., Division of Labour in Society, Free Press, New York, 1947, and Suicide, Free Press, New York 1951.

دى توكفيل De Tocqueville يذهب الى أن الانقلابات التى شهدتها أمريكا وفرنسا قد أدت الى زيادة تركز السلطة ، لكنه يعتقد — متفقا فى ذلك مع فيبر — أن هذا التركز قد بدأ فى الظهور ابتداء من العصور الوسطى متمثلا فى ضعف الاستقلال الذاتى للوحدات المحلية كالطوائف والاقطاعيات والعائلات • كذلك يذهب دى توكفيل الى أن فكرة المساواة كانت تمثل الدعامة الرئيسية التى استندت اليها اللامركزية ، تلك الدعامة التى ما لبثت أن تحولت الى طغيان سياسى يمارسه الرأى العام • لذلك « فان الشرط الوحيد الضرورى لنجاح مركزية السلطة فى مجتمع ديموقراطى هو حب المساواة »(١٦) • وهذا يعنى — من وجهة نظر دى توكفيل — أن تعمل الدولة على الاطاحة بمنافسيها ، بأن تقبض على مقاليد السلطة ، ثم تحول نظم المجتمع الى مؤسسات ديموقراطية • ومن النتائج المترتبة على ذلك الحراك الداخلى ، فضلا عن ازدياد درجة مركزية السلطة • ففى الجيش — مثلا — قد يؤدى استبدال المعايير الديموقراطية بالمعايير الارستقراطية فى اختيار الضباط الى زيادة الضغط من أجل شن الحروب ، ذلك أن الضباط ذوى النشأة الارستقراطية ليسوا بحاجة الى مغامرات عسكرية لاكتساب مكانة أعلى ، بينما فى الجيش الديموقراطى نجد فكرة « التقدم الشخصى » فكرة عامة تشغل اهتمام غالبية الضباط • ولعل ذلك يوضح لنا كيف أن دى توكفيل كان من أوائل العلماء الاجتماعيين الذين أشاروا الى الجيش كوسيلة للحراك الاجتماعى • وفضلا عما سبق نجد دى توكفيل يتناول البيروقراطية بوصفها أداة للتحكم والسيطرة • بيد أننا نجد فيبر وميشيلز يتناولان هذه النقطة من منظور أوسع • ذلك أنه (أى دى توكفيل) يعتقد أن الحكم الديموقراطى قد لا يؤدى الى تكافؤ الفرص داخل النظام السياسى ، بقدر ما يؤدى الى ظهور أرستقراطية جديدة ذات تأثير قوى • أما فيبر فيؤكد أن ثمة تعارضا بين الديموقراطية والبيروقراطية داخل المجتمعات الصناعية ، وان كان يعتقد

---

(16) De Tocqueville, A., Democracy in America. op. cit. p. 302.

Pareto

ــ فى نفس الوقت ــ أن البيروقراطية هى قمة الرشد القانونى[١٧] ، ويحاول ميشيلز تطوير بعض أفكار دى توكفيل وفيبر بدراسة ظاهرة الاوليجاركيه فى التنظيمات البيروقراطية وعلى الأخص السياسية منها . ذاهبا الى أن التنظيم البيروقراطى يميل ــ عادة ــ للاتجاه نحو الاوليجاركية لأنه ينقسم الى قلة حاكمة وغالبية محكومة ، وبنمو هذا التنظيم تتجه الديموقراطية الى الانهيار ، والواقع أن تأكيد ميشيلز لفكرة الاوليجاركية قد أثار تساؤلات عديدة حول كيفية الالتحاق بالصفوة السياسية ، مما دعا باريتو Pareto الى التمييز بين الصفوة الحاكمة والصفوة غير الحاكمة[١٨] ، ومع أن تحليله قد انصب على الصفوة الحاكمة ، الا أنه قد أوضح أن كل المجتمعات تشهد صفوات تتمتع بالمواهب النادرة والقدرات الخاصة ، أما التغير الذى قد يطرأ على الصفوة فيتم من خلال صفوات تتمتع بالمواهب النادرة والقدرات الخاصة ، أما التغير الذى قد يطرأ على الصفوة فيتم من خلال صعود بعض الأفراد من الطبقة الدنيا الى الطبقة العليا أو حلول جماعة بأكملها (أو طبقة) محل جماعة أخرى ، وتحدث الثورات بسبب افتقاد الطبقة العليا لخصائصها الفريدة ، وتمتع الطبقة الدنيا بخصائص تمكنها من القبض على مقاليد السلطة ، والواقع أن باريتو قد تناول فكرة الحراك السياسى ، وان كانت أفكاره قد خضعت لتصورات سيكولوجية قوية ، كذلك نجد موسكا Mosca يقدم تحليلا سوسيولوجيا للعوامل البيئية والبنائية التى تحكم خصائص الصفوة وسلوكها ، ذاهبا الى أن دورة الصفوة تتوقف ــ أساسا ــ على توافر فرص الحراك الصاعد وامكانية ظهور جماعات جديدة تستطيع منافسة الطبقة الحاكمة ، ونتيجة لدورة الصفوة تحدث تغيرات اجتماعية واسعة تشمل فيما تشمل النظم الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية.

---

(17) Gerth, H., and Mills, C. W., (eds.), From Max Webers, op. cit. p. 96.

(١٨) لمزيد من التفصيل انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب والذى خصصناه لدراسة الصفوة ، وانظر أيضا : ت . ب . بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وزملائه ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ . الطبعة الثانية .

والمحقق أن معظم علماء الاجتماع خلال القرن التاسع عشر قد تناولوا — صراحة أو ضمنا — طبيعة العلاقة بين الحراك الاجتماعى والتغير السياسى • فهم يتفقون على أن ثمة أحداثا عميقة طرأت فى أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وتركت تأثيرا عميقا على البناءات السياسية فى المجتمعات الاوربية الصناعية • ومن أهم التغيرات التى طرأت فى هذا المجال زيادة المرونة الطبقية • لقد أدى نمو التجارة وازدهار الصناعة الى ظهور جماعات اجتماعية جديدة ارتبطت فيما بينها بعلاقات تؤكد قيم النجاح الاقتصادى المرتبط بالنظام الرأسمالى[١٩] • بيد أن البناء الطبقى الجديد قد أدى الى ظهور أشكال جديدة من السلطة تتلاءم مع درجة التعقيد البنائى الذى وصلت اليه المجتمعات الغربية • وبرغم التأكيد المتزايد لأهمية الديموقراطية فى هذه المجتمعات ، الا أن نظمها السياسية قد بدأت تستند الى التسلسل الرئاسى وحكم القلة ، وان كانت — مع ذلك — تؤكد قيم النجاح الاقتصادى والسياسى • ولنا أن نتوقع وجود اختلافات ملحوظة فى معالجة رواد علم الاجتماع لهذه القضايا بسبب تباين المنطلقات الايديولوجية لكل منهم وتفاوت الفترات الزمنية التى كتبوا خلالها دراساتهم •

(٢)

ان دراسة التغير السياسى فى أى مجتمع من المجتمعات تتطلب فهما عميقا لعملية الحراك الاجتماعى ، ذلك أن هذه العملية تؤدى الى نتائج بنائية وثقافية هامة ، فضلا عن أنها مرتبطة بقيم اجتماعية محورية لعل أهمها المساواة أو الحرية • كذلك فان النمو البنائى الذى طرأ على المجتمعات الحديثة قد أدى الى ظهور تنظيمات سياسية تمارس تأثيرا كبيرا على امكانية الانتقال من طبقة لأخرى ، بل ان هذه التنظيمات ذاتها قد أصبحت وسيلة من وسائل الحراك الاجتماعى • ومن الطبيعى أن يؤدى النمو البنائى الى تغيرات

(19) Nisbet, R., The Sociological Tradition, Routledge and Kegan Paul, London, 1967.

هامة فى البناء الطبقى • فما تلبث الفئات المهنية التقليدية أن تتعرض للانهيار لتظهر فئات مهنية جديدة تتلاءم مع الاوضاع الجديدة • وهنا تبدو أهمية دراسة الحراك الاجتماعى • اذ أنها تمكننا من الحصول على صورة واقعية للتغيرات المهنية والاقتصادية فضلا عن تلك التى تصيب العلاقات الاجتماعية• ولا يستطيع عالم الاجتماع أن يؤدى مهامه بنجاح فى هذا المجال الا اذا تبنى منهجا تاريخيا مقارنا ، من خلاله يستطيع فهم التغيرات الاجتماعية والسياسية المتفاوتة والتوصل الى استنتاجات وأحكام عامة تحكم حركة المجتمعات •

ولا شك أن علم الاجتماع يدين بالكثير لماركس وفيبر ، ذلك أنهما قد تبنيا منهجا واضحا لتحليل النظم الاجتماعية المتغيرة كالقانون ، والبيروقراطية والاحزاب السياسية • ولم تكن محاولاتهما ــ برغم تباين منطلقاتها ــ بمعزل عن البناء الاجتماعى والجذور التاريخية لهذه النظم • وما يقال عنهما يمكن أن يقال أيضا عن دوركايم • ففى مؤلفه « تقسيم العمل الاجتماعى » حاول البرهنة على أن التصنيع يؤدى الى زيادة التخصص ، وهى قضية مشابهة لتلك التى أشار اليها فيبر فى معرض دراسته عن البيروقراطية • والشىء الجدير بالذكر هنا أن معالجات ماركس وفيبر ودوركايم للقضايا المتخصصة لم تكن بمعزل عن البناء الاجتماعى والظروف التاريخيــة التى مرت بهــا المجتمعات[٢٠] • وربما كان موقف علماء الاجتماع خلال القرن التاسع عشر مختلفا الى حد كبير عن موقف علماء الاجتماع المحدثين فيما يتعلق بنطاق المعالجة[٢١] • فالاخيرون يميلون ــ بوجه عام ــ الى تناول قضايا جزئية ويركزون على دراسة قطاعات أو مجالات اجتماعية بعينها • ويميل علمــاء السياسة المعاصرون الى تحديد ثلاثة مجالات أساسية للدراسة فى هــذا

(20) Giddings, A., Capitalism and the Development of Sociological Theory, London, 1971.

(٢١) السيد الحسينى ، « نحو فهم جديد لقضايا علم الاجتماع ، دراسة فى مشكلات النظرية والمنهج » ، مقدمة الترجمة العربية لكتاب الكس أنكلز ، مقدمة علم الاجتماع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرين ، دار المعارف ، ١٩٧٣ ، ص ص ٥ ــ ٣٠ .

العلم : الأول هو الثقافة بمعنى دراسة القيم والمثل والمعتقدات فى المجتمعات وكما تتبدى فى العلاقات الاجتماعية • أما المجال الثانى فهو الوظيفة حيث تشير الى المهام التى تؤديها النظم المختلفـــة على نحـــو يدعم التضـــامن الاجتماعى فى نهاية الامر • وأخيرا فان المجال الثالث يتمثل فى العملية التى تتعلق بالوسائل التى من خلالها تؤدى الوظائف السياسية دورها •

وفى ضوء هذه المفاهيم الوظيفية نجد دراسات سوسيولوجية عديدة تحاول تناول النظم السياسية فى ضوء فكرة تباين الأدوار أو التعقيد البنائى بوجه عام • ومن الواضح أن هذه الدراسات قد انطلقت من مفاهيم تالكوت بارسونز Parsons البنائية الوظيفية والتى طورها من بعده عدد من علمـــاء الاجتمـــاع المعاصرين أمثال نيل سملسر Smelser وأيزنشتات Eisenstadt وألموند Almond (٢٢) • والقضية المشتركة التى حاول هؤلاء العلماء ابرازها هى أن هناك علاقة وثيقة بين البناء الاجتماعى والتغـــير السياسى • وربما كانت دراسات نيل سملسر Smelser من أبرز الدراسات تعبيرا عن هـــذه العلاقة(٢٣)• فلقد حاول عزل الجوانب التكنولوجية والاقتصادية والايكولوجية المصاحبة للتطور الاجتماعى ، ذاهبا الى أن هذه الجوانب تصاحب عمليـــة التحول الشامل بما فى ذلك الانتقال من المناطق الريفية الى المراكز الحضرية • وفى ضوء هذه النقطة نجد سملسر يحدد ثلاثة عناصر بنائية تلعب دورا هاما فى تطـــور المجتمعات الحديثة • الأول هـــو التباين البنائى structural differentiation بمعنى تشكل مجموعة من الوحدات الاجتماعية الاكثر استقلالا وتخصصا ، والثانى التكامل integration وهى العملية التى من خلالها يكتسب

---

(٢٢) انظر على سبيل المثال :

Eisenstadt, S., The Political Systems of Empires, Free Press, N. Y. 1963, Marsh, R., Comparative Sociology, Harcourt, Brace and World. N. Y., 1967, Almond, G. and Bingham Powell, Comparative Politics : A Developmental Approach, Boston, 1966.

(23) Smelser, N. «Mechanics of Change and Adjustments to Change»., in Hoselitz, B., and Moore, W. (eds.), Industrialization and Society. UNESCO, Pris, 1963, pp. 49-74.

البناء الاجتماعى شكلا جديدا بعد تعرض بعض أجزائه للانهيار • أما العنصر الثالث فهو الخلل الاجتماعى Social disturbances الذى يتبدى فى تفـاوت سرعة تغير مختلف جوانب البناء الاجتماعى • وبهذا يصبح التباين عنـد سملسر ضربا من التطور من مجرد بناء متعدد الوظائف الى بناء أكثر تعقيدا وتطورا وتخصصا •

وتكمن أهمية نموذج التباين البنائى فى قدرته على اثارة تساؤلات تتعلق بتصنيف المجتمعات المختلفة ، فضلا عن أنه يمثل فى حد ذاته اطارا لتحليل الحراك الاجتماعى • فكلما ازداد المجتمع تباينا ، ازدادت الطبقات الاجتماعية فيه ، مما يفرض دراسة الحراك الاجتماعى • ولقد حاول كولمان Coleman وألموند Almond تحليل التباين البنائى الذى تنطوى عليه السياسة ، فذهبا الى أن ثمة علاقة وثيقة بينهما[٢٤] • اذ أن النظم السياسية المعاصرة تتميز بعناصر وأجهزة عديدة ومعقدة كالسلطات التشريعية والتنفيذية فضـلا عن المحاكم والأجهزة الانتخابية ووسائل الاتصال الجماهيرى وجماعات المصالح• وتلعب هذه العناصر والأجهزة وظائف محددة فى خدمة النظام السـياسى ككل ، وبالتالى يمكن تحديد مدى وطبيعة الدور الذى تؤديه هذه العنـاصر والأجهزة • ويحاول ألموند الدفاع عن وجهة نظره ، ذاهبا الى أنه يهدف الى مقارنة النظم السياسية فى ضوء الوظائف التى تؤديها لا فى ضـوء البناء الرسمى الذى تتخذه • والواقع أن تصنيف كولمان وألموند قد استند أساسا الى الخبرة السياسية التاريخية للمجتمعات الغربية ، مما يعنى عدم قدرته على وصف النشاطات السياسية المتنوعة فى المجتمعات غير الغربية • وعلى الرغم من أن الرجلين قد أظهرا وعيا كبيرا بهذه المشكلة ، الا أنهما لم يقدما علاجا لها فى كتاباتهما اللاحقة •

---

(24) «Introduction» to Almond, G. and Coleman, J., (eds.), The Politics of the Developing Areas, Princeton, University Press, Princeton, 1960. p. 18.

وفى ضوء التحليل السابق يمكننا تصور امكانيات العلاقة بين الحراك الاجتماعى والنظام السياسى • فللوهلة الأولى يبــدو لنا أن الحــكومات والمؤسسات السياسية تتخذ مواقف متفاوتة فيما يتعلق بتشجيع الحــراك الاجتماعى أو الحد منه • كذلك فانه يبدو أن الحراك الاجتماعى يؤثر تأثيرا ملحوظا على السلوك السياسى اذا ما حللنا ذلك فى ضوء نظرة بنائية شاملة • ولقد أوضح جينو جيرمانى Germani امكان دراسة الحراك الاجتماعى فى ضوء ثلاثة مستويات : الأول يتعلق بالخصائص الفردية الطبيعية للأفراد الذين يحققون حراكا ، والثانى يرتبط بالمتغيرات السيكولوجية ــ الاجتماعية الوسيطة كالاشباع والاحباط ، والتثقيف ، والتوحد ، والتكيف الشخصى • أما المستوى الثالث فيتمثل فى المتغيرات البنائية العامة كالنظــام الطبقى ومستوى النمو الاقتصادىوطبيعة النظام السياسى[٢٥] • والواقع أن التمييز بين هذه المستويات التحليلية قد ساعد كثيرا من الدارسين على تناول الأبعاد المختلفة والمتباينة لظاهرة الحراك الاجتماعى • وتتطلب وجهة نظر جيرمانى تحديد نمط الحراك الاجتماعى من حيث أبعاده ومعدلاته وخصائصه ، وهو ما نجده على وجه التحديد فى الدراسات المعنية بالحراك المهنى[٢٦] • وعلى الرغم من أن كثــيرا من الدارسين يسلمون بالتفرقة التى أقامها فيبر بين الطبقة والمكانة والسلطة فى دراساتهم للحراك الاجتماعى ، الا أننا نجدهم ــ فى نفس الوقت ــ يميلون الى استخدام محكات أو معايير عديدة كالتعليم ، والدين ، والعرق ، والدخل ، والمهنة ، والانتمــاء الســياسى ، والجنس ، والعمر[٢٧] • وفى ضوء ما سبق يمكن دراسة الحراك على مستويين هما :

---

(25) Germani, G., «Social and Political Consequences of Mobility», in Smelser, N. and Lipset, S. (eds.), Social Structure and Mobility in Economic Development, Routledge and Kegan Paul, London, 1966, pp. 364-394.

(26) Duncan, O., D., «Methodological Issues in the Analysis of Social Mobility», in Smelser, N, and Lipset, S; (eds), Ibid, pp. 51-97.

(27) Lipset, S. and Bendix, R., Social Mobility in Industrial Society, Heinemann, London, London, 1959.

الفرد والمجتمع • ومعنى ذلك أن التحليل قد يتناول حركة الأفراد داخل البناء الطبقى ، ثم تأثير هذه الحركة على البناء الاجتماعى • ان من العسير فهم الانتقال من مستوى اجتماعى الى مستوى آخر دون أن نأخذ فى الاعتبار طبيعة البناء الاجتماعى والعناصر الثقافية التى تحدد طابعه •

وعلى الرغم من أن مناقشة العلاقة بين الحراك الاجتماعى والنظام السياسى تتطلب توافر بيانات متعلقة بمعدلاته وأبعاده ، الا أن هناك متغيرات أخرى لا يمكن تجاهلها • فلقد أشار جيرمانى الى المتغيرات الثقافية وأهمها ، نظرة الناس الى الحراك ، والضغوط الثقافية المختلفة التى تؤثر على هذه النظرة • وفى هذا المجال يمكن الاشارة الى بعض المتغيرات الفرعية كمدى توحد أو ارتباط الافراد بجماعة أو طبقة معينة ، ومدى تأثير الخبرات الاجتماعية الثقافية على انتماءاتهم الطبقية والاجتماعية ، وأخيرا مدى قدرة الأفراد على التكيف مع المواقف الجديدة التى يفرضها تحقيق الحراك الاجتماعى • وليس من الصعب علينا الكشف عن مدى تأثر جيرمانى بالمفاهيم النظرية الكلاسيكية فى علم الاجتماع كمفهوم «الأنومى Anomic» عند دوركايم، و « الوعى الطبقى » عند ماركس ، ومفهوم « الجماعة المرجعية » عند ميرتون Merton [٢٨] • ان استشعار الفرد الاشباع أو الاحباط يتوقف على أمور عديدة من بينها : نوعية مطامحه وجماعاته المرجعية ، وامكانية وجود تعارض بين المطامح وامكانية تحقيقها • وبزيادة معدلات الانتحار ترتفع المطامح الجديدة وتتعرض الجماعات المرجعية للتغيير والتبديل • ويعتبر دافيد ماكيلاند Mc Clelland من أبرز الذين حاولوا ربط الطموح بالنجاح فى اطار القيم الثقافية ، حيث سعى الى ابراز الخصائص المميزة للنجاح الذى أطلق عليه مصطلح « الانجاز »[٢٩] • على أن نقطة الضعف الأساسية فى هذا الاتجاه تكمن فى عدم اهتمامه بالدراسة المقارنة للحراك الاجتماعى بين

(28) Merton, R., Social Theory and Social Structure, Free, Press New 1961.

(29) Mc Clelland, D., The Achieving Society, John Wiley, New York, York, 1957, pp. 262-280.

المجتمعات ، الا اذا استثنينا تلك التى تتميز بمعدلات حراك عالية • والمؤكد أن جيرمانى Germani قد نظر الى قضية الحراك الاجتماعى من منظور سوسيولوجى أوسع • فلقد أوضح أن من الصعب فهم الحراك الاجتماعى دون أن نأخذ فى الاعتبار نمط التحديث فى المجتمع ، ومستوى النمو الاقتصادى، وطبيعة البناء الطبقى[٣٠] • ومن الطبيعى أن يحتل البناء الطبقى مكانة متميزة ، لأنه يحدد نسبة عدد السكان فى كل مستوى طبقى داخل المجتمع • واذا أخذنا بالتفرقة الشائعة بين المجتمعات « التقليدية » Traditional والمجتمعات « الحديثة » Modern ، قلنا ان الاستقطاب الطبقى يميل الى الانتشار فى الأولى ، بينما نجد البناء الطبقى فى الثانية أكثر انفتاحا ، بحيث يتيح مزيدا من الفرص لتحقيق الحراك الاجتماعى • وواقع الأمر أنه ليس هناك مجتمع معاصر يشهد هذين النمطين من البناء الطبقى فى صورتهما الخالصة • ففى معظم الاحيان تختلط الحدود المميزة بينهما ، بحيث نجد المجتمع الواحد يشهد قدرا من الاستقطاب الطبقى والمرونة الطبقية فى آن واحد • وفضلا عن ذلك فان من العسير فهم ظاهرة الحراك الاجتماعى دون فهم الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية (التاريخية والمعاصرة) التى يمر بها المجتمع[٣١] • ففى دولة نامية تحاول تطبيق التكنولوجيا الحديثة قد يحتل الفنيون ذوو المهارات العالية مكانة متميزة قد لا يحصل عليها قرناؤهم فى دولة نامية لا تولى التكنولوجيا الحديثة أهمية كبيرة • كذلك فان معدل النمو الاقتصادى يلعب دورا هاما فى تحديد فرص ومعدلات الحراك الاجتماعى • ففى الدولة الصناعية التى تتعرض لكساد اقتصادى تقل أعداد الوظائف الجديدة المتاحة ، وبالتالى تنخفض معدلات الحراك الاجتماعى • وهكذا يبدو واضحا أن من الصعب

---

(30) Germani, G. «Social and Political Consequences of Mobility», in Smelser, N. and Lipset, S, (eds.), op. cit. pp. 364 ff.

(٣١) يمكننا أن نجد تأكيدا لهذه النقطة فى معظم المقالات والدراسات الواردة فى :

Beteille, A., Social Inequality, Penguin Books, Harmondsworth, Middlecesex, 1969.

الاعتماد على المتغيرات السيكولوجية وحدها فى دراسة ظاهرة اجتماعية كالحراك • اذ أن تحليلها وفهمها والتنبؤ بها يتطلب النظر اليها من منظور أوسع لا يأخذ فى اعتباره الأبعاد الفردية فقط ، بل أيضا الاعتبارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية سواء على المستوى القومى أو العالمى •

(٣)

ويبدو أن هناك اتفاقا عاما فى التراث السوسيولوجى على أن الحراك الاجتماعى يعد أحد المؤشرات الهامة الدالة على حدوث التغير الاجتماعى • فلقد استخدم علماء الاجتماع الكلاسيكيون ــ على نحو ما رأينا ــ مفهوم الحراك الاجتماعى فى دراسة التحول الأوربى من الاقطاع الى الرأسمالية • كما نجد الآن بعض علماء الاجتماع المعاصرين يحاولون تطبيق هذا المفهوم على الدول النامية ، وان كانوا يهدفون بذلك الى دراسة قضايا مختلفة • ومن بين القضايا التى اهتم بها هؤلاء العلماء ظهور فئة العمال الصناعيين وتشكل ونمو الطبقة الوسطى • والملاحظ أن دراسة هذه القضايا قد تم فى اطار اجتماعى ــ سياسى شامل يضع فى اعتباره الظروف العالمية والقومية التى تمر بها الدول النامية • اذ أن من الصعب فهم ظهور فئة العمال الصناعيين دون التعرف على معدل النمو الصناعى والانماط التى يتخذها ، فضلا عن اتجاهات الهجرة الريفية الحضرية ، ثم دراسة الوعى الطبقى أو المهنى الذى يميز الجماعات العمالية وموقفها من الجماعات الطبقية الاخرى فى المجتمع •

وهناك مبررات قوية للاهتمام بدراسة الحراك الاجتماعى الذى يحققه العمال الصناعيون[٣٢] • فالحراك الاجتماعى الصاعد يبدأ عادة من مستوى الطبقة العاملة ، وان كان ذلك يبدو أوضح ما يكون فى الدول الصناعية المتقدمة اذا ما قورنت بالدول النامية • وفى علم الاجتماع السياسى نجد

---

(٣٢) انظر السيد الحسينى ، الآثار الاجتماعية للحراك المهنى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٨ .

تأييدا كبيرا للتفرقة الشائعة بين القطاعات الحضرية الحديثـة والقطاعات الريفية التقليدية ، وهى تفرقة تبدو أكثر انطباقا على الدول النامية • ومن هنا يبدو الحراك ــ كما تشير الى ذلك بعض الدراسات ــ وكأنه انتقال من القطاعات التقليدية الى القطاعات الحديثة • فلقد أكد عالم الاجتمـــاع الأرجنتينى جينو جيرمانى Germani أهمية مفهوم التباين البنائى فى دراسة الحراك الاجتماعى، كما أيده فى ذلك عالم الاجتماع الفرنسى آلان تورين Touraine [٣٣]• ويمكننا تحديد المصادر الفكرية التى انطلق منها جيرمانى فى تحليله للحراك الاجتماعى الذى يحققه العمال الصناعيون فى الدول النامية • فلقد أشـار مرارا الى أهمية النظرية البنائية فى التغير الاجتماعى وقدرتها على تتبع نمو الطبقة العاملة الصناعية طبقا لمؤشرات التحديث ، كما أوضح فى مواضـع مختلفة أهمية التحليل الماركسى فى دراسة تطور الوعى الطبقى الثورى • وفى النهاية نجده يشـير الى أهميـة نظـريات التنظيم ، وعلى الأخص نظرية روبرت ميشيلز Michels فى الديموقراطية التنظيمية • وبالاضافة الى هذه النظريات نجد جيرمانى يشير الى عدد من المتغيرات الهامة فى دراسة موقف الطبقة العاملة من بينها : طبيعة النظم الاقتصـادية والسياسية ، وظروف العمل ، وبرامج الضمان الاجتماعى ، والنشاطات الترويحية ، ومشروعات تنمية المجتمعات المحلية ، واتجاهات الهجرة الريفية ــ الحضرية • وهو يعتقد بعد ذلك أن دراسة الحراك الاجتماعى تتطلب أخذ هذه المتغيرات فى الاعتبار حتى يمكن تحقيق فهم أفضل لهذه الظاهرة •

والواقع أن دراسة الجوانب السياسية للعمل فى الدول النامية تتطلب وضع الجماعات الصناعية فى اطار البناء الاجتماعى الشامل ، ثم دراسـة كيفية تأثير ذلك على اتجاهاتها السياسية • وعلى الرغم من أن التحليل الذى قدمه جيرمانى يتناول ــ أساسا ــ مجتمعات أمريكا اللاتينية ، الا أن الاطار

---

(33) Germani, G. «Social Change and Inter-group Conflict», in Horowitz, I. L., (ed), The New Sociology, Oxford University Press, New York, 1964.

النظرى الذى انطلق منه جدير بالتطبيق على مجتمعات ناميـــة أخرى ذات ظروف نوعية مختلفة • ويعتقد جيرمانى أن ريف الدولة النامية يمثل القطاعات ذات البناء التقليدى (كالمجتمعات المحلية ، والمهن الهامشية البعيدة عن سوق العمل ، والمواقف الثقافية المســتندة الى المكانة المكتسبة الموروثة) • أما المجتمع الصناعى الذى يتمثل فى المدينة فيتميز ــ كما يقــول جيرمانى ــ بدرجة عالية من المشاركة الجماهيرية فى معظم النشاطات الاجتماعية • ويتم الانتقال من المجتمع التقليدى الى المجتمع الحديث من خلال ثلاث عمليات هى : التخلى ، والتحول ، وأخيرا التكامل[٣٤] • أما التخلى فيعنى التخلص من البناء التقليدى ، بما فى ذلك أساليب الحياة والتفكير التى اعتاد الناس عليها لفترات طويلة • أما التحول فيشـــير الى عملية مشـــاركة الناس فى التجديدات والمستحدثات وظهــور اتجاهات متميزة لديهم • وأخـــيرا فان التكامل يتطلب توحد الناس مع أساليب الحياة الحديثة باكتســـاب الملامح والرموز التى تمكنهم من المشاركة فى هذه الحياة[٣٥] • على أن هذه العمليات الثلاث لا تسير فى تتابع منتظم على نحو ما تصور جيرمانى • فمن الممكن أن تتخللها صراعات عديدة نتيجة لعدم اتساق المطامح والاتجاهات والدوافع مع أنماط السلوك المتوقعة • وعلى الرغم من أن بعض الجماعات قد تحقق قدرا معينا من التكامل مع النظم السائدة فى المدينة ، الا أن هناك جماعات أخرى قد لا تتمكن من تحقيق هذا القدر من التكامل • ومعنى ذلك أنه يتحتم النظر الى الجماعات فى ضوء قدراتها المتباينة على الدخول فى عمليات التخلى والتحول والتكامل •

وفى ضوء الاطار النظرى الذى قدمه جيرمانى يمكن تقسيم الطبقـــة العاملة الى ثلاث جماعات متميزة : الأولى تضم العمال الموسميين غير المهرة الذين يحصلون على أجور منخفضة • والملاحظ أن هؤلاء العمال يفتقدون الى الأمان المهنى ولا يرتبطون بالعمل الصناعى الحضرى ارتباطا قويا ، كما أن

(34) Ibid. p. 394.
(35) Ibid. p. 356.

قيمهم تعبر تماما عن القطاعات التقليدية (القرى) التى أتوا منها ، وبالتالى فهم لا يتكاملون مع القطاعات الحديثة التى يعيشون فيها مؤقتا (المدن)[٣٦] • أما الجماعة الثانية فتضم العمــال الذين يتمتعون بقــدر معين من الأمان والمشاركة فى القطاعات الحديثة (على الرغم من أن وظائفهم ليست آمنــة بالقدر الكافى) ، كما أن القيم المميزة لأفراد هذه الجماعة نابعة أساسا من المجتمع الصناعى ، وان كانت فرص الحراك الاجتماعى المتاحة لهم تــكاد تكون منعدمة • ويحقق أفراد هذه الجماعة قدرا ضئيلا من التكامل مــع المجتمع الحديث بسبب عدم امتلاكهم للســلطة اللازمة لتــدعيم كيــانهم ومصالحهم • أما الجماعة الثالثة والاخيرة فتضم العمال ذوى الوظائف المأمونة الذين يتميزون بأسلوب حياة يتسق تماما مع المجتمع الحضرى ـــ الصناعى ، بحيث تكاد تنعدم فرص التناقض بينهم وبين متطلبات هذا المجتمع • وفى داخل هذه الجماعة يعتبر الحراك المهنى أو الاقتصادى (من خلال الدخل) من العلامات الأساسية على الانجاز • والواقع أن العلاقة بين هذه الجماعات الثلاث تتوقف على عوامل عديدة من بينها : معدل النمــو الاقتصــادى ، والتحضر ، وامكانية الحصول على الوظائف ، ونوعية الاستثمارات السائدة ، وطبيعة العوامل الثقافية المميزة للمجتمع •

والنظرة الفاحصة لاطار جيرمانى تشير الى أنه يستند الى ثلاث نقاط أساسية هى : التغير البنائى (التباين المؤدى الى اعادة التكامل) ، والتوجيه القيمى (التحول من العزو والخصوصية الى الانجاز والعمومية) ، وأخيرا الصراع بين مواقف الحياة • أما التأثير الذى يمارسه العمل الصناعى على الاتجاهات السياسية فيتوقف على مدى نمو وانتشار القطاع الصناعى ـــ الحضرى • وطبقا للتصنيف الذى قدمه جيرمانى يمكننا أن نتوقع موقفا ينمو فيه التصنيع نموا ملحوظا بحيث يؤدى الى تحول المهن التقليدية الزراعية

---

(٣٦) يمكننا أن نجد تحليلا رائعا لهذه النقطة فى :

Frank, A., «Instability and Integration in Urban Latin America», in Frank, A. Latin America : Underdevelopment or Revolution, New York, Monthly Review Press, 1969, pp. 276-287.

الى مهن حضرية صناعية . وعلى الرغم من أن معوقات التغير الاقتصـادية قد تكون شديدة الى المدى الذى تشكل فيه تهديدا خطيرا له ، الا أن الاندفاعة الاقتصادية قد تكون من القوة بحيث تتمكن من ايجاد تنظيمات صناعية مرنة قادرة على التكيف مع المواقف الجديدة كما هو الحـال بالنسـبة لانجلترا والولايات المتحدة[٣٧] . ففى هاتين الدولتين عبرت الحركات العمالية فى بداية ظهور التصنيع عن بعض الاحتجاجات بسبب تأثير التكنولوجيا الجديدة على مستوى المهارة اليدوية ، لكن هذه الاحتجاجات ما لبثت أن تلاشـت نتيجة لنمو قوة العمل الصناعية المتزايدة والمزايا الفعلية التى حققتها نتيجة لتبنى أساليب تكنولوجية حديثة . أما الدول التى لم تشهد منذ البداية دفعة تصنيع قوية كفرنسا وايطاليا والاتحاد السوفيتى فقد شهدت معارضة قوية لبرامج التصنيع الجديدة ، مما أدى الى ظهور حركات عمالية مناهضـة للنظـام السياسى ككل . وفى كلتا هاتين الحالتين نجد الحركات العمالية ــ كما تتمثل فى نقابات العمـال ــ تحاول حماية أفراد الطبقـة العاملة ككل من الآثار الجانبية التى تحدثها التكنولوجيا عن طريق التثقيف المهنى ، واكتساب المهارات الجديدة ، والقدرة على التكيف مع المواقف الجديدة .

ولقد حاول جيرمانى بعـد ذلك تطبيق اطاره النظرى على الحركات العمالية فى أمريكا اللاتينية ، فأوضح أن الجماعات الحضرية الهامشية (التى تضم ذوى الدخول الضئيلة والمهارات المنخفضة والعمال الموسميين) لا تشكل تنظيما محددا ، وبالتالى فهى لا تستطيع القيام بأية اجتمـاعات بهـدف تحسين أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية . بيد أن جيرمانى قد أوضح فى موضع آخر أن هذه الجماعات قد انضمت الى جانب الفلاحين خلال الثورة المكسيكية فى سنة ١٩١٠ . وفى الأرجنتين لوحظ أن بيرون قد حاول تدعيم نظامه السياسى عندما تجاهل الطبقات الحضرية والريفية المستقرة من أجـل

---

(37) Moore, W; and Arnold, F; (eds); Labor Commitment and Social Change. Social Science Research Council, New York, 1960.

مواجهة احتياجات البروليتاريا الحضرية[٣٨] • وفى معظم دول آمريكا اللاتينية نجد العمال المهرة يشكلون جماعة ذات وعى سياسى كبير ، حيث يرتبط عدد كبير منهم بالأحزاب السياسية ، ومن ثم تتاح لهم فرص ممارسة الضغوط من أجل رفع أجورهم وتحسين ظروف عملهم • وعلى الرغم من أن الشواهد المؤيدة لهذه القضية ضئيلة نسبيا ، الا أننا لا نستطيع المبالغة فى مدى راديكالية هؤلاء العمال[٣٩] ففى معظم الدول النامية (ومنها دول أمريكا اللاتينية) يشكل العمال الصناعيون نسبة مئوية محدودة بالنسبة لمجموع قوة العمل[٤٠] • وتزداد هذه النسبة المئوية انخفاضا فيما يتعلق بالعمال الدائمين الذين يتمتعون بأمان وظيفى كبير وامتيازات مهنية عالية • واذا ما افترضنا أن هؤلاء العمال يؤيدون بالفعل الأحزاب الثورية ، فان اهتمامهم يكون منصبا ــ فى نفس الوقت ــ على زيادة أجورهم وتأمين حياتهم المهنية، تماما كما يفعل العمال المهرة فى الدول الصناعية المتقدمة •

ولقد حاول ألان تورين Touraine الاستفادة من الاطار النظرى الذى صاغه جيرمانى فى دراسة الحركات الاجتماعية العمالية مستخدما ثلاثة مفاهيم أساسية هى : الدفاع ، والمعارضة ، والشمولية ، ثم ربط هذه المفاهيم بنظريات ثلاثة تتناول الحراك الاجتماعى ، والقومية ، والعلاقات الطبقية • واستنادا الى ذلك صنف تورين المواقف السياسية فى أمريكا اللاتينية الى ثلاثة : الأول هو التمرد الشعبى الموجه لمعارضة السيطرة الاستعمارية والامبريالية من أجل تحقيق الاستقلال السياسى والاقتصادى • أما الموقف الثانى فهو قيام البرجوازية الوطنية أو الدولة بحشد الموارد القومية عن طريق اتاحة مزيد من الفرص لتحقيق الحراك الاجتماعى • وهنا تصبح

---

(38) Claudio Veliz, Obstacles to Change in Latin America, Oxford University Press, London, 1965.

(39) Moore, W; and Arnold, F; (eds); Labor Commitment and Social Change, op. cit.

(٤٠) يمكننا أن نجد شواهد احصائية معبرة عن ذلك فى دراسة محمد الجوهرى ، البناء الطبقى فى الدول النامية فى : السيد الحسينى وآخرين ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ .

الوحدة القومية هى القضية الأساسية ، ومن ثم تتخذ الاعتبارات القومية مكانة متميزة . أما الموقف الثالث فهو ذلك الذى يخضع فيه المجتمع لسيطرة المشكلات التى يفرضها الاقتصاد الصناعى ، والتى تتمثل فى وجود قطاعات تقليدية تحول دون انطلاقه التحديث . وتصبح الحركات الاجتماعية فى هذه الحالة محور اهتمام قومى لأن القضية لا تتعلق فقط بقطاع العمال بقدر ما تتعلق بالمجتمع ككل . ومعنى ذلك أن الحركة الاجتماعية فى هذه الحاله تكون موجهة ضد البرجوازية فى المدينة والقرية على السواء . والملاحظ أن محاولة تورين قد سعت الى ربط بعض عناصر نظرية جيرمانى فى التغير الاجتماعى والصراع الجماعى بمحاولته الخاصة لتطوير نظرية فى الوعى الطبقى . وخلال هذه المحاولة نجده يقوم بعدة دراسات بهدف تأكيد مدى صدق أفكاره ومفاهيمه .

وفى السنوات الأخيرة ظهرت تحليلات ماركسية لموقف الطبقة العاملة الصناعية فى دول أمريكا اللاتينية . وعلى الرغم من أن هناك تعارضا ظاهرا بين هذه التحليلات والاطار النظرى الذى قدمه جيرمانى ، الا أننا نلمس تشابها فيما يتعلق بتناول بعض المفاهيم . فعلى سبيل المثال نجد أوكتافيو ايانى Ianni يؤكد أن الجوانب البنائية للرأسمالية البرازيلية تمثل العامل المحدد لسلوك العمال . اذ أن الطبقة العاملة تعيش فى ظل نظام سياسى يعمل على الحيلولة دون ظهور توترات أساسية . أما البرجوازية الصناعية فهى تمثل فى هذا النظام وسيلة هامة لفهم العلاقات السياسية والصناعية . وعلى الرغم من أن ايانى قد ميز بين القطاعات المختلفة التى تتألف منها الطبقة العاملة الصناعية ، الا أنه اعتقد أن التطور الرأسمالى هو العامل الهام الذى يسهم فى تحديد النتيجة النهائية لأى تفاعل اجتماعى ، هذا الموقف سيظل قائما طالما استمرت البرجوازية فى احتلالها وضعا متميزا . ويذهب ايانى بعد ذلك الى أنه بتطور البناء الرأسمالى فى البرازيل تظهر علامات جديدة من بينها : انخفاض معدلات الحراك الاجتماعى ، واستنفاد البرجوازية الصناعية لامكانياتها وقدراتها على التحكم فى الجماعات الاخرى . والى جانب تحليل ايانى نجد تحليلات أخرى حاولت الكشف عن المواقف الثورية التى يخضع

لها العمال الحضريون فى أمريكا اللاتينية • من ذلك تحليل سيمو Simao الذى أوضح فيه أن القادمين الجدد الى المدينة يميلون الى تبنى وجهات نظر اصلاحية ، بينما يتبنى الحضريون المتكاملون مع أسلوب الحياة الحضرية وجهات نظر راديكالية أو ثورية • ومع ذلك فان وجهة نظر سيمو لا تستطيع تفسير استمرار الاتجاهات الراديكالية لدى العمال الصناعيين الحضريين • ولقد أوضح تورين Touraine أن الحركة الاجتماعية التى يمثلها العمال قد تتخذ اتجاها ثوريا حينما تكون موجهة — وبطريقة تلقائية — نحو السلطة الشخصية فى المصانع الخاصة ، ونحو النظام الرأسمالى الذى لا يستطيع ضمان تحقيق التقدم الاقتصادى • بيد أن ذلك يتوقف بدوره على طبيعة التشريعات الاجتماعية التى قد تقرها الحكومات عندما تتعرض لأزمات بين العمال والرأسماليين • لذلك فان القرارات التى تتخذها الحكومات فى هذا المجال تلعب دورا كبيرا فى تحديد نوعية النشاطات التى يمكن أن تمارسها نقابات العمال ، وكذلك طبيعة النشاطات الثورية التى قد يقوم بها العمال • والملاحظ أن الظروف التى تحكم نشأة الحركات العمالية تؤثر — الى حد ما — على طابعها فيما بعد ، وان كان ذلك لا يعنى — بطبيعة الحال — استبعاد الطابع الثورى عن هذه الحركات • ولقد أوضح هنرى لاندسبيرجر Landsberger فى دراسة له عن قادة الحركات العمالية فى دول أمريكا اللاتينية أنهم (أى القادة) قد أفتقدوا عموما الروح الثورية(٤١) • والى هذه النتيجة أيضا توصل روبرت باين Payne فى دراسة له عن قادة الحركة العمالية فى بيرو(٤٢) •

(٤)

ولا يمكن فهم العلاقة بين الحراك والبناء السياسى دون التعرف على مستوى التطور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لأى مجتمع من المجتمعات•

---

(41) Landsberger, «The Labour Elite : Is It Revolutionary»? in Lipset, S. and Solari, A., Elites in Latin America, Oxford University Press, London, 1966.

(42) Payne, R; Labor and Politics in Peru, Yale University Press, New Haven, 1965.

ففى الدول النامية ــ مثلا ــ يتمثل الحراك الاجتماعى فى ظهور جمــاعات اجتمــاعية جديدة تتبنى قيما واتجــاهات تعكس مطامحها وتطلعاتها • وفى الدول الصناعية المتقدمة يصبح الحراك الاجتماعى جزءا من عملية شــاملة هى التباين الاجتماعى ، وبذلك تصبح العلاقة بين الحراك والبناء السياسى علاقة معقدة الى حد بعيد • ومن هنا يمكن القول ان الحراك الاجتماعى يعد عاملا أساسيا من العوامل التى تسهم فى احداث تغييرات سياسية • والواقع أن هذه القضية قد أثارت جدلا شديدا فى الفكر السوسيولوجى المعاصر ، لأنها ترتبط أوثق الارتباط بالنتائج المحتملة التى يحدثها الحراك الاجتماعى وعلى الأخص فى المجال السياسى • وهنا يمكننا التمييز بين وجهتى نظــر أساسيتين فى علم الاجتماع الغربى • الأولى يمثلها بارســونز Parsons وبعض تلاميذه من أمثال نيل سملسر Smelser وأيزنشتات Eisenstadt ، وتســتند الى نموذج التبــاين ــ التوازن differentiation-equilibrum الذى يعكس عموما جوانب التكامل والاتساق داخل النسق الاجتماعى[٤٣] • أما وجهة النظر الثانية فيمثلها دارندورف Dahrendorf وتقوم على نموذج الصراع البنائى structural conflict ، وهو نموذج يمنح الصراع أهمية فى احداث التغير الاجتماعى ، لكنه يؤكد فى النهاية استمرار البناء مع احداث بعض التعديلات الطفيفة عليه[٤٤] • ولقد أسهم نموذج التباين ــ التوازن فى تحديد العلاقات المتبادلة بين البناءات الاجتماعية والسياسية على مختلف المستويات ، كما قدم محاولات تصنيفية للجماعات الاجتماعية فى اطار عملية التباين • غير أن المشكلة الحقيقية فى هذا النموذج أنه نظر الى الحــراك الاجتماعى فى ضوء مفهوم الدور لا فى ضوء مفهوم البناء • فزيادة معــدل الحراك الاجتماعى فى مجتمع معين تعنى ــ بالضرورة ــ حدوث تغييرات فى البناء بقدر ما تعنى تغــيرات معينــة فى الأدوار • ومن وجهــة النظــر

---

(43) Parsons, T; The Social System, The Free Press, New York, 1951.

(44) Dahrendorf, R; Class and Class Conflict in Industrial Society, Routledge and Kegan Paul, London, 1959.

السوسيولوجية يحتل مفهوم البناء مكانة أعم وأشمل من مفهـوم الدور • وعلى أية حال فان علماء الاجتماع السياسى الذين تأثروا بهذا النموذج قد حاولوا فهم العلاقة بين تغير البناء الاجتمـاعى نتيجـة للتصنيع والنمـو الاقتصادى من ناحية ، والسلوك السياسى من ناحية أخرى • ومن الطبيعى أن تختلف هذه العلاقة من مجتمع لآخر باختلاف مستوى النمو الاقتصادى ، ومدى الوعى السياسى ، وطبيعة البناء الاجتماعى • فبتقدم حركة التصنيع تزداد الأدوار الاجتماعية تعقدا ويصبح الحراك الاجتماعى أمرا ضروريا تفرضه التحولات الشـاملة التى يتعرض لها المجتمـع • كما أن الحـراك الاجتماعى فى حد ذاته يصـبح متوقفا على عوامل عديدة منها : التعليم ، والمهنة ، والدين ، والعرق ، والمشاركة السياسية • ومن الملامح المميـزة للمجتمعات الصناعية الحديثة أن العلاقة بين هذه العوامل ليست علاقة ايجابية متسقة بالضرورة • فقد يحقق الشخص درجة عالية على سلم الدخل ، لكنه لا يزال فى مكانة دنيا بالنظر الى العرق أو المشاركة السياسية • والمـلاحظ أن التغيرات المتلاحقة التى تطرأ على البناء المهنى والنظام الاقتصادى قد تؤدى الى مضاعفات تجعل من تحليل عملية الحراك الاجتماعى مسألة بالغة الصعوبة •

ولقد اهتم بعض علماء الاجتماع بتناول فكرة التبـاين أو التفاوت فى أبعاد المكانة الاجتماعية والتأثيرات المختلفة التى تحدثها على الفرد والجماعة على السـواء • فلقد ذهب جيرارد لينسكى Lenski الى أن نسق المكانة فى كل مجتمع يتضمن عددا من الأبعاد (كالمهنة والدخـل والعـرق والتعليم والمشاركة السياسية ••• الخ) ، وأن الارتفاع فى أحـد الأبعاد لابد وأن يوازيه ارتفاع فى الأبعاد الاخرى • ففى دراسة الأقليـات العنصرية التى حققت حراكا فى مجال الدخل ، لوحظ أن أفرادها لم يتمكنوا من التكيف مع المجتمع ككل ، وأنهم كانوا يعانون من اللوم الذاتى ، لأنهم لم يلقوا الاعتراف بما حققوه فى بعد واحد من أبعاد المكانة(٤٥) • وفى دراسـة أخرى أجراها

(45) Lenski, G; «Status Crystallization : A Non Vertical Dimension of Social Status», American Sociological Review, 19, 1954, pp. 405-413.

بولك Bohlke اتضح أن عددا كبيرا من أسر الطبقة العاملة قـد ارتفعت مؤخرا داخل السلم الاقتصادى الى وضع مساو أو يفوق فى بعض الاحيان أسر الطبقة الوسطى • وحينما أصبحت هذه الأسر « الجديدة » ضمن الطبقة الوسطى وداخلة فى نطاقها ، فانها قد أفرزت أعدادا كبيرة من الأحـداث الجانحين ، وهو وضع نادر الحدوث بين أسر الطبقة الوسطى « القديمة » • ويعتقد بولك أن هذا الموقف الشاذ قد نتج ـ ولو جزئيا ـ من خلال ما أسماه « بعدم اتساق التدرج » الذى نتج عن حدوث حراك صاعد أو هابط فى بعد واحد من أبعاد التدرج دون حدوث حراك مواز أو مصاحب فى أبعاد التدرج الاخرى[٤٦] •

وخلال العقود الثلاث الماضية أجريت دراسات عديدة تناولت العلاقة بين الحراك الاجتماعى وبعض الظواهر الاجتماعية والسياسية والنفسية • فلقد ذهب بعض الدارسين الى أن هناك علاقة قوية بين الحراك والتعصب • ففى دراسـة أجـراها برونو بيتلهايم Bettelheim وموريس جانوفتز[٤٧] Janowitz اتضح لهما أن الحراك الهابط المفـاجىء يمـكن أن يؤدى الى احباطات ما تلبث أن تجد متنفسا لها فى العداوة العنصرية • كما أوضحا أن الحراك « البطىء » يسمح بوجود « فترة تكيف » تتحول خلالها الاحباطات المتراكمة الى قنوات اجتماعية مقبولة • والى هذه النتيجـة انتهى أيضـا جرين بلوم Greenblum وبيرلين Pearlin حيث أوضحا أن الحراك (الصاعد والهابط) يؤدى الى زيادة التعصب[٤٨] • وبرغم الشواهد المتزايدة التى تميل الى تأكيد العلاقة بين الحراك والتعصب ، الا أن هناك دراسات حديثة أخرى

---

(46) Bohlke, R, «Social Mobility, Stratification Inconsistency and Middle Class Delinquency», Social Problems, 8, 1961, pp. 351-363.

(47) Bettelheim, B, and Janowitz, M., The Dynamics of Prejudice, New York, Harpers, 1950.

(48) Grenblum, J, and Pearlin, L. «Vertical Mobility and Prejudice : A Socio-Psychological Analysis, in Bendix, R, and Lipset, S; Class, Status and Power, Routledge and Kegan Paul, London, 1966.

تميل الى اتخاذ موقف حذر فى تفسير هذه العلاقة • ففى دراسة قام بهـا مارتن ترو Trow كشف فيها عن عدم وجود ارتباط بين التسلطية والحراك الاجتماعى ، كما أوضح ميلفين تيومين Tumin أنه ليس ثمـة عـلاقة بين الحراك المهنى الصاعد والعزلة[٤٩] • وفى دراسة حديثة أخرى تناولت العلاقة بين الحراك الاجتماعى والتدين واتجاهات الطلبة نحو العـلاقات الجنسية التى تتم قبل الزواج ، اتضح أن الطلبة الذين حققوا حراكا اجتماعيا صاعدا كانوا أكثر تحفظا من الذين لم يحققوا مثل هذا الحراك[٥٠] •

وفى مجال العلاقات الاجتماعية أوضحت بعض الدراسات أن الحراك الاجتماعى قد يؤدى الى اضعاف الجماعات الأولية وعلى الأخص الاسرة • فلقد أشار لويد وارنر Warner الى أن الحراك الاجتماعى يمارس ضغوطا على الأسرة لكى تتواءم مع أساليب الحياة الجديدة[٥١] • كما أوضح روث Ruth وبيك Beck أن الحراك الاجتماعى يرتبط بعدم الاستقرار الأسرى، وأن الأسرة التى لا تستطيع التكيف مع المواقف الجديدة قد تظل أسـيرة أسلوب الحياة القديم الذى اعتادت عليه[٥٢] • ومن الدراسات الشهيرة فى هذا المجال تلك التى أجراها لتواك Litwak • فلقد حاول اختبار الفرض الذى صاغه بارسونز Parsons بشأن العلاقة العكسية بين الأسرة الممتـدة والحراك الاجتماعى • ومعنى ذلك أن الأسرة الممتـدة لا تتلاءم ـــ بحكم طبيعتها الجمعية ـــ مع متطلبات الحراك • ولقد أقر لتواك الفرض الذى صاغه بارسونز ، لكنه أجرى تعديلا على مفهوم « الأسرة الممتدة » ، ذاهبا

---

(49) Tumin, M; «Readiness and Resistance to Desegregation : A Social Portrait of the Hard Core», Social Fosces, 36, 1958, p. 261.

(50) Lindenfeld, F. «A Note on Social Mobility, Religiosity and Student's Attitudes Toward Premarital Sexual Relations», American Sociological Review, 25, 1960. pp. 81-84.

(51) Warner, L., American Life, Chicago : University of Chicago Press, 1953.

(52) Roth, J. and Peck, R. «Social Class and Social Mobility Factors Related to Marital Adjustement», American Sociological Review, 16, 1951, pp. 478-91.

الى أن الاسرة المتدة « التقليدية » قد لا تتلاءم مع الحراك الاجتماعى ، بينما قد تكون الاسرة المتدة « المعدلة » عاملا مشجعا على الحراك الصاعد • ومن النتائج الاخرى التى انتهى اليها لتواك أن وجهة نظر بارسونز لا تنطبق الا على المراحل الاولى من التصنيع • ففى هذه الفترة بالذات تتأثر علاقات الأسرة الممتدة الى حد كبير بالأسرة الريفية التى تستند الى التقارب الجغرافى والمهنى • وفى ظل هذه الظروف تؤدى الالتزامات الجمعية التى يفرضها هذا النمط من الأسرة الى الحد من الحراك الاجتماعى(٥٣) •

واذا ما تناولنا العلاقة بين الحراك والنشاط السياسى ، وجدنا دراسات عديدة تشير الى العلاقة الموجبة بينهما • فلقد أوضح بيتربلاو Blau أن الأشخاص الذين يحققون حراكا صاعدا يكشفون عن مشاركة سياسية واضحة(٥٤) • ومع ذلك فهناك شواهد مقابلة تشير الى أن العلاقة بين الحراك والنشاط السياسى ليست ايجابية بالضرورة ، حيث أشار ليبست Lipset وجوردن Gordon الى أن العضوية النقابية ليست فعلا اختياريا بالنسبة للعمال ، وأن خبرة الحراك الصاعد أو الهابط قد تحد من درجة النشاط النقابى • وفيما يتعلق بتأثير الحراك على السلوك السياسى ، أوضحت دراسة ماكوبى Macooby أن الذين يحققون حراكا صاعدا يميلون الى اعتناق وتبنى السلوك السائد فى الجماعة التى تحركوا اليها • كذلك أوضحت دراسة ليبست Lipset وبيندكس Bendix أن أبناء الطبقة الوسطى الذين يحققون حراكا صاعدا فى الولايات المتحدة يتبنون اتجاهات سياسية محافظة ، بينما يتبنى قرناؤهم فى ألمانيا وفنلنده والنرويج والسويد اتجاهات سياسية راديكالية(٥٥) • وبغض النظر عن مدى صحة نتائج هذه

---

(53) Litwak, E, «Occupational Mobility and Extended Family Cohesion», American Sociological Review, 25, 1960, pp. 9-21.

(54) Blau, P. «Social Mobility and Interpersonal Relations», American Sociological Review, 21, 1956, pp. 290-295.

(55) Lipset, S. and Bendix, Social Mobility in Industrial Society, Routledge and Regan Paul, London, 1959.

الدراسات ، فان القضية الهامة هى أن الحراك الاجتماعى يرتبط على نحو ما بالنشاط والاتجاهات السياسية •

(٥)

ومن الطبيعي أن يؤثر النمو الاقتصادى ومصاحباته فى الدول الغربية على طابع الحراك الاجتماعى والاتجاهات والقيم المرتبطة به • وخلال السنوات الأخيرة ظهرت كتابات سوسيولوجية عديدة حاولت فهم موقف الطبقة العاملة فى ظل « اقتصاد الوفرة » الذى أصبح يميز المجتمعات الصناعية المتقدمة • ففى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان البناء الطبقى فى هذه المجتمعات مرتبطا بأشكال معينة من السلوك السياسى • ومن خلال الاحزاب السياسية ونقابات العمال والجماعات الضاغطة اتخذ الانتماء الطبقى طابعا معينا بغض النظر عن الظروف النوعية التى شهدتها المجتمعات الصناعية • ففى بريطانيا مثلا كانت نقابات العمال — الى جانب حزب العمل — تعبر عن العمال المهرة وغير المهرة • وفى فرنسا وايطاليا كانت الأحزاب الاشتراكية والشيوعية تلعب نفس الدور • وفى كل هذه الدول كانت نسبة كبيرة من العمال الصناعيين تمنح أصواتها للأحزاب المحافظة • وبتغير بناء الصناعة فى هذه الدول ، ظهرت أشكال جديدة من الصراع الصناعى ، تلك التى أدت بدورها الى ظهور نقابات جديدة • ولقد اتخذت هذه النقابات مواقف سياسية جديدة مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التى اتخذتها النقابات القديمة ، مما حدا ببعض العلماء الى القول بأن النقابات فى المجتمع الرأسمالى قد أصبحت تمثل اطارا جديدا من الحقوق[٥٦] • على أن التسليم الكامل بهذه النقطة لا يخلو من مبالغة • ففى بعض الدول الأوربية الغربية لا تزال العضوية النقابية ضئيلة نسبيا ، كما أن الدول الغربية ذات النقابات العمالية القوية كفرنسا وايطاليا قد أصبحت تتبنى

---

(56) Tannenbaum, The True Society, Jonathan Cape, London, 1964, p. 141.

سياسات صناعية تقوم على حل الصراعات بطريقة روتينية • أما الاضرابات الشاملة التى قد تنشأ فهى لا تعدو أن تكون احتجاجات منظمة للتأثير على النظام السياسى • ومن هنا تبدو صحة عبارة دانيل بيل Bell القائلة بأن « العمل فى المجتمع الامريكى قد فقد خاصيته الايديولوجية »[٥٧] • ويبدو أن ذلك ينطبق أيضا على المجتمعات الأوربية ، حيث نجد الاضرابات غير الرسمية تمثل استجابات لضغوط محلية أكثر مما تعكس تعبيرا عن الرغبة فى احداث تغيير سياسى شامل •

وهناك شواهد سياسية عديدة تدعم القضايا السابقة • فاذا ما استبعدنا فترات الانكماش الاقتصادى فى الدول الغربية الرأسمالية ، لاحظنا أن نسبة مئوية معينة من العمال (تدور حول الثلث) تصوت لصالح الأحزاب المحافظة • أما النسبة المئوية المتبقية (الثلثين) فتصوت لصالح الأحزاب الاشتراكية أو الراديكالية عموما • وعلى الرغم من أن هذا الموقف قد يتغير تغيرا طفيفا من فترة لأخرى ، الا أنه يمثل نمطا عاما فى معظم الدول الغربية الرأسمالية ، وان كانت نسبة العمال فى بريطانيا والنرويج الذين يصوتون لصالح الأحزاب العمالية عالية نسبيا اذا ما قورنت ببقية الدول الاوربية[٥٨] • وهناك شواهد تشير الى أن الصراع السياسى يتحدد طبقا لبعدين : الأول هو العلاقة بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال ، والثانى هو حجم العمال ذوى الأصول الريفية أو الحضرية • ففى المجتمعات التى تزداد فيها نسبة العمال الريفيين ، نجد أن النسبة الكلية للذين يصوتون لصالح الأحزاب اليسارية منخفضة نسبيا ، وبالتالى تزداد فرص الانقسامات السياسية • ومن هنا يبدو واضحا أن الانتماء السياسى للعمال يتأثر بعوامل عديدة من بينها : طبيعة النقابات ، وبناء الأحزاب السياسية ، فضلا عن الأصول الريفية والحضرية ، والعوامل الطبقية •

(57) Bell, D., The End of Ideology, Collier-Macmillan, New York, 1961, p. 218.

(58) Alford, R, McKenzie R, and Silver, R, (eds), Party Systems and Voter Alignments, Free Press, New York, 1967.

وفى ضوء الظروف التى تشهدتها الطبقة العاملة الاوربية يمكننا أن نفهم الاهتمام المتزايد الذى نلمسه فى السنوات الأخيرة من خلال الدراسات العديدة التى حاولت تحليل الموقف السياسى لهذه الطبقة ازاء التطورات الاقتصادية التى تشهدها المجتمعات الغربية[٥٩] • فلقد أوضحت هذه الدراسات أن الرخاء الاقتصادى الذى تحقق للعمال الصناعيين قد أدى بهم الى تحويل ولائهم السياسى من أحزاب اليسار الى أحزاب الوسط أو اليمين• والواقع أننا لا نستطيع أن نقبل ببساطة هذا التفسير الذى ينطوى على بساطة شديدة • اذ أننا لو قبلناه لوجدنا صعوبة فى تفسير تأييد بعض أصحاب العمل وذوى المهن الفنية العليا لأحزاب اليسار • ومن هنا يبدو أن تفسير السلوك السياسى للطبقة العاملة لا يمكن أن يتم فقط فى ضوء الاعتبارات الاقتصادية الخالصة ، بل يجب أن يتم أيضا فى ضوء الاعتبارات المجتمعية والطبقية • كذلك فان درجة انفتاح المجتمع ككل تعد عاملا هاما فى تحديد العلاقة بين الرخاء الاقتصادى والتصويت • ولقد أوضح ليبست Lipset وروكان Rokkan أن انفتاح البناء الاجتماعى يعد أحد الخصائص المميزة للولايات المتحدة • « فالعمال الامريكيون لا يسرعون فقط فى الادلاء بأصواتهم اذا ما قورنوا بزملائهم الأوربيين ، ولكنهم أيضا أشد ارتباطا بالنظام الاجتماعى ــ السياسى الذى يؤكد قيم المساواة والانجاز بسبب تحسن فرص التعليم وزيادة معدلات الحراك الاجتماعى الصاعد »[٦٠] • وفى اطار مثل هذا النظام يمكننا أن ننظر الى زيادة رخاء العمال على أنه أحد نتائج عملية الحراك •

وبرغم كل ما سبق فان الدراسات البريطانية والفرنسية قد أوضحت أن الرخاء الاقتصادى الذى تحقق للطبقة العاملة لم يرتبط بالتحول الى الأحزاب السياسية الأقل راديكالية • كما أن هناك شواهد تشير الى أن

---

(59) Abrams, M.. Rose, R., Must Labour Lose? Penguin Books. Harmondsworth. Middlesex. 1960.

(60) Lipset, S.. and Rokkan. S., (eds). Party Systems and Voter Alignments. Fress Press. New York, 1967.

زيادة رخاء العمال قد يصاحبها ميل للارتباط بالاحزاب اليسارية . بيد أن هذا التفسير يحتاج الى تحديد دقيق للظروف التى يعيش فى ظلها العمال . ففى دراسة مقارنة لمواقف العمل فى الولايات المتحدة الامريكية توصل روبرت بلونر Blauner الى أن اتجاهات العمال نحو العمل تتأثر بنمط التكنولوجيا الصناعية والتنظيم البيروقراطى[٦١] ، وأن هناك أربعة نماذج أساسية للتكنولوجيا يستخدمها للعمال هى : تكنولوجيا الحرفة ، وتكنولوجيا الآلة ، وتكنولوجياخط التجميع ، وتكنولوجيا التسيير الذاتى . ومن المتوقع كما أشار الى ذلك تورين Touraine فى دراسته على مصانع شركة رينو الفرنسية ان الاتجاهات السياسية للعمال تختلف باختلاف نمط التكنولوجيا . اذ أن الضغوط التكنولوجية وما يصاحبها من ضغوط اقتصادية قد تفرض على العمال الصناعيين تبنى مواقف سياسية تنسجم مع أهداف الاحزاب العمالية . ومعنى ذلك كله أن ظروف العمل الصناعى تلعب دورا هاما فى تشكيل الاتجاهات السياسية للعمال ، وان كان ارتفاع الدخل لا يعنى — بالضرورة — زيادة التصويت لصالح الأحزاب غير الراديكالية . واذن فهناك عوامل أخرى يمكن أن تسهم فى تشكيل هذه الظاهرة كالأمان الوظيفى ، والظروف الفيزيقية للعمل ، ومدى تأثير النشاط النقابى ، ومرونة البناء الطبقى ، وفرص الحراك الاجتماعى ، والعلاقة بين العمال وأصحاب العمل . وهناك شواهد تؤيد وجود هذا الموقف فى بريطانيا . ففى دراسة أجراها لكوود Lockwood وآخرون على منطقة صناعية بالقرب من مدينة لندن ، اتضح أن السلوك السياسى للعمال لا يرتبط ارتباطا كاملا برخائهم الاقتصادى . اذ أن الانتماء السياسى للعمال لم يتغير تغيرا ملحوظا بزيادة دخولهم وارتفاع مستوى استهلاكهم وامتلاكهم للمساكن[٦٢] . وباختصار فلقد أوضحت الدراسات المعنية بالعلاقة بين رخاء العمال وسلوكهم السياسى

---

(61) Blauner, R., Alienation and Freedom, University of Chicago Press, Chicago, 1964.

(62) Lockwood. D., et al. The Affiuent Worker, Cambridge University Press, Cambridge, 1965.

أنهم يميلون الى تبنى مواقف الطبقة الوسطى فى هذا المجال بسبب قدرتهم النسبية على السيطرة على ظروفه العمل ، وأنهم لا يميلون تلقائيا الى تغيير انتماءاتهم السياسية بتحسن ظروفهم الاقتصادية •

وعلى الرغم من أن الحراك الاجتماعى الذى تحققه الطبقة العاملة يؤثر تأثيرا قويا على طابع النظام السياسى ، الا أن الحراك الذى تحققه الصفوات السياسية والمهنية الاخرى يمارس تأثيرا لا يقل قوة[٦٢] • ومن القضايا السوسيولوجية الشائعة أن التباين الاجتماعى يؤدى الى ظهور نظام سياسى أكثر تخصصا وتنوعا ، مما قد يساعد على تبلور الاتجاه نحو المركزية بسبب احتكار الحكومة لعملية التنسيق بين الهيئات والمنظمات المختلفة • وهذا يعنى أن هناك فرصا عديدة لتحقيق الحراك فى مجالات الوظائف المدنية والسياسية بوجه عام • فعلى مستوى قمة النظام السياسى نجد الاحزاب تلعب دورا هاما فى اختيار القادة السياسيين • ويمكننا أن نميز فى هذا المجال بين طائفتين من شاغلى الوظائف السياسية : الأولى تضم المتخصصين القادرين على توجيه الأعمال الحكومية الهامة ، والثانية تضم السياسيين الذين يتمتعون بقدر كبير من الثقة من جانب الأفراد العاميين • ومن خلال الواقع الذى تشهده المجتمعات الرأسمالية المعاصرة يمكن القول ان هناك جماعات مهنية عديدة تشغل هذه الوظائف كرجال البنوك ، والمديرين ، وضباط الجيش ، والأطباء ، والمدرسين ، والمحامين ، والسياسيين المتفرغين ، والصحفيين ، وقادة النقابات والأحزاب السياسية • وفى بعض المجتمعات الاوربية نجد رجال الاعمال وأصحاب المزارع يلعبون دورا سياسيا واضحا، وان كان هذا الدور يتحدد ــ الى حد كبير ــ من خلال مكانة القطاعات الاقتصادية التى يحتلونها • كذلك فان العمال الصناعيين والزراعيين لهم تمثيل محدود فى البرلمانات ، مالم تكن هناك أساليب رسمية لتمثيلهم بنسب ملائمة وذلك من خلال النقابات والأحزاب السياسية •

---

(62) Almond, G. et al., Comparative Politics : A Developmental Approach, Boston, 1966.

على أن أهم صور الحراك السياسى هو ذلك الذى يتم من خـــلال الأحزاب • اذ من خلالها (الأحزاب) يتم ترشيح الاشخاص لشغل الوظائف السياسية القيادية • ففى بريطانيا وفرنسا وألمانيا نجد أن أعضاء الأحزاب الاشتراكية يكتسبون فى نفس الوقت عضوية نقابية • ومن الطبيعى أن تعمل عضوية الحزب والنقابة (فى آن واحد) على تدعيم الموقف السياسى للفرد ، وان كان ذلك يتوقف بطبيعة الحال على امكانية الاستفادة من هذه العضوية المزدوجة • ففرص الحراك السياسى تكون أكبر بالنسبة لذوى المهن الفنية العليا اذا ما قورنوا بالعمال الصناعيين(٦٤) • وبالاضافة الى ذلك يميل علماء الاجتماع عند دراسة ظاهرة الحراك الى التمييز بين المستويين السياسيين المحلى والقومى • ففى الأنظمة التى تشهد منافسة قوية على المناصب الهامة ، نجد اهتماما كبيرا بتدعيم السلطة المحلية حتى يمكن التعبير عن المصـــالح السياسية المختلفة • والملاحظ أن كل من المستويين القومى والمحلى يتألف من جماعات تمارس العمل الســياسى ، وان كانت الجمــاعات المعبرة عن المستوى المحلى عادة ما تكون أكثر تعبيرا عن الطبقات الاجتماعية المختلفة وأشد ارتباطا بالقضايا الشعبية(٦٥) •

واذا كنا قد أوضحنا أن زيادة التخصص تؤدى الى تطور النظـــام السياسى وبالتالى اتساع فرص الحراك الســياسى ، فان ذلك لا يعنى — بالضرورة — أن الصفوة التى تقبض على مقاليد السلطة تعبر بوضوح عن حقيقة التخصص • ذلك أن التخصص يبدو واضحا من خلال التنظيمـــات البيروقراطية ، وأن الالتحاق بالوظائف السياسية العليا يتوقف على عوامل أخرى منها : بناء الأحزاب السياسية ، وطبيعة الجماعات الضاغطة ، وأساليب الالتحاق بالوظائف السياسية بوجه عام • وفى الأنظمة التى تلعب فيهـــا الأحزاب دورا مسيطرا ، نجد ان فرص الحراك الصاعد تكون أكبر وذلك

(64) Blondel, J., Voters, Parties and Leaders, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1963.

(65) Dahl, R., Who Governs? Yale University Press, New Haven, 1961.

اذا ما قورنت بالأنظمة التى يمارس فيها القادة السياسيون حرية التصرف فى اختيار زملائهم • ففى الاتحاد السوفييتى وعلى الأخص بعيد تولى ستالين مقاليد السلطة ، كان المكتب السياسى مؤلفا أساسا من العمال والفلاحين الذين صعدوا إلى القمة من خلال أجهزة الحزب ، وإن كان هذا الاتجاه قد ضعف بعض الشىء خلال السنوات الأخيرة(٦٦) • وعلى النقيض من ذلك نجد حكومات كيندى وجونسون وكارتر تعتمد اعتمادا أساسيا على ذوى المهن الفنية العليا والمثقفين ورجال الأعمال ، حيث نجد عددا كبيرا منهم لا يتمتع برصيد سياسى كبير • ولا يعنى ذلك عدم وجود جماعات ضاغطة فى الاتحاد السوفييتى تلعب دورا فى اختيار الوزراء • اذ أن الجيش والحزب يمارسان فى هذا المجال تأثيرا لا يمكن تجاهله • وباستثناء التأثير الذى يمارسه الجيش ، فان السلطة الحقيقية فى الاختيار للوظائف السياسية تكمن فى أجهزة الحزب وذلك بسبب سيطرتها على الصناعة والتجارة والزراعة ، وهى سيطرة لا تتحقق فى تنظيم سياسى بعينه فى الولايات المتحدة • ولقد شجعت هذه الشواهد ميلوفان ديجلاس Djilas على القول بأن الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية قد شهدت ظهور «طبقة حاكمة» جديدة(٦٧) • ومع ذلك فيجب أن نضع وجهة نظر ديجلاس فى اطار أوسع • فعلى الرغم من أن جماعة كبار الموظفين قد ازدادت حجما ، وحصلت على مزيد من الامتيازات ، الا أن قوة الحزب لم تتأثر الا فى أضيق الحدود • فلا يزال الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية يلعب الدور الأساسى فى توجيه السياسة العامة واتخاذ القرارات الأساسية • وربما كان الاعتراض السوفييتى على برنامج الاصلاح الذى تبنته الحكومة التشيكوسلوفاكية فى سنة ١٩٦٨ مستندا الى ضرورة احترام الصلاحيات الواسعة التى يتمتع بها الحزب الشيوعى السوفييتى • لذلك فان عبارة

---

(66) Schueller, G., «The Politburo», in Lasswell, H. and Lerner, D. (eds). World Revolutionary Elites. The MIT. Press, Cambridge, Mass. 1966, pp. 97-178.

(76) Djilas, M., The New Class, Thames and Hudson, London, 1957.

ديجلاس تبدو أكثر صدقا اذا ما كان يقصـد بالطبقـة الجديدة جمـاعة البيروقراطيين فى الحزب الذين بدأوا منذ منتصف الخمسينيات فى طمس المبادىء الديموقراطية التى يستند اليها • ويشكل هـؤلاء البيروقراطيون صفوة سياسية حاكمة بالفعل • ان ما يبدو واضحا فى هذا المجال هـو أن النمو الاقتصادى السريع الذى حققه الاتحاد السوفييتى بعد الثورة قد أدى الى ظهور جماعات كبيرة تمكنت من تحقيق حراك اجتماعى صاعد . فضلا عن أن أوضاع هذه الجماعات كانت تتوقف على مدى الوحدة والاستقرار التى تتمتع بهما الحكومة • وبمرور الوقت طرأت تغيرات هامة على نظام التدرج الاجتماعى فى الاتحـاد السوفييتى بفعل عدد من المتغـيرات السـياسية والاجتماعية . وذلك على النقيض من دول أوربا الشرقية التى ظلت محافظة على نظامها التدرجى برغم ما تشهده من متغيرات عرقية ودينية وطبقية • ولا شك أن زيادة نسـبة ذوى المهن الفنيـة العليا داخل أجهـزة الدول والمشروعات الصناعية قد خلق بعض التوترات بين البيروقراطيين داخـل الحزب من ناحية . والمتخصصين من ناحية أخرى[٦٨] •

(٦)

والملاحظ أن جانبا كبيرا من الكتابات التى تناولت العلاقة بين الحراك الاجتماعى والتغير السياسى يمثل ملاحظات أو انطباعات أو اسـتنتاجات عامة الى حد بعيد • فاذا ما عدنا الى التراث الكلاسيكى فى علم الاجتماع . وجـدنا كتابات دى توكفيل De Tocqueveille وفيبر Weber وماركس Marx لا تعدو أن تكون وجهات نظر محددة فى اطار نظريات اجتمـاعية عامة • ومثل هذا يقال عن الكتابات السوسيولوجية الحديثة • فلقد رأينا كيف أن التحليـلات التى قدمها جـيرمانى Germani وتورين Touraine العلاقة بين التنمية السياسية والحراك الاجتماعى كانت أقرب ما تكون الى

---

(68) Black, C. (ed.), The Transformation of Russian Society, Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1960.

ملاحظات مجردة مشتقة من نظريات بالغـة العمـومية • وعلى مستوى البحوث الواقعية نلحظ موقفا مماثلا • فالجـدل الحـديث الذى أثير فى بريطانيا مؤخرا حول دور الطبقة العاملة الجديدة كاد يقتصر على بعد واحد من أبعاد عملية الحراك الاجتماعى بحيث لا نجد تناولا واضحا للدور الذى يمكن أن يلعبه التغير السياسى فى هذا المجال • واذا كان لعلم السياسة أن يفيد شيئا من دراسة الحراك الاجتماعى ، فان الأمر يتطلب تطوير أساس مقارن لمختلف أشكال البناء الاجتماعى ؛ اذ بدون هذا الأساس تظل الشواهد الواقعية فى مستوى الانطباعات العامة التى تفتقد التحديد والوضـوح والتماسك •

وهناك محاولات تصنيفية عديدة لمختلف أنماط البنـاء الاجتمـاعى استندت الى أسس ومعايير متباينة • فعلى سبيل المثال نجد تصنيفات تعتمد على العناصر الاقتصادية التكنولوجية بما فى ذلك التنظيمـات الصـناعية والتجارية • وهناك تصنيفات أخرى تستند الى التباين فى المكانة وما يرتبط بذلك من علاقات شخصية • وأخـيرا هناك تصنيفـات تنهض على جوانب نظامية تؤثر على كيفية تباين الأدوار وتكاملها فى اطار بناء اجتماعى شامل • وفى كل هذه التصنيفات نجد تأكيدا للدور الذى تلعبه الجوانب التاريخية والثقافية فى احداث التغير الاجتماعى • ولقد أوضح نيل سملسر Smelser فى دراسة له عن الثورة الصناعية فى بريطانيا أن التباين الاجتماعى المتزايد يحتل أهمية خاصة اذا ما أدى الى احداث تفكك فى أساليب حياة القطاعات العريضة من السكان[٦٩] • والمشكلة الاساسية التى تفرض نفسها هنا هى محاولة عزل العوامل الاقتصـادية والتكنولوجية والديموجرافية والثقافية المؤدية الى التغير الاجتماعى • ففى المجتمعات التى لا تزال حديثة العهد بالتصنيع ، نلمس ثلاث عمليات تؤثر معا على نظام التدرج الاجتماعى هى : ظهور جماعات اجتماعية جديدة تحقق حراكا صاعدا ، وتحول العمال اليدويين

---

(69) Smelser, N., Social Change in the Industrial Revolution, Routledge and Kegan Paul, London, 1959.

من المهن الزراعية الى المهن الصناعية ، وأخيرا الحراك الهابط للصفوات القديمة • أما فى المجتمعات الصناعية المتقدمة فقد تختلف أسبقية هذه العمليات فى الحدوث • ففى بريطانيا — مثلا — اختفت الصفوات القديمة وظهرت الطبقة الوسطى الجديدة فى وقت واحد . بحيث يصعب تحديد أسبقية حدوث أى منها • كذلك لوحظ أن الصفوات التقليدية قد تحولت فى فترة لاحقة الى ممارسة النشاطات التجارية والصناعية • واذا كانت الثورة الصناعية فى أوربا الغربية قد أدت الى تحول أعداد كبيرة من السكان من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية ، الا أن ذلك قد ارتبط بحدوث تغيرات سياسية هامة من أبرزها ظهور صفوات جديدة . فضلا عن النمو الهائل فى المشروعات الصناعية والتجارية • ومن الحقائق الاقتصادية المألوفة أن النمو الصناعى الذى لا يواكبه حركات سكانية ملائمة قد يؤدى الى عواقب وخيمة ، الا اذا استثنينا بعض الحالات ككندا واستراليا . اللتان تمكنتا من مواجهة هذه المشكلة بمرونة بالغة • ويمكننا أن نلمس فى الدول النامية الآن موقفا عكسيا لذلك • فالسكان يتحركون بمعدلات عالية من الريف الى المدن ؛ بينما لا تظهر صفوات جديدة بسبب محافظة الصفوات القديمة على أوضاعها • واذا كانت الصفوات القديمة فى الولايات المتحدة قد رفضت التكيف مع الظروف والمواقف الجديدة ، الا أن الحرب الأهلية وما أعقبها من تنمية صناعية ، قد عجلت بظهور صفوات جديدة ، مما شكل ضغوطا كبيرة على الصفوات القديمة للتكيف مع الحياة الصناعية[٧٠] •

ان التحليل السوسيولوجى المقارن للحياة السياسية يتطلب منذ البداية تصنيف الأنساق السياسية طبقا لدرجة السيطرة التى تمارسها • وهذا يعنى أيضا محاولة التعرف على مدى استمرار هذه الانساق وعلاقتها بالايديولوجيات المختلفة بما فى ذلك القيم والاتجاهات والرموز الاجتماعية • وأعتقد أن هذا المدخل فى دراسة الانساق السياسية يمكن أن يكون أكثر

---

(70) Moore, Barrington, Jr., Social Origins of Dictatorship and Democarcy, Allen Lane, The Penguin Press, London, 1966.

فائدة ونفعا من تلك المقولات البالغة التجريد التى توصـــل اليها تالكوت بارسونز Parsons والتى أطلق عليها «متغيرات النمط» Pattern variables •
كذلك فان من القضايا الهامة فى دراسة العلاقة بين السياسة والبناء الاجتماعى محاولة تفسير القيم والتغيرات التى تطرأ عليها • ولو انطلقنا من هـــذا المنظور فسنجد أن ما يطلق عليه « اجماعا » أو « إتفاقا » ما هو الا محصلة علاقات السيطرة والخضوع بين قطاعات المجتمع المختلفـــة • ومثل هـــذه العلاقات هى التى تمنح الممارسات السياسية الشائعة طابعا شرعيا • وفى ضوء هذا الفهم يصعب التسليم بالثنائيات الجامدة التى قدمهـــا علمـــاء الاجتماع الوظيفيون فى دراستهم للأنساق السياسية • وقد يكون صحيحا فى بعض المواقف المثالية أن يتحقق التوازن الكامل بين مختلف قطـــاعات المجتمع ، لكنه من الصحيح أيضا ــ وكما أكد جيرمانى Germani ــ أن مثل هذا التوازن لا يمكن أن يتحقق الا اذا تمكنت القوى المسيطرة من فرض ثقافتها وشرعيتها على القوى الخاضعة[٧١] • واذا ما قبلنا هذه الافكار كبداية لتكوين اطار تصورى لدراسة العلاقة بين السلطة السياسية والطبقـــات الاجتماعية ، فان دراسة الحراك والتغير السياسى يمكن أن تتخذ شكلا أكثر تماسكا • ذلك أن الحراك الاجتماعى يكتسب أهميته السياسية حينما يشير الى الحركة الاجتماعية الصاعدة والهابطة للجماعات المختلفة ، تلك الحركة التى تؤثر على النظام السياسى وما يستند اليه من سلطة وشرعية • وفى بعض الدول النامية ــ وعلى الأخص تلك التى لا يعتمد نظامها السياسى على تفويض واسع للسلطة ــ نجد الجماعات الصغيرة التى تحقق حراكا اجتماعيا صاعدا تؤثر تأثيرا واضحا على عملية الاستقرار السياسى • أما فى الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية فاننا نجد البيروقراطية السياسية تمارس سيطرة واسعة على النشاطات الاقتصادية والثقافية والسياسية ، بحيث تصبح هذه البيروقراطية هى الوسيلة الأساسية لتحقيق الحراك الاجتماعى •

---

(71) Germani. G. «Social Change and Inter-group Conflict». in Horowitz,. I. L. (ed), The New Sociology. Oxford University Press. New York, 1964.

اذلك فان ظهور الجماعات المهنية التى تتعارض خبراتها الفنية مع خبرات البيروقراطيين السياسيين قد يؤدى الى حدوث تغيرات على طبيعة النظام السياسى على نحو ما حدث فى تشيكوسلوفاكيا فى سنة ١٩٦٨ ، وفى المجر خلال الفترة فيما بين سنتى ١٩٥٥ و ١٩٥٨ .

والواقع أن الأهمية التى يحتلها الحراك الاجتماعى بالنسبة للتغير السياسى لا تتمثل فى كونه (أى الحراك) أحد المؤشرات الدالة على تحدى النظام السياسى ، بقدر ما تتمثل فى ظهور توحدات وانتماءات سياسية جديدة من شأنها التأثير على طبيعة البناء الاجتماعى ككل . وربما كان ذلك أحد الاسباب التى جعلت دى توكفيل De Tocqueville يبدى اعجابه بانفتاح المجتمع الأمريكى وقدرته على التكيف مع الجماعات الاجتماعية الصاعدة اذا ما قورن بالمجتمع الفرنسى التقليدى قبل الثورة[٧٢] . ولقد أوضحت أحداث الثورة الفرنسية أن الجماعات الصاعدة قد أظهرت تحديا قويا للنظام الاجتماعى القائم . والمؤكد أن النتائج السياسية للحراك الاجتماعى فى دولة كالولايات المتحدة تختلف عنها فى دول أخرى كفرنسا وبريطانيا . ففى الولايات المتحدة يميل الحراك الى اتخاذ طابع فردى برغم انخفاض معدلاته . وفى ضوء هذه النقطة يمكن القول ان الولايات المتحدة تستطيع التحكم فى النتائج السياسية للحراك بدرجة أكبر من فرنسا . وربما أمكن تفسير هذا الموقف فى ضوء بناء القوة فى المجتمعات الأوربية والتقاليد العمالية الراسخة بما تمثله من نقابات قوية[٧٣] . ويبدو أن الحركات الاجتماعية فى الولايات المتحدة تمثل أفضل ظرف ممكن لتحقيق الحراك الاجتماعى . فبظهور حركة الزنوج بدا ممكنا تحقيق الصعود الاجتماعى على نحو جماعى وذلك فى مواجهة معارضة اليمين الرامية الى الحد من

---

(72) De Tocqueville, A., Democracy in America, op. cit.

(73) Lockwood, D., «Social Integration and System Integration», in G. K. Zollschan and Hirsh, W. (eds.) Explorations in Social Change, Routledge and Kegan Paul, London, 1964, pp. 244-256.

الفرص المهنية المتاحة للزنوج . وعلى الرغم من أن هذا الموقف لا يشكل اتجاها راديكاليا فى السياسة الامريكية ، الا أنه يشير الى فرص تحقيق الحراك الاجتماعى على مستوى جماعى . وبنفس الكيفية يمكننا النظر الى نتائج الحراك فى دول أوربا الغربية . ففى هذه الدول حصل العمال على مكاسب ومزايا اجتماعية كبيرة ، بحيث أصبح الحديث عن الحراك ضربا من اللغو . ويبدو أن قضية الحراك (وعلى الأخص فى ألمانيا وانجلترا) قد أصبحت أقل القضايا اثارة للخلاف والجدل وعلى الأخص بين الأحزاب السياسية المختلفة . ولعل ذلك يوضح لنا كيف أن بناء القوة فى المجتمع يؤثر تأثيرا بالغا على فرص الحراك ومعدلاته . ولا يستطيع علم الاجتماع السياسى أن يحقق التقدم المنشود فى هذا المجال الا اذا انطلق من الفهم البنائى التاريخى الشامل لعلاقة مركبة كتلك التى تربط الحراك الاجتماعى بالتغير السياسى .

الفصل الرابع

البيروقراطية والسلطة

من الحقائق التاريخية أن كلمة « بيروقراطية » ألمانية الأصل ، لكنها ما لبثت أن إنتقلت الى اللغة الانجليزية بفضل الاتصال الفكرى الأوربى • وعلى الرغم من أن القواميس الانجليزية قد ظلت مترددة لفترة طويلة قبل استخدام هذه الكلمة ، الا أن جون ستيوارت ميل Mill قد وجد نفسه مدفوعا لمعالجة ظاهرة البيروقراطية فى مؤلفه « مبادىء الاقتصاد السياسى » (١٨٤٨) • ففى هذا المؤلف نجده يعارض تركيز وتكديس الخبرات والمهارات وصبغها بطابع بيروقراطى ، حتى أنه قد اعتبر البيروقراطية أحد أسباب شلل الحياة السياسية • ثم نجده بعد ذلك فى مؤلف آخر يطور وجهة نظره حينما ميز بين أسلوبين من الحكم : الأول نيابى ، والثانى بيروقراطى ، على الرغم من أن الأخير قد يتخذ شكلا ملكيا أو ارستقراطيا • ذلك أن الاعمال الحكومية قد أصبحت من اختصاص حكام محترفين . وهذا هو جوهر البيروقراطية • واذن فالنظام البيروقراطى يعمل على تجميع الخبرات ، وتنمية المعرفة العملية ، وصقل مهارات الاشخاص ، لكنه (أى النظام البيروقراطى) يتعرض للضعف بسبب الروتين وقتل روح المبادءة[1] • وعلى الرغم من أن ميل لم يكتب فى موضوع البيروقراطية باسهاب كبير ، الا أن وجهات نظره كانت موحية الى حد بعيد • فلقد أثار قضية العلاقة بين البيروقراطية والديموقراطية ، وهى قضية ما تزال تثير كثيرا من الجدل حتى الآن ، كما ناقش أيضا السيطرة البيروقراطية على المجتمعات ، مما دفع باجوت Bagehot — فى وقت لاحق — الى الاشارة الى النجاح المحدود الذى يمكن أن تحققه البيروقراطية • اذ أنها تعتمد على الروتين ولا تتيح

(1) Mill, J. S., Considerations on Representative Government, Parker, London, 1962.

الفرصة للمرونة عند مواجهة المواقف الجديدة • لكن ذلك لا يعنى أن باجوت كان معارضا للمعرفة الفنية التى قد تتيحها البيروقراطية للفرد ، بل انه كان واعيا بأخطار الاندماج فى الروتين • لذلك نجده يذهب الى أن أفضل اجراء يتيحه النظام السياسى الانجليزى هو تغيير الوزراء على نحو لا يمكنهم من الارتباط بسلوك جامد[٢] • فالوزراء الجدد — فى رأيه — أشد حساسية للرأى العام ، وأكثر قدرة على التكيف مع العمليات الادارية •

والواقع أن تنوع الخبرات السياسية فى دول أوربا الغربية قد لعب دورا فى تحديد المعنى المبكر لمفهوم البيروقراطية • فثمة تباين واضح بين التصورين الانجليزى والألمانى مصدره اختلاف طبيعة النظام الادارى والأسس التى يستند اليها • ففى ألمانيا كانت الدولة تدار بطريقة مركزية بواسطة موظفين متخصصين يمارسون أعمالهم فى ضوء نظريات ادارية معينة • لذلك كانت الكتابات الألمانية التى تناولت البيروقراطية فى أوائل القرن التاسع عشر تحمل طابعا فنيا وترتبط أوثق الارتباط بالجوانب القانونية • وربما كان فون شتاين Von Stein من أبرز الذين عبروا عن هذه النقطة حين قال : « ان من أعظم الانجازات الألمانية التوصل الى علم متكامل يتناول الدولة ، وهو الشىء الذى تفتقده بريطانيا وفرنسا على السواء »[٣] • وحتى نستطيع فهم الظروف التى شكلت تفكير شتاين يجدر الاشارة الى أن فكرة البيروقراطية فى ألمانيا كانت مرتبطة بالتغيرات العنيفة التى طرأت على النظريات والممارسات الادارية بعد هزيمة نابليون لبروسيا فى سنة ١٨٠٦ • ولقد عرفت ألمانيا فى أوائل القرن التاسع عشر جماعات استشارية مؤلفة من كبار الموظفين تقدم المشورة للحكام فى بعض المسائل الاقتصادية والسياسية والقانونية ، بحيث كانت القرارات الصادرة بعد ذلك تعبر عن الارادة الجمعية للحكام وكبار الموظفين •

---

(2) Bagehot, The English Constitution, London, 1963, p. 197.

(3) Johnson, H. C., «Concept of Burcaucracy in Cameralisom», Political Socience Quarterly, vol. 79, 1964, pp. 376-402.

ولا شك أن فون مول Mohl قد خطى خطوة الى الأمام فى تصوره لمفهوم البيروقراطية . فهو لم ينظر اليها على أنها مجرد صورة من صورة الادارة أو الحكم ، لكنه حاول تحليل بعض أبعادها فأوضح التعقيدات المرتبطة بها ، وتركيزها على الشكل دون المحتوى . ومن الطبيعى أن تثير وجهات نظر مول بعض المفكرين الاجتماعيين من أمثال لوبلاى Leplay الذى ربط البيروقراطية بالطبقة الوسطى من الموظفين ووصفها بأنها أقوى مشجع على تهرب صغار الموظفين من مواجهة المواقف وتحمل المسئولية ، وأنجح وسيلة لقمع روح المبادءة والابتكار . والواقع أن لوبلاى قد اهتم فى معالجته بالبناء التنظيمى أكثر من اهتمامه بالمفاهيم القانونية الادارية ؛ أى أنه وجه تحليله لدراسة المساواة لا قانونية الادارة ، مما أتاح الفرصة لظهور دراسات لاحقة ، حاولت المقارنة بين الاساليب الحكومية فى الادارة والأساليب التى تنتهجها المشروعات الاقتصادية الخاصة .

ومما سبق يتضح أن بداية القرن التاسع عشر قد شهدت ثلاثة تصورات محددة للبيروقراطية . الأول ينظر اليها بوصفها أسلوبا فى الحكم والادارة يمكن مقارنتها بالملكية والديمقراطية والارستقراطية . والثانى يركز على شكل معين من البيروقراطية ساد خلال القرن التاسع عشر وعلى الأخص فى ألمانيا . أما التصور الثالث والأخير فيميل الى ابراز مخاطر البيروقراطية كأسلوب ادارى . وعلى الرغم من أن علماء القرن العشرين قد تجاهلوا — الى حد كبير — هذه التصورات المبكرة للبيروقراطية ، الا أنها لا تزال تمارس تأثيرا كبيرا عليهم[٤] . ويكفى ان هذه التصورات قد أدركت وجهى البيروقراطية (الكفاءة الادارية فى مقابل القصور الادارى) . ومن الملاحظات الشائعة فى الكتابات الحديثة أنها تميل الى ربط مفهوم البيروقراطية بالانجازات التى قدمها موسكا Mosca وميشيلز Weber وفيبر Michels متجاهلة البدايات الحقيقية لهذا المفهوم والمعانى المختلفة التى اتخذها .

---

(4) Laski, H., «Bureaucracy», Encyclopaedia of the Social Sciences. Vol. 3, Macmillan, New York, 1930, pp. 70-74.

ويبدو أن السبب الرئيسى فى ذلك هو أن معظم الكتاب الأوائل الذين تناولوا البيروقراطية ــ باستثناء ميل ــ لم يقدموا أنساقا فكرية متكاملة ، بحيث بدت وجهات نظرهم أقرب ما تكون الى التأمل منها الى التحليل العملى . ومن هنا يمكننا أن نفهم سر القوة التى تمتع بها تصــور هيجل وماركس للبيروقراطية ، على الرغم من أنهما لم يفردا لها معالجة خاصة شــاملة . وربما دفعنا ذلك الى تحليل أهم الاســهامات الكلاســيكية التى تناولت البيروقراطية .

(١)

يعد موسكا Mosca واحدا من علماء القرن التاسع عشر الذين أسهموا اسهاما مباشرا فى تحديد معنى البيروقراطية وعلى الأخص فى مؤلفه الشهير « الطبقة الحاكمة »[٥] . ولقد بسط موسكا وجهات نظره من خلال نقــده لتصنيفات نظم الحكم المختلفة حيث يقول : « اذا ما تناولنا تصنيفات نظم الحكم التى ظهرت منذ أرسطو ، فســوف نجد أنها تدور حــول ثلاث : الديموقراطية ، والارستقراطية ، والملكية ؛ وهى نظم لم تعــد كافية الآن لوصف الواقع السياسى المعقد » . وفى فترة لاحقة قال موسكا : « ان هناك ضعفا ظاهرا فى تصنيف نظم الحكم هو أنه يستند الى ملاحظة موقف أو ظرف معين خلال تطور الكائنات السياسية ، وأنه يركز على الاختــلافات الشكلية بين نظم الحكم أكثر مما يركز على الاختلافات الجوهرية بينها »[٦] . والواقع أن أكثر ما شغل موسكا هو التوصل الى أساس لتصنيف نظم الحكم لا يستند فقط الى مفهوم السلطة ، بل يحاول أيضا توجيه الاهتمام لواقع العمليات السياسية . أما جوهر هذا الواقع ــ فى نظره ــ فهو القوة . وفى

---

(5) Mosca, G., The Ruling Class, McGraw-Hill, New York, 1939.

(6) Meisel, J. H., The Myth of the Ruling Class, University of Michigan, Ann Arbor, 1956.

ذلك يقول : « ففى كل المجتمعات المتطورة التى عرفت أشــكالا معينة من الحكم نجد الطبقة الحاكمة تمثل قلة قليلة فى مواجهة غالبية غالبة لا تشارك فى الحكم بقدر ما تخضع له • ويمكننا أن نطلق على هذه الغالبية الطبقــة المحكومة »[٧] • والمؤكد أن هذه العبارات كانت الأساس الذى نهض عليه تصنيف موسكا لنظم الحكم •

ولقد ميز موسكا بين شكلين أساسيين من أشــكال الحــكم : الأول اقطاعى ، والثانى بيروقراطى[٨] • ففى الدولة الاقطاعية تكون الطبقــة الحاكمة بسيطة فى تركيبها ، حيث يستطيع أى فرد فيها ممارســة المهــام الاقتصادية والقضائية والادارية والعسكرية ، كما يستطيع ممارسة سلطة مباشرة وشخصية على أفراد الطبقة المحكومة • أما فى الدولة البيروقراطية فان هذه المهام منفصلة عن بعضها البعض وتصبح من اختصاص قطــاعات معينة من الطبقة الحاكمة • وهناك نقطتان هامتان أشار اليهما موسكا وأحدثا تأثيرا هاما على الرأى العام الأوربى خلال القرن التاسع عشر : الأولى هى تأكيده أن حتمية ظهور حكم الاقلية يتعارض أساسا مع أى نظرية تتناول الديموقراطية • أما النقطة الثانية فهى أن الموظفين العموميين لا يشكلون فقط جزءا من الطبقة الحاكمة ، ولكنهم يمثلون أبرز ســمة تميــز الدولة الحديثة[٩] • ولم يكن موسكا يعتقد أن الطبقة الحاكمة تشــكل وحــدة متجانسة متكاملة ، لأنه قد رفض القضية الماركسية الذاهبة الى أن هناك تشابها فى مصالح الذين يشغلون وضعا طبقيا متماثلا • لذلك نجده يبذل جهدا كبيرا لتوضيح تباين الطبقة الحاكمة • لكنه حينما يجد أن البيروقراطية تحتكر الثروة والقوة العسكرية ، فانه يشير الى وجود « طغيان بيروقراطى » مستند الى وجود أوليجاركية قوية تبسط نفوذها على كل قطاعات الحيــاة

---

(7) Mosca, G., The Ruling Class, op. cit. pp. cit. p. 40.
(8) Meisel, J. H., The Myth of the Ruling Class, op. cit.
(9) Ibid. p. 230.

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية[١٠] . والواقع أن العناصر الفكرية التى قدمها موسكا لم تكن جديدة تماما ، لكن ربطه بينها هو الذى منحها شيئا من الجدية والطرافة ، بحيث استطاع أن يجد للبيروقراطية مكانا هاما فى نظرية سياسية شاملة • ومن الشواهد المؤيدة لذلك أن النظام السياسى الذى دافع موسكا عنه لم يكن يختلف كثيرا عن ذلك الذى أيده جون ستيوارت ميل Mill • ولا يمكن أن نفسر أهمية نظرية موسكا فى ضوء مدى اختلافها عن نظريات مفكرى القرن التاسع عشر ، بل فى ضوء قدرتها على الوصول الى نتائج متماثلة مع استخدام تحليل مختلف • وفضلا عن ذلك فان مفهوم البيروقراطية فى نظرية موسكا لم يكن واضحا الى حد بعيد ، حتى أنه لم يشعر بالحاجة الى تقديم تعريف له • بعبارة أخرى فان المفهوم — فى نظره — كان يشير الى مجرد وجود مجموعة من الموظفين العموميين • وحينما ناقش موسكا الدولة البيروقراطية ؛ أشار الى بعض الخصائص كالتخصص والمركزية ، وأن كان قد ركز بصفة أساسية على خاصية وجود موظفين مأجورين يؤدون الخدمات العامة[١١] • والملاحظ أن موسكا قد أراد بمناقشته للبيروقراطية ادخالها فى اطار نظرية سياسية منظمة • بعبارة أخرى فانه سعى الى وضع مفهوم البيروقراطية فى اطار جديد •

ويبدو أن ميشيلز Michels قد خطا خطوة أبعد من موسكا فى دراسته عن « الأحزاب السياسية »[١٢] • ففى هذا المؤلف نجده يؤكد أن البيروقراطية قد أصبحت ظاهرة ضرورية فى الدول الحديثة • ومن هذا المنطلق فان الطبقات المسيطرة سياسيا تستطيع تدعيم أوضاعها ، بينما تسعى الطبقات

---

(١٠) وتأكيدا لهذا الموقف نجد موسكا يطالب بأن تكون الطبيعة النيابية هى الميزة للاجهزة البيروقراطية . فمن خلال الانتخابات يمكن الحيلولة دون الطغيان البيروقراطى . وبهذه الطريقة يمكن القول أن الطبقة الحاكمة هى انعكاس لمصالح متباينة داخل المجتمع .

(11) Michels, R., Political Parties : A Sociological Study of the Oligarchic Tendencies of Modern Democracy, New York, 1962.

(12 Ibid., p. 260.

الوسطى غير الآمنة الى البحث عن عمل داخل الدولة . وعلى ذلك فتفسير ظهور البيروقراطية لا يحتاج الى تحليل سياسى للدولة . والواقع أن ميشيلز قد اهتم اهتماما خاصا بعلاقة البيروقراطية بالديموقراطية ، حيث درس عددا من الأحزاب الاشتراكية ونقابات العمال فى أوربا فيما قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم قدم قانونا شهيرا أطلق عليه « القانون الحديدى للأوليجاركية »[١٣] Iron law of Oligarchy . ولكى يزيد ميشيلز هذه القضية وضوحا درس بصفة خاصة البناء الداخلى للحزب الاشتراكى الألمانى الذى كان من أكثر الأحزاب قربا الى المبادىء الديموقراطية وقتئذ ، واتضح له أن هذا الحزب كان بحكم بنائه أيضا حزبا أوليجاركيا تسيطر عليه أقلية صغيرة العدد . ومن خلال هذه النتيجة قدم ميشيلز استنتاجا مؤداه ؛ أن كل التنظيمات البيروقراطية الكبيرة الحجم تشهد نموا كبيرا فى جهازها الادارى ، نموا يستبعد تحقيق ديموقراطية داخلية حقيقية ، برغم ما تعتنقه هذه التنظيمات من ايديولوجيات تؤكد المساواة وتكافؤ الفرص والديموقراطية[١٤] .

ويعتقد ميشيلز أن الديموقراطية الحقيقية مطلب عسير التحقيق فى التنظيمات البيروقراطية الكبيرة[١٥] ، خاصة اذا ما كانت هذه الديموقراطية تعنى مشاركة كل الأفراد فى العمل السياسى المتعلق باصدار القرارات . اذ أن مثل هذه المشاركة مستحيلة فنيا ، لأن كثيرا من الأفراد ينتمون الى

---

(١٣) هو قانون « حديدى » لانه يتحقق فى الواقع دائما وبلا استثناء . و « اوليجاركى » لأن حكم الاقلية فيه هو الحكم المفروض .

(١٤) يمكننا أن نجد معالجة مستفيضة لاسهامات ميشيلز فى : السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، دار المعارف . القاهرة . ١٩٧٥ ، ص ص ٦٣ — ٦٧ . وكذلك محمد على محمد ، علم اجتماع التنظيم . دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

(١٥) ويؤكد ميشيلز فى كتابه ان نمو التنظيمات البيروقراطية يؤدى الى ضرورة ظهور ضبط مركزى يمارسه جهاز ادارى . كما اكد فى موضع آخر أن صعوبة تحقيق الديموقراطية ترجع أيضا الى فشل التنظيم فى اكتشاف الوسائل التى تضمن تمثيل الآراء المعبرة عن مجموع الافراد . انظر :
Michels, R. Political Parties, op. cit. Passim.

طبقتى العمال وصغار الموظفين ، فضلا عن أن كثيرا من مشكلات البيروقراطية تنطوى على تعقيد يفرض ضرورة وجود معـــرفة متخصصة وتدريب فنى لا يتوافران لدى هـــؤلاء العمـــال والموظفين • ويقـــابل ذلك موقف قادة التنظيمات البيروقراطية • فبحكم موقفهم هذا يتحكمون فى قنوات الاتصال وما يرتبط بها من سلطة وقوة ، مما يدعم فى النهاية أوضـــاعهم ويزيدها رسوخا واستقرارا • وما يلبث هؤلاء القادة أن يكتسبوا من خلال ممارستهم لوظائفهم معرفة متخصصة ومهارات سياسية تبعدهم بالتدرج عن المشكلات الحقيقية لتنظيماتهم ، وتشجعهم على السعى لتحقيق مصالحهم وأهدافهم الخاصة ، تلك المصالح التى تتمثل فى المحافظة على الاوضاع التى يشغلونها • وهكذا يحدث تحول عن الأهداف الديموقراطية ، فتقل رغبـــة القادة فى الاقدام على النشاطات الثورية خشية غضب الحكومة وتعريض التنظيم للخطر ، وبذلك يعمد التنظيم الى أداء وظائفه فى هدوء وســـكنية ، فيفقد ثوريته ويصبح محافظا[١٦] • ومن ذلك يبدو واضحا أن ميشيلز قد نظر الى البيروقراطية بوصفها وسيلة للسيطرة السياسية ، وأداة تستخدمها قـــلة

---

(١٦) حاول بعض الدارسين المحدثين التحقق من صدق القانون الحديدى للاوليجاركية الذى قدمه روبرت ميشيلز ، فأجروا عددا من الدراسات على أنماط مختلفة من التنظيمات البيروقراطية ، كشفوا فيها عن تحقق جزئى لهذا القانون ، كما اظهروا الحاجة الى اجراء بعض التعديلات عليه . ومن الدراسات الشهيرة فى هذا المجال تلك التى قام بها سيمور ليبســـت Lipset وآخـــرون على نقابة أمريكية . ولقد افترض الباحثون أن النظام الديموقراطى الذى كان ســـائدا فى النقابة يعارض ويقاوم « القانون الحديدى للاوليجاركية » . ومن ناحية أخرى تجد سلزنيك Selznick فى دراسته عن منظمة التنسى فالى T.V.A. يحـــاول اختبار مدى صدق مفهوم استبدال الاهداف عنـــد ميشيلز ، فأوضح أن برنامج الاصلاح الذى تكفلت المنظمة بتنفيذه فى المنظمة قد لقى معارضة شديدة من القوى ذات النفوذ ، مما فرض عليها (أى المنظمة) استقطاب هذه القوى واحتوائها واشراكها فى رسم سياسة المنظمة ، بحيث تضمن هذه القوى بعد ذلك التعبير عن مصالحها فى المنظمة ، مما أدى الى تعديل الاهداف الاصلية للمنظمة ، وهى الاهداف التى أنشأت فى الاصل لتحقيقها . انظر :

Lipset, S., et al. Union Democracy, Glencoe, Ill. 1946, and Selznick, P: TVA and the Grass Roots, Berkeley, University of California Press, 1949.

حاكمة . لذلك يسعى أفراد هذه القلة الى ابعاد السلطة عن مصدرها الشرعى لتكون فى يدهم أداة لخدمة مصالحهم الخاصة . وعلى هذا النحو يصبح الطابع البيروقراطى للتنظيم نتاجا حتميا للديناميات التى تحدث فيه .

ومع أن كتابات ميشيلز تكشف عن نظرة ثاقبة لديناميات البيروقراطية، الا أنها لا تخلو من حتمية واضحة . فالبيروقراطية — فى نظره — لا تعدو أن تكون مجموعة من الموظفين والعمال الذين يتقاضون أجرا لقاء عملهم ويخضعون لسيطرة رؤسائهم وقادتهم ، وأن الاوليجاركية هى المصير المحتوم الذى ستنتهى اليه البيروقراطية . ومن الطبيعى أن يحول هذه التصور دون امكانية تنوع البيروقراطية وتباينها عبر الزمان والمكان . وقد يكون صحيحا أن وجهة نظر ميشيلز قد تساعد الدارس على الكشف عن بناء القوة فى التنظيمات البيروقراطية ، لكنها قد لا تعينه كثيرا على فهم خصوصية الواقع البيروقراطى . وربما استشهدنا على ذلك بمعالجته لمشكلة الديموقراطية فى المجتمع ككل . فقد تنبأ قبل حدوث الثورة الروسية بسقوط الديموقراطية الاشتراكية ، وأوضح أن الثورة ستتحول بعد ذلك لتصبح « ديكتاتورية يمارسها أولئك القادة المهرة الذين بلغوا من المهارة درجة انتزعوا بها صولجان القوة والسيطرة فى ظل كلمة براقة هى الاشتراكية »[١٧] . بل لقد ذهب ميشيلز الى أبعد من ذلك حين قال : « ان التاريخ يخبرنا أن الحركات الديموقراطية ما هى الا موجات متعاقبة تتحطم دائما على نفس الصخرة ، لكنها — مع ذلك — ما تلبث أن تعود الى الظهور من جديد » ، وأن « المثاليات الديموقراطية تفقد نقاوتها وطهارتها وقدسيتها حينما تنتشر وتسود »[١٨] .

(٢)

والمحقق أن مفهوم البيروقراطية يدين بالكثير لماكس فيبر Weber ، فلقد تناوله فى ضوء مفاهيم أخرى من بينها السلطة التى تعنى — فى نظره —

(17) Ibid. p. 19.
(18) Ibid. p. 371.

« احتمال أن تطيع جماعة معينة من الناس الأوامر المحددة التى تصدر من مصدر معين »[١٩] • كما يستخدم فيبر مفهوم الشرعية للاشارة الى «اعتراف الافراد بحق الرؤساء فى اصدار أوامر لمرؤسيهم »[٢٠] • وعلى ذلك فان ممارسة السلطة تتطلب وجود قدر من الشرعية تبـدو واضـحة فى امتثال الأفراد لسلطة الرؤساء • كذلك أوضح فيبر أن عـلاقات السلطة تنمو فى الجماعات الكبيرة الحجم ، لأن قيم الجماعة هى وحـدها التى تستطيع أن تمنح ممارسة الضبط الاجتماعى طابعا شرعيا ؛ وأن معايير الجماعة وحدها هى السند الذى يدعم الامتثال • واستنادا الى ذلك ميز فيبر بين ثـلاثة أنماط للسلطة هى : السلطة الروحية المستندة الى الالهام Charismatic ، والسلطة التقليدية Traditional ، والسلطة القانونية الرشيدة Legal-rational

ويستند النمط الأول من السلطة الى وجود قائد ملهم يتمتع بخاصية أو خصائص نادرة يصبح بمقتضاها قائدا أو زعيما[٢١] • وقد يظهر معه أو من بعده أعوان وأتباع يؤمنون بشخصيته ويعملون بمقتضى تعاليمه • وعادة ما يقومون بدور الوسيط بين هذا الزعيم الملهم والجماهير • وطبقا لذلك يوجد نماذج لهؤلاء الزعماء فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية • ففى الدين يوجد الأنبياء ، وفى الحرب يوجـد الأبطال ، وفى السياسة يوجـد الزعماء السياسيون • ولقد أوضح فيبر كيف أن السلطة الروحية تمثل قوة ثورية ترفض القيم التقليدية وتهدد النظم المستقرة ، وكيف أن الايمـان القوى بقدرات وخصائص الزعيم يؤدى الى الاستخفاف بالنظام وعـدم الالتزام بالقواعد التى قد لا تعبر عن الهام هذا الزعيم • وكنتيجة لذلك كله يواجه المجتمع ظروفا فريدة فى حالة وفاة القائد ، حيث يضطر أتباعه وأعوانه الى التخلى عن صراعاتهم من أجل تدعيم ما أرساه الزعيم الملهم • وهنـا

---

(19) Weber, M., The Theory of Social and Economic Organization, Henderson, A., Parsons, T., (trans) (eds), Free Press, 1947, p. 152.

(20) Ibid. p. 155.

(٢١) لمناقشة تفصيلية انظر : السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، المرجع السابق ، ص ص ٤٤ ــ ٦٣ .

يظهر مطلب التنظيم كضرورة ملحة يفرضها الفراغ الذى تركه • ومن الممكن أن يتفكك المجتمع نتيجة الصراع حــول خلافة الزعيم . مالم تكن هنــاك اجراءات منظمة تحدد انتقال الزعامة الى وريث شرعى • أما النمط الثانى من أنماط السلطة ــ وهو السلطة التقليدية ــ فيستند الى قدسية التقاليد والايمان بخلود الماضى • وبمقتضى ذلك ينظر الناس الى النظام الاجتماعى القائم بوصفه نظاما مقدسا وخالدا وغير قابل للانتهاك • ولقد استشهد فيبر على وجود نمط السلطة التقليدية بتصور الحق الآلهى للملوك ، والملكيــات المطلقة ، موضحا كيف أن السلطة التقليدية تسعى باستمرار الى اقــرار النظام الاجتماعى القائم واستمراره ، وأنها بذلك تواجه صعوبات حينمــا نجد نفسها ازاء تغير اجتماعى(٢٢) •

ويستند النمط الثالث والأخير من أنماط السلطة الى الايمان بسيادة القانون وصوابه • ومن الطبيعى أن تفترض هذه السلطة وجود مجموعة رسمية مستقرة من المعايير الاجتماعية تتولى تنظيم السلوك تنظيما رشيدا . بحيث يتمكن هذا السلوك من تحقيق أهداف محددة • واذن فالطاعة فى هذا النمط من السلطة لا تكون لشخص بعينه ، وانما لمجمــوعة من المبــادىء الموضوعية تفرض اتباع التوجيهات والأوامر التى يصدرها الرئيس بغض النظر عن شخصية هذا الرئيس • وفضلا عن ذلك فهناك اجراءات واضحة تتبع لكى يشغل الرئيس وضعه الاجتماعى كالتعيين والانتخاب • ويذهب فيبر الى أن السلطة القانونية تمثل النمط الشائع فى التنظيمات البيروقراطية الحديثة وعلى الاخص الحكومية منها • ويستخدم فيبر بعد ذلك مصطلح البيروقراطية للاشارة الى الجهاز الادارى القائم فى هذه التنظيمات ، ذاهبا الى أن أهم ما يميز هذه التنظيمات هو وجود قواعد محددة موضوعية تحدد بطريقة رشيدة التسلسل الرئاسى لهذا الجهاز ، بالاضافة الى ما تنظمه من حقوق وواجبات • ومن السمات الأساسية الأخرى التى اعتمد عليها فيبر فى تحديده لخصائص التنظيمات المستندة الى الســلطة القانونية ، فصــلة

(22) Ibid. pp. 335-337.

الادارة عن الملكية . فموارد التنظيم ليست ملكا لأفراده ، كما أن وظائفه لا تباع ولا تورث ، ولا يمكن أن تضاف الى الملكية الخاصة[٢٣] .

والواقع أن ماكس فيبر قد درس ظاهرة البيروقراطية من منظــور واسع ، وأثار بذلك قضايا كبرى تتعلق بالديموقراطية والرأسمالية والحرية. فهو يذهب فى غير موضع الى أنه برغم وجود التنظيمات البيروقراطية فى بعض المجتمعات القديمة ، الا أنها لم تحقق نموا ملحوظا الا بظهور الدولة الحديثة ، وأن هــذه التنظيمــات قد غزت المجــالات الدينيــة والتربوية والاقتصادية فى عالمنا المعاصر . ولقد أدى ذلك الى ظهور المركزية والقواعد الرشيدة التى تهدف الى تحقيق أقصى درجات الفعالية ، مما فرض قيــودا حادة على حرية الفرد وتلقائيته ، وما يرتبط بذلك من ضيق أفقه وعــدم قدرته على فهم الأدوار التى يقوم بها فى علاقتهــا بالتنظيم البيروقراطى ككل . كذلك أوضح فيبر أن هناك علاقة قوية بين الرأسمالية والبيروقراطية . فبدون الأخيرة لم تكن تستطيع الاولى أن تحقق التقدم الذى أحرزته فى العالم الغربى . لكن المشكلة التى قد تبدو واضحة هنا هى ؛ أن الرأسمالية الغربية بوصفها نظاما اقتصاديا قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالديموقراطية ، تلك الديموقراطية التى تضاربت — الى حد ما — مع النمو البيروقراطى . وفضلا عن ذلك فلقد حدد فيبر موقفه من الحركات الاشتراكية التى حدثت فى زمانه ، وأوضح أن خطورة هذه الحركات تكمن فيما تؤدى اليه من سيطرة التنظيمات البيروقراطية الحكومية ، تلك التنظيمات التى تشجع على ظهور نظام مركزى يهدد الحرية الفردية[٢٤] .

ومن خلال القضايا والمفاهيم التى استند اليها فيبــر يمكننا تنــاول

---

(23) Gerth, H. and Mills, C., Wright (eds.), From Max Weber; Essays in Sociology, New York, 1961, pp. 221-224.

(٢٤) عرض فيبر النموذج المثــالى للتنظيم البيروقراطى فى الموضــوعين التاليين :

Gerth H., and Mills, C. Wright, op. cit., pp. 196-204. and Weber, M., Theory of ... op. cit., pp. 329-336.

النموذج المثالى للتنظيم البيروقراطى الذى قدمه • يقول فيبر[٢٥] : « تتوزع نشاطات ووظائف التنظيم البيروقراطى على الأوضاع الاجتماعية بوصفها نشاطات ووظائف رسمية • وهذا يعنى أن ثمة تقسيم عمل محدد وواضح بين الأوضاع الاجتماعية يسمح بوجود درجة عالية من التخصص ، ذلك التخصص الذى يزيد من الخبـرة والمعـرفة الفنية بين أفـراد التنظيم البيروقراطى سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر • ثم تنتظم هـذه الاوضاع الاجتماعية بعد ذلك فى شكل بناء تسلسلى رئاسى يعبر عن السلطة. حيث يتخذ هذا البناء ــ فى صورته الطبيعية ــ شكلا هرميا ، فيه يكون كل رئيس مسئولا عن أعمال مرؤسية مسئولية محددة بوضوح • وهذا بدوره يقتضى توافر نسق مستقر نسبيا من القواعد واللوائح التى تحكم وتنظم قرارات الفرد وأعماله • وفضلا عن ذلك فان هذه القواعد واللوائح قـد وجدت فى الأصل لكى تطبق على الحالات الخاصة ، ولكى تضمن انتظـام أداء نشاطات التنظيم ، بحيث تصبح الى جانب بناء السـلطة قادرة على التنسيق بين النشاطات والعمليات المختلفة التى يؤديها أفـراد التنظيم - فضلا عن أنهما ــ معا ــ يتيحا استمرار أداء هذه النشاطات بغض النظر عن التغيرات التى تطرأ على التنظيم من حيث تغير أفراده • ومن شأن ذلك كله ان يمنح التنظيم قدرا من الاستقرار • ومن المتوقع فى ظل هذه الظروف أن يتخذ أعضاء التنظيم اتجاها لا شخصيا أو موضوعيا فى علاقاتهم بقرنائهم وعملائهم ، كما أنه من المتوقع أيضا أن يتخلوا عن كل الاعتبارات الشخصية. وأن يحققوا الانفصال العاطفى الكامل بينهم وبين عملائهم • وهذا بدوره يضمن ألا تؤثر المشاعر الشخصية على الأحكام والقرارات الرشيدة التى يصدرها أعضاء التنظيم خلال تأديتهم لوظائفهم • ولكى يتحقق ذلك يكتسب العمل فى التنظيم نمطا مهنيا يتخذه كل عامل ويسعى الى الاسـتقرار فيه طيلة حياته ، كما أن الالتحاق بالتنظيم يخضع لمؤهلات فنية يتعين الحصول عليها ، ولا يخضع للانتماءات السياسية أو الأصول الأسرية ، تلك التى تلعب دورا واضحا فى التحاق الافراد بالتنظيمات التقليدية • وعادة ما يتم التحقق

(25) Ibid., pp. 228-230.

من هذه المؤهلات عن طريق الاختبار أو الامتحـــان أو الشهادات التعليمية ذاتها • ويكون لهذه المؤهلات بعد ذلك دور واضح فى خلق تجانس طبقى بين الموظفين • وفضلا عن ذلك فان الموظفين يعينون ولا ينتخبون ، ولذلك فان حياتهم المهنية تعتمد على الرؤساء أكثر ما تعتمد على الجمهور المشكل للتنظيم • وبعد فترة أولية من العمل فى التنظيم يرتبط الموظف ارتباطا كاملا بالوضع الاجتماعى الذى يشغله ، ويحمى حينئذ من الفصل التعسفى • أما المكافأة التى يحصل عليها مقابل عمله فتتخذ شكل مرتب منتظم يستمر حتى بعد تقاعده حينما يتحول الى معاش • وأخيرا فان التقدم المهنى يتحدد اما وفقا لأقدمية الشخص أو انجازه أو كلاهما » •

تلك هى الخصائص والسمات التى ضمنها فيبر نموذجه المثالى ، وهى خصائص وسمات تزيد من فرصة اتخاذ قرارات رشيدة ، فضلا عن أنها تزيد من الكفاية الادارية التى هى الهـــدف الأســـمى للتنظيم البيروقراطى • والواقع أننا نستطيع بالاضافة الى ذلك أن نلمس عنصرا مشتركا بين هـــذه الخصائص هو وجود نسق من الضبط مستند الى قواعد رشيدة ، قواعـــد تحاول تحديد أبعاد بناء التنظيم البيروقراطى وتنظيم نشاطاته على أساس من المعرفة الفنية بغية تحقيق أعلى درجات الكفاية • ولقد لخص ذلك فيبر حين قال : « الادارة البيروقراطية هى فى الأصل ممارسة للضبط على أساس المعرفة ، وأن هذه السمة هى التى تجعلها رشيدة على وجه التحديد »[٢٦] • ومن خلال هذه العبارة نستنتج أن ما يحدد درجة البيروقراطية هو طبيعـــة ونوعية القواعد التنظيمية ، لا مجرد وجودها أو عدم وجودها • ذلك لأن الادارة الاقطاعية ــ كما أوضح فيبر فى موضع آخر ــ تستخدم أيضا قواعد لكى تنظم وتضبط نشاطاتها ، وهذا ما يحدث أيضا فى نمط السلطة التقليدية ، وأن كان بشكل مختلف الى حد ما[٢٧] • واذن فالخاصية التى تميز التنظيم البيروقراطى هى أن قواعده مستندة أساسا الى معرفة فنية وتفكير رشيد ،

---

(26) Weber, M., Theory of ... op. cit. p. 311.
(27) Ibid. p. 322.

وهى خاصية يجب أن تحتل اهتماما خاصا عند دراسة الخصائص والسمات المثالية التى تضمنها نموذج فيبر •

ولا شك أن نظرية فيبر فى البيروقراطية تحتل مكانة خاصة فى علم الاجتماع السياسى • ومع أن هذه النظرية تتضمن أفكارا عديدة لم يكن فيبر أول من توصل اليها ، الا أن جديتها تتمثل فى ذلك التأليف الرائع بين وجهات النظر المختلفة • ومن النقاط التى ما تزال تثير جدلا حتى الآن اهمال فيبر لمشكلة المعوقات البيروقراطية (اذا كان لنا أن نستخدم هذا المصطلح الحديث) ، مخالفا بذلك كثيرا من علماء القرن التاسع عشر الذين انشغلوا بقضية الكفاية الادارية • والواقع أن من الصعب فهم الانجاز الذى قدمه فيبر دون الاشارة الى المؤثرات الفكرية التى خضع لها • وأول هذه المؤثرات يتمثل فى النظرية الادارية الألمانية التى كانت سائدة خلال القرن التاسع عشر • فلقد كان فيبر ملما بأبعاد هذه النظرية بحكم تكوينه الاكاديمى ، كما تأثر بالتصور الشائع الذاهب الى أن الادارة الفعالة هى الهدف الأسمى للدولة • كذلك يمكننا القول إن فيبر قد تأثر بروبرت ميشيلز ، على الرغم من كتابات الأول قد ظهرت قبل كتابات الأخير بعامين تقريبا[٢٨] • والمؤكد أن كتابات ميشيلز تكشف عن علاقة واضحة بالتراث السوسيولوجى خلال القرن التاسع عشر • فلم يكن يقصد تناول الدور الذى تلعبه جماعات الموظفين والتأثير الذى تحدثه فى المجتمع ، بقدر ما قصد الكشف عن التضارب القائم بين البيروقراطية بما تتضمنه من طاعة ونظام ، والديموقراطية بما تعنيه من حرية ومبادءة • وعلى أية حال فيبدو أن فيبر قد اتخذ موقفا مختلفا عن موقف ميشيلز بتركيزه على الخصائص النموذجية للبيروقراطية • وحينما فعل ذلك فانه قد كشف عن تأثر مباشر أو غير مباشر بوجهة نظر ميشيلز • لكن يظل صحيحا — مع ذلك — أن فيبر قد أراد استخدام مصطلح

---

(٢٨) من المعروف أن فيبر كانت تربطه صلات قوية بميشيلز . ففى كثير من المؤتمرات والمقابلات الشخصية كان الرجلان يتبادلان الحديث فى كثير من الموضوعات الاكاديمية . كذلك كان فيبر قد نشر بعض كتاباته عن الديموقراطية بعد سنة ١٩٠٩ وهو تاريخ صدور كتاب ميشيلز « الاحزاب السياسية » .

البيروقراطية للتعبير عن واقع معين سعى ميشيلز الى دراسته أيضا • ولم يكن فيبر حريصا على ادانة البيروقراطية بقدر ما كان حريصا على اظهار فعاليتها من حيث أنها أسلوب ادارى رشيد[٢٩] •

وليس من الصعب علينا بعد ذلك أن نكشف عن التأثير الذى أحدثه ماركس على فيبر • ويبدو أنه (أى فيبر) لم يتأثر مباشرة بكتابات ماركس عن البيروقراطية قدر تأثره بنظريته الشاملة وعلى الأخص وجهة نظره فى الاغتراب التى انعكست بشكل واضح على تصور فيبر لقضية الترشيد وعلاقته بالحرية الانسانية • وفيما يتعلق بنمطى السلطة التقليدية والسلطة القانونية نجد فيبر يتأثر تأثرا واضحا بمفكر اجتماعى ألمانى هو شمولر Schmoller ، الذى ذهب الى أن كل مجتمع يتألف من ثلاثة قطاعات : القائد ، والطاقم الادارى ، والجماهير • ويتوقف التطور الاجتماعى على زيادة التباين والتفاوت بين هذه القطاعات[٣٠] ففيما يتعلق بالطاقم الادارى الذى يقوم بمعاونة القائد نجد شمولر يميز بين أربعة مراحل فى تطوره • الأولى تمثل المجتمعات البدائية التى لا تعرف تباينا فى الأدوار الاجتماعية • أما المرحلتان الثانية والثالثة فتتداخلان زمانيا • ففى الأولى ينشأ جهاز ادارى تشغل وظائفه عن طريق الوراثة كما هو الحال فى المجتمعات الاقطاعية ، وفى الثانية تكون الوظائف قصيرة الأجل ويكون شغلها بالانتخاب على نحو ما كان شائعا فى اليونان القديمة • وفى المرحلة الرابعة والأخيرة يتشأ بناء مهنى بحيث يتخذ الموظف خطا مهنيا معينا يستمر فيه طيلة حياته العملية • والملاحظ أن خصائص هذه المرحلة الأخيرة تشبه الى حد كبير ما قصده فيبر بالسلطة القانونية الرشيدة • وفضلا عن ذلك نجد شمولر يشير الى بعض الخصائص البيروقراطية كتسلسل الأوضاع الاجتماعية ، والعلاقات التعاقدية بين الأفراد والتنظيمات البيروقراطية ، مؤكدا أنه بفضل

(29) Bendix, R., Max Weber, An Intellectual Portrait, London, 1960.
(30) Laski, H., «Bureaucracy», in Encyclopäedia of the Social Sciences, op. cit.

هذه الخصائص استطاعت المجتمعات الحديثة تحقيق تقدم ملحوظ فى مختلف المجالات . وبرغم ذلك كله فلقد كان شمولر واعيا كل الوعى بالمخاطر المترتبة على التغلغل البيروقراطى فى المجتمعات الأوربية[٣١] . فهو يؤكد أن البيروقراطية — بطبيعتها — تتطلب وجود جهاز ضخم يضمن مراقبة أعمال الموظفين حتى يمكن تفادى الأخطاء التى يرتكبونها . ومن ذلك يبدو واضحا أن شمولر قد أدرك — فى وقت مبكر نسبيا — ذلك « الجانب الآخر » من البيروقراطية المتعلق بالانحرافات السلوكية وتعقد الاجراءات وتقييد حرية التصرف .

والمحقق أن شمولر قد تناول معظم القضايا الأساسية التى تناولها فيبر . غير أن أهم ما يميز معالجة الاخير دقتها وفنيتها وقدرتها على الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة البيروقراطية . وربما كان ذلك أحد أسباب شهرة نظرية فيبر فى البيروقراطية . فبعد مرور أكثر من خمسين عاما على ظهور كتاب « الاقتصاد والمجتمع » لا تزال هذه النظرية مصدر الهام كبير للدارسين المحدثين . ويكفى أن نستعرض التراث النظرى والامبيريقى الهائل فى مجال البيروقراطية لنرى كيف أنه يمثل حوارا مع نظرية ماكس فيبر[٣٢] . وأعتقد أن أحد أسباب ذلك هو موقف فيبر نفسه من النمو البيروقراطى الحديث . فهو — من ناحية — يبدى اعجابه بهذا الانجاز الفكرى الهائل ، لكنه — من ناحية أخرى — يبدى قلقه من تأثير هذا النمو على قدرات الانسان وطاقاته . وبالاضافة الى هذا الموقف فان مفهوم البيروقراطية — كما تصوره فيبر — لا يزال يثير كثيرا من التساؤلات حول مدى صدقه وتعبيره عن الواقع ، فضلا عن الاتساق الداخلى لهذا المفهوم .

---

(31) Ibid. p. 320.

(32) Blau, P., and Scott. R., Formal Organization, Routledge and Kegan Paul, London, 1963.

(٣)

ولست أريد الدخول فى مناقشة تفصيلية لكل الانتقادات التى وجهت الى نظرية فيبر فى البيروقراطيـــة ، اذ بالامكان التعـــرف عليها فى مؤلف متخصص[٣٣] • ان ما يعنينا هنا على وجه التحديد هو تقييم هذه النظرية بما تتضمنه من جوانب قوة وضعف فى ضوء التراث المعاصر فى البيروقراطية • ومن أبسط الانتقادات التى وجهت الى فيبر أنه باستخدام كلمة البيروقراطية قد أحدث خلطا شديدا بين المفاهيم • فهو يستخدم كلمتى « بيروقراطية » و « بيروقراطى » للاشارة الى البناء الطبيعى الذى يميز الادارة الحديثة • ومثل هذا الاستخدام يتعارض ــ أساسا ــ مع الاستخدام الشائع لهاتين الكلمتين والمرتبط بسيطرة الروتين وتعقد الاجراءات وغير ذلك من المظاهر المرضية • لذلك فان فيبر قد ارتكب خطأ فى التعبير عن ظاهرة البيروقراطية بهذا المصطلح[٣٤] • لكن يبدو ــ مع ذلك ــ أن فيبر كان مضطرا لاستخدام هذا المصطلح على الرغم من تناقضه مع المعنى الشائع له • والمعيار الذى يمكن أن نستند اليه فى هذا المجال هو المضمون الذى قصـــده ، وأعنى به « البيروقراطية الرشيدة » •

ومن أقوى التعليقات التى تناولت نظرية فيبر تلك التى ضمنها روبرت ميرتون Merton مقاله القصير « البنـــاء البيروقراطى والشخصية »[٣٥] • فلقد أوضح ميرتون أن التأكيد على دقة وثبات السلوك فى التنظيم البيروقراطى قد يؤدى الى عواقب وخيمة • فالقواعد ــ التى أنشئت فى الاصـــل لتكون بمثابة وسائل لتحقيق أهداف معينة ــ قد تصبح أهدافا فى حد ذاتها • كما

---

(٣٣) السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، المرجـــع الســـابق •

(34) Strauss, E., The Ruling Servants, Allen and Unwin, London, 1961, pp. 40-41.

(35) Merton, R. «Bureaucratic Structure and Personality», in Merton, R. et al. (eds) Reader in Bureaucracy, The Free Press, Glencoe, Ill. p.

آن التسلسل الرئاسي الذى تستند اليه البيروقراطية قـد يدفع الفرد الى اكتساب السمات التى تؤكد فيه روح الامتثال والطاعة وعـدم القدرة على التصرف • كذلك فان خضوع الموظفين لظروف عمل واحدة قد يخلق لديهم احساسا أو تضامنا جماعيا من شأنه أن يتعارض مع التغـيرات الضرورية التى تريد البيروقراطية احداثها • ان ما يريد ميرتون تأكيده هنا هو أن البناء الذى يعتبر رشيدا فى نظر فيبر قد يؤدى الى ظهور نتائج غير متوقعة ومعوقة وظيفيا • لذلك نجده (أى ميرتون) يعيد الى الأذهان وجهة النظر السـابقة على فيبر والتى كانت تستخدم البيروقراطية للاشـارة الى عدم الفاعلية • ولقد أشار فيليب سلزنيك Selznick الى شىء قريب من ذلك حينمـا ركز اهتمامه على الاقسام الداخلية فى التنظيم البيروقراطى ، موضحا كيف أن الوحدات الفرعية تتبنى أهدافا خاصة تتصارع وتتعارض مع الأهداف العامة للتنظيم[٣٦] • ويتفق ميرتون مع سلزنيك فى نقطة هامة هى عـدم اتسـاق العناصر التى يتألف منها مفهوم البيروقراطية الرشيدة كما تصوره فيبر • فالرجلان يؤكدان أن الوصف أو التحديد الرسمى للبناء التنظيمى ليس كافيا لمعرفة السلوك الفعلى للبيروقراطيين • فالموظف كائن اجتماعى أعمق بكثير من النصوص القانونية التى يطبقها ، كما أن له مصالحه ومخاوفه وتحيزاته • وفى هذا المجال نجد ميرتون وسلزنيك يتأثران بنتائج كثير من بحوث عـلم الاجتماع الصناعى التى أجريت خلال ثلاثينيات هـذا القرن فى الولايات المتحدة ، والتى أوضحت بجلاء أهمية العمليات الجماعية غـير الرسـمية وتأثيرها على الروح المعنوية والانتاجية فى الصناعة[٣٧] •

ومن زاوية أخرى حاول بارسونز Parsons تقييم النموذج المثـالى للبيروقراطية موضحا مدى اتساقه الداخلى ، حيث لفت الانظار الى أن فيبر قد عرف الطاقم الادارى فى ضوء الخبرة الفنية من ناحية ، والحق فى اصدار

(36) Selznick, P., «An Approach to the Theory of Bureaucracy», American Sociological Review, vol. 8, 1943, pp. 47-54.

(٣٧) يمكننا أن نجد تناولا شاملا لهذه النقطة فى :
Friedman, Industrial Society, The Free Press, Glencoe, Ill, 1955.

الاوامر من ناحية أخرى • ومثل هذا التعريف قد يعنى أن هناك صراعا داخل التنظيم البيروقراطى ، طالما أنه من المستحيل على الذين يحتلون قمة التسلسل الرئاسى الادارى أن يكونوا فى نفس الوقت مصـــدر الخبـــرة الفنيـــة والاستشارة • والمشكلة التى تنشأ هنا بالنسبة لأفراد التنظيم تتعلق بمصدر السلطة • هل هى سلطة الذين لهم الحق الادارى فى اصدار الاوامر أم سلطة الذين لديهم معرفة فنية أكبر ؟ ولقد حاول ألفن جولدنر Gouldner مناقشة هذه النقطة فى ضوء دراسة أجراها على مصنع أمريكى ، فأوضح أن ثمـــة تناقضا كامنا فى النموذج المثالى يتمثل على وجه الخصوص بين خاصـــيتين أساسيتين هما : التسلسل الرئاسى ، والمعرفة الفنية ؛ أى بين الادارة القائمة على الخبرة الفنية ، وتلك المستندة الى النظام والانضباط • وحينما تتوافر هاتان الخاصيتان فى تنظيم بيروقراطى واحد ، فانه يصعب عليه أن يؤدى نشاطاته فى انسجام واستقرار ، ذلك لأن فرص حدوث الصراع سوف تكون كبيرة[٣٨] • ومعنى ذلك أن بعض خصائص النموذج قد لا تؤدى بالضرورة الى الكفاية والفعالية عندما تهبط الى مستوى الواقع أو تقترب منه • ولقـــد ميز جولدنر بين نوعين من القواعد البيروقراطية : الاول يتصـــف بالطابع الجزائى أو العقابى ، وهى قواعد تتدعم بذاتها وتمنح نفسها طابعا شرعيا دون أن يكون هناك اتفاق أو اجماع عليها من جانب كل الأطراف المعنية • أما النوع الثانى من القواعد فيتصف بالطابع التمثيلى representative • وتظهر هذه القواعد بعد أن يتم الاتفاق عليها ، ذلك أنها تتأسس بطـــريقة ديموقراطية وتستند الى تأييد جماعى من جانب الادارة والعمال[٣٩] • ولقد أوضح جولدنر أن التنظيم البيروقراطى الذى يسود فيه النوع الثانى من القواعد (التمثيلى) يستطيع أن يتجنب ــ بسهولة ــ الصراع الذى قد ينشأ

---

(38) Gouldner, A., Patterns of Industrial Bureaucracy, Glencoe, Ill, 1954.

(٣٩) أشار جولدنر الى نوع ثالث من القواعد البيروقراطية أطلق عليه القواعد المزيفة ، وهى مزيفة لانها مفروضة على التنظيم من هيئة خارجية ، ولكنها ما تلبث أن تلقى معارضة من جانب المديرين والعمال على السواء . Ibid. pp. 182-187.

فيه ، كما أن الانحراف عن هذه القواعد لا يرجع الى تعمد أو اهمال بقدر ما يرجع الى الجهل بهذه القواعد وعدم الالمام بها • ولهـذا يلجأ التنظيم البيروقراطى المستند لهذا النـوع من القواعد الى تدريب العـاملين فيه وتزويدهم بالمعارف المتخصصة ، بدلا من توقيع الجزاءات عليهم •

هذا وقد ثار جدل طويل حول علاقة البيروقراطية بالثقافة • فهنـاك شواهد متزايدة تشير الى أن فعالية القواعد البيروقراطية مرتبطـة بنظرة الافراد اليها واقتناعهم بأهميتها • ففى دراسة شهيرة أجراها بيندكس[٤٠] Bendix أوضح أن من الصـعب الحكم على فعالية أى تنظيم بيروقراطى دون أن نأخذ فى الاعتبار القواعد الرسمية واتجاهات الافراد نحوها • اذ أن كل القواعد البيروقراطية يجب أن تنطبق على حالات معينة ، بحيث يتعين على الموظف أن يصدر حكما على انطباق الحالات على القواعد • وحينما يفعل ذلك فانه يخضع لضغوط معينة تجبره على الالتزام الحرفى بتطبيق القواعد ، مما يقلل من فرص المبادءة • وعلى أية حال فلقد سعى بعض الدارسين الى توضيح حقيقة هامة مؤداها ، أن هنـاك عوامل أخرى ـ غـير القـواعد البيروقراطية ـ تحدد سلوك الموظفين فى أداء أعمالهم ، وأنهم يتعرضون لمواقف معينة يتعين عليهم أن يتخذوا قرارات شخصية بصـددها • واذن فالقضية لا تتعلق فقط بتطبيق الموظفين للقواعد على الحالات المختلفة ، وانما تتعلق أيضا بالاحساس بالمسئولية كما يقول كارل فريدريك[٤١] Friedrich والى هذه النقطة ذهب كوربوز Corpuz حين أشـار الى أن الاحسـاس بالمسئولية ينبع من ارتباط الموظفين بقيم واتجـاهات توجد خارج نطـاق الجهاز الادارى • كذلك نجد بيتربلاو Blau يتوصل الى نتائج مشابهة عند مناقشته لمفهوم الادارة الرشيدة ، حيث يؤكد أنه فى بيئة متغيرة فان تحقيق الأهداف التنظيمية يتوقف على التغـير الذى يمكن أن يطـرأ على البنـاء

---

(40) Bendix, R., Higher Civil Servants in American Society, University of Colorado Studies, Blouder, Clorado, 1949.

(41) Friedrich, K., «Some Observations on Weber's Analysis of Bureaucracy», in Merton, R., Reader in Bureaucracy, op cit. pp. 27-33.

البيروقراطى • وعلى ذلك فانه يصعب تحقيق الفعالية بربط الموظف بمجموعة من القواعد الجامدة • والوسيلة الوحيدة والممكنة لتحقيق الفعالية — فى نظر بلاو — هى ربط الموظف بالأهـداف العامة للتنظيم البيروقراطى وادراكه المستمر للتغـيرات المحتملة(٤٢) • واسـتنادا الى شـواهد واقعية ذهب ستنشكومب Stinchcombe الى أن المعايير المهنية التى تحكم صناعة البناء والتشييد فى الولايات المتحدة تسهم بالفعل فى ظهور أداء أفضل للعمل ، وأن كثيرا من هذه المعايير لا تتفق مع تصور فيبر عن الادارة الرشيدة كاستمرار الادارة ، والتسلسل الرئاسى ، والملفات(٤٣) •

ويمكننا أن نجد تدعيما اضـافيا للانتقادات السـابقة اذا ما تناولنا الدراسات التى أجريت على البيروقراطيات فى مجتمعات غير غربية • ففى دراسة لى على مصنعين مصريين ، اتضح أن القيم الثقافية والاخلاقية تلعب دورا واضحا فى انجاز الاعمال الادارية والفنية ، وان الادارة فى المصانع المصرية لاتعرف التمييز الواضح بين الاداريين والاستشاريين ، وان كانت مع ذلك تشهد — بطبيعة الحال — كثيرا من العناصر البيروقراطية التى أشار اليها فيبر • كذلك أوضحت دراستنا أن قضايا علاقات القوة والتغير والصراع تمثل مدخلا هاما لدراسة الديناميات البيروقراطية • ففى أحد المصنعين كانت العناصر البيروقراطية تتغير الى حـد بعيد بفعـل الضـغوط التكنولوجية والسياسية والاقتصادية التى صاحبت التحول من الاعتماد على دول الكتلة الشرقية الى دول الكتلة الغربية فى الخمسينيات(٤٤) • كذلك أوضح برثيوس Presthus أن مفهوم البيروقراطية عند فيبر قد جعله يتوصل الى افتراضات عن الدوافع الانسانية لا وجود لها فى المجتمعات غير الغربية • ففى المصانع التركية لم تكن الحوافز الاقتصادية والمادية تؤدى نفس الوظيفة التى تؤديها

(42) Blau, P., The Dynamics of Bureaucracy, University of Chicago Press, Chicago, 1955, p. 201.

(43) Stinchcombe, A., «Bureaucratic and Craft Administration of Production : A Comparative Study», Administrative Science Quarterly, vol. 4, 1959, pp. 168-187.

(44) El-Husseni, S; Organizational Dynamics : A Comparative Analysis of Industrial Egyptian Organizations : Die Dritte Welt, May, 1976.

فى المصانع الغربية(٤٥) • وبنفس الكيفية نجــد الابالومبارا La Palombara يبدى اعتقاده بأن الدول النامية قد تجد الاساليب الادارية المتبعة فى روسيا والصين أفضل من تلك المتبعة فى العالم الغربى(٤٦) •

وفضلا عما سبق نجد بعض الدارسين المعاصرين يناقشون قضية أرتباط البيروقراطية بالترشيد ويثيرون تســاؤلات عديدة • فلقد أشــار جولدنر Gouldner الى أنه لو سلمنا بأن البيروقراطية ــ كما تصورها فيبر ــ مرتبطة بالترشيد ، فليس هناك ما يمنع من ارتباط الترشيد بنظم ادارية أخرى(٤٧) • كذلك أوضــح كونستاس Constas أن فيبر قد سلم ــ دون مبرر ــ بأن الطاقم الادارى الذى يخدم القائد الملهم سوف يتحول الى بيروقراطيــة رشيدة(٤٨) • كما أن بايبس Pibes قد رفض تفسير فيبر للثورة الروسية فى سنة ١٩٠٥ ، ذاهبا الى أنه (أى فيبر) قــد بالغ فى قدرة البيروقراطيــة القيصرية على فهم احتمالات الثورة والتنبؤ بها • ويميل بعض البــاحثين المعاصرين الى تصعيد حملة الهجوم على تصور فيبر للبيروقراطية الرشيدة • فعلى سبيل المثال نجد كريل Creel يؤكد أن هذه البيروقراطية ليست ظاهرة حديثة ، وأن معظم خصائص النموذج المثالى قد تحققت فى الصين قبل الميلاد بقرنين من الزمان • وبغض النظر عن خاصية الترشــيد ، فان بعض العلماء المحدثين يميلون الى الاعتقاد بأن فيبر قد بالغ فى وصف العالم الحــديث بالطابع الادارى البيروقراطى • كما نجد مورو بيرجر Berger فى دراســته عن البيروقراطية المصرية الحديثة ، وبيك Beck فى دراسته عن البيروقراطية

(45) Presthus, R., «Weberian V. Welfare Bureaucracy in Traditional Society», Administrative Science Quarterly, vol. 6, 1961, pp. 1-24.

(46) La Palombara, J. (ed.) Bureaucracy and Political Development, Princeton University Press, Princeton, 1963.

(47) Gouldner, A., «Metaphysical Pathos and the Theory of Bureaucracy», American Journal of Sociology, vol. 49, 1955, pp. 496-507.

(48) Constas, H. «Max Weber's Two Conception of Bureaucracy», American Journal of Sociology, vol. 63, 1957, pp. 400-409.

فى دول أوربا الشرقية ، يؤكدان أن الادارة فى هذه الدول لا تسير وفقـا للنموذج المثالى الذى تصوره فيبر(٤٩) •

ولقد دفعت هذه الانتقادات بعض الدارسين الى تجنب النظرة الجامدة للنموذج المثالى للبيروقراطية ، والسعى لاجراء دراسـات واقعية بهـدف الكشف عن أهم الخصائص التى تميز النظم الادارية المعاصرة • ففى مقال لفريدريك Friedrich نجده يقارن بين الاجهزة الادارية المركزية فى انجلترا وفرنسا وبروسيا والمستعمرات الامريكية والولايات المتحدة ، ثم يتوصل الى أن هناك ست خصائص مشتركة بين هذه الاجهزة هى : مركزية الاشراف ، وتباين الوظائف ، ومؤهلات الوظيفة ، والموضوعية ، والدقة ، والاستمرارية، وأخيرا السرية • ولقد توصل فريدريك من ذلك الى أن هذه الخصائص تشكل مكونات مفهوم البيروقراطية(٥٠) • ومنذ أن نشر هذا المقال بدأت الدراسات الواقعية الحديثة تنظر الى خصائص البيروقراطية بوصفها متغـيرات أو أبعاد • فتسلسل السلطة — مثلا — قد يوجـد بدرجات متباينة فى مختلف التنظيمات البيروقراطية ، وقد يرتبط أو لا يرتبط بخصائص أخرى كنظام الملفات • والنتيجة الاساسية التى خلصت اليها هذه الدراسات هى أنه بدلا من النظر الى مفهوم البيروقراطية بوصفه مفهوما شـاملا عاما ، فان بالامكان تحليله الى مجموعة من الأبعاد ، ثم دراستها دراسة مستقلة(٥١) • والملاحظ أن معظم هذه الانتقادات قد انصبت على الجوانب المنهجية للنموذج المثالى • فلقد أوضح بيتر بلاو Blau وريشارد سكوت Scott أن « القراءة المتأنية لفيبر تشير الى أنه قد وصف العناصر « بالبيروقراطية » فى ضوء تحقيقها

(49) Berger, M., Bureaucracy and Society in Modern Egypt, Princeton, Princeton University Press, 1957, and Beck, C, «Bureauracy and Political Development in Eastern Europe», in La Palombara, (ed), Bureaucracy and Political Development, op. cit.

(50) Friedrich, K., «Some Observations on Weber's Analysis of Bureaucracy», op. cit.

(51) Hall, R., «The Concept of Bureaucracy : An Empirical Assessment», American Journal of Sociology, pp. 1963, pp. 32-40.

للفعالية الادارية »(٥٢) • واذن فتحقيق البيروقراطية للفعالية الادارية هو محك « الكمال » المتجسد فى النموذج المثالى •

وفضلا عن هذه الانتقادات المنهجية تعرض مفهوم السلطة عند فيبر لانتقادات عديدة • فلقد ذكر ايتزيونى Etzioni أن كثيرا ما يظهر فى التنظيمات البيروقراطية زعماء ملهمون يشبهون الى حد بعيد أولئك الذين يظهرون فى نمط السلطة الروحية ، ولكنهم — فى هذه الحالة — يسعون الى منح التنظيم طابعا شرعيا واستقرارا • وفضلا عن ذلك فان تمييز فيبر بين أنماط السلطة الثلاثة فيه قدر من التعسف • فالتاريخ يشهد على وجود تنظيمات بيروقراطية توافرت فيها الأنماط الثلاث فى وقت واحد كما هو الحال فى التنظيمات البيروقراطية التى كانت موجودة فى مصر الفرعونية • ولم يكتفى ايتزيونى بهذا المثال التاريخى ، فذهب الى أن التنظيم البيروقراطى الواحد قد يتحول من نمط السلطة الروحية الى نمط السلطة البيروقراطية نتيجة لبعض الظروف • فالسلطة البيروقراطية تسيطر على الجيش فى أوقات السلم بينما تظهر السلطة الروحية بوضوح وقت الحرب ، حيث تلعب الزعامة والقيادة الشخصية دورا بارزا ، وحيث تستبدل الاتصالات المدونة باتصالات شفوية ، وحيث ينتهى الفصل بين الحياة الشخصية والحياة التنظيمية • وأخيرا أوضح ايتزيونى أن ظهور القادة الملهمين ليس مقصورا على الاوضاع التنظيمية العليا ، ولكنه يمكن أن يتحقق أيضا على مستوى بعض الأوضاع التنظيمية العادية(٥٣) •

والواقع أن الانتقادات والملاحظات التى وجهت للنموذج المثالى للتنظيم البيروقراطى لم تقلل من أهميته بوصفه أداة منهجية تعين على فهم الواقع الملموس • ذلك لأن فيبر لم يقدم النموذج بطريقة توحى للبعض باستخدامه استخداما حرفيا جامدا • وآية ذلك ما نلحظه من تفاوت ومرونة فى كتابات

(52) Blau, P. and Scott, R., Formal Organizations, op. cit.

(53) Etzioni, A., Modern Organizations, Prentice-Hall, Inc. Englewood. Cliffs, New Jersey, 1964, pp. 56-57.

فيبر المنهجية ، والمنهج الذى استخدمه بالفعل فى تحليلاته التاريخية • ولقد أوضح مارتنديل Martindale هذه النقطة بجلاء ، حينما أشار الى أن فيبر لم يكن يقارن الظواهر المثالية بالظواهر الواقعية لكى يكشف عن مـدى الابتعاد والقرب بينها ، ولكنه كان يستخدم النموذج المثالى بوصفه أداة للمقارنة التاريخية بين موقفين واقعيين أو أكثر [٥٤] • وفيما يتعلق بالبعـد الايديولوجى لمفهوم البيروقراطية عند فيبر نجد أنه أكد فى غير موضع عمومية البيروقراطية • اذ لم يعد صراع الطبقات هو مدخل دراسة المجتمع ، بل التسليم بضرورة وأهمية التنظيمات البيروقراطية بوصفها أكفأ الوسـائل لتحقيق الاهداف المجتمعية • ولم يعد الاستغلال الطبقى هو محور الاهتمام، بل الاستغلال التنظيمى المتمثل فى البيروقراطيات الكبيرة الحجم وسيطرتها على الفرد والمجتمـع • لكن يبـدو — مع ذلك — أن البعـد الايديولوجى للبيروقراطية أعمق من ذلك بكثير ، مما يدفعنا الى عقد مناقشـة مستفيضة لعلاقة البيروقراطية بالايديولوجية • ومع أن المعتقدات السياسية المختلفة قد اتخذت مواقف متباينة من البيروقراطية ، الا أننا نجد ضرورة للتركيز على موقف الماركسية منها •

(٤)

لعلنا قد لاحظنا أن فيبر قد سعى الى عزل فكرة البيروقراطيـة عن مضمونها السياسى • لكن ذلك لا يعنى أن البيروقراطية قد فقدت جاذبيتها السياسية وارتباطها الوثيق بالايديولوجية • فلقد أبدى بعض الدارسـين اهتماما كبيرا بالدعائم الايديولوجية للبيروقراطية • والواقع أن هذا الاهتمام له ما يبرره ، ذلك أن الايديولوجيات التى تصاغ من أجل دفع الناس نحـو العمل لا تتضمن فقط جوانب انفعالية • ان أحـد السمات الاسـاسية التى تميز الايديولوجيات المعاصرة استنادها الى نظرة شاملة تتناول طبيعة الانسان

(54) Martindale, D., «Sociological Theory and the Ideal Type», in Gross, L. (ed.), Symposium on Sociological Theory, New York, 1959, p. 88.

والمجتمع والكون • كذلك فان من الامور الصعبة على أى عالم اجتماعى أن يستبعد تماما الأساس الايديولوجى لأى قضية يدرسها • ومن الحقائق المألوفة الآن أن الايديولوجيات المعاصرة (كالماركسية) تحاول سد الهوة بين التفكير الايديولوجى والممارسة العملية وعلى الأخص فيما يتعلق بالمنطلقات الفكرية • لذلك ليس غريبا أن نجد القادة السياسيين يعلنون تبنيهم للحقائق العلمية الاكاديمية ، فى الوقت الذى يحاول فيه الاكاديميون ادراك الاهداف السياسية لدراساتهم • وفى ضوء هذه الافكار يمكننا تناول التصور الماركسى للبيروقراطية بوصفه تصورا مقابلا لذلك الذى قدمه فيبر •

ولعل أول ما يمكن أن يقال فى هذا المجال ان ماركس لم يخصص دراسة متكاملة لتناول ظاهرة البيروقراطية ، وان كنا نستطيع التعرف على تصوره لها من خلال نسقه الفكرى العام • ولقد كان نقد ماركس لفلسفة هيجل Hegel أول مناسبة قدم فيها تصوره للبيروقراطية • ذلك أن هيجل كان قد ذهب الى أن الدولة تمثل التعبير النهائى عن المصالح العامة ، وأنها بذلك تتميز عن المصالح المنفصلة والمستقلة لأفراد المجتمع المدنى • وعلى ذلك فان مهمة الاجهزة التنفيذية اتخاذ القرارات التى تحدد طبيعة هذه المصلحة العامة • ولما كان أى فرد لا يستطيع — بحكم طبيعته — أن يتخذ قرارات بشأن المصلحة العامة ، فان الموظفين الذين تلقوا تعليما كافيا يستطيعون اتخاذ هذه القرارات خاصة اذا ما تخلوا عن مصالحهم وأهوائهم الشخصية• ولقد حدد هيجل بعد ذلك عاملين رئيسيين لضمان عدم تجاوز قرارات الموظفين حدود المصلحة العامة : الاول هو تسلسل السلطة ، والثانى هو استقلال الهيئات والمجتمعات المحلية التى تعبر عن المصالح الخاصة للجماعات المختلفة• والى جانب هذين العاملين أكد هيجل أن قيم واتجاهات الموظفين أنفسهم تتضمن عناصر تؤكد العدالة والغيرية • اذ أن هؤلاء الموظفين يشكلون الجزء الأهم من الطبقة الوسطى ، تلك التى تمنح الامانة والذكاء قيمة كبيرة(٥٥) •

---

(55) Hegel, G. W., Hegel's Philosophy of Right, translated by T. M. Knox, Oxford University Press, London, 1942.

والواقع أن نقد ماركس لأفكار هيجل عن البيروقراطيــة كان نقــدا مريرا[٥٦] • فلقد أوضح أن ما قاله هيجل لا يستحق أن يوصف بالتحليل الفلسفى • انه لا يعدو أن يكون تكرارا للنصوص القانونية البروســية • والملاحظ أن ماركس كان يستخدم كلمة « البيروقراطيــة » باســتخفاف شديد • فهى — عنده — تشير الى كل عناصر تسلسل السلطة التى حددها هيجل بما فى ذلك الهيئات الاستشارية ، وهى أيضا تعنى النظام الادارى ذاته فضلا عن الموظفين الذين يطبقون هذا النظام • وفى بعض الاحيــان كان ماركس يركز على دراسة الموظفين مطلقا عليهم مصطلح «البيروقراطيين»، كما نجده يبدى اعتراضه على الطريقة التى تناول بها هيجل علاقة الدولة بالمجتمع • اذ أنه (أى هيجل) قد أكد الانفصــال الواضــح بين الدولة والمجتمع ، بحيث تعبر الدولة عن المصالح العامة ، بينما يتشكل المجتمع من المصالح الخاصة ، ثم يعود التآلف بينهما من خلال نظام تسلسل السلطة ، واستقلال الهيئات والجماعات المختلفة ، والأخلاق السائدة بين الموظفين • وتبدو هذه الصورة مشوهة وغامضة الى حد كبير فى نظر ماركس • فالتعارض النظرى بين المصالح العامة والمصالح الخاصة هو تعارض وهمى يستخدمه البيروقراطيون لخدمة أوضاعهم الشخصية • ويتفق ماركس مع هيجل على أن البيروقراطيين يمثلون العمود الرئيسى للطبقة الوسطى[٥٧] ، لكنه يعود بعد ذلك فيتساءل عن طبيعة التنظيم الذى يمكن ان يعتمد على التوازن بين المصالح المتعارضة التى يمثلها الموظفون من ناحيــة ، والجمــاعات ذات الامتيازات الخاصة من ناحية أخرى • وينتهى ماركس من ذلك الى نقطة

---

(56) See Marx, K., Basic Writings on Politics and Philosophy, edited by L. S. Feuer, Doubleday New York, 1959.

(٥٧) ولقد أوضح ماركس فى مواضــع اخرى أن التنظيمات البيروقراطية لا تشكل طبقة اجتماعية ، وان كان وجودها مرتبط بتقسيم المجتمع الى طبقات . واذن فهذه التنظيمات لا تعدو أن تكون أداة من خلالها تمارس الطبقــة الحاكمة سيطرتها واستغلالها للطبقات الاخرى ، كما أن مستقبل هذه التنظيمات ومصالحها مرتبط أوثق الارتباط بالطبقة الحاكمة والدولة اللتان يبرران بدورهما وجودها . انظر : السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، المرجع السابق ، ص ٣٨ .

هامة هى ؛ أن السلطة التنفيذية قد تعبر عن كل الناس ، لكن ذلك لن يحدث الا اذا أصبحت المصلحة الخاصة هى مصلحة الجميع ، وهو موقف عسير التحقيق •

والواقع أن نظرية ماركس فى الدولة تتضمن اشارات عديدة لموقفه المحدد من البيروقراطية • ففى مؤلفه « الايديولوجية الألمانية » German Ideology نجده يؤكد أنه على الرغم من استقلال الدولة ، الا أنها فى حقيقتها تنظيم تبنية البرجوازية لضمان ملكيتها ومصالحها[٥٨] • وفى المنشور الشيوعى نجده ينظر الى القوة السياسية على أنها « مجرد قوة منظمة لطبقة واحدة من أجل قهر طبقة أخرى »[٥٩] • ثم يحاول فى « نقده لبرنامج جوتا » الكشف عن ضحالة الافكار الاشتراكية التى لم تفطن الى أن المجتمع القائم كان أساسا لدولة قائمة من قبل ، ولم تفهم أن الدولة لم تكن الوحدة المستقلة التى تمتلك دعائمها الفكرية والاخلاقية والتحريرية • ولقد ظل ماركس يهاجم بعنف الليبراليين والفوضويين والاشتراكيين لانهم اعتقدوا أن اصلاح الدولة أو الغائها يمكن أن يمثل بداية لعهد جديد • وطالما أن الدولة تعتمد على بناء طبقى ، فان الثورة التى يمكن أن تسحق هذا البناء هى القادرة على احداث تغيير سياسى حقيقى • ومع أن موقف ماركس من البيروقراطية كان محددا تماما فى كتاباته ، الا أن هذا الموقف كان فى نفس الوقت انعكاسا لظروف البيروقراطية الاوربية بعامة والألمانية بخاصة • ففى مؤلفه « الايديولوجية الألمانية » نجده يدرك أن البيروقراطية قد نمت فى ألمانيا واكتسبت استقلالا كبيرا بسبب عدم قدرة أى جماعة أو تنظيم على السيطرة على الجماعات أو التنظيمات الاخرى • كما أوضح أن المرحلة الانتقالية فى ألمانيا قد طالت أكثر مما ينبغى ، وأن البيروقراطية لا تزال

---

(58) Marx, K., The German Ideology, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1965.

(59) Marx, K.Engels, F., Manifesto of the Communist Party, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1964.

تخدم مصالح البرجوازية[٦٠] • وفى موضع آخر نجد ماركس يوضح أن صغار الفلاحين فى فرنسا يمثلون مجالا ملائما لنمو البيروقراطية • فبدون وجود أجهزة تربطهم بالحكومة تكون الظروف ملائمة تماما لتدخل سلطة الدولة • ولقد اضطر لويس بونابرت Louis Bonaparte الى احداث اصلاحات اجتماعية حتى يتمكن نظامه السياسى من الصمود ، لكن هذه الاصلاحات لم تكن تمثل الا ضمانا للبرجوازية •

وعلى الرغم من أن ماركس كان واعيا كل الوعى بوجود البيروقراطية فى مجتمعات مختلفة وأنها تخدم طبقات اجتماعية متباينة ، الا أنه آثر الابتعاد عن تقديم تحليل أكثر عمقا لهذه الظاهرة • وتفسير هذا الموقف يسير • فهو يرى أن البيروقراطية لن تمثل مشكلة بعد حدوث ثورة البروليتاريا ، حيث يؤكد فى « المنشور الشيوعى » أن كل عناصر قوة الدولة فى المجتمع الرأسمالى (كالمواصلات ، ورأس المال ، والعقارات ••• الخ) سوف تفقد سحرها السياسى فى المجتمع الشيوعى • كما أن بالامكان — فى ظل هذا المجتمع — أن يكون الالتحاق بالمناصب الادارية قائما على الانتخاب ، وأن المنتخبين سوف يتحملون المسئولية الكاملة فى ادارة المجتمع الشيوعى[٦١] • ومن ذلك يبدو واضحا خطأ الفكرة القائلة بأن ماركس قد أهمل دراسة ظاهرة البيروقراطية لأنه لم يستطع التنبؤ بالتطورات التى شهدها العالم خلال القرن العشرين • ولقد تعرض ماركس بالفعل لانتقادات بعض معاصريه من أمثال باكونين Bakunin الذى ذهب الى أن كل دولة تعتمد — بالضرورة — على نوع من المركزية العسكرية والبيروقراطية ؛ وأن ماركس قد أهمل احتمال ممكن الحدوث وهو أن تتحكم قلة من العمال فى بقية الجماهير فى ظل دولة مركزية قوية[٦٢] • بل ان كارل ويتفوجل Wittfogel قد أوضح

---

(60) Marx, K. Engels, F., German Ideology, op. cit. pp. 238-209.

(61) Maximoff, G. P. (ed.), The Political Philosophy of Bakunin : Scientific Anarchism, The Free Press, Glencoe, III, 1953.

(62) Avineri S., The Social and Political Thought of Karl Marx, 1958, p. 51.

كيف أن دراسة ماركس للمجتمعات الشرقية قد اتصفت بالتشويه بسبب رفضه الاعتراف بأن البيروقراطية تشكل الطبقة الحاكمة حينما تتوافر كل عناصر القوة للدولة •

وأيا كان الامر فان الشيء الواضح هو أن ماركس قد اضطر الى وضع مشكلة البيروقراطية فى اطار نظريته عن صراع الطبقات • وحينما فعل ذلك نظر الى التنظيمات البيروقراطية بوصفها شكلا أو صورة من صور الاغتراب، ذلك المفهوم الذى احتل مكانة أساسية فى فكر ماركس ، والذى استخدمه للاشارة الى افلات القوى الاجتماعية من سيطرة الانسان لكى تحقق بعد ذلك وجودا مستقلا عنه ، ثم تتحول بعد ذلك لتصبح ضد مصلحة الانسان الذى هو خالقها • ولقد طبق ماركس هذا المفهوم على التنظيمات البيروقراطية ، حيث ذهب الى أنه ما أن تحقق هذه التنظيمات استقلالها وقوتها ، حتى يشعر الناس بقوتها السحرية التى تتمتع بها ، وأنها برغم ما تؤديه من تنظيم فى الحياة الاجتماعية ، الا أنها ما تلبث أن تصبح خارجة عن نطاق سيطرتهم وفهمهم ، لانها تتخذ شكلا من أشكال التقديس يقابل ما يستشعره الناس من ضعف • وهذا ما يبدو واضحا فيما يخلقه العاملون فى التنظيمات البيروقراطية من أساطير خاصة ورموز تسم أوضاعهم بطابع أسطورى • وفضلا عن ذلك فانهم يميلون الى افتقاد القدرة على المبادءة والتخيل الخلاق ، وتحمل أعباء المسئولية ، فضلا عما يحدث بينهم من صراعات من أجل الترقية والتقدم وما يرتبط بذلك من تعلق طفيلى بالرموز والمكانة والهيبة[٦٢] •

والمؤكد أن تصور ماركس للبيروقراطية قد خلق مشكلة مزدوجة للذين تبنوا أفكاره من بعده • اذ أن هذا التصور لا يشكل — فى حد ذاته — موجها لكيفية تنظيم الحزب الثورى بعد اقامة المجتمع الاشتراكى • كما أن اقامة الدولة الاشتراكية قد يؤدى الى ظهور ملامح النظام الادارى السائد فى

---

(٦٢) السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .

المجتمع البرجوازى ، وتلك مشكلة ليس من اليسير الوصول الى تفسير نظرى لها . ولقد واجه لينين Lenin هذه المشكلة المزدوجة محاولا حلها ، ولكنه فى كل مرحلة كان يواجه بمعارضة شديدة . ان أحد الاسهامات البارزة التى قدمها لينين قدرته على تشكيل التنظيم واقامة بناء نظرى قادر على تفسيره . فهو يعتقد أن التنظيم الرشيد شرط ضرورى للقبض على مقاليد السلطة وتدعيم المراحل الاولى للمجتمع الاشتراكى[٦٣] . ومن الطبيعى أن يكون تصور ماركس للبيروقراطية قد سبب بعض الحيرة للينين حينما حاول معالجة هذه الظاهرة . فقبل ثورة ١٩١٧ حاول لينين فى مناسبات عديدة ازالة المضامين السيئة للبيروقراطية . ففى سنة ١٩٠٤ أكد أن الحزب الثورى يجب أن يستند الى قواعد « بيروقراطية » رسمية ، كما أطلق على البيروقراطية « المبدأ التنظيمى » الذى تستند اليه الحركة الديموقراطية الاشتراكية الثورية[٦٤] . ويبدو أن موقف لينين هذا كان نتيجة طبيعية للخلاف حول الأساليب التكتيكية الذى ظهر فى مؤتمر الحزب فى سنة ١٩٠٣ بين جماعة لينين التى أطلق عليها منذ ذلك الوقت البولشفيك ، والجماعة المعارضة التى أخذت اسم المينشفيك . غير أن اصرار لينين على القواعد والنظام لم يكن مستندا تماما الى اعتبارات تكتيكية . فلقد أوضح بيرنشتاين Bernstein أن الخطر الاكبر الكامن فى الثورة هو ظهور البيروقراطية ، مؤكدا بعض الجوانب التى أشار اليها ماركس وأهمها ضرورة الحكم الذاتى[٦٥] . كذلك نجد روزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg تهاجم لينين مباشرة فتتهمه بمحاولة اخضاع الحركة العمالية الناشئة لصفوة فكرية تحت غطاء بيروقراطى[٦٦] . ولقد ظلت روزا على موقفها هذا حتى بعد قيام الثورة الروسية ، فهاجمت

---

(63) Lenin, V. «The State and Revolution», in Collected Works, vol. 25, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1964.

(64) Anderson, T., Masters of Russian Marxism. Appleton-Century Crofts, New York, 1963.

(65) Cole, G., History of Socialist Thought, Macmillan, London, 1963.

(66) Luxemburg, R., «Leninism or Marxism», in the Russian Revolution and Leninism and Marxism, edited by Wolfe, B. London, 1961, p. 906.

سلب حرية الحديث والحوار ، وعدم وجود انتخابات ، والغاء التمثيل الحر •
ومن زاوية أخرى هاجم كارل كاوتسكى Kautsky أفكار لينين • فلقد قبل حتمية التنظيم البيروقراطى ، لكنه أراد أن يعيد توجيه جهاز الدولة نحـــو خدمة مصالح العمال(٦٧) •

ولقد حاول لينين فى مؤلفــه « الدولة والثــورة » الرد على هــــذه الانتقادات • فهو يؤكد ـــ من ناحية ـــ ضرورة سحق الجهاز الادارى القديم للدولة ، لكنه ـــ من ناحية أخرى ـــ يصر على ضرورة وجود ضبط مركزى قوى ، وديكتاتورية بروليتارية تستطيع قيادة الحركة الثورية • والنقطة التى حرص على ابرازها هى أن الشكل الجديد للدولة بعد الثورة يختلف تماما عن الشكل السابق عليها • ففى الدولة الاشتراكية توجد حكومة ، لكن ادارتها هى من اختصـــاص البروليتاريا المسلحة ، كما أنها تستند الى نظم نيابية لكنها ليست مماثلة للبرلمانات الغربية(٦٨) •

ولكى يفرق لينين بين موقفه وموقف كاوتسكى اضطر لتوضيح فكرته عن البيروقراطية ، حيث أوضح أن كاوتسكى قد أخفق فى فهم نقطة هامة هى أنه اذا كانت التنظيمات الحديثة تتطلب الدقة والنظام ، فليس من الضرورى أن يتحقق ذلك عن طريق موظفين معينين يمتلكون السلطة والامتيـــازات • وهكذا نجدلينين يفصل مبادئه التنظيمية عن فكرة البيروقراطية ، ثم يربط امكانية تحقيقها بوجود جهاز ادارى بروليتارى جديد • ويبـــدو أن موقف لينين هذا قد استند ـــ على نحو ما ـــ الى كتابات ماركس عن كوميون باريس فى سنة ١٨٧١ • ففى هـــذا الكوميون كان ممثلو العمال ينتخبون ، وكانت الأجور التى يحصلون عليها لاتزيد عن الأجور التى يحصل عليها العمال • وباختصار كان هناك اشراف جماعى يمارسه كل الناس ، بحيث قد يصبح الشـــخص « بيروقراطيـــا » لفترة معينة دون أن يتحـــول الى اكتســـاب

---

(67) Ibid , «The Russian Revolution», p. 102.

(68) Lenin, V., «The State and Revolution, op. cit. pp. 486-487.

البيروقراطية كخاصية سلوكية[٦٩] .

وحينما اضطر لينين لتفسير ظهور بعض معالم البيروقراطية فى الاجهزة الثورية ، كان يشير الى الفساد الذى أحدثته الرأسمالية قبل الثورة . اذ أن بقايا البيروقراطية قد ظلت قائمة بعد اختفاء البرجوازية[٧٠] . على أن هذا التفسير قد اكتسب أهمية كبيرة بعد الثورة ، خاصة بعد أن ظهر استياء بعض الجماعات من استمرار العناصر البيروقراطية داخل النظام الجديد . وفى ظل الازمة التى نجمت مباشرة بعد نشوب الثورة ، لم يكن البرنامج الذى قدمه لينين عن الادارة البروليتارية يبدو واقعيا . ففى مؤتمر الحزب التاسع الذى عقد فى سنة ١٩٢٠ ظهرت انتقادات عديدة « للمركزية البيروقراطية »[٧١] . وفى المؤتمر العاشر للحزب طالب العمال ببرنامج للاصلاح يقوم على طرد العناصر غير البروليتارية من الادارة ، وانتخاب الافراد الذين يشغلون الوظائف الادارية ، وكبح جماح البيروقراطية داخل الحزب[٧٢] . وفى مواجهة ذلك كان على لينين أن يقر بأن الجهاز الادارى القديم لم يتحطم تماما ، مما دفعه فى المؤتمر الحادى عشر للحزب الى الاعتراف بعدم فعالية الادارة السوفيتية ، وأن ذلك لا يعود الى نقص فى مبادئه التنظيمية بقدر ما يعود الى بقايا النظام القديم أو « الثورة المضادة » على حد تعبيره . فالبيروقراطية نظام ادارى له جذور عميقة فى مجتمع ما قبل الثورة بحيث يصعب القضاء عليه فى فترة قصيرة[٧٣] . والمحقق أن ستالين Stalin قد استجاب لهذه الحقائق . ففى سنة ١٩٢٥ نجده يعترف بأن هناك خطرا يتهدد الحزب الشيوعى وهو افتقاد سيطرته على أجهزة

---

(69) Ibid., p. 481.

(70) Ibid., pp. 486-487.

(71) Daniels, R., The Conscience of the Revolution : Communist Opposition in Soviet Russia, Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1960, pp. 115-118.

(72) Anderson, T., Masters of Russian Marxism, op. cit. pp. 179-188.

(73) Meyer, A., Leninism, Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1957.

الدولة ، مما دفعه الى المطالبة فى المؤتمر السادس عشر للحزب الذى عقد فى سنة ١٩٣٠ بضرورة خلق نمط جديد للبيروقراطى الشـــيوعى الذى يتبنى مصالح وأهداف الطبقة العاملة • وخـــلال الاربعينيات اســـتمرت الحملة السوفيتية على الاتجاهات البيروقراطية دون جدوى ، وبدا التفسير الوحيد المقبول لذلك هو أن البقايا البرجوازية هى السبب الرئيسى للمشكلات التى واجهتها الادارة السوفيتية[٧٤] •

وربما كان ليون تروتسكى Trotsky من أبرز الذين انتقـــدوا نمـــو البيروقراطية فى الاتحاد السوفيتى • ففى سنة ١٩٢٤ هاجم الجهاز الادارى للحزب الشيوعى ، ذاهبا الى أن اللينينية قد أصبحت قانونا مقدسا ، مما يحول دون المبادءة ويعوق الشجاعة الايديولوجية • ولقد أطلق تروتســـكى مصطلح البيروقراطية على الجهاز الادارى المتميز الذى ظهر فى الاتحـــاد السوفيتى ، موضحا كيف أن الموظفين الروس قـــد بدأوا يقيمون نظـــاما للمكانات الاجتماعية مشابها لذلك الذى يوجد فى المجتمعات الغربية ، وأنهم قد بدأوا يستغلون الدولة لخدمة مصالحهم الشخصية • والفارق الوحيد بين ما يحدث فى المجتمع السوفيتى وما يحدث فى المجتمـــع الغربى — فى نظر تروتسكى — هو أن البيروقراطية السوفيتية تتبنى التقاليد البرجوازية دون وجود برجوازية وطنية[٧٥] • ويقودنا هذا النقد الى تساؤل يتعلق بصميم النظرية الماركسية وهو : الى أى مدى تشكل مثل هذه البيروقراطية طبقة حاكمة ؟ فعلى الرغم من أن تروتسكى قد أقر بأن البيروقراطية تتحكم فى وسائل الانتاج ، الا أنه قد إعترف — فى نفس الوقت — بأنها تفتقد السمة الاساسية والمميزة للطبقة ألا وهى الملكية • وعلى ذلك تصبح البيروقراطية أشبه ما تكون بجماعة اجتماعية متطفلة على المجتمع الاشتراكى •

ويمكننا أن نجد صدى لافكار تروتسكى فى بعض الكتابات الحديثـــة

---

(74) Cole, G., History of Socialist Thought, op. cit. p. 112.

(75) Trotsky, L., The Revolution Betrayed, Doubleday, New York, 1959.

نسبيا • فلقد أوضح برونو ريزى Rizzi أن هناك طبقة جديدة قد ظهرت الى حيز الوجود فى الاتحاد السوفييتى طالما أن البيروقراطية ـ بما تحصل عليه من مرتبات عالية ـ قد أصبحت المالك الوحيد لفائض القيمة الذى يحققه العمال • ويبرهن ريزى على وجود هذه الطبقة الجديدة بتأكيد السمة المميزة للمجتمع السوفيتى والتى أطلق عليها « الجماعية البيروقراطية »(٧٦) • ويبدو أن ريزى قد أخذ هذا المصطلح من شاختمان Schachtman الذى رفض فكرة أن يكون الاتحاد السوفيتى دولة اشتراكية أو رأسمالية(٧٧) • ولقد عارض الأخير القضية الذاهبة الى أن المجتمعات الحديثة تميل الى الاتجاه نحو شكل ادارى واحد ، مما يوحى بأنه يتخذ موقفا مستقلا عن ذلك الذى اتخذه ريزى • ولقد ذهب شاختمان الى أن الولايات المتحدة والدول الفاشية (كألمانيا وايطاليا) تخضع جميعها لسيطرة جماعات من المتخصصين والفنيين• كذلك أوضح أن كل المجتمعات المتقدمة تتجه نحو مصير واحد ، وأن الماركسيين كانوا يخدعون أنفسهم حينما اعتقدوا أن بامكان البروليتاريا القبض على مقاليد السلطة دون خلق بيروقراطية • ومع ذلك فلقد كان ريزى يعتقد أن المهارة التى يتمتع بها البيروقراطيون يمكن أن تسهم فى النهوض بالظروف المادية للحياة ، حينما تضيق الهوة بينهم وبين الطبقة العاملة • ولا شك أن تأكيد ريزى وشاختمان لدور المعرفة المتخصصة فى الادارة والاقتصاد يعكس أحد الملامح المميزة للقرن العشرين •

ومن أقوى الانتقادات التى وجهت الى التصور الماركسى للبيروقراطية تلك التى ضمنها ميلوفان ديجلاس Djilas مؤلفه « الطبقة الجديدة »(٧٨) The New Class • والواقع أن أهمية هذا الكتاب لا تعود الى كون مؤلفه

---

(76) Rizzi, B., The Bureaucratization of the World, London, 1939.

(77) Schachtman. M., The Bureaucratic Revolution, Donald Press, New York, 1962.

(78) Djilas. M., The New Class, Thames and Hudson, London, 1957.

ويكاد يدور مضمون هذا الكتاب حول المعضلة التى واجهتها الماركسية (كنظرية وممارسة) عند تناول البيروقراطية .

نائبا سابقا للرئيس اليوغسلافى وانه قد قضى فى السجن سبع سنوات . بقدر ما تعود الى الاهمية النظرية التى ينطوى عليها والتى مال البعض الى تجاهلها • ففى مواضع كثيرة يبدى ديجلاس ابتعادا ملحوظا عن المنطلقات الماركسية ، ذاهبا الى أن الدولة الشيوعية تخضع لسيطرة الحزب ، والحزب بدوره ما هو الا بيروقراطية ، والبيروقراطية عبارة عن طبقة طالما أنها تستغل ملكية الدولة وتتصرف فيها • لكن البيروقراطية تعتمد بالاضافة الى ذلك على عاملين هامين : الاول هو القوة ، والثانى هو المعتقدات الايديولوجية الجامدة • والبيروقراطية بحاجة الى هذين العاملين لضمان سيطرتها • والمؤكد أن مجرد هجوم ديجلاس على البيروقراطية لم يكن الشىء الذى أنهى مستقبله السياسى • ففى سنتى ١٩٤٩ و ١٩٥٠ قاد تيتو حملات واسعة ضد النظام السوفيتى متهما ستالين بميوله البيروقراطية • وكنتيجة لذلك نجده يعمل على تنفيذ برنامج يضمن تحقيق اللامركزية ، وتوسيع نطاق الاشراف على كل مستويات اللجان الشعبية • لكن يبدو — مع ذلك — أنه لم تكن هناك أية اختلافات كبيرة بين التصورين السوفيتى واليوغسلافى للبيروقراطية على نحو ما أوضح لابينا[٧٩] Lapenna • ففى كلتا الدولتين كان الاهتمام منصبا على وسائل معالجة الميول البيروقراطية التى ظهرت نتيجة للممارسات الاشتراكية ، وان كانت الاجراءات المستخدمة لتحقيق ذلك فى الدولتين قد اختلفت الى حد ما •

ويبدو أن هذا الموقف المتباين من البيروقراطية قد انتقل الى الصين • فدائما ما كان يندد ماوتسى تونج بالبيروقراطية والرأسمالية ، حتى أن كثيرا من خطاباته وكتاباته لم تخل من الهجوم على ما أطلق عليهم « البيروقراطيين الرأسماليين »[٨٠] • كذلك أشار ماو الى أخطار البيروقراطية فى الحزب الشيوعى ، وان كان قد حذر من الخلط بين بيروقراطية الثورة المضادة ،

---

(79) Lapenna, I., State and law : Soviet and Yogoslav Theory, The Antioch Press, Yellow Springs, Ohio, 1944.

(80) Mao Tse-Tung, The Thoughts of Chairman Mao-Tse-Tung. Anthong Gibbs, London, 1967.

والشكل الثورى الذى يتخذه الحزب • وفى كوبا نجـد كاسـترو Castro يهاجم البيروقراطين الاشتراكيين ، وان كان رينيه ديمون Demont قـد أشار فى دراسة له الى أن القادة الكوبيين يعتبرون الاتجاهات البيروقراطية أمراضا سحرية لا يعرفون لها أسبابا(٨١) • أما جيفارا Guevara فلقد اتخذ من قضية البيروقراطية موقفا رومانسيا بعض الشىء ، حيث اعتبرها — شأن غيرها من القضايا التفصيلية — أمورا كمية لا تنطوى فى حد ذاتها على أهمية كبيرة(٨٢) •

وخلال السنوات العشر الاخيرة بدأ مفهوم البيروقراطية يحتل مكانة متميزة داخل اتجاه اليسار الجديد فى علم الاجتماع ، وهو اتجاه يتأثر — بدرجـة ما — بالمنطلقات الماركسية • فلقد أشـار ليختهايم Lichtheim الى أن أحداث المجر فى سنة ١٩٥٦ قـد أدت بالماركسـيين الى تأكيـد أن البيروقراطية هى المشكلة الاسـاسية التى تواجه المجتمع الجـديد(٨٣) • وخلال أحداث الطلاب فى فرنسا فى سنة ١٩٦٨ كانت شعاراتهم تطالب بان الاشتراكية هى رفض لكل صور البيروقراطية بما تتضمنه من توجيه مركزى وتدعيم للسلطة(٨٤) • لكن يبدو — مع ذلك — أن تصور الطلاب الفرنسيين للبيروقراطية كان أكثر شمولا من التصور الماركسى الكلاسيكى لها • فهى تشير — فى نظرهم — الى تسلسل السـلطة ، والتخصص ، والاغتراب • ومن الواضح أن المعنى الذى قصده الطلاب بالبيروقراطية قد تأثر بعـلم الاجتماع الحديث قدر تأثره بفكر ماركس • ويبدو أن هناك تغيرات طرأت على الاتجاه اليسارى الجديد خلال السنوات القليلة الاخيرة • فهناك شواهد تشير الى أن بعض مفكرى هذا الاتجاه قد بدأوا يتفادون المواجهة الكاملة

---

(81) Demont R., Lands Alive, The Merlin Press. London 1965.

(٨٢) انظر تحليلا مقارنا للبيروقراطية والثورة فى :

Draper, T., Castroism, Theory and Practice, 1965, pp. 192-197.

(83) Lichtheim, G., Marxism in Modern France, Columbia University Press, New York, 1966.

(84) Sauvageot, J., Geismar, A. Cohen-Bendit, D The Student Revolt, Panther Books, London, 1968, p. 66.

مع مشكلة البيروقراطية • ففى فرنسا والولايات المتحـدة بدأ الطـلاب يوجهون اتهاماتهم الى البناء التنظيمى أكثر مما يوجهونها الى البنـــاء الطبقى[٨٥] • غير أن أهم ما يفتقده هذا الاتجاه هو الاطار النظرى الواضح والمتماسك الذى يمكنهم من رؤية مشكلة البيروقراطية من زاوية أكثر شمولا ونضجا • ولا نستطيع فى حقيقة الامر التكهن بما اذا كانت هذه الصياغات الايديولوجية تستطيع ايجاد أشكال سياسية جديدة • لكن الشىء الذى يبدو واضحا أن مشكلة البيروقراطية كانت سببا فى ظهور خلافات فكرية واضحة : خلافات بين البولشفيك والمنشفيك ، بين تروتسكى ولينين ، بين ســتالين وتيتو ، وأخيرا بين تيتو وديجلاس •

(٥)

وعلى الرغم من أن علماء القرن التاسع عشر قد تركوا لنا تصــورات عامة عن البيروقراطية ، الا أن علماء القرن العشرين قد أخفقوا فى الوصول الى معنى أو تعريف محدد لها • ولا شك أن ذلك يضعنا فى موقف صعب ، خاصة اذا ما أردنا تصنيف المعانى الحديثة للبيروقراطية[٨٦] • ومع ذلك فبالامكان معالجة المفهوم طبقا للقضايا والنظريات العامة المرتبطة به • فاذا ما نظرنا الى مفهوم البيروقراطية ، وجدناه مرتبطا بالنظريات التى تؤكد نمو المهن ، وتباين الوظائف الاجتماعية ، واغتراب الانسان عن العمــل ، ونمو الاتجاهات الاوليجاركية ، فضلا عن عملية الترشيد • كما نجده مرتبطا أيضا بنظريات أكثر تحديدا تتناول القواعد وتسلسل السلطة والاتصال والمشاركة واتخاذ القرارات فى مختلف التنظيمات • ومن المتوقع ألا نجد اتساقا فى معنى مفهوم البيروقراطية بالنسبة لهذه النظريات • فاذا كنا نجد بعض هذه النظريات تنظر الى البيروقراطية على أنها سلطة الموظفين ، الا أنها تختلف

((85) Jacobs, P. Landan, S. (eds.), The New Radicals, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1966.

(٨٦) انظر الدراسات المختلفة الواردة فى :
Merton, R. etal., (eds), Reader in Bureaucracy, op. cit.

بعد ذلك حول ما اذا كان نمو هـذه السـلطة أمرا متوقعا فى المجتمعـات الصناعية • كذلك نجد نظريات توافق على أن نمو القواعد الرسمية قد يعوق الاتصالات الحرة ، لكنها تختلف بعد ذلك حول ما اذا كانت هذه القـواعد الرسمية تمثل البيروقراطية • ولا يعنى ذلك ــ بطبيعة الحال ــ القول بأن اختيار الدارسين للمفهوم لا يرتبط بطبيعـة النظريات الاجتمـاعية التى يقدمونها • انه يعنى ــ على وجه التحديد ــ وجود خلافات حادة حـول استخدام هذا المعنى مما قد يعوقنا عن التوصل الى استنتاجات عامة • وقد يكون من اليسير علينا هنا أن نعرض لمئات التعريفات الحديثة التى تناولت البيروقراطية ، لكن ذلك لن يؤدى الى تدعيم البحث فى هذا الموضوع بقدر ما يؤدى الى تشتيته وغموضه • ومن هنا تبدو الحاجة ماسة لمناقشة المعانى الاساسية السائدة لمفهوم البيروقراطية ، بحيث تبدو لنا فى نهـاية الامر وجوه الاتفاق والاختلاف بينها •

ومن المعانى الشائعة للبيروقراطية أنها تمثل تنظيما رشيدا • ويستمد هذا المعنى أهميته من وجهة نظر فيبر • وكنتيجة لذلك نجد بعض الدارسين يحاولون الكشف عن العلاقة بين فكرة الترشـيد كمـا عبر عنها فيبـر ، والخصائص المعينة التى يتضمنها النمـوذج المثـالى للبيروقراطية • ومن النتائج المألوفة الآن أنه ليست هناك علاقة ضرورية بين هذه الخصائص من ناحية ، والترشيد من ناحية أخرى • ويمثل هذا الاتجاه بيتر بلاو Blau الذى أوضح « أن فيبر قد نظر الى البيروقراطية بوصفها وسيلة اجتماعية لتحقيق أقصى درجات الفعالية ، وبوصفها شكلا للتنظيم الاجتماعى يتميز بخصائص معينة »[٨٧] • وفى موضع آخر يذهب بلاو الى أن من المفضـل تعريف البيروقراطية بأنها « تنظيم يؤدى الى زيادة الفعالية الادارية »[٨٨] • كذلك نجد فرانسيس Francis وستون Stone يذهبان الى أن «مفهـوم البيروقراطية يشير ــ من الناحية الفنية ــ الى ذلك الشكل من التنظيم الذى

---

(87) Blau, P., The Dynamics of Bureaucracy, rev. edn. 1963, p. 251.

(88) Ibid. p. 60.

يعمل على تحقيق الفعالية والاستقرار »[٨٩] • ويبدو أن هذا التعريف قد اكتسب شهرة وذيوعا خلال السنوات الاخيرة • وللاستشهاد على ذلك يمكننا الاشارة الى تعريف ليونارد Leonard الذى قصد بالبيروقراطية ذلك « التنسيق الرشيد والواضح للنشاطات الموجهة نحو تحقيق أهداف التنظيم »[٩٠] • وأحد نتائج ذلك أن عالم الاجتماع قد أصبح مقتنعا بأن تصوره عن البيروقراطية قد أصبح مناقضا تماما للتصور الشعبى عنها . ذلك الذى يربطها بعدم الكفاءة الادارية • ولتبرير ذلك يضطر عالم الاجتماع لتوضيح الجوانب القيمية التى ينطوى عليها التصور الشعبى ، ثم يؤكد أن تصوره هو التصور « الفنى » أو « الحيادى » ، الى أن يترك القارىء يستنتج أن الاحكام المتعلقة بعدم الفعالية الادارية هى أحكام قيمية ، وأن الاحكام المتعلقة بالفعالية متحررة من القيمة ، أو بتعبير آخر موضوعية •

ومن الأمور الطريفة التى تستحق التسجيل هنا أن كثيرا من علماء الادارة قد تبنوا هذا التصور السوسيولوجي للبيروقراطية[٩١] • فلقد أكد هيربرت سيمون Simon الجوانب المعيارية لفكرة الترشيد ، مشيرا الى أن من الصعب تبنى أى اجراء ادارى دون أخذ الفعالية التنظيمية فى الاعتبار[٩٢] • غير أن هناك مبررات عديدة تدفع الى الشك فى امكان دراسة الترشيد دراسة موضوعية • فما يعد رشيدا فى موقف معين قد لا يعد رشيدا فى موقف آخر ، وبالتالى تنشأ مشكلة ايديولوجية ومنهجية قد يجد بعض العلماء تجاوزها عن طريق التقليل من شأنها أو تجاهلها • وربما كان بيتر بلاو Blau من العلماء القلائل الذين اهتموا بهذه النقطة • ففى مؤلفه « ديناميات البيروقراطية » Dynamics of Bureaucracy يذهب الى أن

---

(89) Francis, and Stone, R., Service and Procedure in Bureaucracy, op. cit. p. 3.

(90) Leonard, P., Sociology in Social Work, Routledge and Kegan Paul, London, 1966.

(91) Stewart, R., The Reality of Management, Heinemann, London, 1963.

(92) Simon, H., Administrative Behavior, Macmillan, New York, 1957.

بالامكان الحكم على مدى رشد الادارة فى ضوء قدرتها على التحقيق المستمر للأهداف التنظيمية[٩٣] • ويقودنا ذلك الى مناقشة المنطلق الذى فى ضوئه يجب أن يناقش عالم الاجتماع أى نظـام اجتماعى • فعـالم الاجتمـاع القانونى ــ مثلا ــ لا يهتم بتطوير القواعد القانونية فى حد ذاتها ، ولا يعرف القانون بأنه ذلك الذى يتفق مع مبادىء العدالة ؛ انه بدلا من ذلك يتبنى موقفا خارجيا ثم يدرس تلك المواقف التى يطبق فيهـا الناس القـواعد القانونية • ويمكننا أن نجد نظيرا لهذا الموقف فى دراسة البيروقراطية • فثمة فارق كبير بين البيروقراطية بوصفها « تنظيما رشيدا » ، وبين البيروقراطية بوصفها تنظيما يطبق فيه الناس معايير الترشيد على أفعالهم وتصرفاتهم[٩٤] •

وفى مقابل التصور السابق نجد تصورا مناقضا يؤكد عـدم فعـالية البيروقراطية • ولعلنا قد لاحظنا أن تصور البيروقراطية بوصـفها تنظيما رشيدا قد شاع فى ألمانيا داخل الصفوة الاكاديمية خلال القرن التاسع عشر ، وبدا ذلك واضحا فى كثير من الكتابات التى أشرنا اليها من قبل • وكرد فعل لذلك ظهر التصور الذى يؤكد عدم فعالية البيروقراطية ، وهو تصور يستند الى الفكرة الشائعة لدى الرجل العادى عن الممارسات البيروقراطية • والواقع أن التراث الاجتماعى لم يعرف محاولات فكرية منظمة عبرت بوضوح عن هذا التصور • فعلى سبيل المثال نجد مارشال ديموك Dimock يسـتخدم مصطلح البيروقراطية كنقيض للحيوية الادارية ؛ أى أن البيروقراطية ــ فى نظره ــ هى تعبير مركب عن عدم المرونة والصورية[٩٥] • ويرجع ديموك ذلك الى مجموعة من العوامل منها : الحجم التنظيمى ، وتنوع القواعـد التنظيمية ، والانطواء الجماعى • ولقد أيد ستروس Strauss وجهة نظر ديموك ، ذاهبا الى أن كلمة البيروقراطية تشير الى كل جوانب النقص فى بناء

---

(93) Blau, P., Dynamics of Bureaucracy, op. cit. p. 201.

(94) Albrow, M. «The Study of Organization : Objectivity or Bias ? Penguin Social Sciences Survey, 1968.

(95) Dimock, M., Administrative Vitality, Routledge and Kegan Paul, London, 1960.

التنظيمات ووظائفها • فهى تؤدى الى كبح المبادءة ، وتبديد الجهد والطاقة ، وتفتيت العمليات دون مبرر[٩٦] • وبالاضافة الى ذلك أشار ميرتون Merton — على نحو ما رأينا فى موضع سابق — الى أن مفهوم البيروقراطية يستبعد العمليات غير الرسمية وغير المتوقعة • وربمــا كان كروزييه Crozier من أكثر الذين حاولوا الكشف عن عدم فعالية البيروقراطية مستندا فى ذلك الى دراسة حقلية • فلقد أوضح أن الافراد قد يستخدمون القواعد التنظيمية لخدمة مصالحهم وامتيازتهم ، وأن تدعيم هذه المصــالح والامتيازات من شأنه أن يصيب التنظيم بالجمود ، وتثبيت الاوضاع الراهنة ، مما لا يتلاءم مع احتياجات المشروعات الحديثة القائمة على التكنولوجيا المتقدمة[٩٧] • ويبدو أن كروزييه قد أراد فى دراسته هذه التعبير عن عــدم رضــائه عن أوضاع البيروقراطية الفرنسية وكشف جوانب القصور فيها ؛ وهو ما يبدو واضحا فى التعميمات التى توصل اليها •

وهناك تصور ثالث مستقل — الى حد ما — عن التصورين السابقين ، ينظر الى البيروقراطية بوصفها تعبيرا عن حكم الموظفين • وكان هذا التصور هو الشائع فى الفكر الاجتماعى خلال القرن الثامن عشر على نحو ما رأينا ؛ لكنه ما لبث أن فقد أهميته وذيوعه خلال القرن العشرين • وأحد أســباب ذلك الانجازات الحديثة التى تحققت فى مجال تصنيف النظم السياسية ؛ والاهمية التى اكتسبها مفهوم الديموقراطية بوصفه مفهوما شاملا يستوعب أشكالا جديدة من صور الحكم ، فضلا عن أن تركيز بعض علماء الاجتماع على البيروقراطية بوصفها تنظيما رشيدا قد جعلهم يستبعدون الطابع أو البعد السياسى لها • يضاف الى ذلك موقف الماركسية الرافض للبيروقراطية بوصفها شكلا شياسياً • بيد أن ذلك لم يمنع بعض العلماء من تبنى المفهوم

---

(96) Strauss, E., The Ruling Servants, Allen and Unwin, London, 1961, p. 41.

(97) Crozier, M, The Bureaucratic Phenomenon, Tavistock, London, 1964.

الاصلى الكلاسيكى للبيروقراطية • فعلى سبيل المثال نجد هارولد لاسكى Laski يذهب الى أن مصطلح البيروقراطية يستخدم للاشارة الى « نظام للحكم فيه يمارس الموظفون الاشراف والتوجيه والسلطة على نحو قد يهدد حرية المواطنين العاديين »(٩٨) ، ثم يحاول اقتراح الحلول اللازمة للتغلب على الآثار السلبية والجانبية للبيروقراطية • والى هـذه النتيجة توصـل هيرمان فاينر Finer حيث أكد أن البيروقراطية ــ فى كل الاحوال ــ هى حكم الموظفين ، وأيده فى ذلك شارب Sharp الذى عرفها بأنها « ممارسـة الاداريين الفنيين للسلطة » ، مما دفع وارنوت Warnotte الى القول بأن « التأثير المتزايد الذى يمارســـه الموظفون يشـكل ظاهرة ذات أهميـة سوسيولوجية بحيث نجد من الضرورى تخصيص مصطلح البيروقراطيـة للتعبير عنها »(٩٩) •

ويبدو أن الصعوبة الاساسية التى يواجهها هذا التصور هى عـدم ارتباطه الواضح بالنظرية السياسية العامة وعجزه عن الدخول فى التصنيفات السياسية التى تظهر بين الحين والآخر • فالقانون الحديدى للأوليجاركية عند ميشيلز يبدو وكأنه ينكر تعددية النظم السياسية ، فضلا عن أنه يعالج تأثير الموظفين بطريقة ثابتة خطية تنكر أية احتمالات أخرى • ولو تأملنا التراث الاجتماعى الحديث الذى يؤكد هذا التصور ، وجدناه يدور حول التسـليم بنظرية ميشيلز أو تعديل بعض جوانبها على أحسن تقدير • ولم تعد القضية الهامة الآن تتعلق بمبدأ امتلاك الموظفين للسلطة بقدر ما تتعلق بمدى هذه السلطة وتأثيرها • وهذا يعنى ــ ببساطة ــ أن هناك جماعات أخرى تشارك الموظفين ممارسة السلطة والتأثير على الآخرين • وفى محاولة للاستجابة لهذه النقطة نجد أرنولد برخت Brecht يعرف البيروقراطية بأنها حكم الموظفين، لكنه يميز بعد ذلك بين معنين للسلطة : الاول يتمثل فى الحق القانونى لاصدار

---

(98) Laski, H. «Bureaucracy», Encyclopeadia of the Social Sciences. vol. 3, Macmillan, New York, 1930, pp. 70-74.

(99) Cohen, H., The Demonics of Bureaucracy, Iowa State University Press, Ames, Iowa, 1965.

الاوامر ، والثانى يتمثل فى ضمان انجاز شىء معين[١٠٠] • كذلك نجد كارل ويتفوجل Wittfogel فى دراسـته الكلاسـيكية عن « الاسـتبداد الشرقى »[١٠١] Oriental Despotism يدرس التأثـير البيروقراطى من منظور أكثر شمولا • ولقد أوضح مدى قصور تحليل ماركس للنمط الآسيوى من المجتمعات ، مؤكدا أن البناء الطبقى للامبراطوريات التاريخية (كالصين) كان يعتمد فى المحل الاول على علاقة الناس بالجهاز الادارى للدولة ، وأن الموظفين كانوا يشكلون قلب هذا الجهاز • ويمكننا أن نشير بعـد ذلك الى تصنيف سياسى هام احتلت فيه البيروقراطية وضعا متميزا • ففى كتـاب « القوة والمجتمع »[١٠٢] حدد لازويل Lasswell وكابلان Kaplan عددا من أشكال الحكم السائدة فى المجتمعات أهمها : البيروقراطية (أى الحكم الذى يشكل فيه الموظفون الصـفوة الاسـاسية) ، والارسـتقراطية . والديموقراطية ، والبلوتوقراطية ، والتكنوقراطية • وعلى الرغم من أن هذه المحاولة التصنيفية تفتقر الى أساس واقعى ، الا أنها تشكل خطوة الى الامام نحو تصور البيروقراطية بوصفها تعبيرا عن حكم الموظفين • ولقد دفعت هذه المحاولة مينود Meynaud الى تخصيص مؤلف حديث لدراسة التكنوقراطية، موضحا كيف أن البيروقراطيين الفنيين قد أصبحوا يمارسون دورا كبيرا فى عملية صنع القرار السياسى فى الدول الصناعية الغربية[١٠٣] •

ومن الممكن النظر الى البيروقراطية بوصفها تنظيما يعكس بناء السلطة فى المجتمع • ومن هذه الزاوية يمكن القول ان البيروقراطى أو الموظف يمتلك مصادر قوة كافية للتأثير على سياسة المجتمع • ولقد كان فيبر واضحا حين ذهب الى أن الادارة تعنى ممارسة السلطة ، وأن من السهل التمييز بين فرد

---

(100) Brecht, A. «How Bureaucracies Develop and Function», in Annals of the American Academy of Political and Sciences, vol. 292, 1954.

(101) Wittfogel, K., Oriental Despotism, Yale University Press, New Haven, 1959.

(102) Lesswell, H. Kaplan, A., Power and Society : A Framework for Political Enquiry, Yale University Press, New Haven, 1950.

(103) Meynaud, J., Technocracy, Faber and Faber, London, 1968.

يصدر الاوامر ، وآخر لا يملك الا طاعتها • كذلك كان فيبر دقيقا حين أوضح أن البيروقراطية تتطلب توافر مؤهلات موضوعية ملائمة لمن يشغلون الوظائف ، وكذلك تفرغا كاملا للموظفين ، فضلا عن الفصل الواضح بين مواردهم الخاصة وموارد التنظيم (وبتعبير حديث الفصل بين الملكية والادارة) • واذا ما توافرت هذه الخصائص ، أصبح بالامكان — كما يقول فيبر — التعرف على نمط توزيع السلطة ، وبالتالى تحليل البناء الكلى للبيروقراطية • وهكذا يمكننا الانتقال من تحليل البيروقراطية « كنسق فرعى » الى تحليلها « كنسق كلى » • والواقع أن هذه الافكار قد ترددت كثيرا فى الكتابات السوسيولوجية المعنية بهذا الموضوع بحيث يصعب علينا تحديد عالم معين أو مجموعة من العلماء لهم الفضل فى ترويجها ونشرها • لقد أصبح من المألوف الآن استخدام مصطلحى التنظيم والبيروقراطية كمترادفين • وعلى أية حال فان الذين يستخدمون هذين المصطلحين بمعنى واحد لا يحاولون الاعتماد كثيرا على التعديلات التى طرأت على مفهوم فيبر للبيروقراطية • فعلى سبيل المثال نجد تالكوت بارسونز Parsons يقول : « ان الخاصية البنائية المميزة للمجتمعات الحديثة تتمثل فى وجود تنظيمات كبيرة الحجم نسبيا تؤدى وظائف محددة ، وهى ما نطلق عليها بيروقراطيات »(١٠٤) • كذلك يذهب هينيمان Hyneman الى أن «البيروقراطية كمفهوم مجرد ما هى الا تنظيم كبير ، وكل تنظيم كبير ما هو الا بيروقراطية »(١٠٥) • وبالمثل نجد برثيوس Presthus يؤكد أن « التنظيم الكبير » و « البناء البيروقراطى » تعبيران مترادفان(١٠٦) • وأخيرا نجد ايتزيونى Etzioni يذهب الى أن هناك مرادفات عديدة لمصطلح «التنظيم»،

---

(104) Parsons, T., Structure and Process in Modern Societies. The Free Press, Glencoe, Ill, 1960.

(105) Hyneman, C., Bureaucracy in Democracy, Harper. New York, 1950.

(106) Prethus, R., The Organizational Society, Knopf. New York 1962.

من بينها « البيروقراطية » ، وهو مصطلح عرضه لسوء الفهم[١٠٧] • ويبدو أن إتزيونى كان يقصد بذلك المضامين الشعبية السيئة التى ربطها النـــاس بكلمة البيروقراطية ، كما كان يقصد أيضا اصرار مجموعة من العلماء على أن أى بيروقراطية يجب أن تتطابق تماما مع النموذج المثـــالى الذى حـــدده فيبر • ويميل بعض الباحثين الى النظر الى التنظيم على أنه وحدة اجتماعية تسعى الى تحقيق أهداف محددة ، كما يحاول البعض الآخر توسيع نطاق مفهوم التنظيم وقصر مجال دراستهم على التنظيمات الحديثة المعقدة الكبيرة الحجم • ويعبر فيرل هيدى Heady عن هـــذا الاتجـــاه قائـــلا : « ان البيروقراطية شكل من أشكال التنظيم ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون كل تنظيم بيروقراطى »[١٠٨] •

هذا ولا تزال هناك اختلافات كبيرة بين علماء الاجتماع حول تحديد عناصر البيروقراطية ، حتى أنه يمكن القول ان قوائم هذه العناصر تـــكاد تصل الى عدد الذين درسوا هذه الظاهرة • فعلى سبيل المثال نجد برثيوس Presthus يحدد العناصر التالية للبيروقراطيـــة : الحجم ، والتخصص ، وتسلسل السلطة ، وبناء المكانة ، والاوليجاركية، والترشيد ، والفعالية[١٠٩] • كذلك نجد وارين بينس Bennis يشير الى مجموعة أخرى من العنـــاصر هى : تسلسل الاوامر ، والقواعد ، وتقسيم العمل ، والاختيار طبقـــا للكفاءة الشخصية ، والموضوعية • لكن هيدى Heady يختزل القائمة ذاهبا الى أن هناك اتفاقا على العناصر الثلاث التالية : تسلسل السلطة ، والتباين أو التخصص ، والمؤهلات أو الكفاءة[١١٠] • والملاحظ أن تأكيد هيدى لنقطة الاتفاق هنا تعكس اهتماما شائعا الآن بين علماء الاجتماع وهو محـــاولة

---

(107) Etzioni, A., Modern Organizations, Prentic-Hall, Englewood Clifts. N. J. 1964.

(108) Heady, F., Public Administration : A Comparative Perspective. Prentice-Hall, Englewood Cliffs, N. J. 1966.

(109) Presthus, R., Organizatiional Society, op. cit.

(110) Bennis, W., «The Coming Death of Bureaucracy», in Behavior in Organizations, edited by Athos, A. Coffey R. Prentice-Hall, 1968, p. 256.

التغلب على الاختلاف الواسع بين العناصر المختلفة للبيروقراطية كما تبدو فى الدراسات المختلفة[111] • وما تزال هناك فرص عديدة فى هذا المجال للوصول الى تحديد دقيق لعناصر البيروقراطية ، لكن المشكلة التى قد تظهر هى أن مجرد السعى للوصول الى تعريف شامل قد يؤدى ــ كما حدث فى مناسبات عديدة ــ الى ظهور عدد لا حصر له من العناصر ، مما قد يؤدى الى مشكلات فنية لم يعد يتحملها مفهوم البيروقراطية •

وهناك محاولات نظرية قليلة ــ لكنها مؤثرة ــ تسعى الى معالجة المجتمع ودراسته بوصفه « بيروقراطية » • ومثل هذه المحاولات تسعى الى اكساب مفهوم البيروقراطية نفس الاهمية التى تحتلها المفاهيم السياسية الشائعة كالديموقراطية والشيوعية والرأسمالية والاشتراكية • وطالما أن بالامكان وصف المجتمع والحكم بالديموقراطية ، فان بالامكان أيضا وصفهما بالبيروقراطية • والواقع أن هذه المحاولات التصنيفية العامة للمجتمعات تعود أساسا الى الفكر الاجتماعى خلال القرن التاسع عشر • وعلى الرغم من أن مفهوم البيروقراطية لم يحتل مكانة هامة فى الفكر الماركسى ، الا أن بعض العلماء من أمثال ريزى وديجلاس قد أشاروا الى مفهوم المجتمع البيروقراطى • ومن بين معارضى الماركسية نجد موسكا Mosca يناقش فكرة المجتمع بوصفه « بيروقراطية » كبيرة الحجم على نحو ما رأينا فى موضع سابق • ومن الاسهامات الهامة التى ظهرت فى هذا المجال تلك التى قدمها جيمس بيرنهام Burnham فى مؤلفه الذائع الصيت « الثورة الادارية »[112] The Managerial Revolution • فلقد أوضح الدور الذى تلعبه الجماعات الادارية فى المجال الاقتصادى ، مؤكدا أنه ليس هناك فارقا كبيرا بينها وبين الموظفين السياسيين • « فحينما نقول ان المديرين يشكلون الطبقة الحاكمة ، فاننا نعنى بيروقراطية الدولة » • والمحقق أن موسكا وبيرنهام قد قصدا بالمجتمعات البيروقراطية تلك التى تخضع لحكم

---

(111) Heady, F., Public Administration, op. cit.

(112) Burnham, J. The Managerial Revolution, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1962.

البيروقراطيين ، لا تلك التى تتعرض لنمو بيروقراطى ؛ والفارق كبير بين المعنيين • فلقد رأينا أن ويتفوجل كان يقصد بالمجتمع البيروقراطى ذلك الذى تخضع فيه الغالبية الغالبة من سكانه لسيطرة طبقة بيروقراطية حاكمة ، بينما رأينا ديجلاس يحلل التفاوت الاجتماعى الواضح داخل طبقة البروليتاريا فى ظل بناء بيروقراطى سوفييتى •

وهناك إشارات ثاقبة فى هذا المجال ضمنها كارل مانهايم Mannheim مؤلفه « الحرية والقوة والتخطيط الديموقراطى »[١١٢] • فالتغيرات التى طرأت على البناء الاجتماعى خلال القرن العشرين قد أدت الى الحد من التناقض بين الدولة والمجتمع • اذ ساد لفترة طويلة اعتقاد مؤداه ، أن ثمة تقابلا بين الدولة بوصفها تعبيرا عن البيروقراطية ، والمجتمع بوصفه مجموعة من التنظيمات والجماعات • ولقد أوضح مانهايم أن هـذه الازدواجية قد فقدت معناها وأهميتها • فلم يعد هناك فارق كبير بين التنظيمات الخاصة والعامة فيما يتعلق بالقوة ، وأساليب الالتحاق ، والاهمية العامة ، وأنماط شخصية الافراد • لقد اختلطت وتداخلت المجالات بحيث أصبحت المسئولية العامة تعبيرا نهائيا عن مختلف قطاعات المجتمع • ويمكننا أن نجـد تأييدا جزئيا لهذه القضايا حتى من جانب أولئك الذين يركزون على دراسة البنـاء الداخلى للبيروقراطية أو التنظيم • فعلى سبيل المثال نجد كروزييه Crozier يؤكد أن الثقافة البيروقراطية فى فرنسا هى انعكاس لمؤثرات اجتماعية شاملة[١١٣] • كذلك نجد برثيوس Presthus يعبر عن موقف قريب من ذلك بقوله : « ان التنظيمات هى بمثابة خلايا المجتمع »[١١٤] • ولا شك أن هذه الافكار قد ساعدت على ظهـور اهتمـام حديث بالنمـو البيروقراطى فى المجتمع bureaucratization • وعلى الرغم من أن هناك خـلاف ملحوظ بين

---

(112) Mannheim, K, Freedom, Power and Democratic Planning, Routledge & Kegan Paul, London, 1961.

(113) Crozier, M., The Bureaucratic Phenomenon, op. cit.

(114) Presthus, The Organizational Society, op. cit.

العلماء الاجتماعيين حول العناصر التى يمكن أن نحدد على أساسها هــذا النمو ، ومستوى الوحدة الاجتماعية التى يمكن أن نصفها به ، الا أن ذلــك لا يمنعنا من الاشارة الى المحاولات القليلة التى بذلت لتوضيح النمـــو البيروقراطى على مستوى المجتمع • ففى العشرينيات من هــذا القرن كان العلماء يناقشون النمــو البيروقراطى فى المصــنع (بمعنى ادخال الادارة الحديثة وزيادة عدد الطاقم الادارى) لكن تأثير هذا النمو يتعدى المصنع ليشمل المجتمع ككل الذى يزود المصنع بعماله وعامليه • وحتى اذا ما اعتبرنا المصنع تنظيما بيروقراطيا محدودا ، فان مجرد زيادة حجمه يعد مؤشرا على نمو بيروقراطى فى المجتمع ككل[١١٥] •

(٦)

وترتبط المناقشات السابقة بقضية هامة هى عــلاقة البيروقراطيــة بالديموقراطية • فلقد رأينا أن أحد دوافع الاهتمام الكلاسيكى بالبيروقراطية كان يتمثل فى تحديد الموقع الصحيح الذى يجب أن يحتله الموظف داخــل نظام الحكم • وأحد نتائج ذلك ظهور اتجاه فكرى يؤكد التعارض الصريح بين المبادىء التى تستند اليها البيروقراطية (كالامتثال والطاعة) والمبادىء التى تستند اليها الديموقراطية (كحرية التعبير وتكافؤ الفرص) • بيــد أن طرح المشكلة على هذا النحو قد يؤدى الى الدخــول فى تحليــلات قيمية متشعبة • والواقع أن الفكر الاجتماعى خلال القرن التاسع عشر كان واضحا تماما عند معالجة هذه المشكلة • فلقد سعى فيبر وموسكا الى تخليص العلم الاجتماعى من الجدل الايديولوجى واكسابه المعايير « العلمية » التى كانت سائدة وقتئذ كالحياد الاخلاقى والموضوعية[١١٦] • وبرغم الجهود الهائلة التى بذلت لتوضيح مشكلة البيروقراطية وتحديد أبعادها ، الا أن الدارسين

---

(115) Eisenstadt, S., «Bureaucracy and Bureaucratization». Current Sociology, vol. 7, 1958, p. 111.

(116) See Cole, G; Studies in Class Structure, London, Routledge & Kegan Paul, 1955.

المعاصرين — والمواطنين العاديين أيضا — ما يزالون يثيرون هذه المشكلة بهدف تشخيص أفضل لها • ومن الطريف أن نجد المعانى الكلاسيكية للبيروقراطية ما تزال مستخدمة حتى الآن فى كثير من الدراسات المعاصرة • فعلى سبيل المثال نجد هيرمان فاينر Finer يستعرض الاتهامات التى وجهت الى البيروقراطية خلال تاريخها ، موضحا أن الاتهام الوحيد الذى يستند الى منطلق واضح هو ذلك الموجه الى سوء استخدام الموظفين الحكوميين لسلطاتهم(١١٧) • وعلى الرغم من كثرة المعالجات الحديثة للعلاقة بين البيروقراطية والديموقراطية ، الا أن هذه المعالجات تنطلق من فروض محدودة النطاق لا تصل بأى حال من الاحوال الى الفروض الواسعة التى قدمها ماكس فيبر • لقد عالج فيبر هذه العلاقة فى ضوء خيال واسع لا نجد له نظيرا فى علم الاجتماع الحديث •

والواقع أن دارسى البيروقراطية يهتمون بدراسة الديموقراطية قدر اهتمام دارسى الديموقراطية بتناول البيروقراطية • وهذا يعكس تطورا فكريا حديثا فرضته اعتبارات عديدة من بينها تشابك المشكلات السياسية وتنوعها ، بحيث يصعب فهم أبعاد أى مشكلة دون فهم أبعاد المشكلات الاخرى • وربما أيد ذلك شبكة المفاهيم السياسية التى تزخر بها الكتابات الحديثة • وفضلا عن ذلك نجد الظروف الاجتماعية التى مرت بها المجتمعات الحديثة قد فرضت بعض الاعتبارات النظرية على دارسى الديموقراطية بحيث بات واضحا أن اغفال ظاهرة البيروقراطية قد يؤدى الى مشكلات فعلية • فاذا كان الحكم الديموقراطى بصورته التقليدية ممكن التطبيق فى مجتمع صغير ، فانه يصعب تطبيقه فى مجتمع كبير دون أن نأخذ البيروقراطية فى الاعتبار • واذا كانت النظرية السياسية خلال القرن التاسع عشر قد اهتمت اهتماما كبيرا بمسألة الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فى الدولة الديموقراطية ، الا أنها لم تهتم بنفس القدر بتحديد

---

(117) Finer. H., «Critics of Bureaucracy». Political Science Quarterly. Vol. 60, 145, p. 105.

موقع أو وضع الموظف داخل هذا الاطار • لقد افترضت النظرية السياسية أن الموظف ما هو الا أداة أو وسيلة تستخدمها أجهزة الدولة المختلفة • ولم يطرأ تغير على هذا الموقف الا بتطور نظم الحكم الحديثة التى بدأت تعتبره دعامة الادارة الديموقراطية • وهكذا أصبحنا نجد فى الكتابات المعنيـــة بالديموقراطية مفاهيم شاع استخدامها فى الكتابات المهتمة بالبيروقراطية كالمسئولية ، والقدرة على التقدير ، وسرعة الاستجابة[١١٨] • لقد أصبحت هذه المفاهيم الآن لغة شائعة فى الدراسات التى تحاول معالجة المشـــاكل البيروقراطية بمثل ما هى لغة شـــائعة فى الكتابات التى تحـــاول تفســـير الديموقراطية •

ويمكننا أن نحدد ثلاث منظورات واضحة ازاء نفوذ الموظفين العموميين فى الدول الغربية[١١٩] • الاول يؤكد أن الموظفين قد حصلوا على سلطات متزايدة ، وأنه يجب تحديد اختصاصاتهم فى ضوء موقعهم داخل المجتمع • والثانى يذهب الى أن الموظفين قد اكتسبوا بالفعل قوة متزايدة ، وأن من الضرورى التأكد من صحة ممارستهم لها • أما المنظور الثالث والأخير فيكشف عن أن الموظفين قد حصلوا ــ بالفعل ــ على السلطة ، لكن لابد من تحديد الوسائل التى تضمن استغناء المجتمع عن خدماتهم • ويبدو أن المنظور الاخير هو أكثر المنظورات الثلاث تطرفا ؛ وهو فى نفس الوقت أقلها وضوحا • ان الخطر الذى يمثله الموظفون بالنسبة للديموقراطية ــ كما يبـــدو فى بعض الكتابات ــ لا يتمثل فى عدم كفاءتهم بقدر ما يتمثل فى تأثيرهم ونفوذهم وتغلغلهم فى كافة وجوه الحياة الاجتمـــاعية ، مما دعا هيوارت Hewart فى مؤلفه « الاستبداد الجديد »[١٢٠] The New Despotism الى شن هجوم عنيف على التأثير المتزايد الذى يمارسه الموظفون على مختلف جوانب البناء

---

(118) Kingsley, J; Representative Bureaucracy, Antioch Press Yellow Springs, Ohio, 1959.

(119) Crider, J., The Bureaucrat, Philadelphia and New York, 1954.

(120) Hewart, L. The New Despotism. Ernest Benn. London. 1959.

الاجتماعى بما فى ذلك الاحزاب السياسية • فالقـوانين التى تعرض على اللجان التشريعية البريطانية لاعتمـادها تحتـاج الى موافقـة الموظفين المتخصصين ، مما قد يشكل ــ فى نظر هيوارت ــ تهديدا كبيرا للديموقراطية • وفى الولايات المتحدة احتج بيك Beck فى مؤلف شهير له[١٢١] على النمو المتزايد للبيروقراطية وتأثيرها السلبى على الحياة النيابية • وما لبثت أن اشتدت هذه الحملة خلال ثلاثينيات هذا القرن ، وعلى الاخص بين المفكرين الاشتراكيين[١٢٢] ، الى أن ظهرت اتجاهات متوازنة حديثة تحاول معالجة المشكلة من زاوية أوسع • فعلى سبيل المثال نجد فاينر Finer لا ينـكر الخطر الذى تمثله البيروقراطية على الديموقراطية ، لكنه يؤكد أن هذا الخطر محتمل ولا يشكل واقعا فعليا • كما يوضح أن المعيار الحقيقى للتعرف على مدى ديموقراطية التنظيمات البيروقراطية هو احساس الموظفين بالمسئولية ، وقدرتهم على تبنى الاهداف العامة •

ولقد دفعت هذه الاعتبارات بعض العلماء الاجتماعيين الى اتخـاذ موقف أكثر تحديدا من قضية دور الموظفين فى عمليـة اتخاذ القـرارات السياسية • فاذا كان الموظفون قد أصبحوا أطرافا أساسيين فى العمليات السياسية ، الا أن دورهم لا يتعدى المهام التى يكلفون بها ، والتى من أجلها شغلوا وظائفهم[١٢٣] • ولقد أوضح كارل فريدريك Friedrich أن القضية التى يجب أن تشغلنا هى طريقة تفسير الموظف للقواعد ، ونوعية النصائح التى يقدمها ؛ وبالتالى فان محاولة تقليص سلطات الموظفين قـد لا تكون مفيدة تماما • ان دور الموظف فى رسم السياسة العامة هو دور حيـوى لا يمكن استبعاده ، وأن من الصعب الفصل بين صنع القرار وتنفيذه[١٢٤] •

(121) Beck. J; Our Wonderland of Bureaucracy. Macmillan. New York. 1955.

(122) See for example : Allen. G., Bureaucracy Triumphant, Oxford University Press. London. 1931.

(123) Hyneman, C., Bureaucracy in a Democracy, op. cit.

(124) Friedrich, K., «Public Policy and the Nature of Administrative Responsibility. in Public Policy (ed.) Friedrich, K., and Mason, E. New York. 1965.

ومن الطبيعى أن قبول وجهة نظر فريدريك هذه تتطلب أولا قبولا لمفهـوم الادارة العامة ؛ اذ أنها تعنى ــ استنادا لذلك ــ القيام برسم السياسات • كذلك فان هذه القضايا جميعها تجعلنا نؤكد أن ثمة تفسيرا جديدا للادارة الديموقراطية ، مما قد يعنى وضع مشكلة البيروقراطية فى اطار مختلف عن الاطار المألوف • فلم تعد المشكلة الرئيسية هى وجود أو عدم وجـــود البيروقراطية ، وانما الآثار الجانبية لها التى تظهر حينما يفشل الموظفون فى الاستجابة لاحتياجات الجماهير ومواجهتها بطريقة فعالة • وفى ضوء هـذا الفهم يمكننا القول ان البيروقراطية لا تحقق تماما أهدافهـا ، وأن تطويرا معينا يجب احداثه عليها • كذلك فان الموظفين الذين يفتقرون الى المعـرفة المتخصصة والخبرة الفنية لا يستطيعون ضمان تحقيق أهداف البيروقراطية• ومن المفترض أن يقوم الموظفون بدور فعال فى رسم السياسات بما لديهم من بيانات ومعرفة فنية ، وأن يتيح لهم ذلك التعامل بشكل أفضل مع كل صانعى القرارات السياسية •

ويبدو أن النقطة الاخيرة ما تزال تمثل مصدرا خصيبا للجدل • فمن الأمور الملاحظة أن انتقال المعلومات من الموظفين الى الجمهور يتوقف على وجود ثقافة مشتركة بين الطرفين ، وعلى فهم متبادل يمكن أن يتحقق من خلال انتماء الموظفين لمختلف قطاعات المجتمع • ولقـد أوضـح كنجزلى Kingsley هذه النقطة بجلاء فى دراسة له عن الخدمة المدنية فى بريطانيا ، حيث ذهب الى أن الموظف المدنى هـو سـياسى بالضرورة ، لان تنفيـذ السياسات الحكومية يتوقف عليه الى حد بعيد[١٢٥] • كذلك أشار كنجزلى الى تأثير الاصول الطبقية والاجتماعية للموظفين على أداء أعمالهم ، وتلك حقيقة أكدها أيضا جوبرج Sjoberg حينما كشف عن أن الادارة العـامة لا تستجيب بالقدر الكافى لافراد الطبقة الدنيا ، فى الوقت التى تشعر فيه

---

(125) Kingsley. J. D; Representative Bureaucracy Antioch Press, Yellow Springs. Ohio, 1964.

هذه الطبقة أنها فى صراع دائم مع الادارة العليا[١٢٦] • والواقع أن وجهة نظر جوبرج تثير تساؤلات عديدة حول الموظفين كجماعة اجتماعية ، وقدرتهم على التعبير عن مختلف قطاعات المجتمع • اذ أن هنــاك دراســات عديدة أوضحت أن الموظفين فى مجتمعات مختلفة يكشفون عن ذاتية وكيان محدد ، على الرغم من أنهم قد يشتركون جميعا فى نفس الظروف الاجتمــاعية ؛ وبالتالى يفترض أن تكون مصالحهم مختلفة عن مصــالح الجمهــور الذين يتعاملون معه • وتذكرنا هذه النقطة بوجهة نظــر ماركس فى البيروقراطية التى سبق أن أشرنا اليها ، كما توحى لنا بأن المجتمعات المتباينة اجتمــاعيا تشهد ضربا من الصراع بين الديموقراطية والبيروقراطية ، وان كان نمط هذا الصراع يتفاوت من مجتمع لآخر • ففى الحالات المتطرفة قد يتخذ صورة تدخل الموظفين فى عملية الانتخابات والاضرابات للتأثير على الحــكومة • وحينما يتخذ هذا الصراع شكلا معتدلا فانه قد يبدو واضــحا فى تحالف الموظفين مع بعض الجمــاعات الاجتمــاعية ، ومقاومة أو رفض التفتيش الخارجى عليهم أو أية محاولة للضغط عليهم[١٢٧] •

واذا كان العلماء الاجتماعيون قد طرحوا مشكلة البيروقراطية بطرق مختلفة ، فلنا أن نتوقع حلولا متباينة لها • فالذين أكدوا أهمية تدخل الموظف فى رسم السياسة وتوسيع نطاق اختصاصه ، اقترحوا أشكالا عديدة من المراقبة الرسمية التى يجب أن يخضع لها • ومن بين هذه الاشكال مشاركة الموظف فى اصدار القرارات قبل صياغتها بأن يبدى وجهة نظره الخاصة ويزود صانعى القرارات بالبيانات الضرورية • ومن شأن ذلك اتاحة الفرص العديدة للموظف لممارسة سلطاته على كافة المستويات والقطاعات ابتداء من كبار رجال الحكومة حتى المواطنين ، وابتداء من اتخاذ القرارات السياسية

---

(126) Sjoberg, G; et al. «Bureaucracy. and the Lower Class, Sociology and Social Research, vol. 50, 1966.

(127) Woll, P; American Bureaucracy, W. W. Norton, New York, 1963.

الخارجية حتى تحديد الضرائب على الدخول . غير أن المشكلة التى يمكن أن تثار هنا تتعلق بطبيعة القواعد ووظيفتها فى الحياة الاجتماعية . فمن الحقائق الثابتة أن القواعد البيروقراطيـــة لا تطبق نفسها بنفســـها ، انما يطبقها موظفون يقومون بتفسير معناها ، وتقييم ملاءمتها للمواقف الفعلية . بعبارة أخرى يتعين على الموظفين أن يصدروا أحكاما عند ممارستهم لأدوارهم . كما أن تطبيق القاعدة يتوقف على جوانب قيمية هامة . وازاء هذا الموقف نجد بعض الدارسين يؤكدون صعوبة وجود موظفين أو اداريين « محايدين ». كما نجد بعضا آخر يذهب الى أن تطبيق القواعد يجب أن يكون تطبيقا حرفيا حتى يمكن تجنب سوء استخدام السلطة(١٢٨) . ومع ذلك فان القضية تبدو أكثر تعقيدا . فمشكلة حياد الموظفين يمكن أن تنطبق أيضا على رؤسائهم . حتى ولو كان هؤلاء الرؤساء منتخبين ويمثلون ارادة شـــعبية . وعلى أية حال فان الامر الذى يبدو واضحا من خلال المناقشات السابقة هــو أن البيروقراطية كمفهوم اجتماعى ــ سياسى ــ ادارى يستطيع أن يعبر لنا عن مجموعة من المشاكل المترابطة والمتعلقة بموقف الانســـان من التنظيمات الكبرى التى تميز مجتمعاتنا الحديثة . اننا لا نتوقع من مفهوم كالبيروقراطية أن يمثل مفتاحا سحريا يمكننا بواسطته فهم الواقع الاجتمـــاعى بأسره . واذا ما سلمنا بأن هذا المفهوم يعيننا على تحليل تاريخى ومنطقى لعلاقة الانسان بالادارة ، فاننا نكون بذلك قد حققنا انجازا كبيرا على المستويين الاكاديمى والتطبيقى .

---

(128) Bendix, R, Higher Civil Servants in American Society. University of Colorado Studies, Boulder, Colorado, 1949.

الفصل الخامس

الحركات الاجتماعية والسياسية

يشير المعنى العام لكلمة « حركة » movement الى سلسلة الأفعال والجهود التى يقوم بها عدد من الأشخاص من أجل تحقيق هدف معين [1] . غير أن الاستعمال الفعلى لهذه الكلمة قد يشير إلى معانى عديدة . فعلى سبيل المثال نجد بعض المؤرخين يستخدمون مصطلح « حركة » للإشارة إلى « اتجاه » أو « ميل » أو « تحول » تاريخى . لذلك نجد من المألوف فى التحليلات التاريخية إستخدام تعبير « الحركة التاريخية » كوسيلة للوصول إلى اتجاهات أو تيارات بعيدة المدى . وبغض النظر عن المعانى الخاصة التى قد يقصدها العلماء الإجتماعيون حينما يستخدمون تعبير « الحركة الإجتماعية أو السياسية » ، فإن الهدف النهائى هو إبراز الجهود التى تبذلها الجماعات والطبقات الإجتماعية من أجل تحقيق غايات خاصة . ولقد أوضح ريموند وليامز Williams فى مؤلفه الشهير « الثقافة والمجتمع » أن مفهوم الحركة هو أحد المفاهيم الاستراتيجية فى العلوم الاجتماعية شأنه فى ذلك شأن مفاهيم الصناعة ، والديمقراطية ، والطبقة ، والثقافة ، وأنه طبقا للاستخدام الشائع لمفهوم الحركة فإنه يعنى ذلك النمط العام من التغير الذى يمكن التعرف عليه ، وبالتالى يمكن إستخدامه فى اكتشاف التغيرات التى تطرأ على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية . وهذا يعنى — مرة أخرى — أن مفهوم الحركة هو وسيلة لاكتشاف مختلف التغغيرات المادية والثقافية التى تطرأ على أى مجتمع من المجتمعات [2] . وربما كان ذلك أحد الأسباب التى جعلت كل جماعة أو طبقة تحاول وصف

---

(١) وهذا هو المعنى الوارد فى قاموس اكسفورد .

(2) Raymond Williams; Culture and Society, 1750-1950, Penguin Books, Harmondsworth, 1961, pp. 187-188.

نشاطاتها ونضالها بأنه « حركة إجتماعية » [٣] . إن كل جماعة سياسية أو دينية أو ثقافية تطمح فى تدعيم وجودها بأن تصف نشاطاتها بالجدية والتأثير ، وبالتالى فهى تمثل حركة إجتماعية متميزة [٤] . ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى حركات الشباب والفلاحين والعمال فى مختلف أنحاء العالم ، بل ويمكننا أن نضيف الى ذلك الحركات النسائية والطلابية التى أصبحت تحتل مكانة هامة فى دول العالم الغربى .

ويعتبر لورنز فون شتاين Stein أول من قدم تعريفاً علمياً لمصطلح الحركات الاجتماعية . ففى مؤلفه « تاريخ الحركة الاجتماعية فى فرنسا : ١٧٨٩ — ١٨٥٠ » نجده يتناول الثورة الفرنسية من زاوية الجهود التى بذلت من أجل إيجاد مجتمع جديد لا مجرد التغيرات الحكومية الرسمية ، بل ويذهب إلى أن بناء المجتمع هو الذى يشكل طابع تغيره السياسى . وفضلا عن ذلك يؤكد شتاين — متفقاً فى ذلك مع ماركس — رفضه للمنطق المثالى الهيجلى وضرورة دراسة الصراع الاجتماعى وما ينجم عنه من اغتراب وتناقض ، كما أوضح دور المصالح الفردية المادية للأفراد والطبقات فى إحداث التغير الاجتماعى قائلا : « إن المصلحة هى مركز التفاعل الإنسانى ، وبالتالى فهى أساس الحركة الاجتماعية ، والمبدأ الذى يستند إليه المجتمع » [٥] . ولا شك أن مفهوم الحركة الاجتماعية — كما استخدمه

---

(٣) وبذلك أصبحت كلمة « حركة اجتماعية » كثيرة التردد على الالسنة ، بل وقد بدأت بعض الجماعات تتخذ منها شعارا . انظر :

T. D. Welden, The Vocabulary of Politics, Penguin Books Harmondsworth, 1955.

(٤) ويفسر ماكينزى Mackenzie ذلك بأن الحركات الاجتماعية تنطوى — عادة — على رومانسية فكرية قد تغرى المثقفين وعلماء الاجتماع بالاهتمام بها . انظر :

Mackenzie, W. J; Politics and Social Sciences, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1967.

(5) Rudolf Heberle, Social Movements : An Introduction to Political Sociology, Appleton-Century-Crofts Inc. N. Y. 1956.

شتاين ــ قد أثر تأثيرا واضحا على المؤرخــين الاشتراكيين الألمان خــلال القرن التاسع عشر ، حيث نجدهم يتفقون معه على وصف حركات الطبقــة العاملة بأنها « حركات اجتماعية » حقيقية • ويعتبر زومبارت Sombart من أبرز الذين تأثروا باتجاه شتاين الفــكرى • ففى مؤلفه « الاشتراكية والحركة الاجتماعية » ، نجده يعرف « الحركة » بأنهــا « كل الجهــود والمحاولات الرامية لتحرير طبقة البروليتاريا » ، ذاهباً الى أن « التاريخ لم يعرف طبقة شكلت حركة أقوى من حركة طبقة البروليتاريا » [٦] •

وإذا ما انتقلنا إلى القرن العشرين وجــدنا رودلف هيبيرل Heberle يقدم لنا محاولة منظمة جادة لتحديد معالم مفهوم الحركة الاجتماعية [٧] • وينتهى من ذلك إلى صياغة نظرية فى الحــركات الاجتمــاعية تستند إلى مقارنات تاريخية مستفيضة • ولقد قبل هيبيرل تصور الدارسين الألمــان لمفهوم الحركة الاجتماعية الذى يعنى إدخال تغييرات أساسية على النظــام الاجتماعى وعلى الأخص فى مجال توزيع الثروة والعلاقات الانتاجية ، لكنه لم يقبل ــ فى نفس الوقت ــ ماذهب إليه شتاين من ضرورة ربط الحركة الاجتماعية بطبقة البروليتاريا فى المجتمعات الصناعية المتقدمة • وعلى ذلك نجد هيبيرل يوسع من نطــاق المفهوم ليضم حــركات الفلاحين والزنوج والشباب فضلا عن الفاشية والنازية ، كما يؤكد أن الحركات الاجتماعية تأخذ شكل جماعات اجتماعية ذات بناءات خاصة • وبالاضافة الى ذلك نجــده يحدد معيارين للحركة الاجتماعية : الأول يتعلق بايديولوجيتها أو أفكارها الموجهة ، والثانى يتعلق بقوميتها • إذ أن الحركة الاجتماعية قد تتعــدى النطــاق القومى لتصبح عالية فى طابعهــا • ثم يحدد بعــد ذلك وظيفتين

= ولقد استنتج شتاين من هذه المقدمات أن المصالح والصراعات الطبقية تلعب دورا هاما فى الحياة الاجتماعية ، كما أنه اســتخدم مفهــوم البروليتاريا وطبقة على الطبقة العاملة الصناعية التى كانت تنمو وقتئذ فى المدن الاوربية . والملاحظ أن تفكير شتاين فى ذلك كله كان مستقلا عن تفكير ماركس وانجلز .

(6) Donald MacRae, Ideology and Society : Papers in Sociology and Politics, Heinemann, London, 1961.

(7) Rudolf Heberle, op. cit.

هامتين للحركات الاجتماعية : الأولى هى الاسهام فى تشكيل الارادة العامة للمجتمع ، والثانية هى تنشئة وتدريب الصفوات السياسية • ومن الواضح أن هيبيرل قد حرر المفهــوم من كثير من التصــورات التى أكدها شــتاين وزومبارت ، وإن كان لم ينجح ــ مع ذلك ــ فى حل مشكلات أخرى عديدة • من ذلك أنه قد ظــل حريصاً على ربط الحركة الاجتمــاعية بالطبقة قائلا : « إن الحركات الاجتماعية ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالطبقات الاجتماعية ، وأن الأفكار السياسية والاجتمــاعية لأى حقبة أو مجتمع هى تعبير عن البنــاء الطبقى والتطور الاقتصادى لهذا المجتمــع » [٨] • كذلك نجد محــاولة هيبيرل تعانى من قصور واضح مردة ذلك التمييز الذى أقامه بين ماأطــلق عليه « الحــركات الاجتمــاعية الحقيقية » ذات الدلالة التاريخية العميقة و « الحركات الاجتماعية الثانوية أو العارضة » • ولو أخذنا بهذا التمييز فاننا سنقلل من شأن حركات الطلاب والاضرابات برغم ما تنطــوى عليه من أهمية [٩] •

وبالاضافة إلى ما سبق نجد هيربرت بلومر Blumer يقدم تصوراً محدداً لمفهوم الحركة الاجتماعية • فهى تعنى ــ فى نظرة ــ ذلك الجهــد الجماعى الرامى الى تغيير طابع العلاقات الاجتماعية المستقرة فى مجتمــع معين • وقد تعنى أيضاً ذلك التغير غير الموجه الذى قد تطالب به مجموعات كبيرة من الأفراد [١٠] • ومن أمثلة ذلك نمو الفلسفة الديموقراطية ، وزيادة

---

(8) Ibid. p. 14.

(9) Ibid. p. 15.

ومع ذلك نجد هيبيرل فى مقال حديث نسبيا يذهب الى أن كل الحــركات الاجتماعية الاساسية لها سمة مميزة هى استنادها الى ايديولوجية واضحة نسبيا أو مجموعة أفكار تتناول اعادة تشكيل النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . انظــر :

Rudolf Heberle. «Types and Functions of Social Movements», in International Encyclopaedia of the Social Sciences, Collier Macmillan. N. Y. 1968, pp. 438-44.

(10) Herbert Blumer, «Collective Behaviour», in Review of Sociology : Analysis of Decade, edited by Gitller. Wiley. N. Y. 1957, p. 145.

الاهتمام بالعلم التطبيقى • وربما كان نيل سميلسر Smelser أكثر طموحاً فى تحليل وبلورة مفهوم الحركة الاجتماعية • ففى مؤلفه « نظرية السلوك الجمعى » [١١] نجده يقيم تفرقة واضحة بين الحركات المعيارية (أى التى تتحدد من خلال المعايير الاجتماعية) كحركات الاصلاح الاجتماعى والحركات القيمية (أى التى تستند الى القيم الاجتماعية) كالحركات الدينية والثورية • والواقع أن سميلسر قد قدم تفرقته هذه فى إطار نظرية عامة حاول من خلالها تحديد العوامل المؤثرة على السلوك الجمعى بما فى ذلك الحركات الاجتماعية • من ذلك أن الحركات الاجتماعية تميل إلى الظهور والنمو خلال فترات الكساد الاقتصادى أو الهزائم العسكرية فى الحروب . وأن مثل هذه الظروف قد تكون مواتية تماماً لانضمام الأفراد إلى الحركات الاجتماعية ذات الاتجاهات المختلفة •

وبرغم تباين التصورات والتعريفات السابقة ، فان بالامكان الوقوف على بعض العناصر المشتركة التى قد تصلح أساساً لتصور واضح لمعنى الحركة الاجتماعية ، تصور يتصف بقدر واضح من الشمول والمرونة والملاءمة الواقعية فى آن واحد • فالحركة الاجتماعية هى بمثابة جهد جماعى مقصود موجه لتغيير المجتمع فى أى إتجاه وبأى وسيلة بما فى ذلك العنف واللاشرعية والثورة والانسحاب من الواقع • ومن الواضح إذن أن الحركات « الاجتماعية » تختلف عن الحركات « التاريخية » كما يقصدها المؤرخون • كما أننا لا نستطيع أن نتجاهل الدور الذى تلعبه العوامل اللاشعورية أو اللاعقلية فى التعرف على طابع الحركات الاجتماعية وأهدافها • كذلك فإن الحركة الاجتماعية تتطلب — بالضرورة — توافر حد أدنى من التنظيم • والواقع أن الحركات الاجتماعية تتفاوت تفاوتا كبيراً فى هذا المجال • فالبعض قد يتبنى أسلوبا تنظيميا فضفاضاً ، والبعض الآخر قد يعتمد على التنظيم البيروقراطى الدقيق • وأخيراً فإن الحركات

---

(11) Neil J. Smelser, Theory of Collective Behavior, Routledge and Kegan Paul, London, 1962.

الاجتماعية تستند فى إلتزامها بالتغيير الى الارادة الواعية للأفراد الذين يلتحقون بها . وهناك إتفاق كبير بين العلماء الاجتماعيين المعنيين بالحركات الاجتماعية حول هذه النقطة . فعلى سبيل المثال نجد هيبيرل يذهب الى أن أنساق المعتقدات هى التعبير الطبيعى عن الارادة الجمعية للأفراد الذين يؤمنون بها ، مؤكداً أن عنصر الارادة هو الذى يمنح المعتقدات فعاليتها الاجتماعية (١٢) . ولقد أوضح أنتونى والاس Wallace أن أعضاء الحركات الاجتماعية يميلون إلى تغيير سلوكهم بعد انضمامهم إليها ، وأنهم يتجهون الى مطابقة قيمهم مع قيمها (١٣) . كذلك أشار إيتزيونى Etzioni فى تحليله للتنظيمات البيروقراطية الى أن هناك بعضاً منها يميل الى ربط الأعضاء بأهداف وقيم عامة تتبناها هذه التنظيمات (١٤) . وفى ضوء هذا المعنى للحركة الاجتماعية يمكننا أن نشرع فى تناول بعض التيارات الفكرية المؤثرة فى هذا المجال .

(٢)

يحتل جان جاك روسو Rousseau وكارل ماركس Marx أهمية خاصة بالنسبة لدراسة الحركات الاجتماعية . فالرجلان قدما تراثاً فكرياً خصبا لا يزال يشكل دعامة كثير من الحركات السياسية ــ الاجتماعية المعاصرة برغم اختلاف وتباين منطلقاتهما الايديولوجية . ويعتقد بعض النقاد أن تأثير هذين المفكرين على إيديولوجيات الحركات الاجتماعية المعاصرة كان تأثيراً بالغاً على المستويين العالمى والقومى ، حتى أن المحافظين من هؤلاء النقاد يلومون ماركس حينما يتأملون التحولات الثورية التى تحدث فى

(12) Heberle, Rudolf, «Types and Functions of Social Movements», op. cit.

(13) Anthony Wallace, «Mass Phenomena», in International Encyclopaedia of the Social Sciences, vol. 10, Collier Macmillan, N. Y. 1968, pp. 54-58.

(14) A. Etzioni, A Comparative Analysis of Complex Organizations, The Free Press, Glencoe, Ill. 1961.

بعض المجتمعات • ولقد أوضح شلومو أفينيرى Avineri أن الهـدف الرئيسى للبحث التاريخى فى الماركسية يجب أن يـكون موجها نحو إنقـاذ ماركس من أيدى أتباعه ومريديه [١٥] • وبغض النظر عن مدى الصدق الذى تتميز به هذه العبـارة ، فإن الحقيقة التاريخية الواضحة هى أن روسـو وماركس كانا على وعى كبير بالدور الطليعى الذى يمكن أن يقوم به المفكرون السياسيون والاجتماعيون • ولقد حقق مؤلف روسو « العقد الاجتماعى » (١٧٦٢) شهرة واسعة بين البرجوازية الفرنسية المثقفة عنـد ظهوره ، تماماً كما حقق «المنشور الشيوعى» (١٨٤٨) الذى كتبه ماركس ذيوعاً كبيراً بين الطبقات العاملة الصناعية فى أوربا بل وفى روسيا أيضاً • وعلى ذلك فلقد شكل هذان الكتابان مصدراً لالهام كثير من الحركات الاجتماعية • وليس من الصدفة أن يرتبط تاريخ نشرهما ببعض الاضطرابات السياسية فى أوربا •

وينطلق روسو فى كتاباته من إيمان قوى بحـق كل الناس فى تنظيم مصالحهم الجمعية ، وحقهم أيضاً فى التمرد على الطغيان قائلا : « ليس لدى أى إنسان إلتزاماً بطاعة أى سلطة الا السـلطة الشرعية للدولة » [١٦] • ثم يذهب بعد ذلك إلى أن السلطة الشرعية الوحيدة فى المجتمع الإنسانى هى تلك التى تستند إلى الاتفاق بين الناس • « وطالما أنه ليست هناك سلطة طبيعية للفرد على الآخرين ، فإن الأساس الوحيد الذى يجب أن تستند إليه السلطة الشرعية فى المجتمعات الانسانية هو الاتفاق »[١٧] • ومن الواضح أن روسو قد أكد حقيقتين أسـاسيتين انعكستا بعـد ذلك على الحـركات السياسية الغربية سواء الاصلاحية أو الثورية : الاولى هى حق الثـورة ، والثانية هى شرعية الارادة العامة للناس • وربما كان ذلك أحـد الاسباب التى جعلت بعض الدارسين من أمثال تالمون Talmon يذهب الى أنه برغم

(15) Shlomo Avineri, The Social and Political Thought of Karl Marx; Cambridge University Press, London, 1968, p. 251.

(16) Locke, Hume, Rousseau, Social Contract, World Classics Edition, Oxford University Press, London, 1947, p. 245.

(17) Ibid. p. 246.

تأكيد روسو لقضية الحرية الطبيعية ، الا أن هناك تحليلات سياسية قد ربطت تأكيده لحقيقة الشرعية ببعض المظاهر السياسية كالتسلطية ، والجماعية ، والنظام السياسى الصارم ، بل وتبرير استخدام العنف السياسى لحماية الدولة[١٨] • لكن من يتأمل كتابات روسو يلحظ أنه قصد ابراز أهمية « الارادة العامة » فى مواجهة ومحاصرة الطغيان ، ذلك أن « الارادة العامة » — كما ينظر اليها — هى التعبير النهائى عن هدف الدولة ، والتجسيد الحقيقى للتضامن الوطنى • ومن خلال ذلك يمكن تحقيق الانسجام بين الفرد من ناحية ، والارادة العامة من ناحية أخرى • ويذهب روسو بعد ذلك الى ضرورة ايجاد شكل معين من الترابط بين أفراد المجتمع ، بحيث تكون القوة العامة للمجتمع كافية لحماية الافراد وممتلكاتهم[١٩] •

ويؤكد روسو أنه فى ظل هذا المجتمع يكون من الضرورى أن ينال كل فرد نصيبا كافيا من الثروة ، كما يجب ألا يحصل أى فرد على أكثر من نصيبه العادل • ويجب أن تضمن الدولة تحقيق هذه العدالة • اذ أن كل المواطنين يخضعون لتوجيه الارادة العامة ، تلك التى تستند الى الصواب والمنطق[٢٠] • لكن الناس لا يدركون دائما الارادة العامة • فهم اذا كانوا يسعون دائما نحو الخير ، الا أنهم لا يصيبونه فى بعض الاحيان[٢١] • ويميز روسو بعد ذلك بين ارادة الافراد بوصفهم أفرادا ، والارادة العامة بوصفها تعبيرا عن المصلحة المشتركة • ويبدو أن أفكار روسو هذه قد مثلت أساساً لفكرة الديموقراطية الشمولية التى نلمسها فى الكتابات السياسية المعاصرة • فهو يذهب — مثلا — الى حد القول بأن من يرفض طاعة الارادة العامة استحق القهر والنبذ من جانب مواطنيه ، وأن من يهدد الحقوق الاجتماعية للأفراد (عن طريق التمرد أو الجريمة أو الخيانة) نال أقصى الجزاءات •

---

(18) J. L. Talmon., The Origins of Totalitarian Democracy, Secker and Warburg, London, 1952.

(19) Locke, Hume, Rousseau. op. cit. p. 255.

(20) Ibid. p. 274.

(21) Ibid. p. 274.

والواقع أن كتابات روسو قد أسهمت فى تطور الحـركات السياسية الأوربية خلال القرن التاسع عشر اسهاما عظيما • من ذلك تأكيـده لفكرة القومية • فعلى الرغم من أن هذه الفكرة قد ارتبطت بأعمال بعض المفكرين من أمثال كانت Kant وفيخته Fichte وهيجل Hegel [٢٢] ، الا أنها قد اكتسبت على يد روسو أهمية خاصة حتى أصبحت مذهبا وعقيدة ان لم نقل ايديولوجية • ففى مؤلفه « العقد الاجتمـاعى » نجـده يسلم بأن الاطار الحتمى والملائم لتحقيق النظام السياسى المثـالى هـو الأمـة الحديثة • والمجتمع المتحضر العالمى والارادة العامة لا ينسجمان ولا يتحققان الا فى ظل أمة حديثة تأخذ بالنظام الجمهورى ، فضلا عن أن هذه الامة ـــ كمـا يقول ـــ ستكون أشد بأسا وقوة من النظم الملكية القديمة • انها أفضل صيغة لتحقيق الشرعية والتضامن فى آن واحد • ولسوف يتم القضـاء على كل الاعداء فى الداخل لحماية الدولة ، وستكون (أى الدولة) فى وضع يمكنها من الجمع بين الشرعية والحكمة • والنقطة الهامة التى تجاهلها روسو هنـا هى الصراعات التى قد تنشأ بين الدولة وغيرها من الدول ، وهى النقطـة التى أولاها من بعده العلماء السياسيون الذين اهتموا بالقوميـة كمعتقـد سياسى • وفضلا عن ذلك فان مؤلف « العقد الاجتماعى » يحتل مكانة خاصة بالنسبة لقضية الثورة • ففكرة الارادة العامة برغم ما تشير اليه من اجماع واتفاق ، الا أنها متضمنة فى النظام الملكى • ومهمة الثوار هنا هى تحـديد الارادة العامة وفهمها (نشأة الحركة الثورية) ، ثم تحقيقها (الاسـتيلاء الثورى على السلطة) ، وأخيرا القضاء على معارضيها (الاطاحة بالثـورة المضادة) • ويعتقد روسو أنه فى ظل هذا النظام السياسى الجـديد يلعب المشرع القانونى دورا بارزا • فهو قائد الثورة ومصدر المبادىء الثـورية الصحيحة ، فضلا عن أنه يسهم فى خلق نمط انسانى ثورى • وعلى الرغم من أن كثيرا من العلماء الاجتماعيين المعاصرين يصفون فكر روسو بالمحافظة،

---

(22) H. M. Chadwick., The Nationalities of Europe and the Growth of National Ideologies, Cambridge University Press, London, 1966.

الا أن هذا الفكر يتضمن بدايات ايديولوجية قوية ما لبثت أن نمت وتطورت خلال القرن التاسع عشر بما حمله الينا من تيارات فكرية متصارعة •

ولقد انعكس ذلك كله بوضوح على الفكر الاجتماعى الثرى الذى تركه كارل ماركس ، والذى من خلاله يمكن الوقوف على تصور محدد للحركات الاجتماعية والسياسية[٢٣] • ولا يعنينا هنا استعراض الماركسية كمذهب فكرى بقدر ما يعنينا اسهامها فى تشكيل أساس قوى لكثير من الحــركات الاشتراكية • والملاحظ أن القضايا الاساسية التى قدمها ماركس تؤلف نظرية كبرى فى التطور الاجتماعى والاقتصادى ، أو ان شئنا الدقة « الحــركة التاريخية » • فطابع الانتاج المادى هو المحرك والمنظم للتغير الاجتماعى ، أى أن ظروف الوجود المادى للانسان هى التى تحدد علاقاته الاجتمــاعية ووعيه ، فضلا عن أنها تحدد تطور الطبقات ومسار الصراع الطبقى[٢٤] • ويؤكد ذلك ماركس قائلا : « إن تاريخ كل المجتمعات السابقة يتلخص فى نمو التناقضات الطبقية ، تلك التى اتخذت أشكالا مختلفة باختلاف الحقب التاريخية ••• والحقيقة التى تبدو واضحة فى كل العصور هى اســتغلال أحد أطراف المجتمع للطرف الآخر »[٢٥] • ولقد اعتمد ماركس وانجلز على المنهج الجدلى فى فهم وتفسير أشكال المادية التاريخية والصراع الطبقى • فالحركة التاريخية لا تظهر فجأة وبطريقة عشوائية ، ولكنها تمثل حلقة من حلقات التطور التاريخى ، كل منها تبدأ بثورة جديدة فى شكل العــلاقات الاجتماعية الانتاجية والتى تعد ــ بدورها ــ استجابة ديالكتيكية للتغيرات

---

(٢٣) انظر على سبيل المثال :

Shlomo Avineri, The Social and Political Thought of Karl Marx, op. cit. Sidney Hook, Marx and the Marxists : The Ambiguous legacy, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1955, Bertram D. Wolfe, Marxism : One Hundred Years in the Life of a Doctrine, Chapman and Hall, London, 1967.

(24) K. Marx and F. Engels, Manifesto of the Communist Party, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1927,

(25) Ibid. pp. 84-85.

التى تطرأ على الظروف المادية والصراع الطبقى فى المجتمع • وباستخدام الديالكتيك يمكن القول ـــ استنادا الى نظرية ماركس ـــ إن ظهور البرجوازية وتراكم رؤوس الاموال يشكلان « قضية » ، ما يلبث أن يظهر « نقيضها » وهو الحركة الثورية للبروليتاريا ، الى أن يتكون « مركب القضية » وهـــو ظهور مجتمع شيوعى لا طبقى • والمشكلة التى يواجهها تطبيق هذا المنهج الجدلى هى أنه قد افترض أن المجتمع الشيوعى العالمى هـــو « المركب » النهائى الذى لن يؤلف بعد ذلك « قضية » تدخل فى اطار العملية الجدلية(٢٦) •

والواقع أن تأثير نظرية ماركس على الحركات الاشتراكية كان تأثيرا بعيد المدى • ذلك أن معاصريه وتلاميذه قد اهتموا بتطبيق نظريتـــه على مرحلة النمو البرجوازى الذى شهدته كل من بريطانيا وألمانيا خلال القرن التاسع عشر • لقد بدت النظرية لهم وكأنها تقدم تفســـيرا بســـيطا لماضى مجتمعاتهم وحاضرهم ومستقبلها • فهى توضح طريق خلاص البروليتاريا من استغلال الرأسماليين ، وتعالج باستفاضة الاستقطاب الطبقى المترتب على الاستغلال ، مما سيكون عاملا حاسما فى انتصـــار الحـــركة الثورية للعمال • ولن يتحقق مثل هذا الانتصار بجهود البروليتاريا فقط ، بـــل إن تناقضات المجتمع الرأسمالى سوف تكون أفضل ضـــمان لنجاح الثورة • ولسوف يرث العمال بعد الثورة مجتمعا غنيا يختفى فيه تقسيم العمـــل وما يرتبط به من استغلال طبقى ، وستتاح أول فرصة فى التاريخ لممارســـة الديموقراطية الحقيقية(٢٧) • والملاحظ أن ماركس قد أدرك بوضـــوح أن

---

(٢٦) عالجنا هذه النقطة من زاويتين مختلفتين فى مواضع أخرى . انظر : السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٧٧٧ ، وكذلك السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنميـــة الاجتماعية ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ . والمـــلاحظ ان معالجتنا للفكر الماركسى قد تركزت فى المؤلف الاول على التنظيمات البيروقراطية ، وفى المؤلف الثانى انصبت على التخلف والتنمية .

(٢٧) انظر على وجه الخصوص : السيد الحسينى وآخرون ، دراســـات فى التنمية الاجتماعية المرجع السابق .

المجتمع الرأسمالى بقوانينه المتمثلة فى تراكم رؤوس الامــوال ، وفائض القيمة ، والافقار المطلق ، يحمل فى ثناياه بذور فنائه • فهو أشبه بســاحر فقد سيطرته على القوى التى يزعم التحكم فيها[٢٨] • واذن فهدف الحركة الثورية للعمال ــ عند ماركس ــ هو الاطاحة بالبرجوازية • اذ أن المرحلة الرأسمالية لا تعدو أن تكون نقطة على طريق التحول نحــو المجتمــع الشيوعى • ومن هنا بدت حركة البروليتاريا وكأنها حركة حاسمة • ولقد أوضح أفنيرى Avineri ذلك بقوله : « نظر ماركس الى البروليتاريا على أنها الوسيلة المعاصرة والنهائية لتحقيق الثــورة العالمية • لذلك ليس من الدهشة فى شىء أن يمنح هذه الطبقة دورا تاريخيا هاما »[٢٩] • وتبدو هذه النقطة هامة اذا ما علمنا أن البروليتاريا الصناعية وقت أن كتب ماركس مؤلفاته لم تكن تشكل الا قلة قليلة من السكان ، لكنه يؤكد ــ مع ذلك ــ أن كل الحركات التاريخية السابقة قامت بها أقليات لتحقيق أهدافها • أما حركة البروليتاريا فتتميز باستقلالها ووعيها الذاتى واستنادها الى غالبية كبيرة من أجل تحقيق مصــالحها[٣٠] • وفى ضــوء ذلك كله يمكننا أن نفهم سر الجاذبية التى تميزت بها وجهات نظر ماركس وبدت فى نظر قادة الحركات العمالية وبعض قطاعات الطبقة الوسطى مصدر الهام كبير • وعلى الرغم من أن ماركس وانجلز قد كتبا الكثير للدفاع عن « علمية » نظريتهما ، الا ان الطابع الايديولوجى لها قد بلغ درجة من الوضــوح بحيث أصــبح من الصعب على بعض قادة الحركات العمالية الوقوف كثيرا أمام التحليــل الدقيق لحركة تطور المجتمعات والقوى التى تحكمها[٣١] •

ولقد كان لتأكيد ماركس « لعالمية » ثورة البروليتاريا أهمية خاصــة

(28) Shlomo Avineri, The Social and Political Thought of Karl Marx, op. cit. 152.

(29) Ibid. p. 59.

(30) Manifesto of the Communist Party, op. cit. pp. 67-68.

(31) D. Mac Rae, Ideology and Society : Papers in Sociology and Politics, Heinemann, London, 1961.

بالنسبة للحركات الاجتماعية والسياسية • فكفاح الطبقة العاملة فى مختلف أنحاء العالم موجه الى النظام الرأسمالى العـالمى • وعلى الرغم من أن النضال الثورى قد يبدأ بداية محلية أو قومية ، الا أنه ما يلبث ان يتخـذ طابعا عالميا • ومن هنا يبدو أن دعوة ماركس للأحزاب والحركات الشيوعية والاشتراكية تقوم على تدعيم التعاون بينها وتبنى استراتيجيات دولية • ومع ذلك فلقد واجهت الحركات الاشتراكية الاوربية صعوبات فى تلبية هذه الدعوة • اذ أن النظرية الماركسية كنظرية علمية كانت بحاجة الى مزيد من الصدق الواقعى ، على الرغم من أن ماركس نفسه قد اعتبر أن ما توصـل اليه فى مجال العلم الاجتماعى يوازى فى أهميته ما توصل اليه داروين فى مجال العلم الطبيعى(٣٢) • وفضلا عن ذلك فلقد أدركت هـذه الحـركات الاشتراكية أن تنبؤات وتوقعات ماركس المتعلقـة بالاسـتقطاب الطبقى ومستقبل النظام الرأسمالى بحاجة الى تحفظ شديد • فقد تستطيع الطبقة العاملة ان تحقق ما أمله ماركس ، لكن ذلك يتطلب حدوث تغيرات هامة على بناء المجتمع الرأسمالى ووظائفه • وعلى الرغم من أهمية البعد الطبقى فى فهم المجتمعات ، الا أن ماركس لم يهتم بأبعاد أخرى لا يمكن التقليل من شأنها • من ذلك ــ مثلا ــ القومية وما يرتبط بها من صراعات ، والتفرقة العنصرية وما تؤدى اليه من انقسامات ، فضلا عن المنافسة بين الـدول الرأسمالية ذاتها(٣٣) • والمؤكد أن القادة الثوار الذين انطلقوا من نظـرية ماركس أمثال لينين وماوتسى تونج كانوا على وعى شديد بهـذه النقاط ، وحاولوا ان يقدموا لها تصورات خاصة • وبغض النظر عن النقد التفصيلى الذى يمكن ان يوجه للنظرية الماركسية ، الا أنها قد ظلت ــ ولا تزال ــ تمثل مصدر الهام لكثير من الحركات السياسية والاجتماعية المعاصرة على نحو ما سنرى فى موضوع لاحق •

(32) Karl Marx, Preface to Capital, vol. I. Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1965, p. 10.

(٣٣) انظر تحليلا موازيا فى : ت. ب. بوتومور ، الطبقات فى المجتمـع الحديث ، ترجمة محمد الجوهرى وزملاؤه ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، الفصل الاول .

(٢)

وتشير النظرية التاريخية المتأنية الى أن الحركات الاجتماعية تتخذ أبعادا مختلفة واتجاهات متباينة بحيث يصعب فى بعض الاحيان تحديد طابعها الثابت والاشكال العديدة التى تتخذها • ولقد أوضحت مارجريت كول Cole أن الاشتراكية البريطانية — مثلا — كانت تتضمن من وقت لآخر خصائص بعض الحركات الطبقية والدينية والاخلاقية والقومية[٣٤] • واذا كان البعد الطبقى قد ظل هو البعد المسيطر على هذه الاشتراكية ، الا أن ذلك يجب ألا يجعلنا نتجاهل وجود أبعاد أخرى تمارس تأثيرا هاما عليها • ومثل هذا يمكن أن يقال عن النازية • فلقد استندت فيما استندت اليه على مفاهيم متعددة منها القومية ، والامبريالية ، والعنصرية • وربما كانت نظرية ماركس من أوضح النظريات التى تناولت بطريقة قاطعة بناء الحركات الاجتماعية وطابعها • فكل حركة تتحدد — أساسا — فى ضوء طبيعة العلاقات الانتاجية السائدة ، بحيث تصبح — أى الحركة — تعبيرا عن المصالح والصراعات الطبقية • ولقد تعرضت وجهة نظر ماركس هذه للنقد المرير • فمن الصعب — كما يقول كوبان Cobban — تطبيق مفهوم الطبقة على المجتمعات التى لم تشهد ثورة صناعية ؛ اذ أن ذلك ينطوى على تعسف شديد[٣٥] • كذلك فان اعتماد نظرية ماركس على الطبقة كمفهوم محورى قد يحول دون تقديم تحليلات تاريخية كافية لمختلف أشكال الحركات الاجتماعية (كالدينية والقومية والفكرية) • لكن ذلك لا يقلل — بأى حال من الاحوال — من الاهمية الخاصة التى تمثلها الظروف الاجتماعية المادية عند تفسير الحركات المختلفة تفسيرا تاريخيا •

وبالامكان تفسير الصعوبة التى يواجهها العلم الاجتماعى الغربى عند

---

(34) Margaret Cole, The Story of Fabian Socialism, Heinemann, London, 1961.

(35) Alfred Cobban, The Social Interpretation of French Revolution, Cambridge University Press, London, 1964.

تحديد أشكال الحركات الاجتماعية اذا ما أدركنا أن هذا العلم لم يستطع حتى الآن الوصول الى نظرية شاملة تفسر السلوك الجمعي[٣٦] • وربما كان آرثر بنتلى Bentley من أبرز العلماء الاجتماعيين الذين حاولوا صياغة نظرية فى سلوك الجماعة • فهو لا ينظر الى الجماعة على أنها مجرد قطاع من المجتمع مؤلف من أفراد ، بل على أنها مجموعة من النشاطات يقوم بها الافراد فى نفس الوقت الذى يقومون فيه بنشاطات أخرى فى جماعات مختلفة[٣٧] • ويذهب بنتلى الى أن من الممكن تعريف الجماعة فى ضوء « مصالحها » ، ثم يعرف « المصلحة » بأنها التزام أعضاء الجماعة ازاء بعض الدعاوى فى مواجهة الجماعات الاخرى • ومن ثم يصبح النسق الاجتماعى — فى نظر بنتلى — مؤلفا من شبكة من الجماعات المتفاعلة • وعلى ذلك نجد هذه النظرية تؤكد — بشكل متزايد — أن حركة الدفع والمقاومة بين الجماعات هى العامل المحرك للتغير السياسى ، وأن حالة المجتمع فى وقت معين هى حالة التوازن بين الجماعات الضاغطة[٣٨] • ومن الواضح أن هذه النظرية تنطوى على تبسيط مبالغ فيه لديناميات المجتمع ، فضلا عن أنها محدودة للغاية اذا ما حللناها ايديولوجيا وثقافيا • اذ أنها تفترض أن كل الجماعات سوف تقبل أدوار بعضها البعض فى ظل نظام جماعى ، وأن أى جماعة سوف تقتنع بأن النصر الذى ستحققه سيكون على حساب التنازل الذى ستقدمه الجماعة الاخرى • واذا ما طبقنا هذه النظرية على الواقع السياسى فى الدول الديموقراطية الغربية ، فاننا سنجدها بعيدة عن الصدق • فالجماعات العسكرية المناضلة لا تأخذ فى اعتبارها ضرورة الالتزام بالمعايير التى تنظم العلاقات بين الجماعات، فضلا عن أنها قد تتبنى مفاهيم ومعتقدات سياسية تطالب باحداث تغييرات جذرية على مستوى المجتمع • وبرغم الانتقادات التى تعرضت لها هذه النظرية ، الا أنها لا تزال تجذب بعض

---

(36) David Truman, «Political Group Analysis», in International Encyclopedia of the Social Sciences, vol. 12, 1968, pp. 241-5.

(37) Arthur Bentley, The Process of Government, University of Chicago Press. 1958, 211.

(38) Ibid. p. 258-259.

العلماء السياسيين المعاصرين بسبب تركيزها على ديناميــات العمليـــة السياسية[٣٩] •

وربما كان غموض مفهوم الجماعة أحد الاسباب التى عاقت العلماء الاجتماعيين عن تقديم تصنيف شامل ومقنع لانماط الجماعات • فعلى سبيل المثال نجد البعض يميل الى قصر استخدام مفهوم الجماعة الضاغطة على التنظيمات التى تتولى تخطيط السياسة العامة وتنفيذها • بينما نجد آخرون يميلون الى استخدام مصطلح « اللوبى » Lobby للاشارة الى كل أشكال الجماعات التى تهتم بالسياسة العامة ســواء من ناحيــة الاســتشارة أو التشريع • بل اننا نجد بعض الدارسين يميزون بين الجمــاعات التى لديها مطالب أساسية وتلك التى تحاول تفادى الخلافات الثانوية التى تستطيع الحكومة حلها أو الحد منها[٤٠] • لكننا نجد ــ مع ذلك ــ محاولة نظــرية هامة قدمها عالم الاجتماع السياسى فرانسيس كاسيل Castles لتصنيف الجماعات على أساس مقارن[٤١] • فلقد استخدم مفهوم « الجمـــاعة الضاغطة » بمعنى واسع جدا ، وعرفها بأنها « تلك الجماعة التى تحــاول احداث تغيير سياسى سواء داخل النشاط الحكومى أو خارجه »[٤٢] • غير أن كاسيل لم يوضح لنا المقصود بالتغير السياسى ، وأن كان قد أشار فى مواضع أخرى الى أنه يقصد بالضغط السياسى محاولة تغيير نظام الحكم أو على الاقل نمط الحكم • وعلى ذلك نجده ينظر الى الحركات والمنظمات القومية على أنها تدخل فى معنى الجماعات الضاغطة • ومن الانتقادات التى يمكن أن توجه الى تعريف كاسيل أنه لم يفطن الى أن كثيرا من الحــركات

---

(39) Robert A Dahl, Pluralist Democracy in the United States, Rand Mc Nally, Chicago, 1967.

(٤٠) انظر على سبيل المثال :

J. G. La Palombara, Interest Groups in Italian Politics, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1964, J. D. Stewart, British Pressure Groups, Oxford University Press London, 1958.

(41) Francis G. Castles, Pressure Groups and Political Culture : A Comparative Study, Routledge and Kegan Paul, London, 1967.

(42) Ibid. p. 2.

الاجتماعية تتخذ ــ وبطريقة تلقائية ــ أشكالا تنظيمية بحيث تبدو وكأنها أقرب ما تكون الى الاحزاب السياسية ، فضلا عن أن التعريف يفتقد الى الشمول والمرونة • فهو يستبعد من نطاقه كثيرا من الجماعات التى تطالب باحداث تغييرات لا تدخل فى نطاق السياسة بالمعنى الضيق • من ذلك ــ مثلا ــ حركات تحديد النسل ، وحركات احياء التراث الثقافى واللغوى • ان مفهوم الحركة الاجتماعية يعبر عن نطاق واسع جدا من الجهود الجماعية فى مختلف المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية • لذلك قد يكون من المفيد النظر الى الجماعة الضاغطة على أنها شكل تنظيمى خاص من أشكال الحركات الاجتماعية •

إن على أى تصنيف شامل دينامى للحركات الاجتماعية أن يأخذ فى اعتباره عوامل عديدة منها : طبيعة الالتزام بالتغيير السياسى ، والشكل التنظيمى الذى قد تتخذه الحركات الاجتماعية ، فضلا عن تنوع وتعدد المبادىء التى قد تتبناها • فحركة الحقوق المدنية التى تزعمها مارتن لوثركنج Luther King فى الولايات المتحدة الامريكية كانت تمثل حملة أخلاقية ، ودعوة اصلاحية ، وعدالة دينية فى آن واحد[٤٣] • كذلك فان الحركة الاجتماعية الواحدة قد تتخذ أشكالا تنظيمية مختلفة • فالحركات القومية والطبقية والاصلاحية والثورية قد تعبر عن نفسها فى شكل أحزاب سياسية أو جماعات ضاغطة ، أو نقابات عمالية ، أو تنظيمات ثقافية ، بل انها قد تجمع بين كل هذه الاساليب فى وقت واحد • وفى ضوء الاعتبارات السابقة يمكننا الاشارة الى عدة أشكال للحركات الاجتماعية المعاصرة • فهناك الحركات الاجتماعية الدينية ، والريفية ، والحضرية ، والقومية ، والعنصرية ، والطبقية ، والاخلاقية ، والثورية ، والثقافية ، فضلا عن تلك التى يشكلها الشباب والنساء • وينطوى هذا التصنيف على فوائد عديدة • فهو يمكننا من التعرف على كيفية نشأة الحركات الاجتماعية والظروف الاجتماعية

(43) R. Bainton., Here I Stand : A Life of Martin Luther, The New American Library, New York, 1956.

(44) R. Heberle, «Types and Functions of Social Movements», op. cit.

والاقتصادية والسياسية التى تؤدى من خلالها وظائفها ، كما يساعدنا على تحليل الايديولوجيات المختلفة التى تتبناها الحركات الاجتماعية • وأخيرا فهو يعيننا على فهم الطابع السياسى الذى تتخذه ، وهو الطابع الذى طالما أكده هيبيرل Heberle فى كتاباته • إن النشاط السياسى هو أحد الابعاد الهامة التى تساعدنا على فهم بناء الحركة الاجتماعية وديناميانها • ونحن نقصد بالنشاط السياسى ذلك العمل المتعلق بتوزيع السلطة وممارستها • ويدخل فى نطاق ذلك المناقشات النقدية التى تدور حول كيفية استخدام السلطة واعادة توزيعها ، فضلا عن تلك التى تطالب بالغاء السلطات الحكومية واستخدام أخرى جديدة • وقد يجد بعض علماء الاجتماع اغراءا كبيرا فى دراسة بعض الحركات الاجتماعية ذات النشاط السياسى الواضح كالعنف والتظاهر والتمرد ، لكن ذلك يجب ألا يجعلنا نغفل تلك الحركات ذات التأثير البعيد المدى • فالحركات المناهضة للرق ـــ مثلا ـــ أسهمت اسهاما كبيرا فى التأثير على البناء الاجتماعى الامريكى ، على الرغم من أن البعد السياسى لهذه الحركات يبدو أقل وضوحا من البعد الاجتماعى[٤٥] •

(٣)

واذا ما تناولنا الحركات الاجتماعية الريفية لاحظنا تأثيرها الهائل على البناء الاجتماعى ، على الرغم من أن البعض يذهب الى صعوبة رصدها بسبب اختلاف طبيعتها[٤٦] • فقد تظهر هذه الحركات فى شكل انتفاضات لا تستمر سوى فترة محدودة بحيث يصعب تحليلها والوقوف على آثارها • وقد تبدو فى صورة تمرد عنيف بحيث لا يستطيع النظام السياسى القائم مقاومته • والواقع أن دراسة الحركات الاجتماعية الريفية هى فى نهاية الامر تحليل للدور الذى لعبه الفلاحون خلال الانتفاضات والثورات التى شهدتها روسيا

---

(45) Barrington Moore, Social Origins of Democracy and Dictatorship, Allen Lane, The Penguin Press, London, 1967.

(46) E. J. Hobsbawm, Primitive Rebels, Manchester University Press, 1959.

والمكسيك وكوبا والجزائر خلال القرن العشرين • لكن محاولة التعرف على هذه الحركات قد تصطدم بمشكلات نظـرية وايديولوجية • فالفلاحون فى نظر بعض الدارسين يشكلون « طبقة » ، وفى نظر البعض الآخر يشكلون « برجوازية صغيرة » • ويترتب على ذلك اختلاف واضح فى تحديد موقعهم الطبقى • وبغض النظر عن هذا الاختلاف ، فان الامر الذى يبدو واضـحا هو أن موقف الفلاحين ينطوى على قدر من الازدواجية • فهم ــ من ناحية ــ يشكلون طبقة اجتماعية خاضعة عموما لسيطرة طبقات أخرى • وهم ــ من ناحية أخرى ــ يشكلون عالما مختلفا ، عالما يتصف بالاكتفاء الذاتى وبعلاقات اجتماعية مستقلة متميزة الى حد ما[٤٧] •

هذا وقد شهدت السنوات الاخيرة محاولات نظرية عديدة سعت الى تجاوز وتخطى الجدل الذى ثار طويلا حول طبيعة الوضع الطبقى للفلاحين فى المجتمع • فعلى سبيل المثال يذهب شانين Shanin الى أن انقسـام الفلاحين الى مجتمعات محلية ، وانتمائهم الى جماعات متباينة ذات مصالح متفاوتة داخل هذه المجتمعات المحلية قد حال دون ظهور أهداف قوميـة واضحة ، وزعامات وطنية قوية ، وتنظيمات سياسية فعالة تعبر عن مصالحهم وآمالهم • كذلك كان للتخلف التكنولوجى (وعلى الاخص فى مجال الاسلحة والخبرة التكتيكية) الذى ميز حياة الفلاحين أكبر الاثر فى اجهاض كثير من الاعمال السياسية التى حاولوا القيام بها عبر تاريخهم • غير أن الفلاحين ــ مع ذلك ــ يملكون مصادر قوة اجتماعية وسياسية لا يمكن تغافلها • فهم منتجو المواد الغذائية ، وهم ينتشرون فى منـاطق ريفية شـاسعة ، وهم بالاضافة الى ذلك كله يشكلون الغالبية العظمى من الجنس البشرى[٤٨] •

---

(٤٧) السيد الحسينى ، القرية فى البلاد النامية ، دراسة نقدية لاتجاهات التغير الاجتماعى ، فى دراسات فى التنمية الاجتمـاعية ، المرجع السـابق ، ص ٤١١ •

(٤٨) تيودور شانين ، الدور التاريخى للفلاحين ، ترجمة السيد الحسينى ، فى دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٣ •

ويبدو أن فرص تأثير الفلاحين فى المجال السياسى تزداد بشكل واضح وملحوظ خلال فترات الازمات الوطنية ، وعلى الاخص حينما تنشب صراعات يكون حسمها متوقفا على الدور الذى يمكن أن يلعبه الفلاحون (٤٩) •

وبالامكان التمييز بين ثلاثة أنماط متميزة من العمل السياسى الذى يقوم به الفلاحون • هناك أولا العمل السياسى الطبقى المستقل ، وهو العمل الذى يمكن أن يتم فى ضوء النظرية الماركسية فى الطبقة • وفى هذا النمط من العمل السياسى نجد الطبقة الاجتماعية تتبلور وتتحدد من خلال الصراع وتخلق تنظيمها القومى الشامل ، وتقوم بصياغة أيديولوجيتها وأهدافها ورموزها ، وتحدد القيادات الضرورية لممارسة النشاط السياسى • أما النمط الثانى فهو العمل السياسى الموجه حيث نجد الفلاحين يتحركون بتأثير صفوة خارجية متحدة • أى أن التنظيم الخارجى هنا يمثل بالنسبة للفلاحين العامل الملهم الذى يوحد صفوفهم ويجمع شملهم على مستوى الامة بأسرها • أما النمط الثالث والاخير فهو العمل السياسى التلقائى • وقد يتخذ هذا النمط أحد شكلين : الاول الشغب المحلى الذى ينشأ فجأة ـ ولفترة وجيزة نسبيا ـ نتيجة للاحباطات المتراكمة والاحساس بالظلم • وعادة ما تتمكن السلطات الحكومية من قمع هذا الشغب واحداث بعض التعديلات فى نظم الدولة • ومع ذلك فقد يكون هذا الشغب عاملا مساعدا على تفجير أزمة حادة كانت قائمة بالفعل ، مما قد يهدد النظام السياسى فى المجتمع • أما الشكل الثانى فيتمثل فى سلبية الفلاحين • فلقد عرف التاريخ محاولات عديدة أبدى فيها الفلاحون مقاومة سلبية (كتخفيض الانتاج مثلا) من أجل تحديد مجرى أحداث معينة(٥٠) •

وهناك شواهد معاصرة عديدة تشير الى أن الفلاحين خلال القرن

---

(49) Alavi, H. «Peasantry and Revolution», The Socialist Register, 1965, Merlin Press.

(٥٠) المرجع السابق وانظر أيضا :
Barrington-Moore, Jr., Social Origins of Dictatorship and Democracy, op. cit.

العشرين قد لعبوا دورا هاما فى عدد من الانتفاضات والثورات • من ذلك الثورة المكسيكية فى سنة ١٩١٠ ، والثورتان الروسيتان فى سنتى ١٩٠٥ و ١٩١٧ ، والثورة الصينية التى تمت على مراحل عديدة تبدأ من سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٤٨ ، والثورة الفيتنامية التى نبتت جذورها خلال الحرب العالمية الثانية ، والثورة الجزائرية التى بدأت فى سنة ١٩٥٤ ، وأخيرا الثورة الكوبية فى سنة ١٩٥٨ (٥١) • ولا شك أن الدور الذى لعبه الفلاحون فى هذه الثورات قد لفت أنظار بعض الدارسين المحدثين لما يمكن أن يسهم به فلاحو الدول النامية فى تغيير مجتمعاتهم • وتبدو أهمية هذه النقطة اذا ما علمنا أن النظرة العلمية التقليدية للفلاحين كانت تميل الى استبعاد فكرة قيامهم بانتفاضة أو حركة اجتماعية • فهم (أى الفلاحون) مضطرون على الدوام للامتثال والانصياع والانضباط وتحمل الاخطاء السياسية التى يرتكبها الحكام • وتستند هذه النظرة الى عدة اعتبارات • من ذلك — مثلا — أن الفلاح يفلح أرضه بمفرده ولا يرتبط بالآخرين الا فى حدود معينة ، وأنه يدخل فى علاقات تنافسية مع الآخرين من أجل الحصول (أو التحكم) على المصادر الاقتصادية فى القرية • كذلك فان العبء الشديد الملقى على عاتق الفلاح نتيجة لظروف عمله القاسية ذات الطبيعة الروتينية ، من شأنه أن يحول بينه وبين الاندماج أو الارتباط السياسى • وفضلا عن ذلك فان روابط القرابة الممتدة والتزامات المساعدة المتبادلة داخل القرية قد تحول بينه وبين تبنى نظرة أكثر شمولا للمجتمع الكبير الذى يعيش فى ظله • يضاف الى ما سبق أن مصالح الفلاحين — وعلى الاخص الفقراء منهم — غالبا ما تتقاطع تقاطعا عرضيا مع طبقات أخرى داخل المجتمع • فقد يكون الفلاح — فى

---

(51) Eric Wolf., «On Peasant Rebellions», International Social Science Journal», Vol, 21, 1969.

وهذا لا ينفى — بطبيعة الحال — ظهور حركات فلاحية فى دول نامية أخرى . وتعد الهند مثالا على ذلك . فلقد سجل شودرى Chaudhuri نشوب احدى عشرة حركة فلاحية ضد كبار ملاك الارض خلال فترة الحكم الاستعمارى البريطانى . انظر :

Chaudhuri., Civil Distrubances During the British Rule in India, 1765-1857, Calcutta, 1955.

وقت واحد ــ مالكا ، ومستأجرا ، وصاحب متجر • ومن الطبيعى أن يؤثر هذا الانتماء المتعدد على طبيعة الوضع الطبقى الذى ينتمى اليه الفلاح وبالتالى على نظرته نحو العالم(٥٢) •

وتشير وقائع الحركات الاجتماعية والسياسية التى أسهم فيها الفلاحون خلال هذا القرن الى حقيقة أساسية تتعلق بأكثر الفئات ميلا للارتباط والمشاركة فى حوادث الثورة أو الانتفاضة • ذلك أن هناك فئتين أساسيتين يبدو أنهما وقفتا موقفا ايجابيا من هذه الحوادث هما : الفلاحون ذوو الحيازات الزراعية المتوسطة ، والفلاحون الذين يعيشون فى مناطق لا تخضع مباشرة لسيطرة وتحكم الاقطاعيين • فالاولون يمثلون السكان الريفيين الذين يتمتعون ــ بالفعل ــ بملكية قطعة معينة من الارض يفلحونها بأنفسهم • ومن شأن هذا الاستقلال النسبى أن يمنح هؤلاء الفلاحين قدرا أدنى من الحرية التكتيكية فى مواجهة الاقطاعيين • وما يقال عن هؤلاء يقال أيضا بالنسبة للفلاحين الذين يعيشون فى مناطق بعيدة نسبيا عن تحكم الاقطاعيين • والملاحظ أن ملكية الارض بالنسبة لهؤلاء الفلاحين الاخيرين ليست هى المصدر الاساسى لحياتهم ، فهم يقومون بأعمال موسمية مختلفة قد لا تخضع مباشرة لسيطرة القوة الخارجية • ولقد أثبت هؤلاء الفلاحون قوتهم التكتيكية خلال انتفاضات الفلاحين • ومن أمثلة ذلك ما حدث فى قرية موريلوس Morelos فى المكسيك ، والكوميونات التى أنشئت فى الاقاليم الزراعية فى روسيا ، وتلك التى أقامها الشيوعيون الصينيون بعد مسيرتهم الكبرى(٥٣) •

---

(٥٢) السيد الحسينى ، القرية فى الدول النامية ، دراسة نقدية لاتجاهات التغير الاجتماعى ، فى دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق ، ص ص ٤١٤ وما بعدها . وانظر أيضا :

J. M. Halpern, The Changing Village Community. Prentice-Hall, 1967, Passim.

(53) Wolf, E., «Peasant Rebellions», op. cit.

هذا وقد أوضح بارنجتون مور Moore ــ مع ذلك ــ أن اغلب انتفاضات الفلاحين (باستثناء أكثرها شعبية) كانت أقرب الى العصيان منها الى الثورة . كما أن ضعف البناء الاجتماعى الاقتصادى فى بعض الدول النامية (وعلى الاخص

هذا وقد احتد الجدل بين علماء الاجتماع حول امكانية تحول انتفاضة الفلاحين الى ثورة حقيقيــة ، أى تحول الجهــود التى يبذلونها لتصحيح الاخطاء الى محاولــة قلب نظام الحــكم ذاته . هنا يذهب المــاركسيون الى أن الفلاحين لا يستطيعون القيام بثورة دون الاستعانة بقيادة خارجية على نحو ما حدث فى الثورة الصينية(٥٤) . غــير أن الشــواهد المتعلقــة بالانتفاضات (أو الثورات) التى أشرنا اليها من قبل لا تؤيد ذلك تماما . فحينما تمكن الفلاحون ــ بنجاح ــ من التمرد على النظام القائم (فى ظــل قياداتهم) استطاعوا ــ بعد ذلك ــ اعادة تشكيل البناء الاجتماعى للريف ، بحيث أصبح هذا البناء ملائما لمصالحهم ورغباتهم . لكن قدرات هــؤلاء الفلاحين المتمردين لا تستطيع أن تتعدى هذه الحدود ، أى أنهم لا يستطيعون الاطاحة بنظام الحكم القائم ككل (الذى يتمركز أساسا فى المدن الكبرى) والتحكم فى النشاطات غير الزراعية . ولعل ذلك هو ما حــدث تمــاما فى المكسيك وروسيا . فلقد ظل الفلاحون المتمردون يقيمون فى مناطقهم الريفية ولم يتمكنوا من مواجهة المركب الصناعى ــ العسكرى ــ التجارى المتمركز أساسا فى المناطق الحضرية . بعبارة أخرى فان كلا من التجارة والتصنيع قد وضعت حدودا معينة لانتفاضة الفلاحين(٥٥) .

= الصين وروسيا) كان عاملا مساعدا على هذه الانتفاضات . غير ان ذلك يجب الا يدفعنا الى التسليم بأن الدول التى شهدت انتفاضات فلاحية كانت تخبر ظروفا اجتماعية سياسية متماثلة . انظر :

Moore, B. Jr., Social Origins of Dictatorship and Democracy, op. cit. esp. Chap. 4.

(54) D. Mitrany, Marx Against the Peasant, Collier, 1961.

(٥٥) وهناك عوامل أخرى يمكن أن تلعب دورا هاما فى تحديد حجم وتأثير وفعالية الثورة أو الانتفاضة الفلاحية . من ذلك الموقع الجغرافى للاقليم أو القرية بالنسبة للسلطة المركزية (أى سلطة الدولة) . ولقد أوضحت التجارب الثورية المختلفة التى اشرنا اليها أن المناطق الريفية البعيدة من السلطة المركزية قــد تكون اكثر ميلا للتمرد والاحتجاج . ويصدق ذلك على جنوب الصين الذى كان بداية لحركات العنف الثورى ضد الحكومة الصينية . وفى المكسيك كانت المناطق الريفية الشمالية مصدرا للانتفاضات . لكننا ــ مع ذلك ــ يجب الا نغفل عاملا آخر هو الاحتكاك الثقافى . فأحداث جنوب الصين كانت الى حد ما ــ نتيجــة

(٤)

وتمثل القومية مصدرا هاما للحركات الاجتماعية والسياسية • وبرغم وفرة التراث المتعلق بالقومية كمفهوم سياسى ، الا ان التراث الذى يتناول القومية كحركة اجتماعية يتصف بالندرة النسبية • والواقع أن أوربا خلال العصور الوسطى لم تكن تعرف القومية بمعناها المذهبى الحديث • فلقد كانت وحدة الدول الاوربية مستندة الى انتماء دينى ولغوى واحد فى ظل ملكيات وراثية • ولم تكن الحدود واضحة تماما بين هذه الدول (أو الامبراطوريات فى بعض الاحيان) ، كما أنها (أى الحدود) لم تكن تخضع كثيرا لاعتبارات التجانس العنصرى أو اللغوى أو الدينى• والواقع أن طبيعة النظام السياسى فى المملكة كان يتحدد — الى حد كبير — فى ضوء حصيلة الصراع الذى كان ينشأ بين الملك من ناحية ومنافسيه العسكريين والسياسيين من ناحية أخرى • أما ولاء الشعب فكان يتخذ ثلاثة اتجاهات : الاول نحو الكنيسة (بوصفها كيانا مستقلا عن السلطة الزمنية) ، والثانى نحو الملك (بوصفه تعبيرا سياسيا) ، والثالث نحو سيد المقاطعة أو الاقليم • ومن ذلك يبدو واضحا أن مفهوم « الامة » لم يكن له معنى سياسيا حتى نهاية القرن الثامن عشر • ولقد عبر قدورى Kedourie عن ذلك بوضوح حين قال : « إن الامة لم تكن تعنى أكثر من مجموعة من الجماعات تشترك فى مكان ميلاد واحد ، كما أنها كانت أكبر من الاسرة وأقل من العشيرة »[٥٦] •

= للاحتكاك بالغرب ، وأحداث المكسيك فى الشمال كانت نتيجة للمؤثرات الوافدة من الولايات المتحدة . لمزيد من التفصيل انظر :

Alavi, H. «Peasantry and Revolution», op. cit.

(56) Elie Kedourie. Nationalism, Hutchinson, London, 1960

وانظر أيضا : H. M. Chedwick, The Nationalities of Europe and the Growth of National Ideologies, Cambridge University Press, 1966. Hans Kohn, The Age of Nationalism, New York, 1962. L. Snyder, The Dynamics of Nationalism, Readings in its Meaning and Development, Princeton, 1964.

ويبدو أن هناك إتفاقا واضحا بين علماء السياسة على أن أصول القومية السياسية الحديثة تكمن فى الاتجاهات التاريخية التى شهدتها الدول الأوربية الغربية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، حينما بدأ الولاء للملك ولحكومته يتسع ليشمل قطاعا أكبر من الطبقة الحاكمة وإلتزاما أقوى بمصالح الشعوب • ومع ذلك يبدو أن هناك اتجاها بارزا لعب دورا واضحا فى بلورة القومية كمفهوم سياسى ، يتمثل فى زيادة الاحساس بالتشابه الثقافى واللغوى بين الجماعات المختلفة ، ذلك الاحساس الذى إزداد قوة ورسوخا بفضل سيطرة النزعة التجارية وظهور الحكومات المركزية • وما لبثت الدولة الحديثة أن ظهرت الى حيز الوجود بوصفها وحدة سياسية أوربية أكثر تعبيرا عن الانتماء الاجتماعى والسياسى(٥٧) • وبرغم ذلك فان الحركات القومية ومضامينها السياسية لم تتبلور بوضوح الا بقدوم الثورة الفرنسية(٥٨) • ففى كتابات روسو Rousseau نجد أقوى دفاع عن مفهوم الدولة الحديثة ، بل ان هذا الدفاع لايزال يمثل أساس القومية كمعتقد سياسى • ولقد طرح روسو أفكارا هامة منها حق كل أفراد الشعب فى السيادة ، وضرورة تحقيق التضامن القومى ، والمواطنة ، والمساواة فى الحقوق السياسية والتعامل أمام القانون • ومن الواضح أن هذه الأفكار قد تجاوزت الاختلافات العنصرية والدينية واللغوية ، مؤكدة حق جميع الأفراد فى تكوين أمة ذات تنظيم سياسى عام • وهكذا أصبح المجتمع الانسانى مؤلفا من وحدات قومية تشكل أمما حديثة • والواقع أن الدول النامية شهدت فى هذا المجال بعض الأعراض السياسية التى شهدتها الدول الأوربية الغربية منذ قرنين من الزمان • فبانحسار الاستعمار ابتداء من سنة ١٩٤٥ بدأت فكرة الدولة القومية الحديثة تظهر الى حيز الوجود مرة

---

(57) E. H. Karr., Nationalism and After, papermac, London, 1968.

(٥٨) لمزيد من التفصيل انظر : عبد الكريم أحمد ، القومية والمذاهب السياسية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٢ .

ثانية • ويكفى أن نعلم أن حوالى نصف الدول القائمة اليوم قد ظهرت بعد سنة ١٩٤٥(٥٩) •

ولقد خضعت القومية كحركة سياسية لانتقادات عديدة • فمن الناحية العملية ذهب البعض الى أنه ليس هناك اتفاقا واضحا على كيفية تحديد الأمة • فالشعوب تتقاطع تقاطعا عرضيا فيما يتعلق بالاعتبارات اللغوية والعنصرية والثقافية بحيث يصعب فى بعض الأحيان تحديد معالم خالصة لشعب معين • ففى معاهدة فرساى — مثلا — لم يتم التوصل الى محددات قومية واضحة يمكن الوصول على أساسها الى نتائج منطقية عند رسم الوحدات القومية • ومن الحقائق المعروفة تاريخيا أن حدود سنة ١٩١٩ قد خلقت مشاكل عديدة للقوميات الصغيرة • كذلك فان اصرار القوميين على حق تقرير المصير القومى فى الدول النامية قد حدا ببعض المفكرين الغربيين الى الاعتقاد بأن هذه الدول قد اتخذت من الديموقراطية الغربية وسيلة للتعبير القومى بما يتطلبه ذلك من اقامة حكومات ديموقراطية ذات طابع غربى وتأكيد الحريات المدنية للمواطنين • وربما كان كار Karr من أوضح الذين حاولوا تقييم الاتجاهات القومية خلال العقود القليلة الماضية • فلقد ذهب الى أن الحركات القومية فى مختلف أنحاء العالم قد أدت الى ظهور « عائلة دولية » ، لكنها فى نفس الوقت ساعدت على ظهور « صراع دولى » • فالقومية كعقيدة سياسية كانت مبررا اضافيا للثورات والحروب وسببا كافيا لظهور الدعايات السياسية التى تستخدم لتبرير الصراعات وزيادة حدتها(٦٠) • ومن الواضح

---

(59) P. Worsley, The Third World; Weidenfeld and Nicolson, 1967, Chap. I.

(60) E. H. Karr, Nationalism and After, op. cit. Passim.

والملاحظ أن بعض الدارسين قد حاولوا وصف الحركات القومية بالعدوانية والعنف . لكن من المهم أن نميز هنا بين القومية فى شكلها الخالص والايديولوجيات العنصرية . والواقع أن من الصعب علينا تصور الانجازات التى حققتها بعض الدول النامية بعد حصولها على الاستقلال دون فهم الدور الذى لعبته القومية كمعتقد سياسى . انظر :

Paul E. Sigmund, Jr., The Ideologies of Developing Nations, London, 1963.

أن وجهة نظر كار تتصف بالمحافظة • فنشوب حروب الاستقلال الوطنى ليس سببا كافيا لاستمرار خضوع بعض القوميات الضعيفة الحديثة للقوميات القديمة القوية •

وتستند القومية كمفهوم سياسى الى دعائم مختلفة • فقد تشكل الاعتبارات الثقافية واللغوية مصدرا هاما لكثير من الحركات القومية كما هو الحال فى دول أوربا الغربية والشرق الأوسط وأفريقيا • وتبدأ هذه الحركات عادة بظهور جماعات من المثقفين الوطنيين يسعون الى ابراز الطابع المميز لقومياتهم ومحاولة اكسابها طابعا سياسيا مستقلا[٦١] • ولاشك أن المفاهيم القومية قد لعبت دورا هاما فى الدول النامية خلال فترة الحكم الاستعمارى • فهى — من ناحية — شكلت أساسا للربط بين القوى الاجتماعية المختلفة داخل الدولة ، ومن ناحية أخرى مثلت دافعا قويا لمناهضة الاستعمار • لذلك يمكن القول إن النزعة القومية فى المجتمعات النامية كانت أحد نتائج الصراع من أجل تحقيق الاستقلال عن الحكم الأجنبى ، كما كانت — فى نفس الوقت — نابعة من طبيعة المشكلات التى تواجه هذه المجتمعات بعد تحقيق الاستقلال ، وبخاصة الحاجة الى بناء أمة متماسكة ، فضلا عن الحاجة الماسة لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية على مستوى قومى • واذن فليس من الغريب فى شىء أن نجد فى معظم المجتمعات النامية حزبا واحدا قاد بنجاح حركة الاستقلال ، ثم جعل من نفسه صفوة حاكمة

---

(٦١) ومع ذلك فهناك شواهد تاريخية عديدة تشير الى ان الوعى القومى يزداد قوة حينما يتعرض للضعف نتيجة غزو خارجى أو تخريب متعمد . وما لم يظهر بديل قوى للاحساس القومى ، فان القضاء عليه يبدو أمرا عسيرا . ويمكننا أن نستشهد على ذلك بما حدث فى ايرلندا وويلز خلال القرن التاسع عشر . فالجماعات العرقية واللغوية التى تعرضت للهجوم بدرجة اكبر كانت أنشط الجماعات فى تطوير ثقافتها والتعبير الجماعى عن آمالها . وفى مقابل ذلك لوحظ أن الجماعات العرقية الكبيرة التى تتمكن — دون تنازلات كبيرة — من الاندماج فى المجتمع الأكبر تستطيع الابقاء على جوانب كثيرة من ثقافتها فى اطار الثقافة العامة للمجتمع . انظر :

Hans Kahn, The Age of Nationalism, op. cit.

تبرر قوتها بالنظر الى أمجادها الماضية ، والوعود التى تقدمها لبناء أمة حديثة • وفضلا عن ذلك فلقد لوحظ فى بعض الدول النامية ربطا واضحا بين مفهومى القومية والاشتراكية ، وان كنا ــ مع ذلك ــ نجد بعض المفكرين يبدون تحفظات عديدة على الدور الذى يمكن أن يلعبه مفهوم القومية فى تحقيق التقدم الاقتصادى والتغير الثقافى ، اذ أنه (أى مفهوم القومية) قد يؤدى بالبعض الى التركيز على أمجاد الماضى كما حدث فى الهند حينما عمل غاندى على إحياء الهندوسية(٦٢) •

وعلى الرغم من أن القومية تمثل فى الأصــل مذهبا سياسيا غربيا ، الا أنها قد تطورت بشكل ملحوظ فى الدول النامية كنتيجة للخبرة الاستعمارية والرغبة فى تحقيق الاستقلال السياسى والاقتصادى • ولقد بذلت هذه الدول جهودا ضخمة لاقامة أجهزة سياسية وادارية فعالة تحل محل تلك التى أقامتها الدول الاستعمارية لخدمة أهدافها ، وارتبطت هذه الجهود بالرغبة فى تحديد الدعائم القومية والحصول على حق تحديد المصير القومى • لكن المشكلة الجوهرية التى واجهتها الدول النامية هى : أن جانبا كبيرا من المثقفين الذين تولوا الزعامة الفكرية خضعوا لتوجيهات فكرية غربية ، وبدا فى نظرهم ــ عن وعى أو غير وعى ــ النموذج الغربى فى التقدم هو النموذج الواجب الاحتذاء • وربما كان ذلك أحد أسباب الاخفاق الذى منيت به الأجهزة السياسية والادارية والاقتصادية التى أنشئت فى الأصل كتعبير على ذاتية قومية • وبالاضافة الى ذلك فلقد لوحظ أن هذه الأجهزة لم تكن تستند الى أساس شعبى واضح مما حولها فى نهاية الأمر الى بيروقراطيات

---

(٦٢) ت . ب . بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ : الفصل الخامس . حيث نجد اشارات هامة للدور الذى تلعبه المعتقدات السياسية كالقومية والاشتراكية والشيوعية فى الدول النامية وتأثير هذه المعتقدات على الصفوات المختلفة . انظر أيضا :

P. Worsley, The Third World, op. cit. Chap. I.

غير فعالة[٦٣] • وربما كان ذلك أحد الأسباب التى حدت ببعض المثقفين فى الدول النامية الى النظر باعجاب شديد للأجهزة الشعبية التى أقامها الثوار فى الدول الاشتراكية •

(٥)

ولا نستطيع أن نغفل الدور الذى لعبه العرق (العنصر) فى تشكيل الحركات الاجتماعية • ومنذ البداية يمكن النظر الى العرق على أنه تعبير عن جماعات انسانية تشترك فى خصائص متماثلة أبرزها لون البشرة • وبسبب الهجرة والتزاوج ظهرت فروق فردية بين بنى البشر فى خصائصهم الجسمية كلون الشعر ، والعينين ، وشكل الجمجمة ، طول القامة ، فضـلا عن الخصائص السيكولوجية ، بحيث يصعب علينا فى بعض الأحيان ايجـاد خصائص فسيولوجية خالصة لنوع انسانى معين[٦٤] • ومع ذلك فلقد ظل لون البشرة من أبرز الخصائص الفسيولوجية المعبرة عن العرق على الأقـل فى نظر الرجل العادى ، وما لبث أن شكل مصـدرا للتعصب العنصرى والصراع العرقى • والملاحظ أن التعصب العنصرى قد استند ــ تاريخيا ــ الى أساطير مختلفة كانت بمثابة دعم كبير لسيطرة عرق معين وتبرير واضح لممارسة الاضطهاد ضد الجماعات العنصرية الضعيفة • وعلى الرغم من أن التاريخ قد شهد حركات عنصرية عديدة[٦٥] ، الا أن أبرزها وأوضحها هى حركات الزنوج من أجل المساواة مع البيض • وربما كان ذلك سببا للتركيز عليها فى هذا المجال والقاء الضوء على أبعادها الاجتماعية •

---

(63) G. Arrighi and J. S. Saul., «Socialism and Economic Development in Tropical Africa», Monthly Review, May, 1969.

(64) Juan Comas, Racial Myths, UNESCO, 1958.

(٦٥) من ذلك ــ مثلا ــ حركة معاداة السامية أنظر :
Hannah, Arendt, The Origins of Totalitarianism, Allen and Unwin, 3rd edition, 1967, pp. 3-120.

لقد ظهر التحرير العنصرى فى المناطق التى عرفت نظام الرق ، وارتبط بذلك السعى لتحديد الهوية العنصرية ، والكفاح من أجل تغيير البناء القائم المستند الى السيطرة العنصرية • فاذا ما كانت الجماعة العنصرية الواعية تشكل غالبية السكان فى دولة محتلة ، فان التحرير يتمثل ــ أساسا ــ فى القضاء على العرق أو العنصر المسيطر وتحطيم قواه السياسية • وتظهر هذه الحركات ــ عادة ــ فى بعض دول العالم الثالث وعلى الأخص فى افريقيا • أما اذا ظلت الجماعة العنصرية تمثل أقلية خاضعة لاستغلال سكان أجانب لفترة طويلة ، فان الوصول الى استراتيجية موحدة للتحرر العنصرى يصبح أمرا صعبا للغاية • وفى بعض الأحيان قد يكون هدف النضال تحقيق الانفصال العنصرى ، بأن تسعى الجماعة العنصرية الضعيفة الى تحديد منطقة خاصة بها بحيث تكون بمنأى عن الجماعة المسيطرة • وقد يكون ذلك بمثابة حل للمسألة « القومية » الخاصة بالجماعة الأولى • وحينما يتحقق ذلك تبدأ هذه الجماعة العنصرية الضعيفة فى اتخاذ الاجراءات اللازمة للتعبير عن استقلالها السياسى والاقتصادى والثقافى والدينى • ويبدو أن ذلك هو أمل حركة الزنوج المسلمين فى الولايات المتحدة[٦٦] • وفى كثير من الأحيان نجد أن الهدف العام للجماعات العنصرية الضعيفة هو الحل السلمى لمشكلات التفرقة العنصرية والحصول على الحقوق المدنية الأساسية كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية[٦٧] •

ومن الحقائق التاريخية المألوفة أن النضال ضد نظام الرق كان نضالا مريرا • فلقد عاش العبيد فى ظل ظروف بالغــة القســوة حيث لم يعرفوا

---

(66) C. Eric Lincolin, The Black Muslims in America, Boston, 1961, See also, E. Essein Udom, The Black Muslims, Pelican, 1966.

(67) Stanley M. Elkins, Slavery, Chicago, 1959.

ويمكننا أن نجد استبصارات هامة عن موقف الزنوج داخل البناء الاجتماعى الأمريكى فى :

Strokely Carmichael and C. Hamilton, Black Power, Jonathan Cape, 1968.

حقوقا معينة أو قدراً أدنى من الحرية • فمنذ منتصف القرن الثامن عشر بدأ استيراد العبيد الى الولايات المتحدة بمعدل ٢٥٠٠ عبد سنويا • وخلال الفترة فيما بين ١٧٦٠ و ١٧٧٠ ارتفع هذا المعدل الى ٧٥٠٠ عبدا • وكان السبب الرئيسى لجلب العبيد سببا اقتصاديا ، حيث كانوا يشكلون القـوة العاملة الدائمة فى المزارع ، كما أن امكانية ربط العبد الزنجى بالمزرعة كانت أكبر من امكانية ربط الأبيض الفقير بها • ولقد شبه ستانلى الكنز Elkins المزارع التى كان يعمل فيها العبيد بمعسكرات الاعتقـال[٦٨] • ففيها كان يفرض نظام قاس بكل ما تحمله القسوة من معـان • ولا يعـدم التاريخ محاولات للتمرد قام بها الزنوج العبيد كتلك التى قادها نات تيرنر Turner فى سنة ١٨٣١ ، لكنها باءت بالفشل بسبب ضعف تنظيم الزنوج وامتـلاك أسيادهم أقصى درجات الردع ، وأفتك الأسلحة اللازمة للبطش • وفى داخل الامبراطورية البريطانية نجد أن الجماعات الدينية والسياسية ذات الطابع الانسانى والأخلاقى قد لعبت دورا هاما فى الحد من انتشار نظام الرق وعلى الاخص خلال الفترة فيما بين سنتى ١٨٣٠ و ١٨٦١ • أما فى الولايات المتحدة فقد وضعت الحرب الاهلية نهاية لنظام الرق • فخلال هذه الحرب منى ملاك العبيد فى الجنوب بهزيمة ساحقة نتيجة لانتشار حركة الغاء الرق والصراع الحاد بين الشمال والجنوب حول السماح بدخول ولايات جديدة الى الاتحاد •

والملاحظ أن الزنوج الامريكيين لم يحصلوا مرة واحدة على الحـد الأدنى من حقوقهم الاجتماعية والسياسية • فلقد حدث أن ظهرت حركات اجتماعية مختلطة (من الزنوج والبيض) تطالب بالمساواة القانونية والعدالة الاجتماعية • ومع أن هذه الحركات لم تنجز الكثير فى المجالين الاجتمـاعى والسياسى ، الا أنها أسهمت ـــ ولا شـك ـــ فى تحسـين ظـروف بعض الزنوج[٦٩] • ولقد عبرت هذه الحركات عن نفسها فى شكل تنظيمات تهدف

---

(68) Stanley M. Elkins, Slavery, op. cit.

(٦٩) من ذلك « الرابطة القومية من اجل تقـدم الشعوب الملونة » التى تأسست فى سنة ١٩١٠ . فلقد كانت تتألف من الزنوج وبعض المحامين البيض ،

الى تحسين الأحوال الاجتماعية للزنوج فى مجال الخدمات الاجتماعية على وجه الخصوص ، وبذلت فى هذا المجال جهودا كبيرة فى جمع البيانات اللازمة لرسم السياسات الاجتماعية ، وفى كسب تأييد الاحزاب السياسية المستقلة والجماعات الضاغطة ذات التأثير الاجتماعى الواسع النطاق •

وبقدوم خمسينيات القرن العشرين اتخذت الاحداث مسارا مختلفا الى حد ما • فلقد ظهرت بوادر الاحتجاج على التعصب العنصرى عند الزنوج الشبان وعلى الأخص فى جنوب الولايات المتحدة • لكن هذا الاحتجاج اتخذ — مع ذلك — شكلا تدريجيا سلميا هدفه تحقيق المساواة العنصرية • ولقد كان مارتن لوثر كنج Luher King — الذى تأثر تأثرا عميقا بغاندى — من أبرز قادة الزنوج الذين تبنوا أساليب الاحتجاج الأخلاقى ، والتظاهر السلمى ، والاعتصام الطويل (٧٠) • ولا شك أن هذه الاساليب قد نجحت فى لفت الانظار لأخطار التفرقة العنصرية ، وهزت مشاعر كثير من البيض فى الجنوب بحيث بدا أن اصلاحا اجتماعيا ضروريا وشيك الحدوث • وفى اطار حركة الزنوج يمكن القول ان الاساليب التى استخدمها لوثر كنج قد حققت أهدافها فى وقت قصير نسبيا ، مما أكسبه شعبية كبيرة داخل المجتمع الامريكى • لقد كان يطالب باحداث ثورة فى القيم ، ويقظة روحية تفضى الى ثورة حقيقية فى الأخلاق • ان ذلك — فى نظره — يقضى على الشك والعداوة والخوف التى سيطرت على علاقة البيض بالزنوج ، ويؤدى الى ظهور تفاعل متبادل قائم على الحب والثقة • لكن لوثر كنج كان مقتنعا أيضا — وفى نفس الوقت — بالحاجة الماسة الى تحسين ظروف حياة الزنوج

= واستطاعت فى بعض الحالات اثبات الحقوق المدنية لبعض الزنوج . ومن ذلك يبدو واضحا أن هذه الرابطة كانت تؤدى مهامها فى اطار النظم الاجتماعية والسياسية السائدة فى المجتمع الامريكى . انظر :

Hope Franklin, From Slavery to Freedom : A History of Negroes, New York, 1956.

(70) Martin Luther King, Jr., Stride Toward Freedom, Jonathan Cape, 1958.

والاجناس الاخرى الفقيرة التى تعيش فى الولايات المتحدة ؛ وعلى الاخص فى مجالات التعليم والاسكان والرعاية الصحية والتدريب المهنى • وباختصار فلقد طالب كنج بتنفيذ برنامج شامل للاصلاح الاجتماعى يحقق للزنوج وللفقراء بوجه عام الحد الادنى لمقومات المعيشة • ولكى يعبر عن ذلك كله ، نجده ينظم « مسيرة الفقراء » لكى تشكل ضغطا سياسيا على الحكومة الامريكية •

ولا يمكن فهم النجاح النسبى الذى حققته حركة الزنوج فى الولايات المتحدة خلال السنوات الاخيرة بمعزل عن التطورات التاريخية التى أدت اليها • ان تاريخ حركة الزنوج يسجل جهودا كبيرة بذلت من أجل ضمان حد أدنى لحياتهم • فعلى مدى فترة زمنية طويلة ظل المفكرون الاشتراكيون يطالبون باشباع الحاجات الاساسية للفقراء وتحسين الظروف المعيشية للزنوج • ويبدو أن الجاذبية الخاصة التى تمتعت بها الحركة التى قادها كنج تتمثل فى قدرته على تحويل الدعاوى الى التزامات ، ومن ثم الى برامج اصلاحية فى نهاية الامر • ومن خلال رؤيته الشاملة استطاع أيضا أن يربط مصالح الزنوج بمصالح الفقراء بوجه عام[٧١] • وعن طريق المواجهة المباشرة مع رجال الامن والاحتجاجات المستمرة ، أدرك كنج ورفاقه أن السبيل الوحيد لدفع حركة الحقوق المدنية الى الامام هو اظهار الاحتجاج الأخلاقى والمعارضة السلمية •

والواقع أن ظاهرة التعصب العنصرى ليست حديثة تماما ، على الرغم من أن التحليلات العلمية الجادة لها لم تظهر الا منذ وقت قريب • ومن الحقائق العلمية المستقرة الآن أن النظريات العنصرية التى تبلورت فى أوربا خلال القرن التاسع عشر والتى انعكست فى الفكر الاجتماعى الداروني

---

(71) King, M. L; Chaos or Community; Hodder and Stoughton, London, 1968.

تستند الى مسلمات زائفة لسنا بحاجة الى الافاضـــة فيها هنا[٧٢] • لكن الشيء الذى يجدر ذكره هنا هو أن الحركات العنصرية التى تستند الى هذه المسلمات الزائفة لا تزال قائمة فى عالمنا المعاصر حتى أنها تكاد تشكل دعائم لحركات اجتماعية •

ويعتقد بعض الدارسين أن هناك عدة أساطير عنصرية لا تزال تمثـــل مصدرا لحركات اجتماعية • ومن هذه الاساطير : دونية الزنوج ، وانحطاط اليهود ، وســـمو العنصر الآرى ، وتفوق العنصر الأنجلو سكسونى[٧٣] • والمؤكد أن هذه الاساطير العنصرية قد نبعت من خـــلال المفاهيم الداروينية الاجتماعية وبعض الافتراضات الشائعة الذاهبة الى أن التفوق العنصرى للأمم القوية هو دليل طبيعى على انتصارها فى عملية البقاء للاصلاح[٧٤] • واذا كان المثقف يستطيع أن يدرك بسهولة خطأ الاســـاطير العنصرية ، فان الرجل العادى قد يجد صعوبة فى ادراك هذا الخطأ • وفى معظم الاحيان نجد علاقة بين التعصب العنصرى والمنافسة الاقتصادية والسياسية ، مما قـــد يؤدى الى زيادة حدة الصراع الاجتماعى •

(٦)

وربما أمكننا فهم طابع الحركات الاجتماعية فى المجتمعات الغربية اذا ما أخذنا فى اعتبارنا طبيعة النظام الديموقراطى الذى تأخذ به وما ينطوى عليه من طابع تعددى • فحركات الاصلاح وحملات الجماعات الضاغطة تهدف ــ فى نهاية الامر ــ الى احداث تعديلات جزئية داخل البناء الاجتمـــاعى القائم ، أى أنها لا تناقش الاسس التى يستند اليها هذه البناء ، كما لا تهتم

---

(72) Ruth Benedict, Race, Science and Politics, New York, 1941.

(73) Comas, J., Racial Myths UNESCO, 1958.

(٧٤) يمكننا ان نجد معالجة ضافية للداروينية الاجتماعية كمدرســـة فكرية مؤثرة فى : نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، ترجمـــة محمود عودة وزملاؤه ، دار المعارف ، القاهرة ، ص ص ٩٣ ــ ١١٣ .

كثيرا بالظروف والتحولات التاريخية التى أدت الى ظهـوره • وعلى ذلك تصبح الجهود المبذولة فى هذا المجال موجهـة لاقناع الصـفوات الحاكمة بضرورة احداث بعض التعديلات الطفيفة كسن بعض القوانين التى تحمى الأحداث والنساء وكبار السن ، أو اعتماد تشريعات تحقق مزايا اضـافية للفقراء • أما مبرر بذل هذه الجهود فهو الاحساس بأن بعض قطاعات المجتمع تتعرض لأضرار اجتماعية خلال تحول المجتمع ، وأن من الضرورى أن تنال نصيبها الادنى من الخدمات • وتفترض هذه الحركات والحملات أن الحكومات لديها النية الصادقة لتحقيق هذا المطلب ، لأن من شأن ذلك تدعيم استقرار المجتمع وتوازنه(٧٥) • وباختصار تصبح المهمة الرئيسية لهـذه الحركات الاصلاحية اقناع الزعماء السياسيين بتلبية المطالب الاجتمـاعية للقطاعات الفقيرة من السكان ، وكسب تأييد الرأى العام ، بحيث تكتسب هذه المطالب طابعا شرعيا •

ومن الواضح أن مثل هذه الحركات الاجتماعية لا تستطيع أن تؤدى دورها الا فى اطار نظام ديموقراطى غربى يوفر عددا من الظـروف منها : درجة معينة من التسامح فيما يتعلق باختلاف وجهات النظر ، والسماح بنقد الجماهير للسياسات المختلفة من خلال ممثليهم السياسيين ، والحصول على البيانات الصادقة اللازمة لرسم الخطط والبرامج ، وضمان وصـول آراء الجماهير للقيادة السياسية من خلال وسائل الاتصال الجماهيرى ، فضلا عن وجود أساس تشريعى يلزم الحكومة بتنفيذ تعهداتها • وفى مقابل ذلك تضمن الحكومة استمرار هذه الظروف والدفاع عنها ضد أى تخريب خارجى أو داخلى ، كما أنها تتعهد (أى الحكومة) بتحقيق الضبط السياسى دون اللجوء

---

(75) William Kornhauser, The Politics of Mass Society, Routledge and Kegan Paul, London, 1960.

وهناك معالجة اكثر شمولا لهذه النقطة يمكننا أن نجدها فى :

Dahl, Robert, Pluralist Democracy in the United States, Rand Mc Nally, Chicago, 1967.

الى استخدام أساليب ديكتاتورية • وبالاضافة الى ذلك تطلب من الحركات الاجتماعية وجماعات الضغط المختلفة أن تبرهن — بكل ما تستطيع من أساليب — على مرونة النظام السياسى وحيويته ، وأن تكيف نفسها مع المتطلبات والاحتياجات الاساسية للمجتمع • ولقد عالج دى توكفيل De Tocqueville بعض هذه القضايا معالجة ضافية فى مؤلفه الشهير « الديموقراطية فى أمريكا »(٧٦) • فهو يؤكد الدور الذى تلعبه الهيئات أو التنظيمات فى مجتمع ليبرالى قائم على تكافؤ الفرص ، حتى أنه ذهب إلى وجود علاقة قوية بين سعى الناس لاقامة تنظيمات ونضالهم من أجل المساواة(٧٧) • فالتنظيمات تسهم فى ظهور الافكار الجديدة ، وتتكفل بتنفيذ المشروعات الضخمة ، وتحول دون ظهور نزعة تسلطية • ويؤكد دى توكفيل أن الناس بدون تنظيمات لا يستطيعون بذل جهد مشترك يمكن أن يحقق أهدافا اجتماعية ، لأنهم يفتقدون السلطة التى تمكنهم من تنفيذ ذلك • والملاحظ أن أفكار دى توكفيل لم تكن جديدة تماما عن الفكر الاجتماعى وقت أن نشر مؤلفه • إذ باستطاعتنا أن نجد أفكارا مشابهة لها فى كتابات بعض العلماء أمثال دوركايم Durkheim وزيمل Simmel (٧٨) •

وخلال القرن العشرين ظهرت محاولات فكرية عديدة حاولت تقديم تفسير مقنع لظاهر انتشار الشمولية Totalitarianism وانهيار الجماعات والروابط الثانوية فى المجتمع الديموقراطى الغربى أو ما يطلق عليه « المجتمع الجمعى » • ويمثل هذه المحاولات الفكرية كارل مانهايم Mannheim وايرك فروم Eric Fromm ووليام كورنهاوزر Kornhauser • والملاحظ أن هؤلاء

---

(76) Alex De Tocqueville, Democracy in America, World Classics Edition, Oxford University Press, London, 1952.

(77) Ibid, p. 377-18.

(٧٨) انظر على سبيل المثال :

Durkheim, E., The Division of Labour, The Free Press, Glencoe 2nd edn, 1947.

المفكرين قد حاولوا المقابلة بين المجتمع الجمعى الذى تتخذ فيه النظم الاجتماعية طابعا مركزيا قوميا (كالانتخابات القومية ، ووسائل الاتصال الجماهيرى ، والاسواق الكبرى) ومجتمع القرية الذى تتخذ فيه العلاقات الاجتماعية طابعا مركزيا تقليديا • وفى تحليل هام لكورنهاوزر نجده يذهب الى أن سكان المدينة يخبرون — عادة — الاحساس بالعزلة والاغتراب ، وأن روابطهم الدينية والعنصرية والطبقية تميل الى الضعف والذوبان بحيث لا تصبح مصدرا للتفرد والتماسك والتأثير • كذلك أوضح أن سكان المدينة يبدون تطابقا ملحوظا فى نظرتهم للعالم ويخضعون للتأثير الهائل الذى تمارسه التنظيمات البيروقراطية الكبيرة الحجم[٧٩] • والملاحظ أن أصحاب نظرية « المجتمع الجمعى » يحاولون ابراز الضغوط التى تمارسها التنظيمات الكبرى على الافراد ، وسيطرة الانجاز الكمى كمؤشر على النجاح ، والمنافسة الحادة والدائمة من أجل الحصول على شعبية جماهيرية ، فضلا عن الخداع السياسى الذى تعيش فى ظله الجماهير • والجديد الذى قدمه كورنهاوزر فى هذا المجال محاولته صياغة نظرية فى الحركات الاجتماعية مستندة الى فكرة المجتمع الجمعى • ففى هذا النمط من المجتمعات ينقسم الافراد الى فئتين : الاولى تكشف عن تمثل واستيعاب لنمط العلاقات الاجتماعية المميزة للمجتمع الجمعى ، والثانية تعبر عن ارتباط الافراد بالظروف المحلية التى يعيشون فى ظلها • وحينما ينتقل أفراد الفئة الثانية الى المدن الكبرى والمشروعات الصناعية والتجارية الضخمة ، فانهم يتعرضون للتأثير الهائل

---

(79) W. Kornhauser; «Mass Society and Mass Phenomena», International Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. 10, 1968, p. 60.

أما تحليلات مانهايم وايرك فروم فيمكن أن نجدها فى :

Karl Mannheim, Ideology and Utopia, Routledge and Kegan Paul, London, 1936. Eric Fromm, The Fear of Freedom, Routledge and Kegan Paul, London, 1942.

الذى تمارسه المؤسسات والتنظيمات الجمعية[٨٠] • ولقد أكد كورنهاوزر جانبا من أفكاره هذه فى مؤلف قديم نسبيا ، حيث أوضح أن المجتمعات الديموقراطية الغربية تتعرض — وبشكل متزايد — لتأثير وتحكم الحركات الشمولية حينما تفتقر الى وجود تنظيمات ثانوية قوية أو هيئات ومؤسسات قادرة على التوسط بين الصفوة والجماهير[٨١] • ومن الواضح أن وجهة النظر هذه قريبة الشبه من وجهة نظر توكفيل التى أكد أنه كلما ازدادت النزعة الجماعية قوة ، تدعمت الحرية والديموقراطية وتعمق الميل الى الابداع •

وبأيدينا تدعيم واقعى لوجهات النظر السابقة قدمه ليبست Lipset وآخرون فى دراسة شهيرة بعنوان « الديموقراطية النقابية »[٨٢] Union Democracy • فلقد ذهبوا الى أن السياسات الديمقراطية تعتمد — أساسا — على تنظيمات مستقلة متعددة • وهنا نجد هذه الدراسة تؤكد ما سبق أن أكده كورنهاوزر من أن أهم وظائف هذه التنظيمات كونها مصدرا للأفكار الجديدة ، ووسائل للاتصال ، ودعائم للتثقيف السياسى ، فضلا عن كونها ركائز لتنمية الحكم الذاتى والمعارضة السياسية للحكم المركزى • كذلك يذهب ليبست وآخرون الى أن الطابع الجمعى يعمل على مقاومة الميول الاحتكارية لدى الصفوات اذا ما كانت تمتلك بالفعل مقومات السيطرة والنفوذ • وفى كل الدراسات والتحليلات السابقة نجد أن مفهوم « المجتمع الجمعى » يؤكد النتائج الاجتماعية — النفسية للتحضر والبيروقراطية والتصنيع فى الدول الصناعية الغربية • ولا شك أن التسليم المطلق بذلك ينطوى على مخاطر •

---

(80) W. Kornhauser, «Mass Socicty and Mass Phenomena», op. cit. p. 60.

(81) W. Kornhauser, The Politics of Mass Society, Routledge and Kegan Paul, London, 1960.

(82) W. Lipset, S. Trow, M. Coleman, J., Union Democracy, The Fress, Press, Glencoe, 1956.

فهذه النتائج تبدو وكأنها حتمية الظهور فى نمط معين من المجتمعات • ففى الاتحاد السوفييتى نمت المدن وازداد التصنيع فى اطار نظام شمولى بعيد عن النزعة « الجمعية » الغربية • كذلك فان نظـرية « المجتمـع الجمعى » لا تفسر لنا أسباب ظهور الشمولية فى بعض الدول الصناعية المتقدمة دون أخرى • والواقع أن هذه النظرية لا تتضمن أية شواهد واقعية تؤكد أسباب زيادة المشاركة السياسية فى دول ديموقراطية دون أخرى • وربما كان أهم التساؤلات التى يمكن اثارتها فى هذا المجـال ذلك المتعلق « بالاغتـراب الاجتماعى » • ان القياس الكمى لمثل هذه الظاهرة ينطوى على تبسيط مخل ، فضلا عن أنه يعكس تجهيلا فكريا ، وانكارا لتنوع النظم السياسية • اذ أن تصور وجود « اغتراب اجتماعى » كامل هو من قبيل التعسف • فلقد ذهب فرانك باركين[٨٣] Parkin فى دراسة حديثة الى أن « الاغتراب الاجتماعى الجزئى » عن القيم الاجتمـاعية قد يكون أمرا ممكن الحـدوث ولا يدعو للدهشة ، وفى هذه الحالة قد يكون سبب هذا النمط من الاغتراب هو وعى الافراد بأن القيم الخاصة التى يؤمنون بها قد تكون أكثر فائدة وفعالية من تلك القيم العامة التى تتعارض مع قيمهم • وفى موضع آخر أكد باركين أن التطرف السياسى لبعض أفراد المجتمع قد لا يعكس اغترابا اجتماعيا بقدر ما يعكس اندماجا اجتماعيا فى مختلف التنظيمات • فالاغتراب الجزئى عن قيم المجتمع قد يكون مؤشرا على المشاركة الاجتماعية •

وربما كانت الجماعات الضاغطة من أبرز سمات النظام الديموقراطى الغربى القائم على « الجمعية » • ومن أمثلة هذه الجماعات قادة نقـابات العمال ، وكبار رجال الصناعة والتجارة ، وجنرالات الجيش ، والقيادات

---

(83) Parkin, F., Middle Class Radicalism : The Social Bases of the British Compaign for Nuclear Disarmament, Manchester University Press, Manchester, 1968.

السياسية[٨٤] • وتحاول هذه الجماعات ـــ بفضل ارتباطها الوثيق بالصفوات المختلفة ـــ التأثير على عملية صنع القرارات دون أن تعتمد اعتمادا مباشرا على الحملات الجماهيرية أو اظهار الاحتجاجات • وقد تعتمد بعض هـــذه الجماعات على عضوية الجماهير ، بينما لا تفعل ذلك بعض الجماعات الاخرى حيث تتولى بنفسها صياغة أهدافها العامة ورسم اســـتراتيجيتها • ومن الاساليب التى قد تستخدمها الجماعات الضاغطة لتدعيم نفوذها السياسى تقديم المشورة للحكومة ، ومساعدتها فى اقرار بعض المشروعات ، واشعارها باطلاعها على كثـــير من الأسرار السياسية • ومن الملاحظ أن الجمـــاعات الضاغطة التى تستند الى قاعدة واسعة من العضـــوية تستطيع أن تكتسب مزايا عديدة • من ذلك قدرتها على اجتـــذاب أكبر عدد من أصـــحاب المهن الفنية العليا القادرين على التأثير ، فضلا عن توافر فرص أفضل للتمويل من خلال الاشتراكات • ومن الطبيعى أن يمكنها ذلك من انضمام بعض أصحاب المواهب والخبرات القادرين على اثراء المنطلقات الفكرية للجماعة • لـــكن اتساع نطاق العضوية قد يؤدى ـــ فى بعض الاحيان ـــ الى ظهور مشكلات وصعوبات • من ذلك صعوبة الاتفاق على أهداف عامة واستراتيجية واحدة ، فضلا عن زيادة تعرض الجماعة لفقدان ثقة الاعضاء بالقيادة كما حدث فى بعض النقابات العمالية •

وعلى صعيد العالم الغربى تميـــزت فترة الستينيات من هـــذا القرن باحتجاجات أخلاقية عديدة • والواقع أن المعتقدات الاخلاقية لم تكن فى يوم من الأيام حكرا على حضارة أو حقبة أو طبقة معنية ، وان كنا ـــ مع ذلك ـــ نجد العالم المعاصر قد أصبح الآن ـــ أكثر من أى وقت مضى ـــ أشد حساسية للقضايا الأخلاقية ، مما ساعد على ظهور حركات اجتماعية موجهـــة نحـــو ضمان حقوق الانســـان وحريته وتلقائيته • وقـــد تستخدم المظـــاهرات

---

(84) Francis, C., Pressure Groups and Political Culture : A Comparative Study, Routledge and Kegan Paul, London, 1967.

والاحتجاجات كوسيلة لتحقيق ذلك ، لكن الانجاز الأكبر لهذه الحركات يتمثل فى اقناع الرأى العام بصواب بعض المعتقدات الاخلاقية • لذلك فان نجاح هذه الحركات يكون نجاحا معنـويا بالدرجـة الاولى ، وان أدى فى بعض الاحيان الى انتصارات فعلية • وربما كان لوثر كنج من أبرز الذين عبروا عن هذه النقطة • فلقد أوضح أن اللجوء الى العنف قـد يؤدى الى تأزم وتعقد القضايا الاخلاقية التى يدافع عنها • إنه (أى العنف) قد يزيد السلطة قسوة وعنادا ، مما قد يؤدى الى عواقب وخيمة[٨٥] • ومن الأمور التى تبدو واضحة أن كثيرا من الحركات الاخلاقية لا تستند الى خطوط ايديولوجية واضحة • اذ أن هذه الحركات غالبا ما تهتم بقضايا انسانية كبرى مثل منع الحرب النووية ، والقضاء على التفرقة العنصرية فى المدارس الامريكية ، والدفاع عن حقوق الانسان • وفيما عدا الالتزام بهذه القضايا العامة لا نجد اتفاقا ايديولوجيا بين هذه الحركات سواء على مستوى الاسـاليب التى تستخدم لتحقيق الاهداف أو على مستوى برامج الاصـلاح الاجتمـاعى والسياسى[٨٦] • وفى حالات الاحتجاج الاخلاقى قد يكون أيسر علينا أن نحدد ما يرفضه المحتجون بينما لا نستطيع أن نعرف بسهولة ما يطالبون به • وفضلا عن ذلك نجد الحركات الاخلاقية تضم أفرادا وجماعات تنتمى الى اتجاهات فكرية متباينة ان لم تكن متعارضة •

ومن الخصائص المميزة للحملات والاحتجاجات الاخلاقية أنها لا تصدر عن منافع ومصالح مادية يريد المحتجون تحقيقها لأنفسهم • لكن بيتر بلاو Blau — مع ذلك — قد استبعد أن يكون السلوك فى هذه الحالة خاليا من الاهداف[٨٧] • فالسلوك الجماعى فى مظاهرة احتجاج أخلاقى يكون موجها

---

(85) Luther King, M., Chaos or Community?. Hodder and Stougnton, London, 1968, p. 61.

(86) Heberle, R., Social Movements; An Introduction to Political Sociology, op. cit. p. 59.

(87) Blau, P., Exchange and Power in Social Life, Wiley, New York, 1964, pp. 5-6.

نحو الدفاع عن قيم أخلاقية سامية • والى هذه النتيجة توصل باركين Parkin حينما أوضح أن الاشباع الذى يحققه المحتجون هـو اشـباع عاطفى أو سيكولوجى • هم ينطلقون ــ كما يقول فيبر Weber ــ من « روح الاهداف القصوى » أكثر مما ينطلقون من « روح المسئولية »(٨٨) • لذلك نجد باركين يؤكد حقيقة أن الافراد قد يؤيدون الحركات السياسية لأنها ترمز الى رفض أو تأكيد قيم معنية(٨٩) • ويثير بعض الدارسين تساؤلات حول الاصـول الاجتماعية والدينية والمهنية والتعليمية لمؤيدى الحركات الاخلاقية • فعلى سبيل المثال نجد باركين يتوصل الى أن معظم مؤيدى نزع الاسلحة النووية يأتون من الطبقات الوسطى وعلى الاخص المهن الفنية العليـا التى تتطلب مستوى تعليميا عاليا(٩٠) • أما لينسكى Lenski فقد ذهب الى أن الافراد الذين لا تتسق ظروفهم المهنية والعنصرية والاقتصادية يكونون أكثر ميـلا لتبنى الاتجاهات السياسية الراديكالية(٩١) •

ويدفعنا ذلك الى ابراز دور المثقفين فى قيادة الحركات الاجتمـاعية وصياغة أهدافها وأساليبها • فمع أن بعض الكتابات تميل الى تأكيد هـذا الدور ، إلا أن باركين لا ينظر الى المثقفين بوصفهم يشكلون فئة واحدة • إذ يفرد أهمية خاصة لمعالجة المثقفين الثوريين الذين يختلفون عن بقيـة المثقفين من أمثال الأدباء والرسامين والشعراء والصحفيين • فالاخـيرون يتمتعون بكثير من المزايا التى يتيحها لهم النظام السياسى بما فى ذلك الأمان المهنى والامتيازات المالية والتقدير الاجتماعى • أما الثمن الذى يدفعونه فى

---

(88) Gerth, H. H. Mills, C. W. (eds), Max Weber : Essays in Sociology, Routledge and Kegan Paul, London, 1948, p. 120.

(89) Parkin, F., Middle Class Radicalism : The Social Bases of the British Compaign for Nuclear Disarmament, op. cit.

(90) Ibid. p. 120.

(91) Lenski, G., «Status Crystallization» : A Non-Vertical Dimension of Social Status, American Sociological Review, Vol. 19, August, 1954.

مقابل ذلك فيتمثل فى قبول الضغوط البيروقراطية وتقييد حريتهم عند اتخاذ موقف سياسى معين • أما المثقفون الثـــوريون فيكونون أكثر قـــدرة على الاحتجاج والنقد لأنهم لا يعتمدون اعتمادا كليا على النظام السياسى • ومن أمثلة هؤلاء المثقفين الثوريين بيرتراند راسل Russellوكنجزلى مارتن Martin وبريستلى Priestley • ولقد أوضح باركين أن هـــؤلاء المثقفين قـــد يبدون اعتراضا معينا على قضية معينة كانتاج الاسلحة النووية ، لكن هذا الاعتراض لا يعدو أن يكون رمزا لاحتجاج سياسى على قضايا أكثر عمومية وشمولا •

وبغض النظر عن الاساليب التى تستخدمها الحركات الاخلاقية (ابتداء من المطالبة السلمية حتى الاعتصام) ، فان المعيار الحقيقى لنجاحها يتمثل فى اقناع الرأى العام بالقضايا الاخلاقية التى تتبناها • وهناك شواهد عديدة تشير الى أن بعض الاحتجاجات السياسية قد حققت نتائج هامة خلال فترة قصيرة نسبيا • ويمكننا أن نستشهد على ذلك بمظاهرات الاحتجاج ضـــد الحروب والمطالبة بتحقيق السلام خلال عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن ، مما كان له أكبر الاثر على الحكومات التى تعاقبت على البلاد الاوربية خلال فترة ما بين الحربين العالميتين • ولعل أقرب الامثلة الى أذهاننا حمـــلات الحرب ضد فيتنام فى الولايات المتحدة الامريكية فى أواخر الستينيات من هذا القرن ، مما كان له أكبر الاثر فى انسحاب القوات الامريكية من القتال • وعلى المدى البعيد استطاعت بعض الحملات الاخلاقية اقناع السياسيين — والرأى العام أيضا — ببعض القضايا الهامة كالغاء عقوبة الاعدام وتغيـــير النظرة الى المجرمين • ولقد استطاعت بعض الحمـــلات الاخلاقية تجاوز الحدود القومية • فعلى سبيل المثال تجـــاوزت حركة الغاء الرق حـــدود الأطلنطى ، كما أن حملة السلام العالمية التى ظهرت خلال ثلاثينيات هذا القرن كانت حملة ذات طابع عالمى • ويمكننا أن نضيف الى ذلك حملات عالمية حديثة كتلك التى تطالب بحقوق الانسان ، ونزع الاسلحة النـــووية ، وتحســـين أحوال المرأة ، والنهوض بأحوال الفقراء •

(٧)

ومن الشواهد التاريخية الهامة أن الطبقة العاملة كانت مصـــدرا هاما لكثير من الحركات الاجتماعية الهامة • ولقد سبق أن رأينا فى موضع سابق كيف أن ماركس قد اهتم اهتماما خاصا بابراز موقع هذه الطبقة داخــــل علاقات الانتـــاج فى المجتمعات الصـــناعية • وعلى الرغم من أن المفكرين البريطانيين قد سبقوا ماركس فى تحديد دور الطبقة العاملة فى المجتمـــع البريطانى ، الا أن ماركس قد نظر الى هذا الدور نظرة تاريخية شـــاملة مؤكدا الانجاز الثورى الذى يجب أن تقـــوم به • وفى مؤلف هام لهارولد بيركن Perkin نجده يقابل المجتمع الانجليزى الطبقى الذى كان يتطور فى أوائل القرن التاسع عشر بما أطلق عليه « المجتمع القديم » الذى كان قائما خلال القرن الثامن عشر(٩٢) • فالاخير كان مجتمعا أرستقراطيا تقع فى قمته قلة قليلة تملك السلطة وتتمتع بالثراء ، وكثرة كثيرة تعانى الخضوع وتقاسى من الفقر • ولقد أوضح بيركن أن الوعى والصراع الطبقيين لم يظهرا بشكل جلى الا خلال عشرينيات القرن التاسع عشر • لذلك نجـــد بعض المؤرخين المعاصرين من أمثـــال طومبســـون Thompson وهوبسباوم Hobsbawm يذهبون الى أن الاحتجاجات العمالية على نظام العمل الصناعى والاجور قد ظهرت كتعبير عن التناقضات الطبقية(٩٣) • وهناك عوامل مساعدة عاونت على ذلك • من ذلك تدعيم الخطـــوط الطبقية ووطأتها بحيث بات من الضرورى ارتباط العمال وتعاونهم فى مواجهة الظروف القاسية التى يعيشون فى ظلها •

---

(92) Perkin, H., The Origins of Modern English Society 1780-1880, Routledge and Kegan Paul, London, 1959, p. 17.

انظر أيضا :

Galenson, W. (ed.), Comparative Labor Movements, Prentice-Hall, Englewood Clifts, New Jersy, 1952.

(٩٣) انظر على سبيل المثال :

Hobsbawm, Primitive Rebels, Manchester University Press, 1959, pp. 113 ff.

ومن الطبيعى أن يشكل العمل الصناعى مجالا خصبا لذلك . وأيا كان شكل التنظيم السياسى الذى تأخذ به الطبقة العاملة والاستراتيجية التى تتبناها ، فانها (أى الطبقة العاملة) قد لا تنجح بالضرورة فى تغيير النظام السياسى ، بل قد تزداد فيه اندماجا . وربما انطبق ذلك بشكل واضح على موقف الطبقة العاملة فى المجتمعات الصناعية الغربية الحديثة ، حيث لم تتسع الهوة بين البرجوازية والطبقة العاملة بمعدل كبير بسبب ارتفاع مستوى المعيشة بشكل عام وظهور مطامح واتجاهات اجتماعية جديدة بعيدة كل البعد عن المطامح والاتجاهات الثورية . يضـاف الى ذلك وعى الحـكومات الغربية بضرورة تجنب ظاهرة الاستقطاب الطبقى عن طريق اعادة توزيع الدخـل القومى ، وتوسيع نطاق الخـدمات الاجتمـاعية ، وزيادة التأمينـات ضـد البطالة والشيخوخة ، بحيث لم يعد ممكنا خلال النصف الثانى من القرن العشرين أن نتصور الطبقـة العاملة فى المجتمعـات الصـناعية الغربيـة « مغتربة » تماما (٩٤) .

ومن الواضح أن هذه الافكار تتعارض تعارضا صريحا مع ما ذهب اليه ماركس قبل قرن من الزمان . فعلى الرغم من أنه لم يرفض الاصـلاحات الاجتماعية البرلمانية ، الا أنه يعتبرها غاية فى حد ذاتها . إنها وسـيلة لتحقيق أهداف ثورية تتكفل بها الطبقة العاملة . والواقع أن أهم انجازات ماركس فى هذا المجال تتمثل فيما يمكن أن نطلق عليـه « الاسـتراتيجية الثورية » . فلقد وضع برنامجا شاملا لحركة ثورية تقوم بها الطبقة العاملة لتنهى بذلك حالة الصراع الطبقى وما يرتبط به من استغلال واغتراب . وبذلك تستطيع الحركة الثورية الحقيقية خلق الوعى الثورى وتحريك البروليتاريا للقبض على مقاليـد السـلطة من أيدى البرجـوازية واقامة ديكتـاتورية

---

(٩٤) انظر تحليلا جذابا لهذه النقطة فى ت . ب . بوتومور ، الطبقـات فى المجتمع الحديث ، ترجمة محمد الجوهرى وآخـرون ، دار الكتـاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٨٦ وما بعدها .

البروليتاريا[٩٥] • ويعتقد ماركس أن النظام الرأسمالى ـ بحكم طبيعته الانتاجية ـ لا يستطيع أن يضمن انسانية الانسان ، وأن اصلاح هذا النظام لا يمكن أن يتم على نحو تدريجى • ومن ثم يصبح السبيل الوحيد المتاح هو تدمير دعائم المجتمع الرأسمالى وخلق مجتمع شيوعى يضمن للانسان حريته وتلقائيته وابداعه • والملاحظ أن ماركس قد اعتبر « الاستراتيجية الثورية » هى أفضل صيغة للحركة العمالية • وعلى أية حال فلقد شهدت الفترة الاخيرة من القرن التاسع عشر تطورات فكرية ثورية أخرى أثرت على الحركة العمالية الاوربية • فلقد ظهرت الحركات الفوضوية فى اطار الطبقة العاملة ، لكنها لم تحظ الا بتأييد محدود من العمال • كذلك يمكننا الاشارة الى الحركات النقابية التى نالت اهتماما كبيرا فى الدول الاوربية الغربية حتى نهاية الحرب العالمية الاولى • والملاحظ أن هاتين الحركتين قد تبنيتا استراتيجيات سياسية هدفها الاقصى القضاء على الدولة والسيطرة على الصناعة • ولا شك أن الحركة النقابية قد تركت تأثيرا بالغا على بعض الاحزاب الاشتراكية فى فرنسا وايطاليا[٩٦] •

والملاحظ أن التطورات التى شهدتها الحركة العمالية فى العالم الغربى خلال العقود الاخيرة لا تؤيد نظرية ماركس الى حد بعيد • فلقد أوضحت تحليلات اجتماعية حديثة أن الطبقة العاملة فى المجتمعات الصناعية الغربية لا تسير فى طريق الكفاح من أجل احداث تحول ثورى ، بل انها قد تسهم فى تدعيم الانظمة السياسية القائمة بوصفها طرفا يحصل على بعض المزايا التى يتيحها الاحتكار العالمى • ومعنى ذلك أن الطبقة العاملة فى الوقت الحاضر قد فقدت خاصيتها الثورية وتحولت الى طبقة منتفعة • وتشير بعض

(95) Avineri, S., The Social and Political Thought of Karl Marx, Cambridge University Press, 1968.

(96) Kendall, W., The Revolutionary Movement in Communist Movement, Weidenfeld and Nicolson, London, 1959. pp. 278-283.

الدراسات الواقعية الى أن العمال الصناعيين فى معظم الدول الصناعية الغربية قد أصبحوا أقل توحدا بالاهداف الجماعية ، وأضعف حماسا للتحرك كطبقة من أجل اقامة نظام اجتماعى جديد[٩٧] • بل ان بعض الدارسين قد وصفوا العامل الغربى بالعزلة عن تقاليد طبقته وافتقاده الى المبادىء العامة والنظرة العالمية • ولقد حاول جولد ثورب Goldthorpe ولكوود[٩٨] Lockwood تفسير هذه الظاهرة ، فأوضحا أن المجتمعات الغربية الصناعية قد شهدت تطابقا بين الطبقة الوسطى القديمة والطبقة العاملة الجديدة ، بحيث أصبحت الاخيرة تسعى الى الحصول على رموز المكانة المعبرة عن الاولى وعلى الاخص فيما يتعلق بفرص الحياة كالتعليم والمسكن والترويح والمقتنيات المادية • ومن الملاحظات العامة التى يمكن تسجيلها هنا أن عنف الصراع الطبقى قد قل الى حد كبير فى الدول الرأسمالية خلال العقود الاخيرة ، وأن الاحزاب العمالية التى لا تزال تعتبر القوة وسيلة لتحقيق أهدافها ، محدودة للغاية ولا تنطوى على أهمية كبيرة • وهناك عوامل عديدة يمكن أن تفسر هذا الموقف • من ذلك تطور الديموقراطية السياسية ، وزيادة فاعلية وقوة الحكومات الحديثة بعد التطورات الهائلة فى التكنولوجيا والادارة والاتصال • يضاف الى ذلك اتساع نطاق الحراك الاجتماعى الذى مكن أعدادا كبيرة من أفراد الطبقة العاملة من ولوج الطبقة الوسطى بحيث لم يعد المجتمع الرأسمالى منقسما الى طبقتين متعارضتين على نحو ما تصور ماركس • ولعل ذلك هو ما دفع رالف دارندورف Dahrendorf الى القول بأن الصراعات الصناعية قد بدأت تأخذ طابعا نظاميا فى المجتمعات الرأسمالية، وأن الطبقة العاملة قد أصبحت بعيدة عن النشاطات السياسية[٩٩] • ويبدو

---

(97) F. Zweig, The Worker in an Affluent Society, London, 1961.

حيث لاحظ فى دراسته أن العامل الصناعى فى المجتمع الغربى ينظر الى الجانب الشخصى من المشكلة لا الى الموقف الاجتماعى أو البناء الاجتماعى .

(98) J. H. Goldthorpe, D. Lockwood, «Affluence and the British Class Structure», Sociological Review, XI (2), 1963, pp. 29-30.

(99) R. Dahrendorf., Class and Class Conflict in Industrial Society, London, 1960.

أن هذه النقطة كانت سببا فى وصف المرحلة الحالية التى يشهدها المجتمع الغربى المعاصر « بنهاية الايديولوجيا »[١٠٠] ؛ بمعنى تدهور المذاهب الاشتراكية التى تقدم نقدا راديكاليا للمجتمع القائم ، وتأمل فى ظهور شكل بديل له • غير أن هذا التفسير يتخطى حدود الوقائع التى كشفت عنها البحوث السوسيولوجية • فهو يستند — مثلا — الى مقارنة ضمنية بين الوضع الراهن للوعى الطبقى لدى الطبقة العاملة ، وبين حالته فى عصر سابق غير محدد تماما ؛ عصر التضحية البطولية والكفاح المستميت • ان من الامور الملاحظة فى الآونة الأخيرة أن الاحزاب الاشتراكية فى أوربا (وعلى الاخص فرنسا وايطاليا) قد حظيت بتأييد ودعم شديدين على الرغم من أن هذه الاحزاب لا تزال ترفع شعار المساواة الاجتماعية[١٠١] •

ولا نستطيع أن نفهم موقف الحركات العمالية دون فهم التحولات التى طرأت على النظام الرأسمالى الغربى خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية • من ذلك اتساع نطاق الملكية العامة للصناعة ، والادارة العامة للاقتصاد ، والتوسع الشامل فى طائفة كبيرة من الخدمات الاجتماعية والثقافية • ولقد أدى نمو حجم المؤسسات فى الفروع الاساسية للصناعة ، والاتجاه نحو الرقابة الاحتكارية فى بعض القطاعات ، الى الحد من التباين والاختلاف بين العمليات التى تقوم بها مشروعات ذات ملكية جماعية ، وتلك التى تشرف عليها مشروعات ذات ملكية خاصة • وربما كانت هذه التحولات سببا فى ظهور عدم الرغبة فى تأميم الصناعات طالما أن تغير الملكية لن يؤثر كثيرا على الأداء الاقتصادى للمشروعات[١٠٢] • لكن يبدو — مع ذلك — أن الحركة العمالية قد لعبت دورا أوضح فى مجال الخدمات الاجتماعية • فكثير

---

(100) D. Bell., The End of Ideology.

(١٠١) ت• ب• بوتومور ، الطبقات فى المجتمع الحديث ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ •

(102) Parkin, F., Class Inequality and Political Order, Mac-Gibbon and Kee Ltd, 1971, p. 112.

منها كان نتاجا للايديولوجيات التى تبنتها الاحزاب الاشتراكية والتى رفعت مطلب المساواة وتكافؤ الفرص • لكن يظل صحيحا ــ برغم كل ما سبق ــ أن الطبقة العاملة فى كافة المجتمعات الغربية ظلت متأثرة بالافكار السائدة فيها كالقومية والاستعمار ، كما أصبحت تميل الى تحقيق الغاية القصوى للمجتمع وهى تنمية الثروة المادية • ومن الامور المصاحبة لذلك أن نموذج « الدولية » الذى تسعى اليه الطبقة العاملة لم يتحقق الا بصورة جزئية غير مكتملة فى مواجهة التسابق والحروب القائمة بين الدول ، والفروق فى اللغة والثقافة والمشكلات العديدة التى تنطوى عليها محاولات اقامة منظمات على مستوى دولى •

وبرغم الصعوبات التى واجهتها الحركة العمالية ، فان أفكار المساواة والجماعية قد حققت انتشارا واسعا خلال هذا القرن • لكن هذا الانتشار كان بطيئا أكثر مما توقع ماركس ، مما حدا ببعض العلماء الاجتماعيين الى التساؤل عن مدى حيوية أفكار الحركة العمالية • فلقد أوضح ليبست[١٠٣] Lipset أن هناك ضعفا ملحوظا فى حماس الطبقة العاملة للأهداف الجماعية، وفقدانا للاهتمام بأية مبادىء اجتماعية ، وانهيارا تدريجيا فى الثقافة المميزة لها • ومع أن ليبست قد سلم بوجود صراع طبقى من أنواع متعددة فى المجتمعات الرأسمالية ، الا أنه (أى الصراع) يتعلق بمشكلة توزيع الدخل أكثر مما يتعلق بأى تغير عميق فى البناء الاجتماعى • ولا نستطيع أن نقبل هذه القضية دون تحفظ • فالقول بأن الطبقة العاملة فقدت مثالياتها وأهدافها الجماعية لا تؤكده الضغوط الصناعية والسياسية التى تمارسها هذه الطبقة

---

(103) Lipset, S., Political Man, London, 1960, p. 403.

ولقد دعم ليبست وجهة نظره هذه فى مؤلف آخر له هو « الحراك الاجتماعى فى المجتمع الصناعى » ، حيث أوضح أن الحراك الاجتماعى فى المجتمعات الصناعية الغربية قد ازداد بحيث حال دون ظهور استقطاب طبقى ، وان الصراع الاقتصادى لم يعد متزامنا مع الصراع السياسى . انظر :

Lipset, S. Bendix, R., Social Mobility in Industrial Society, Berkeley, 1959.

من أجل توزيع عادل للثروة ، وهى ضغوط غالبا ما تنتهى الى نتائج حاسمة لصالح العمال • والواقع أن كثيرا من التحليلات الاجتماعية التى تنـاولت الحركة العمالية تفتقد البعد التاريخى • اذ أن هذه التحليلات قد تصورت أن الصراع الطبقى كان يميز المرحلة المبكرة من الرأسمالية الصناعية ، وأنه قد تلاشى حينما استطاعت الطبقة العاملة التخلص من فقرها واكتساب الحقوق الصناعية والتجارية • إن أية دراسة تاريخية مقارنة للحركات العمالية قادرة على أن تكشف بدقة أكبر الدور الذى تلعبه الطبقة العـاملة فى مجتمعاتنا المعاصرة سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية أو نامية • والى أن تتاح الفرصة لظهور هذه الدراسة ستظل هذه القضية عرضة للغموض الايديولوجى والتحيز الفكرى •

(٨)

هذا وقد شهد القرن العشرون حركات ثورية عنيفة هزت مناطق مختلفة من عالمنا المعاصر • أما الاستراتيجية التى تستند اليها هذه الحركات فتتمثل فى هدم البناءات الاجتماعية ــ الاقتصادية ــ السياسية القائمة واستبدالها بأخرى جديدة • لكننا قد نجـد حركات ثورية أخـرى ترفض الالتـزام الايديولوجى وتتخذ طابعا تخريبيا خالصا ، بحيث يكون الهـدف الاساسى والوحيد هو تقويض دعائم النظام الاجتماعى دون تقديم بديل مقنع • ولعلنا قد لاحظنا فى مواضع سابقة أن كثيرا من الحركات الاصلاحية والطبقيـة والريفية قد تبنت مفاهيم ثورية ، على الرغم من أنها قد عجزت عن تحقيق تغييرات بنائية حقيقية بسبب افتقارها الى التنظيم الضرورى والقـوة البشرية المؤهلة والتأثير الجماهيرى • وفى كثير من الاحيان قد يصعب التمييز بين الحركات الاصلاحية والحركات الثورية بسبب تبنى الاولى لاهـداف الثانية • فعلى سبيل المثال نجد موجات الاستياء الجماهيرى واحتجاجات الطبقة العاملة وحملات الاقليات العنصرية قد تأخذ جميعها شـكلا متطرفا لا يحد منه الا قمع السلطة الحكومية أو اعتدال القادة الثوريين •

وبفضل حرب العصابات استطاعت الحركات الثورية فى دول العـالم

الثالث احراز انتصارات هامة على نحو ما حدث فى الصين والجزائر وكوبا • ففى هذه البلدان تأسست جبهات شعبية ضمت فقراء الريف ، ثم ما لبثت أن تحولت الى قواعد ناجحة لثورات شعبية قادها رجال العصابات • وبسبب اتساع المجال الجغرافى لحروب العصابات الريفية ، فان فرص اختفاء الثوار ومناورتهم تكون أوسع[١٠٤] • ولم تكن حروب العصابات مقصورة على دول العالم الثالث وحدها • ففى فرنسا ويوغوسلافيا اتخذ النضال ضد القوات النازية شكل عصابات متفرقة فى مناطق واسعة • لكن رجال العصابات فى المدن يفتقدون — مع ذلك — بعض المزايا التى يتمتع بها قرناؤهم فى القرى وعلى الاخص القدرة على الكر والفر • وعلى آية حال فلقد أوضحت بعض التجارب أن رجال العصابات فى المدن قـد كشفوا عن قدرة ملحوظة على التنظيم والتجنيد ومواجهة رجال الامن[١٠٥] • ففى أحداث بلفاست خلال سنتى ١٩٦٩ و ١٩٧٠ تمكن رجال العصابات من تحقيق احتلال عسـكرى لبعض المناطق حينما كان محرما على قوات الامن التوجه اليها • ويمكن أن ينطبق ذلك — ولكن بدرجة أقل — على أحداث الزنوج فى الولايات المتحدة • وبرغم النجاح الذى حققته حروب العصابات فى المدن ، الا أنها لا تستطع وحدها تحريك ثورة سـياسية • ويبدو أن رجال العصـابات فى القـرى يستطيعون تحقيق ما يعجز قرناؤهم فى المدن عن تحقيقه • فعلى الرغم من التقدم التكنولوجى الهائل الذى طرأ على الاسلحة العسكرية فى الولايات المتحدة ، الا أن حرب العصابات الثورية فى فيتنام قد برهنت على امكانيـة الصمود والتحدى ، وان كانت قد أكدت — فى نفس الوقت — أن قدرة رجال العصابات على الاستمرار فى الحـرب متوقفة على المساعدات الخارجيـة (العسكرية والاقتصادية) •

---

(104) Debray, R., Revolution in Revolution, Penguin Book, London, 1957.

(105) Monthly Review, Vol. 20, No. 3, July-August 1968, «Regis Debray and Latin American Revolution».

وإذا ما أمعنا النظر فى الثورات التى يقودها رجال العصابات فى مختلف مناطق العالم ، لاحظنا أنها لا تنطلق جميعها من ايديولوجية واحدة وواضحة، بل ان المبادىء الثورية قد لا تكون هى الدعائم الفكرية التى تستند اليهـا • صحيح أن الحزب الشيوعى الصينى قد تبنى المبادىء الثورية المشتقة أساسا من الماركسية ــ اللينينية ــ الستالينية ، ولكننا لا نستطيع القول ــ فى نفس الوقت ــ إن رجال العصابات الجزائرين قد انطلقوا من نفس هذه المبادىء• وفى حالة كوبا هناك شواهد عديدة تشير الى أن كاسترو ورفاقه من المناضلين لم تكن لديهم حتى سنة ١٩٥٧ ايديولوجية ثورية محددة ، حتى أنهم قـد أعلنوا مرارا أنهم ليسوا ماركسيين • لكن كاسترو ورفاقه ما لبثوا بعد ذلك أن اختاروا الانتماء الى الماركسية ــ اللينينية حتى يتمكنوا من الحصـول على مساعدات الاتحاد السوفييتى فى مواجهة الحصار الاقتصادى الامريكى لكوبا[١٠٦] • وفى كل الحركات الثورية التى يقوم بها رجال العصابات نجد تجسيدا كبـيرا لافـكار وتصريحات قادتها الملهمين أمثـال ماوتسى تونج وكاسترو • ويبدو أن أهم عنصر مشترك بين هـذه الحركات هو مقاومتها للاستعمار ، وتحقيق الاستقلال الذاتى ، والارتباط الوثيق بالجماهير •

وتمثل الاستراتيجية التى تبناها لينين أحد المصادر الفكرية الهـامة للحركات الاجتماعية الثورية • ويمكننا أن نحدد ثلاث عناصر أساسية تؤلف نظرية لينين فى الثورة : الأول هو عدائه الشديد للبناء السياسى ــ الاقتصادى الذى كان سائدا فى روسيا القيصرية ، فضلا عن عدائه للنظام الرأسمالى العالمى • والثانى هو وعيه القوى بالاستياء الشعبى لجماهير الفلاحين والعمال الصناعيين فى روسيا قبل الثورة ، بحيث أصبح على يقين من أن الحركة الثورية يجب أن تستجيب لرغبات الجماهير اذا ما كانت تريد اكتساب التأييد الشعبى الضرورى للاستيلاء على السلطة • أما العنصر الثالث والأخير فهو

---

(١٠٦) يمكننا أن نجد توضيحا لهذه الفقرة فى :

Matthews, H., Castro : A Political Biography, Allen Lane The Penguin Press, London, 1969.

ادراك لينين أن الأحزاب الديموقراطية ونقابات العمال تفتقد جميعها التنظيم الضرورى للقيام بالثورة والقبض على مقاليد القوة[١٠٧] • ولقد سلم لينين بأن اقامة الحزب الثورى المستند الى النظام والطاعة والاخلاص والايمان هو الضمان الوحيد لتحقيق الثورة • وهذا هو السبب الذى من أجله حرص على أن يكون أعضاء الحزب من المدربين المنضبطين المؤمنين بحتمية الحل الثورى[١٠٨] • ويعبر لينين عن موقفه بوضوح قائلا : « لا يمكن لحركة ثورية أن تقوم وتدوم دون تنظيم مستقر للقادة يضمن الاستمرار • ان ذلك هو فى حد ذاته ضمان لاندفاع الجماهير الى النضال وتدعيم الدفع الثورى • أما قادة الحركة فيجب أن يكونوا مؤهلين تماما لقيادة الثورة »[١٠٩] • وهكذا نجد لينين يؤكد ضرورة قيـــام تنظيم ثورى منظم مؤهل كشرط ضرورى للاستيلاء على السلطة • ومثل هذا التنظيم ــ كما يعتقد ــ هو شىء متميز لأنه يقوم بتوجيه الحركة الجماهيرية الثورية • ومعنى ذلك أن التنظيم الثورى هو الذى يقوم بالمبادءة الثورية وتوجيه مشاعر الاستياء لدى الجماهير • وعلى الرغم من أن لينين قد منح الجماهير أهمية خاصة فى الحركة الثورية ، الا أنه كان واعيا أيضا بأن الحزب القادر على رؤية الماضى وادراك الحاضر والتطلع الى المستقبل مؤهل أيضا لتدعيم الوعى الجماهيرى • لذلك يمكن القول إن أحد الاسهامات الأصيلة فى نظرية لينين وممارساته الثورية ادراكه لدور الحزب فى توجيه الجماهير •

هذا وقد شهدت السنوات الأخيرة حركات ماركسية جديدة تسعى الى احداث تغييرات بنائية شاملة داخل المجتمع الأمريكى • فعلى سبيل المثال نجد كارميكل Carmichael وهاملتون Hamilton يحاولان صياغة ايديولوجية لحركة تحرير الزنوج فى الولايات المتحدة[١١٠] • والمجتمع الأمريكى ــ فى

(107) Monthly Review, Lenin Today, Vol. 21, April, 1970, p. 25 ff.

(108) Lenin, «What is to be done», in Selected Works» Vol. I, Part I, Moscow, 1950.

(109) Ibid. p. 336.

(110) Carmichael, S. Hamilton, C., Black Power, Jonathan Cape, London, 1968.

نظر هذه الحركة ــ هو مجتمع عنصرى قائم على استغلال البيض للسود ، ومن ثم وجب تحطيمه • وأحد وسائل ذلك خلق وعى جديد بين الزنوج يقوم على تقوية روح النضال والتحرير لديهم • ولقد حاول كارميكل وهاملتون اقناع قرنائهم من الزنوج بأن المجتمع الأمريكى يتعرض للضعف والتآكل ، وأن اللحظة الثورية المناسبة قد حانت • وبسبب الظروف القاسية التى يعيشها الزنوج فى الولايات المتحدة نجدهما يخاطران بمطالبتهم بالعنف والانتقام • ذلك لأن نمو قوة الزنوج لن تقف عند حد ، وسوف تظل تبحث عن الكرامة والانسانية وتكافؤ الفرص • ومن أجل تحقيق ذلك يجب استخدام أى وسيلة ممكنة ومتاحة • ويمكننا أن نجد توازنا ملحوظا بين حركات الزنوج وحركات الشباب فى أواخر الستينيات من هذا القرن فى الولايات المتحدة • فاذا كان الزنوج قد رفعوا شعار معاداة « المجتمع الأبيض » ، فان الطلاب قد رفعوا شعار معاداة المجتمع الأمريكى « الرأسمالى » ــ « الامبريالى » ــ « العسكرى » •

ولقد حاول فرانتز فانون Fanon تطوير بعض القضايا الماركسية الكلاسيكية ومزاوجتها ببعض القضايا الوجودية كوسيلة لتنظيم حركة معادية للاستعمار(١١١) • فالعنف ــ فى رأيه ــ هو السبيل الوحيد لقضاء الدول النامية على الاستعمار • فالعالم الاستعمارى الذى قام على العنف لا يمكن الخلاص منه الا بالعنف • غير أن الجماهير المستعبدة لا تحـول شعورها العدائى نحو الاستعمار الى كفاح مسلح بسبب سيطرة الروح البرجوازية على الأحزاب السياسية واستبعادها لفكرة العنف • لذلك فان هذه الأحزاب لا تدعو الى العنف لأنها لا تهدف الى قلب الأوضاع التى أنشأها الاستعمار رأسا على عقب • لذلك نجدها (أى الأحزاب) تأخذ دورا وسيطا بين الشعب والمستعمر بحيث تعرض على الطرفين المصالحة وتنصحهما باللاعنف •

---

(111) Fanon, F., The Wretched of the Earth. Penguin Books, 1970.
هذا وقد نقل هذا الكتاب الى العربية تحت عنوان معذبو الأرض ، ترجمة سامى الدروبى وجمال الأتاسى ، بيروت ، ١٩٧٢ .

ولقد أوضح فانون أيضا أن الدور الذى تلعبه البرجوازية فى الدول النامية بعد الاستقلال يختلف عن دورها قبل تحقيقه . فالبرجوازية التى تتسلم مقاليد السلطة فى نهاية الفترة الاستعمارية هى عادة برجوازية متخلفة . فهى تحاول أن تلعب نفس الدور الذى لعبته البرجوازية الغربية ، ولكنها لا تملك المقومات الضرورية لأداء هذا الدور . ويستنتج فانون من ذلك حقيقة أساسية هى ؛ أن الوحدة الافريقية لا يمكن أن تتحقق الا باندفاع الشعوب نحو الاشتراكية(١١٢) .

وبرغم كل ما سبق فهناك شواهد تشير الى أن الثوار الذين يفتقدون التنظيم الدقيق الواعى قد يواجهون صراعات ومشكلات حادة . وما لم يتم التحكم فى الاندفاعة الثورية على نحو معين ، فان الأمر قد يؤدى الى اضطرابات ومعوقات . ولعل أوضح مثال على ذلك النتائج المترتبة على الثورة الثقافية الصينية فى الفترة فيما بين ١٩٦٥ — ١٩٦٩ والتى قادها رجال الحرس الأحمر بتوجيه من ماوتسى تونج . ونظرا لتجاوزات رجال الحرس الأحمر فى بعض المواقع اضطر ماو الى الاستعانة بجيش التحرير الشعبى لضمان عدم المساس بانتاجية المصانع والمزارع وتحقيق قدر أدنى من الاستقرار الاقتصادى والسياسى . وبدون ادارة ماو لهذه الثورة الثقافية كان من الممكن حدوث نتائج اجتماعية وخيمة(١١٣) .

ويتعين علينا أن نشير فى النهاية الى الحركات الفوضوية القليلة التى شهدها العالم منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى العشرينيات من قرننا الحالى(١١٤) . وفى كثير من الأحيان كانت هذه الحركات تنطلق من منطلقات ثورية ، وان كانت قد ظلت بعيدة عن الجماهير . وبرغم ذلك لا نستطيع أن نغفل التأثير الفكرى الذى أحدثته كتابات وأعمال المفكرين والفنانين

---

(112) Fanon F., The Wretched of the Earth, op. cit.

(113) Schram, S., The Political Thought of Mao Tse-Tung, Pelican, 1963.

(114) Woodcock, G, Anarchism, Penguin Books, Harmondsworth 1968.

الفوضويين وعلى الأخص فى روسيا خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وفى أسبانيا خلال السنوات الأولى من القرن العشرين • والمشكلة الأساسية التى واجهتها الحركات الفوضوية أنها قد فشلت فى اقامة سند شعبى لها فى الدول الصناعية المتقدمة • فمبادؤها تبدو رومانسية وبعيدة عن الواقع ، كما أن المبادىء والأساليب التى تعتمد عليها قد بدأت تتعرض للضعف بعدما بدأت الحركات الاشتراكية تقدم حلولا اجتماعية للمشكلات التى تواجهها جماهير الفلاحين والعمال •

الفصل السادس

الثورة والعنف

درج علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية على تعريف التنظيم السياسى بأنه « ذلك الذى يعنى بكيفية ممارسة القوة والتحكم فيها »[1] • وبنفس الكيفية يمكن النظر الى الدولة فى ضوء وجـود قواعد منظمة لاستخدام القوة • وهذه القواعد تتخذ أشـكالا مختلفة وتطبق لأغراض متباينة • فقد تستخدم القوة لمواجهة الأفعال الضـارة التى تؤثر على أمن وكيان المجتمع ، وقد تستخدم أيضا فى حل الصراعات التى تنشـأ بين مختلف أطراف المجتمع • ويرتبط بذلك كله مفهوم على درجة عالية من الأهمية هو : الثورة • فالمعنى الشائع للثورة هو معنى واسع بحيث يغطى أشكالا عديدة لاستخدام القوة ، قد لاتبدو قانونية أو شرعية بالمعنى المحدود ، ولكنها تهدف فى نهاية الأمر الى احداث التغير السياسى[2] • وهنا يمكننا استخدام مفهوم الثورة للاشارة الى مجموعة من الأحداث تستخدم فيها القوة بنجاح للاطاحة بحكومة أو نظام سياسى معين • واذا لم تنجح حركة الثـورة أطلق عليهـا « تمرد » Revolt أو « عصيان مسلح » insurrection أو « انتفاضة » uprising • وعلى الرغم من أن هناك اختلافات لغوية بين المفاهيم ،فان معانيها قد تتداخل فى بعض الأحيان •

ومن الصعب تحليل مفهوم الثورة دون التعرف على جذوره التاريخية • وواقع الأمر أن هذا المفهوم يعد من أقدم المفاهيم السياسية استخداما ، لذلك فان تحليله يحتاج الى بصيرة تاريخية وفهما مقارنا • فلو نظرنا الى

---

(1) A. R. Radcliffe-Brown, Cited in Lucy Mair Primitive Government, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1962.

(2) Peter Calvert, A Study of Revolution, Clarendon Press, Oxford, 1975.

أبسط المجتمعات البدائية التى تعيش فى حالة استقرار اجتماعى ، لاحظنا أنها تزداد وعيا بهــذا الاستقرار حينما تتعرض لأى قدر من التوتر أو التناقض • ولهذا فان مفهوم الدولة لا يكتسب معناه الحقيقى الا اذا واجهنا مفهوم الثورة وحللنا أبعاده • ولسوف نحاول تتبع المعانى المختلفة لمفهوم الثورة عند أبرز العلماء الاجتماعيين الذين عنوا به ابتداء من فلاسفة الاغريق حتى منظرى الثورة المحدثين •

(١)

يعد أفلاطون من أوائل الفلاسفة الذين عنوا بدراسة التغيرات التى يمكن أن تطرأ على البناء السياسى • فهو الذى أرسى دعائم نظرية عضوية للانساق السياسية لاتزال تجد لها صدى حتى اليوم فى أعمال تالكوت بارسونز[٣] Parsons • وفى معرض مناقشته لنمو النظم وانهيارها ، ذهب أفلاطون الى أن هناك ضرورة لايجاد الدستور حينما تصبح الدولة تيموقراطية(*) • ولقد كانت الدولة التيموقراطية فى نظر أفلاطون تمثل ــ آنئذ ــ أكثر أشكال النظم السياسية بدائية كما هو الحال بالنسبة لاسبرطة • ومن المهم أن نلاحظ هنا أن أفلاطون قد نظر الى الدستور على أنه ضرب من المســـاومة بين الجماعات المتنافسة ، وأن اقامة الدستور تمثل النقطة التى تظهر عندها الدولة مكتملة الأركان •

ويعتقد أفلاطون أن الدولة التيموقراطية لا تتميز بالكمال نظرا لعــدم وضوح هويتها • لذلك فهى تتجه الى الأوليجاركية ثم الديموقراطية وأخيرا الاستبداد • وتمثل وجهة النظر هذه التطور السياسى الذى تصوره الاغريق

---

(3) Johnson, Chalmers, Revolution and the Social System, The Hoover Institution on War, Revolution and Peace, Stanford University Press, Stanford, 1964.

(*) أى أن تحكم الدولة مجموعة من الأفراد يكون دافعهم الرئيسى هو حب الشرف . غير أن أرسطو قد استخدم كلمة « تيموقراطية » للاشارة الى السياسة المستندة الى الملكيات المخصصة للحكام .

وقت أن كتب أفلاطون كتاباته • وعلى الرغم من أن عملية التطور الشاملة قد تستغرق زمنا طويلا فى نظر أفلاطون ، الا أنه لم يستبعد حدوث بعض الأعمال العنيفة من جانب الأفراد • فالجماعات التى تقبض على مقاليد القوة لا تستسلم بسهولة الا اذا تعرضت لتحدى استخدام القوة ، وأن التاريخ يسجل محاولات واضحة لاستخدام القوة والعنف من جانب الأفراد • كذلك يذهب أفلاطون الى أن هناك دورة يمكن أن تتعرض لها دولته المثالية وهى « الجمهورية » ، بحيث تظهر جماعات تستولى على السلطة وتحقق نفوذها • غير أن بالامكان تفادى ذلك اذا ما كان هناك حرص شديد على صيانة معايير العدالة فضلا عن تحقيق التوازن بين مختلف القوى التى يتألف منها المجتمع • واستنادا الى ذلك يمكننا اعتبار أفلاطون من رواد دراسة التدخل العسكرى فى المجال السياسى • غير أن أفلاطون قد اشتهر فى تراث الفكر السياسى بأنه ــ خلال مناقشته للطغيان ــ قد منح أهمية خاصة للدور الاقتصادى « للرأسماليين » فى ظل الحكومة الديموقراطية • ويتوقع أفلاطون أن تظهر عصابات من اليائسين تطيح بالرأسماليين وتقيم مجتمعا لا يستند الى العدل • وفى ظل هذا المجتمع يتوقع أفلاطون نشوب العنف الداخلى ويكون أكثر عرضة للتدخل السياسى العنيف[٤] •

أما أرسطو فيعد رائد الدراسة المقارنة للنظم السياسية ، حيث قدم أول محاولة شاملة لدراسة الثورة ، وأفرد لها حيزا كبيرا من مؤلفه الشهير « السياسة »[٥] • ولقد قبل أرسطو مبدأ وجود الدولة ، بمعنى أنه قد وافق على الفكرة الذاهبة الى أن النظام السياسى لا يتحقق الا بوجود حكومة تعمل على صيانته والمحافظة عليه • غير أنه قد أوضح فى موضع آخر أن الدول « العادية » تتأسس على أفكار خاطئة عن العدالة ، وأنها ــ أى الأفكار الخاطئة ــ هى التى تؤدى مباشرة الى الاحساس بعدم الرضا ، وبالتالى

---

(4) Plato, The Republic, trs. and ed. F. M. Cornford, Clarendon Press, Oxford, 1955, cc. 29, 32.

(5) Aristotle, Politics, trs, Benjamin Jowett Clarendon Press, Oxford, 1931.

حدوث انقلاب سياسى ، ومع أن هذا الانقلاب قد لا يتخذ شكلا عنيفا ظاهرا ، الا أنه قد يعمل على تغيير شكل الدولة بما يترتب على ذلك من نتائج سياسية. واستنادا الى ذلك يمكن اعتبار الثورة فى نظر أرسطو ظاهرة استثنائية ، ولكنها حقيقة ضرورية لاحداث التغير السياسى • أى أن الثورة ظاهرة سياسية تمثل عملية أساسية لاحداث التغيير الذى قد يؤدى الى تغير أو استبدال الجماعات الاجتماعية •

ولقد تناول أرسطو قضية الثورة من خلال تصور محدد أقامه عن الدولة • فالملكية ـ فى رأيه ـ لا تعدو أن تكون صورة الحكم العتيقة التى ما تلبث أن تتعرض للضعف والانهيار • ومع أن أرسطو قد اعتبر الديموقراطية والأوليجاركية أفضل من الملكية ، الا أنهما لا يحققان بالضرورة أهدافهما • ومن خلال تحليل هذه النظم السياسية يقف أرسطو على السبب الرئيسى للثورة وهو الظلم الذى قد يظهر فى صور مختلفة • لكننا نجد أيضا اشارة الى مجموعتين من الأسباب المؤدية الى نشوب الثورات[٦] : الأولى سيكولوجية كالرغبة فى تحقيق الكسب والمكانة ، والخوف ، وحب التفوق ، والاحتقار ، والحقد الناجم عن التفوق الذى قد تحققه جماعة أو مجموعة من الجماعات • أما المجموعة الثانية من العوامل فهى اجتماعية كالاهمال المتفشى لدى الصفوات الحاكمة واحتقارها للجماهير فضلا عن تباين الجماعات المؤلفة للمجتمع • كذلك فان أرسطو لم يعتبر القوة هى الوسيلة الضرورية لاحداث الثورة ، فلقد أشار الى وسيلة بديلة هى المناورة أو الخداع •

على أن أرسطو لم يبد اهتماما كبيرا بتحليل نتائج الثورة • بعبارة أخرى لم يهتم بتقديم نظرية تتناول ديناميات الثورات • وربما كانت الملاحظة الوحيدة التى كشفت عن رؤيته لكيفية حدوث الثورة تتمثل فى عبارته : « أن الثورات تنشب حينما يحدث توازن بين طرفين متعارضين (مثال ذلك الأغنياء والفقراء) • فاذا ما تفوق أحد الطرفين على الطرف الآخر ، فان الضعيف لن

---

(6) Ibid, Book V. IV. 1-2.

يخاطر بمهاجمة القوى »[٧] • ومع أن مضمون هذه العبارة قد يبدو منطقيا فى ظاهره ، الا أنه لا يتسق مع كثير من الأحداث المعاصرة • فقضية توازن القوى فى المواقف الثورية قد لا تبدو صحيحة • وعند تقييمنا لهذه العبارة نجد أن أرسطو لم يكن يقصد تقديم نظرية عامة تتناول العنف الثورى ، بقدر ما كان معنيا بتسجيل بعض الملاحظات والشواهد • ومع أن الفكر السياسى لأرسطو يستند الى التسليم بالنظام الطبيعى ، الا أنه يبدو أن الامتثال لهذا النظام لا يجعل الفرد معارضا لدافع الثورة والتمرد • كذلك نجد أرسطو يقيم تمييزا أخلاقيا بين أشكال الحكم ، ثم ينظر الى مدى ملاءمة العمل الثورى فى ضوء نظام الحكم القائم •

ويحاول أرسطو بعد ذلك مناقشة قدرة نظم الحكم المختلفة على الاستمرار ، وهى مناقشة كان لها صدى كبيرا فى الفكر السياسى اللاحق • فعلى الصفوة الحاكمة الامتثال للقوانين ، والابتعاد عن الأفعال الضارة بالمجتمع ، والالتزام بالسلطات المخولة لها • وعلى الصفوة الحاكمة أيضا مراعاة التوازن بين قوى المجتمع وممارسة الانضباط قدر الامكان • ولقد دفعت مناقشة أرسطو لهذه الخصائص الى دراسة أسباب سقوط الملكيات ، اذ أن بقاءها محدود بفترة زمنية معينة • وتميل الملكيات الى تدعيم الطغيان بوسيلتين متناقضتين : الأولى هى الاستخدام الأقصى للقـوة ، والثانية الممارسة المعتدلة لكل شكل آخر من أشكال القوة[٨] • ومع أن أرسطو قد اهتم بكثير من النقاط التى تدخل الآن تحت مفهوم « الشرعية » الشائع فى الفكر السياسى الحديث ، الا أنه قد أوضح — فى نفس الوقت — ان الطغيان هو أقصر نظم الحكم عمرا •

---

(7) Ibid, Book V. IV. 11.

(٨) ويضيف أرسطو الى ذلك أساليب عديدة يستخدمها الطاغية فى تدعيم الحكم . من ذلك اشاعة الخوف لدى المواطنين ، والابتعاد عن أفراد المجتمع ، واستخدام المخبرين والجواسيس ، واحساس أفراد المجتمع بأنهم بحاجة الى المساعدات الاقتصادية التى يقدمها لهم . ومع ذلك يتعين على الطاغية أن يهتم بمعرفة دخل الدولة ، ويحرص على رفع مكانتها والمحافظة على أداء الشعائر الدينية Ibid, Book V, IV. 12. •

وعلى أية حال فلقد كان أرسطو ناقدا لتصور أفلاطون عن الثورة • فلقد لاحظ أن أفلاطون قد ناقش الأسباب الطبيعية لانهيار أشكال الحكم فى ضوء تصوره الدائرى ، وأنه برغم ذلك لم يوضح كيفية انهيار الطغيان ممهدا بذلك لدورة جديدة فى أشكال الحكم • كذلك نجد أرسطو يفند كثيرا من ملاحظات أفلاطون ، كتلك الذاهبة الى أن القلة الحاكمة تكون عرضة للانقسام ، وميله (أى أفلاطون) الى التسليم بأن الفقر يمثل العامل المشترك فى نشوب الثورات • ان القادة المظلومين — فى نظر أرسطو — هم الذين يقودون الثورات ، بينما لا يفعل ذلك المظلومون من عامة الناس • وهذا التفسير لا ينكر — بطبيعة الحال — الفقر كعامل مؤثر من عوامل التمرد والثورة • ان كتابات أرسطو فى هذا المجال تكشف عن نزعة واقعية واضحة • فلقد أبدى استعداده لقبول أى تفسير تؤكده الشواهد الواقعية حتى ولو كان ذلك الذى يذهب الى أن الرغبة فى التخلص من الفقر يمكن أن تؤدى الى انقلاب اجتماعى •

ومما سبق يبدو واضحا أن أرسطو يعد المؤسس الحقيقى لدراسة الثورات • ففى الباب الخامس من مؤلفه « السياسة » ، نجده لا يناقش فقط التفكك أو التحلل الاجتماعى ، بل يتناول التغير السياسى ، حيث أوضح أنه (أى التغير السياسى) يتبع نمطا دائريا يضم مختلف أشكال الحكم • غير أنه لم يمنح هذا النمط الدائرى اسما معينا • وفضلا عن ذلك نجد أرسطو أول من لاحظ وناقش التغير السياسى العنيف • كما أنه — بوصفه فيلسوفا — قد أقام اطارا تصورياً يمكن من خلاله ملاحظة هذا التغير • ومع أنه لم يسلم تسليما مطلقا بالتصور الدائرى للتغير السياسى ، الا أن الجهد الذى بذله فى تشكيل هذا التصور يمثل اسهاما كبيرا • واذا كان أفلاطون لم يتمكن من اكمال هذا التصور الدائرى ، الا أنه قد ترك هذه المهمة لأرسطو • بيد أن هذا الأخير لم يقفل الدائرة نهائيا ، لأنه قد تصور امكان حدوث استثناءات لا تتفق بالضرورة مع توقعاته • كذلك فان أرسطو قد لاحظ أنماط الانحلال الاجتماعى التى تشكل العوامل الرئيسية فى نشوب الثورات[٩] • ولقد وضع هذا

---

(٩) ويمكننا فهم كثير من وجهات نظر أرسطو عن الثورة فى ضوء الآراء

الانحلال الاجتماعى فى اطار تصوره الدائرى للتغير السياسى . لذلك فان انهيار النظام الاجتماعى ــ فى نظره ــ له معنى ايجابى واضح . انه علامة على الطريق واشــارة الى التطور المرتقب الــذى سيتحقق فى مجــال نظم الحــكم .

والملاحظ أن الاغريق قد سلموا بوجود أشكال مختلفة للحكم . لذلك نجد أرسطو يواجه مشكلة ربط أنماط التغير الثورى بأنماط الحكم . وعندما وضع التحلل الاجتماعى فى اطار نظرته الشاملة ، استطاع ــ وعلى أساس علمى ــ وضع عملية التغير السياسى فى سياق اجتماعى أشمل . ولقد مكنه ذلك من رؤية التغير الناجم عن ممارسة القوة . وذلك المرتبط باستخدام الحاكم لكل أساليب القهر من أجل تدعيم مكانته السياسية . ومن الطبيعى أن يساعد ذلك أرسطو على تبنى نظرة لا تفسر فقط الحركات السياسية الناجحة . بل تساعد أيضا على فهم أسباب فشلها . ولا يعود هذا الفشل الى جدارة أو عدم جدارة قادة هذه الحركات ، بل يرجع الى طبيعة الحاكم وحكمته فى اتخاذ السلوك الملائم . والواقع أن مثل هذا التحليل قد ساعد أرسطو على ادخال فكرة السببية فى الفكر السياسى . فلقد اعتبر العامل الفردى أو السيكولوجى من العوامل الأساسية فى نشوب الثورات ، مانحا اياه أهمية أكبر من العامل الاجتماعى . لذلك نجده فى نهاية تحليله يتوصل الى أن الثورة مفهوم سياسى أكثر منه اجتماعى ، وأنها (أى الثورة) ظاهرة لا تؤثر على البناء الاجتماعى الا تأثيرا ثانويا . غير أن أرسطو يذهب فى مواضع أخرى الى أن العامل الاجتماعى قد يلعب دورا فى تحديد مجرى الحركات الثورية أكبر من ذلك الذى يلعبه فى رسم نتائجها .

= السياسية التى كانت سائدة فى عصره ، وفى ضوء نظم الحكم التى كانت قائمة آنئذ . فلقد كان هناك اهتماما متزايدا بأشكال الحكم وبتطور النظام الدستورى بوجه عام . فلقد سلم الاغريق بأن كل أشكال الحكم أفضل من الملكية ، وأن كل الأساليب التى تستخدم للمحافظة عليها لها مضمون أخلاقى ايجابى . لذلك فاذا كان العنف من السلطة المخولة للحاكم ، فانه يصبح عنفا مفيدا فى هذا السياق . انظر :

Andrewes, A., The Greek Tyrants, Hutchinson University Library, London, 1958.

(٢)

واذا ما تأملنا الفكر السياسى خلال العصور الوسطى وجدناه يركز تركيزا واضحا على مفهومى الطاعة والولاء • لقد تميزت هـذه العصور بخاصيتين أساسيتين هما : التفكك الاجتماعى ، والطاعة • ولقد كان مفهوم الطاعة من المفاهيم التى انتقلت مباشرة من التراث اليهودى الى التراث المسيحى خلال القرن الأول الميلادى • فطاعة الانسان لله واجبة ، كما أن الأنبياء اليهود كانوا يلعبون دور الملوك فى آن واحد • لذلك فان التمرد ضد الملك يعتبر من الأمور المخالفة للدين • بيد أن التطورات اللاحقة التى شهدها العالم المسيحى قد كشفت عن تناقضات واضحة ، بدا ذلك أوضح ما يكون فى الصراع بين السلطتين الدينية والزمنية[١٠] •

وخلال نفس الفترة تقريبا بدأ المفكرون السياسيون فى العالم الاسلامى يهتمون أيضا بمشكلة تدعيم الايمان فى ظل عصر تسوده الفوضى السياسية ، حيث نجد محاولات للفصل بين سلطات القائمين على الشئون العسكرية والقائمين على رعاية الشئون الدينية وعلى رأسهم الخليفة • ويذهب الامام الغزالى الى أن الخليفة هو ذلك الذى يستند فى زعامته الى قوة عسكرية تمنحه الشرعية • وعندما تكون سلطة الخليفة مقررة وواضحة ، فان حكومته تتخذ طابعا قانونيا[١١] • واذا ما حدث عكس ذلك عمت الفوضى وانتشر العنف • على أن سرعة ظهور وانهيار الملكيات الاسلامية قد أثار جدلا حول أهمية الطاعة فى تدعيم الايمان • ولقد تجسد هذا الجدل فى كتابات ابن خلدون ، حيث أقام نظرية فى تعاقب الملكيات لا تقل شمولا عن نظرية أرسطو • ويعتقد ابن خلدون أن مدى استمرار الملكيات هو العامل المحدد للتغير السياسى ، وأن هذا المدى لا يتعدى ثلاثة أجيال • فاقامة السلطة

---

(10) Walter Ullman; A History of Political Thought, The Middle Age, Penguin Books, Harmondworth, Middlesex, 1965.

(11) Irwin I. J. Rosenthal, Political Thought in Mediaeval Islam, an Introductory Outline, Cambridge University Press, Cambridge, 1962, p. 42.

السياسية فى الجيل الاول تؤدى الى ظهور الاوتوقراطية فى الجيل الثانى . ثم تصل الى ذروتها فى الجيل الثالث قبل أن ينهار النظام القائم ليظهر نظام سياسى آخر جديد . وتعود أهمية كتابات ابن خلدون السياسية الى فهمه الشامل للظاهرة السياسية . فلقــد ذهب روزنثــال Rosenthal الى أن ابن خلدون كان واعيا كل الوعى بالتساند السببى بين العوامل المختلفة المشكلة للحياة الاجتماعية داخل الدولة سواء كانت اقتصادية أو عسكرية أو ثقافية أو دينية(١٢) . وفى معرض مقارنة ابن خلدون بميكيافيللى ذهب روزنثال الى أن الاخير قد أقر السببية فى تفسير التاريخ والتطور ، وأنه قد تأثر بوضوح بالمؤرخ الاغريقى بوليبيوس Polybius وخاصة تصوره عن التغير الدائرى لأنظمة الحكم . وعلى الرغم مما قد يبدو من وجوه شبه بين الفكر السياسى عند ابن خلدون وبوليبيوس ، الا أن من المشكوك فيه تماما أن يكون الاول قد أقر أعمال الاخير .

ويعد توماس الأكوينى Thomas Aquinas من الذين أســهموا فى فهم التمرد السياسى فضلا عن اسهامه العام فى دراسة الدولة . ولقد أثار نقطة فرعية تناول من خلالها قضايا عامة ، حيث تساءل عما اذا كان قتل الطاغية يمثل عملا قانونيا أم أنه يعد انتهاكا للقواعد والمعايير السائدة . ويعتقــد توماس الأكوينى أن علاج شرور الطغيان يكمن فى أيدى السلطة العامة أكثر مما يكمن فى الاحكام الخاصة التى يصدرها الافراد . فاذا كان لأفراد المجتمع الحق فى انتخاب الحاكم ، فسوف يكون منافيا للعدالة التخلص من الحــاكم الذى انتخبوه(١٣) . غير أن الأكوينى قد أشار فى مواضــع أخرى الى أن باستطاعة المجتمع أن يعزل الطاغية اذا لم يلتزم باليمين الذى أخذه عليه ، وبالتالى يصبح أفراد المجتمع فى حل من الالتزام بطاعته . ويجب ألا يقوم المجتمع نفسه بهذا الاجراء مباشرة ، اذ تتولاه سلطة أعلى . فاذا لم توجد

---

(12) Ibid. p. 106.

(13) Thomas Aquinas, Selected Political Writings, ed. and Int. A. P. d'Entréves, Basil Blackwell, Oxford, 1959, p. 21.

هذه السلطة تولاه الله • وبهذه الطريقة نجد الأكوينييقيد الاستخدام المباشر للقوة من جانب الافراد • اذ أن الفرد وحده لا يستطيع اعلان الحرب • فاذا ما أراد ابداء غضبه واستيائه لجأ الى سلطة أعلى تدافع عنه • كذلك فليس من حقه تعبئة الناس ضد الحاكم • فهذه التعبئة لا تتم الا وقت الحروب[١٤] • وبرغم ذلك كله نجد الأكويني فى مواضع أخرى يقر حق خلع الطاغية • وحينما يقوم فرد بذلك فانه لا يعد عملا غير قانوني • وحتى يكتسب هذا العمل طابعا شرعيا يتعين أن يكون الضرر المترتب على خلع الطاغية أقل من الضرر المترتب على استمراره فى الحكم • على أن هذا الاستثناء ينطوى على أهمية بالغة • فطالما أن هناك حاكما يكتسب شرعيته من خلال اجماع المجتمع على وجوده ، فان الفرد — من وجهة نظر الأكويني — سوف يعرض نفسه لخطر بالغ اذا ما استخدم ضده السلاح • حينئذ سيدان وسيستحق أقسى أشكال العقاب • لذلك لا يجد الحكام الذين حصلوا على أوضاعهم عن طريق القوة عذرا ، اذا لم يدركوا الاهمية الكبرى لعملية اكتساب الشرعية • فاذا ما تخاذلوا أو قصروا فى ذلك استحقوا الخلع أو القتل •

على أن ايطاليا قد شهدت ظروفا مختلفة عن بقية الدول الأوربية خلال القرن الثالث عشر • فلقد ظهرت « دولة المدينة » كنمط سياسى شبيه بذلك الذى ساد عند الاغريق القدماء • وفى نمط « دولة المدينة » أقامت عائلات الأمراء قلاعا وأبراجا حصينة ، واتخذت حراسا يحمونها ضد الغازات التى تشن فيما بينهم • ولا شك أن النظام السياسى السائد آنئذ كان يفتقد الى الشرعية • وربما كان المصدران الوحيدان لمثل هذه الشرعية يتمثلان فى البابوية والامبراطورية• ولم يكن البحر يفصل بين هذه الدول الصغيرة كما هو الحال عند اليونان • لذلك كان القائد الناجح هو الذى يستطيع أن يتكيف بسرعة مع معايير مجتمع لا أخلاقى ، أو يهاجم الآخرين دون انذار مسبق • لقد كان التغير السريع المصحوب بالعنف فى أنظمة الحكم هو القاعدة وليس

---

(14) Ibid. p. 35.

الاستثناء[١٥] • ويبدو أن ذلك قد انعكس بوضوح على الفكر السياسى الايطالى خلال تلك الفترة ، حيث نجده يركز تركيزا واضحا على دور الفرد فى العنف السياسى •

ويمكننا أن نجد تجسيدا حيا لذلك كله فى أعمال مكيافيلى Machiavelli • ففى مؤلفه « الأمير » The Prince يناقش الاستخدام السياسى للقوة قائلا : « ان الأمراء الذين يستطيعون الاحتفاظ بأوضاعهم هم الذين يملكون القوة البشرية والمال الكافيين لاقامة جيش يستطيع أن يواجه أى معتدى »[١٦] • ويعتقد مكيافيلى أن القوة هى دعامة أى نجاح سياسى • وباستطاعة أى أمير أن يحمى نفسه من المؤامرات السرية التى قد تحاك ضده ، اذا ما حال دون ظهور مشاعر عدائية ضده ، وعمل على راحة الشعب• وعلى الأمير فى نفس الوقت أن يظهر العلامات الكافية المعبرة عن قوته ، ولا يتردد — فى بعض الاحيان — فى ممارسة القسوة لاشاعة الخوف بين مواطنيه عندما يكون ذلك ضروريا • وعليه أيضا أن يعتمد على العناصر التى يمكن أن يتحكم فيها ، لا تلك التى يفقد السيطرة عليها • غير أن مكيافيلى فى مؤلفه « الأمير » قد اهتم فقط بالقوة من وجهة نظر الحاكم ، ولم يحاول اقامة نظرية جديدة فى الدولة أو فى الثورة • لذلك فان « الأمير » يشبه فى كثير من الوجوه مؤلف أرسطو « السياسية » ، من حيث أنهما مؤلفان يستندان الى ملاحظات شخصية • فعلى سبيل المثال يذهب مكيافيلى

---

(15) Calvert, P., A Study of Revolution, Clarendon Press, Oxford, 1975. p. 30.

ومع ذلك فان من الصعب اطلاق مصطلح الثورة على مثل هذا النمط من التغير . اذ أن كلمة ثورة لم تكن قد اكتسبت معناها الحديث . كذلك فان المجتمع الايطالى خلال العصور الوسطى لم يكن يتلاءم مع التصور الدائرى لنظم الحكم على نحو ما أشار بوليبوس ، بمعنى أن التطور السياسى لم يكن يتخذ طابعا تقدميا منتظما من نظام سياسى الى نظام آخر . انظر :

Lintott, A. W., Violence in Republican Rome, Clarendon Press, Oxford, 1968.

(16) Machiavelli, The Prince and the Discourses, Random House, New York. 1960, p. 396.

الى أن الحكام الذين يفقدون أوضاعهم لا يتمكنون ــ عادة ــ من اقامة تنظيمات عسكرية قوية ، ولا يستطيعون كسب ولاء الشعب • ومن ذلك يبدو واضحا كيف أن مكيافيلى قد اعتبر التنظيم العسكرى القوى الدعامة الاساسية لاستمرار النظام السياسى ، وكيف أنه قد أكد فكرة ولاء الشعب للقائد[١٧] •

ولقد دعا هذا الموقف بعض العلماء الى الاعتقاد بأن مكيافيلى كان مؤيدا للحفاظ على النظام السياسى ومعارضا للتمرد عليه • وربما كان تحليله للأحداث الثورية مخيبا لآمال كثير من الثوريين الملتزمين • لكن المحقق أن العلماء السياسيين المعاصرين سوف يجدون فى كتاباته تحليلات لانهيار الدول لا تخلو من طرافة وجدية • فهو يذهب الى أن الأنظمة السياسية ــ سواء كانت ملكيات أو جمهوريات ــ تميل الى الانهيار لأنها تتجه نحو افتقاد عناصرها الايجابية الأصيلة • كذلك يرى أن الخطر الاول على الدولة يتمثل فى مطامع الافراد أو الطغاة المنافسين للحكام • ويقول مكيافيلى : « لا يستطيع الأمير أن يعيش آمنا فى دولته مادام هناك أفراد يحسون أنهم قد حرموا من مزايا الحكم »[١٨] • وهنا يبدو الاستخدام القانونى للقوة ضروريا للحفاظ على الدولة ، ثم يصبح اللجوء الى العنف بعد ذلك أمرا لا مفر منه[١٩] • ومن الواضح أن مفهوم المؤامرة السياسية عند مكيافيلى يقترب الى حد بعيد من المفاهيم السياسية الحديثة كالاغتيال السياسى والانقلاب • لذلك نجده يذهب فى مواضع أخرى الى أن أول شرط من شروط المؤامرة هو الدافع • لذلك يتعين على الأمير أن يتجنب كل التصرفات التى قد تعتبر من وجهة نظر الشعب خاطئة أو غير عادلة • ويكفى أن يقوم فرد لا يخشى العقاب بالاعتداء على حياة الأمير • ويقول مكيافيلى موضحا :

(17) Ibid. p. 402.

(18) Ibid. p. 406.

(١٩) ويؤكد مكيافيلى ذلك قائلا : « ان التاريخ يخبرنا أن الامراء الذين فقدوا حياتهم ودولهم نتيجة للمؤامرات كانوا أكبر عددا من الذين ابتعدوا عن الحكم نتيجة للحروب المباشرة » Ibid. p. 307.

« قد يظهر شخص أو مجموعة من الاشخاص يقومون بمهام انتحارية للقضاء على الأمـير ، على الرغم من أن احتمـال موتهم فى حالة فشـلهم يـكون مؤكدا »[٢٠] • أما الشرط الثانى من شروط المؤامرة فهو الجرأة • لذلك قـد يلجأ بعض المتآمرين الى اقامة علاقات قوية مع حاشية الأمير لتسـهيل مهامهم •

هذا وقد أفاض مكيافيلى فى مناقشة دور المؤامرات السياسية فى قلب نظام الحكم وما يرتبط بذلك من ديناميات • فهو يذهب الى أن اكتشاف معظم المؤمرات يتم وقت تنظيمها ، اما عن طريق تهديد السلطة للقائمين بها ، أو بواسطة جهاز مخابرات الدولة • لذلك فان أفضل وسيلة دفاعية يمكن أن يتخذها المتآمر هى عرض خطته النهائية على زملائه قبل تنفيذها بوقت قصير جدا • وقد تفشل المؤامرة فى بعض الاحيان نتيجة للتغير الدائم فى خطط تنفيذها أو بسبب الرغبة الشديدة فى أدائها • وتصبح الاخطار المترتبة على المؤامرة أكبر وأجسم • واذا ما كانت تسعى الى الاطاحة بجماعة حاكمة ، فالخوف من افشاء أسرار المؤامرة قد يشكل خطرا كبيرا نتيجة لاتسـاع المؤامرة الموجهة نحو هذه الجماعة • لذلك نجد مكيافيلى يذهب الى أن المؤامرة (أو بتعبير حديث الانقلاب أو الاغتيال) ليست هى الطريقة المثلى للاطاحة بنظام سياسى مستند الى سلطات تنفيذية واسعة • وفى هذه الحالة فان على الساعى الى السلطة أن يوجه مؤامرته الى الدولة لا الى الفرد بحيث يقيم ـــ مستخدما فى ذلك العنف اذا ما كان ذلك ضروريا ـــ سيادة سياسية لا تتعرض بسهولة لأخطار المنافسين أو الطامعين فى الحـكم • كذلك فان المتآمر ضد الدولة يجب أن يستعين بالمكر والدهاء ، كما يتعين عليه ـــ ما أمكنه ذلك ـــ الاعتماد على مساعدات خارجية[٢١] •

---

(20) Ibid. p. 414.

(21) Ibid. pp. 66-77.

ويلاحظ أن مكيافيلى كان واعيا بكيفية مواجهة الدولة للمؤامرات بطريقة علمية . ويتم ذلك عن طريق العمل السياسى السريع الفعال المقنع . وفى خاتمة مؤلفه يذهب مكيافيلى الى أن الاطاحة بنظم الحكم كانت تحدث دائما دون اراقة دماء . غير أن الحالات التى ارتبطت بسفك الدماء والانتقام ـــ برغم قلتها ـــ كانت تترك تأثيرات سيكولوجية هائلة .

ومما سبق يبدو واضحا أن مكيافيلى قد قدم لنا تحليلا واضحا لمراحل الثورة والمتغيرات المختلفة المرتبطة بها • ولما كانت نظريته فى الثورة تركز على العمل الفردى ودور الطموح فى الشئون الانســانية ، فاننا نلمس فى كتاباته اشارات عديدة للدافع السيكولوجى للناس فى المواقف الثورية • غير أن نظرية مكيافيلى تفتقد الاشــارة الواضحة الى العوامل الاجتمــاعية المؤدية للثورات ، والظروف التى يحس الناس من خلالها ضرورة تغيــير النظام السياسى عن طريق العنف • ومع ذلك كله فان من الصعب القول بأن مفهوم الثورة الاجتماعية لم يكن هاما على الاطلاق فى كتاباته ، ولكنه تعمد استبعاد العمليات الاجتماعية حينمــا كان يصر على أن الطبقــة السياسية (النبلاء) تمثل المحور السياسى الهام الذى يجب أن يأخــذه الحاكم فى اعتباره • وعلى أية حال فان أهمية مكيافيلى تتمثل فى تحليله لطبيعة العمل الثورى وأساليبه • لقد كان أول من قدم تحليــلا مستفيضا للانقــلابات السياسية ، مما أدى الى ظهور دراسات هامة حديثة فى هــذا المجال[٢٢] • واليه أيضا يعود الفضل فى اعادة احياء المفهوم الأرسطى عن الثورة بوصفها ظاهرة سياسية محايدة أخلاقيا • ان كل ذلك جعل من كتابات مكيافيلى عن الثورة نقطة تحول هامة فى الفكر السياسى الحديث •

(٣)

وبنهاية العصور الوسطى بدأ مفهوم الثورة يتخذ طابعا علمانيا ملحوظا حينما بدأت السلطة الزمنية تنفصل عن السلطة الدينية • وخلال عصر النهضة بدأت العلمانية تحقق استقلالا واضحا بفضل تأثير مارتن لوثر Luther الذى أقر امكانية مقاومة الحاكم حتى ولو كان مخولا سلطة الهية • والمؤكــد أن العلمانية كانت تنطوى على خطر كبير للكنيسة آنئذ ، اذ أنها (أى العلمانية) تفترض وجود تحولات فى أنماط تفكير الناس • لذلك قد لا نندهش حينما نجد

---

(22) Feliks Gross, The Seizure of Political Power in a Century of Revolution, Philosopical Library, N. Y. 1958, Edward Luttwak; Coup d'Etat, A Practical Handbook, Allen Lane, The Penguin Press, London, 1968.

كالفن Calvin يذهب الى أبعـد مما ذهب اليه لوثر ، حيث يؤكـد أنه لا مجال للثورة فى الدولة(٢٣) • وخلال هـذه الفتـرة ظهـر كاتب غامض الهوية(٢٤) قدم نظرية جديدة فى الثـورة ؛ كانت بمثابة بداية لسلسلة من المؤلفات تدافع عن التمرد ضد أنظمة الحـكم . على الرغم من أن الدافع الرئيسى لهذا المؤلف كان دينيا فى المحل الاول • ولقد أكد مؤلف هذا الكتاب أن هناك سببا قانونيا لتمرد الناس ، وأن ذلك يمكن أن يتم فى ضوء نظرية العقد الاجتماعى • غير أنه قد ذهب فى موضع آخر الى أن الحـكام هم من اختيار الله ، وأن مشيئته هى القادرة على تعيين الملوك وتدعيمهم والاطاحة بهم أيضا • فالله يفعل ما هو خير للعباد(٢٥) • واذا ما أطاع الناس حاكمهم فى تنفيذ شىء مخالف للقانون الالهى ؛ فانهم بذلك يرتكبون نفس الخطأ •

ويبدو أن التحولات الاجتماعية والسياسية الفعلية التى شهدتها أوربا الغربية وأمريكا الشمالية قد أسهمت اسهاما كبيرا فى بلورة مفهوم الثـورة كحركة موجهة • من ذلك الحرب الاهلية الانجليزية وحرب الاسـتقلال الامريكية فضلا عن بدايات الثورة الفرنسية ذاتها • وبمرور الوقت أصبحت مبررات التمرد أكثر وضوحا ومنطقية • فالحرب الاهلية الانجليزية تمت باسم الشعب ممثلة فى البرلمان وضد الملك الذى كان اعدامه خطوة جديدة وراديكالية فى آن واحد • والملاحظ أن كلمة الثورة لم تكن حتى ذلك الحين جزءا من اللغة الانجليزية المتداولة ، كما أن التنظيم المصاحب لنجاح الثورة لم يكن يشغل بال المهتمين بهذا الموضوع • لذلك نجد لوك Locke يشير — ولأول مرة — الى الأحداث التى أدت الى ثورة ١٦٨٨ ، موضحا مبررات

---

(23) Syme, Sir R. The Roman Revolution, Clarendon Press, Oxford, 1939.

(٢٤) والواقع أن مؤلف هـذا الكتاب لم يعرف بعـد ، وان كان البعض يستخدم له اسما مستعارا هو جونيوس بروتوس Junius Brutus . ولقد ظهر الكتاب بعنوان Vindiciae Contra Tyrannos . ثم ظهرت له ترجمـة انجليزية بعنوان « دفاع عن الحرية ضد الطغاة » .

A Defence of Liberty Against Tyrants, London, 1924.

(25) Ibid. p. 71.

التمرد السابق عليها ، مؤكدا الاجراءات التنظيمية التى يتعين تطبيقها حتى يمكن استعادة النظام والاستقرار[٢٦] .

على أن مفهوم الثورة قد بدأ يأخذ معانى جديدة بفضل التطورات التى طرأت على فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر . ففى سنة ١٧٨٩ شهدت هذه الدولة ثورة تعدت فى آثارها حدودها الاقليمية . ولقد نشبت هذه الثورة وقت أن أصبح التمرد — من وجهة نظر الناس — أمرا ممكنا من الناحية الشرعية . وقبل سنة ١٧٨٩ كان هناك اتفاق عام على أن الثورة فى الطريق ، وأن التحولات التى يمر بها المجتمع الفرنسى تمهد لها أفضل تمهيد . ومن هذه الزاوية يمكننا تفسير طبيعة الثورة الامريكية والنجاح الذى حققته[٢٧] . فالجنود الفرنسيون الذين شاركوا فى هذه الثورة قد ألفوا أهوال الحرب ، ولم يستبعدوا أن يشهد العالم القديم ما شهده العالم الجديد . أى أن هناك مجالا واسعا لتغيير كثير مما هو مألوف ، وتحطيم ما هو معتاد من قيود ، واقامة مجتمع جديد مستند الى العقل[٢٨] . والواقع أن مجريات الثورة الفرنسية قد صدمت مشاعر كثير من الذين تعاطفوا معها منذ بدايتها . ولقد عبر عن ذلك دى توكفيل De Tocqueville حين قال : « ان ما بدا للملوك والسياسيين الاوربيين على أنه لحظة عابرة ، كان فى حقيقة الامر تعبيرا على حركة جديدة لم يسبق لها مثيل فى تأثيرها على كل من الفكر والعمل الانسانيين »[٢٩] .

وليس من الصعب علينا التعرف على أسباب التأثيرات الهائلة التى

---

(26) Ullman, Walter, A History of Political Thought : The Middle Ages, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1965.

(٢٧) ففرنسا لم تلعب فقط دور الحليف للجمهورية الامريكية الناشئة ، ولكن الفرنسيين قد حاربوا داخل جيوشها وعادوا الى بلدهم وهم يطالبون بمزيد من الاصلاحات الاجتماعية والسياسية .

(28) Scale, P. McConville, M., French Revolution, 1968, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1969.

(29) Alexis de Tocqueville, The Ancient Règime and the French Revolution, Intro. Hugh Brogan, Trans. S. Gilbert. London, 1966, p. 35.

أحدثتها الثورة الفرنسية • لقد بدأت ــ شأنها شأن الثورات الاخرى التى نشبت قبلها ــ كحادثة سياسية • كانت تمثل فى البداية هجوما على السلطة المركزية لأقوى حكومة أوربية وقتئذ ، كما كان الهدف الظاهر لها تحــديث فرنسا وتمكينها من احتلال مكانتها بين الأمم عن جدارة واستحقاق • لقد كان الاحساس بذلك عاما الى حد كبير ، مما حدا بتوكفيل الى القول بأن تأثير الثورة الفرنسية قد امتد الى القارة الاوربيـــة ، وأنها (أى الثورة) كانت تمثل مرحلة انهيار الاقطاع • ويبدو أن بعض الدارسين المحدثين قد وجدوا فى فكرة تأثير الثورة الفرنسية على المجتمع الاوربى ما يبرر مناقشة « الثورة الأوربية » على نحو ما فعل لوكاش[٣٠] Lukacs • كذلك يلاحظ أن الثورة لم تنشب فى أكثر الدول تخلفا ، بل اندلعت فى فرنسا ذاتها • ولقد كانت هذه الحقيقة على درجة بالغة من الاهمية • فلقد برهنت لاتباع سان سيمون ثم ماركس من بعدهم أن الثورة هى مرحلة من مراحل التطور التاريخى ، وأنها لذلك تنشب فى الدول التى حققت مرحلة متقدمة من النمو الصناعى[٣١] • كما برهنت للثوريين الفرنسيين أن حتمية الحركة الثورية تكمن فى عــــدم ملاءمة النظام القديم وضرورة استبداله بنظام آخر أكثر فعالية وتعبيرا عن جماهير الشعب[٣٢] • ولقد أوضح دى توكفيل De Tocqueville أن ســبب انهيار الحكومة الملكية كان يتمثل فى عــدم فعاليتها بقــدر ما كان يتمثل فى مقاومتها للتغيير وعدم قدرتها على التكيف مع التغيرات الضرورية •

---

(30) John Lukacs, Decline and Rise of Europe : A Study in Recent History With Particular Emphasis on the Development of a European Consciousness, Doubleday, 1965.

(٣١) انظر تحليلا نقديا لهذه الفكرة فى : السيد الحسينى ، علم الاجتماع والتنمية ، دراسة لاتجاهات علم الاجتماع الغربى فى دراسة الدول النامية ، فى السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٦ .

(٣٢) ولقد ذهب دى توكفيل الى أنه برغم عدم استقرار الحكومات التالية على الثورة اذا ما قورنت بتلك السابقة عليها ، الا أن الاخيرة بحكم رصـــيدها الثورى كانت أكثر تأثيرا انظر :

De Tocqueville, op. cit. p. 40.

ولا شك أن مجريات أحداث الثورة الفرنسية قد تضمنت اســهامات هامة كان لها أكبر الاثر فى تطوير مفهوم الثورة ذاته واكسابه معان لم يكن يتمتع بها من قبل ٠ فهى تمثل ـ بذاتها ـ نجاحا منقطع النظير فى القضــاء على حكومة قديمة واستبدالها بحكومة أخرى جديدة أكثر رشدا ، كما أنهــا ـ بذاتها أيضا ـ قد شكلت مبررا منطقيا لأفعال كثير من الثوريين الذين بدأوا يعتقدون أن الثورة قد أصبحت هدفا فى حــد ذاته ٠ وربما أمــكن تفسير ذلك اذا ما علمنا أن الثورة الفرنسية قد نشبت فى نهاية مرحلة سيطرت فيها أفكار جان جاك روسو على قطاع كبير من المجتمع الفرنسى ٠ فلقــد ازداد مفهوم « الارادة العامة » وضوحا ، وشكل أساسا لاعلان حقــوق الانسان ، وانتشرت الفكرة الذاهبة الى أن الثورة ما هى الا خطوة على طريق الكمال الذى يجب أن يسعى اليه الانسان[٣٣] ٠ لقد كانت الثورة الفرنسية فى نهاية مراحلها عملية بناء ما خلفته من دمار ، وبدا واضحا أن الثوار قــد أصبحوا أحرارا فى اقامة النظام الاجتماعى الجديد الذى يريدونه ٠ فلقد اعتمدت القوانين الجديدة المنظمة لعلاقات الملكية والاصلاحات الاجتماعية الاخرى بحيث أصبح من الصعب أن نجد مجالا من مجالات الحياة الاجتماعية لم يتأثر ببصمات الثورة ٠ وربما كان ذلك هو السبب الذى من أجله ذهب البعض الى أن الثورة الفرنسية كانت اجتماعية أكثر منها سياسية ٠ فالقضاء على النظام الملكى وانتقال السلطة الى حكام جدد كانا ظاهرتين عارضتين اذا ما قورنتا بالاصلاحات الاجتماعية التى شهدتها فرنسا وقتئذ[٣٤] ٠

هذا وقد تركت الثورة الفرنسية تأثيرا كبيرا على القارة الاوربية ، كما شكلت علامة بارزة فى الفكر السـياسى المعنى بالثــورات ٠ فلقــد ذهب ادواردز Edwards الى أنها (أى الثورة الفرنسية) قد برهنت على أنهــا

---

(33) Crane Brinton, The Anatomy of Revolution, Vintage Books, N. Y. 1952.

(34) George Sawyer Pettee, The Process of Revolution, Harper, N. Y. 1955.

عالمية التأثير ، وأنها بذلك قد استطاعت تخطى الحواجز القومية[٣٥] • وفضلا عن ذلك فلقد شكلت الثورة الفرنسية مصدر الهام لكثير من حروب الاستقلال اللاحقة عليها • وعلى مستوى النظرية السياسية نجد بعض الدارسين يذهبون الى أن هذه الثورة قد شكلت نموذجا يتعين الوقوف أمامه طويلا • فعلى سبيل المثال نجد برنتون **Brinton** فى دراساته المقارنة الحديثة عن الثورات يتناول فقط تلك التى تقترب من نمط الثورة الفرنسية[٣٦] • وعندما كان يقارن بين كل من الثورات الانجليزية والامريكية والفرنسية والروسية كان يستخدم المصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالثورة الفرنسية • كذلك نجد بيتى Pettee فى دراسته « للثورات الاجتماعية الكبرى » يأخذ الثورة الفرنسية معيارا ينظر من خلاله الى الثورات الاخرى • ولا شك أن هذه التحليلات قد أدت الى ظهور تصورات أكثر راديكالية لمفهوم الثورة ، برزت على وجه الخصوص خلال السنوات الاخيرة ، مما يدفعنا الى تناولها فى موضع لاحق •

(٤)

ومن الطبيعى أن يختلف تقييم العلماء الاجتماعيين للثورة الفرنسية طبقا لمنطلقاتهم الفكرية • فلقد سبق أن رأينا كيف أن بعض الدارسين قد نظروا اليها على أنها نموذج تتوافر فيه الخصائص الثورية • لكننا نجد دارسين آخرين يذهبون الى أن هناك تحفظات عديدة يجب أن نعيها عندما نحكم على أبعاد هذه الثورة • فهى ــ كما يقول البعض ــ « لا تمثل بداية لعصر جديد بقدر ما تمثل تعبيرا عن عصر انتهى »[٣٧] • وربما كان ماركس Marx وإنجلز Engels من أبرز من عبروا عن ذلك ، مما أدى بعد ذلك الى

---

(35) L. P. Edwards, The Natural History of Revolution, Russel and Russell, N. Y. 1965.

(36) Crane Brinton, The Anatomy of Revolution, op. cit.

(٣٧) مقتبس من : Chalmers, Johnson; Revolution and the Social System, The Hoover Institution. Stanford, 1964.

ظهور نظرتين الى الثورة الفرنسية : الأولى محافظة ، والثانية راديكالية • فالنظرة المحافظة تعتبر أن الثورة قد نشبت بسبب خلل اجتماعى طرأ على فرنسا وكان بالامكان مواجهته ، وأن الأحداث التى تمت كانت نتاجا للاتجاه الراديكالى الخطير الذى ارتبط بمطامح بعض الافراد • والواقع أن هـذا التحليل المحافظ للثورة ليس جديدا على الاطلاق ، فهو قديم قدم التحليلات الدينية التى ظهرت خلال العصور الوسطى ، كما أنه لا يزال يجد له أنصارا فى الفكر السياسى الحديث •

على أن اسهام ماركس وانجلز لم يقتصر على بلورة نظرة محـددة للثورة الفرنسية ، بل تعدى ذلك الى تطوير نظرية فى الثورة الاجتمـاعية ذاتها • فاليهما يعود الفضل فى تأكيد الجانب الاجتماعى للثورة • ومن هذه الزاوية نظرا الى الثورة الفرنسية فوجـدا أن طابعها السياسى كان أكثر وضوحا وتأثيرا من طابعها الاجتماعى • فالحكم على أى ثورة ــ كما يذهبان ــ يجب أن يكون نابعا من أهداف اجتماعية معينة • وخـلال محاولتهما اقامة نسق تاريخى للتطور الاجتماعى ركز ماركس وانجلز على الاساس المادى ، حيث فسرا التاريخ بأنه صراع بين الطبقات لا الأجناس • فاحلال نظـام انتاجى بنظام آخر يؤدى الى ظهور ضغوط سياسية وتغيرات تتبعها الثورة • والواقع أنهما لم يقدما فقط تفسيرا ماديا للثورة ، بل أسهما أيضا فى فهم التطورات التاريخية المؤدية لها بحيث تصبح ــ فى نهاية الامر ــ مصـيرا لابد منه ، كما أن العمليات التاريخيـة ذاتها تتخـذ خطوطا علميـة يمكن تحديدها فى يسر(٣٨) •

وعلى الرغم من أن تصور ماركس للثورة كان أقل تعقيدا من تصـور

---

(38) Karl Marx and Friedrich Engels, Selected Works, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1962, pp. 21-65.

ويمكننا أن نجد عرضا شاملا لمفهوم الثورة عند ماركس وانجلز فى :
Calvert, P., A Study of Revolution, op. cit.

معاصره هيربرت سبنسر Spencer [٣٩] . الا أن الأول قد تضمن نقاطا على درجة كبيرة من الاهمية • فلقد أبدى تفاؤلا حينما أشار الى أن باستطاعة الناس أن يلمسوا التحسن الذى يطرأ على ظروفهم خلال حياتهم ؛ وأن الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك هى الثورة • كذلك فان ماركس قد استند فى ايمانه بحتمية الحل الثورى الى التطور التاريخى الذى يؤدى الى ظهـور طبقة جديدة هى البروليتاريا ، والتى ستتولى ــ حتما ــ القضاء على الطبقة البرجوازية بأن تطيح بالدولة الرأسمالية وترسى دعائم حكم جديد قائم على ديكتاتورية البروليتاريا • وبذلك تصبح الثورة الاشتراكية هى نهـــاية الثورات ، لأنها سوف تقضى ــ ولاول مرة ــ على تقسيم العمل والاغتراب، ويصبح الانسان حرا فى أن يفعل ما يشاء دون أن يحترف ما يؤديه[٤٠] •

هذا وقد تضمن منشور الحزب الشيوعى الصادر فى سنة ١٨٤٨ وجهة نظر ماركسية محددة فى الثورة ، حيث نجد مفهوم التطور التاريخى يستند الى نظرية اقتصادية واضحة المعالم • ولقد أوضح ماركس وانجلز فى هذا المنشور القوى التى تسيطر على حياة طبقة البروليتاريا والاسباب التى من أجلها يجب أن تطيح هذه الطبقة بتلك القوى • وهكذا نجدهما يدعـوان عمال العالم الى التضامن وتســوية الامـور مع البرجـوازية عن طريق الثورة[٤١] • غير أن هذه الدعوة قد أثارت بعض التســاؤلات • فاذا كان

---

(39) Herbert Spencer, **Principles** of Sociology, Archon Books, Hamden, Conn, 1969.

(٤٠) والواقع أن كتابات ماركس عن المجتمع الشيوعى والتى تمثل فكره قبل عام ١٩٤٨ تتصف بطابع رومانسى على خلاف كتاباته بعد نشره للمنشـور الشيوعى . ويمكننا أن نجد تحليلا لهذه النقطة فى : السيد الحسينى ، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٦ .

(٤١) هنا يتعين الاشارة الى أن ماركس قد نظر الى الثورة فى ســياق تاريخى ــ بنائى . اذ أن الثورة العالمية سوف تنشب حينما تتحول مختلف دول العالم الى دول صناعية رأسمالية تشهد نفس التناقضـات والمتمثلة فى قوانين تراكم رؤوس الاموال ، وفائض القيمة ، والافتقار المطلق . وفى هذا المجال نجد ماركس فى كتاباته عن الاستعمار يذهب الى أن الدول الصناعية الرأسمالية سوف تخلق صورا لها فى دول آسيا وأفريقيا واللاتينية ، وبالتالى سوف تشهد الدول

تصور ماركس وانجلز عن العالم صحيحا ، واذا كانا قد نجحا فى تحـديد القوى التى تشكل التاريخ فلماذا اذن كان ضروريا دعوة العمال الى التضامن واخبارهم بأن ساعة الحسـم قد أوشـكت أو كادت ؟ والاجابة على ذلك واضحة ، اذ أنها تكمن فى ضعف وعى طبقة البروليتاريا بأوضاعها وعـدم ادراكها للظروف المحيطة بها • وبالاضافة الى ذلك أشار ماركس الى ضرورة تعميق الوعى الطبقى لدى أعضاء الحركات الاشتراكية • فعليهم أن يفهموا طبيعة المجتمع ، وعليهم أن يقبلوا حتمية الحل الثورى ، وفوق كل ذلك هم بحاجة الى فهم أعمق لعملية الثورة • لقد كان ماركس واعيا كل الوعى بهذه النقطة خلال تحليلاته للحركات الثورية التى عاصرها •

على أن ماركس وانجلز لم يقللا من أهمية القوة الفيزيقية فى تحقيق نجاح الثورة • ولقد قال انجلز : « إن الانتصار الحقيقى للتمرد على الجيش النظامى يتم عن طريق القتال فى الشوارع » • كذلك نجد ماركس يستنتج من انقلاب بونابرت : « أنه لكى تتمكن البروليتاريا من اقامة ديكتاتوريتها ، عليها أن تحطم الجيش القديم والجهاز البيروقراطى البائد »[٤٢] • ثم يذهب بعد ذلك الى « أن الحق فى القيام بالثورة هو الحق التاريخى الحقيقى الوحيد ، أى المتاح لكل الدول الحديثة دون استثناء » • ويتعين أن نشير هنا الى نقطة هامة هى ؛ أن ماركس لم يدع أولوية توصله الى أن الثورة هى وسيلة التغير الاجتماعى • فلقد كتب فى سنة ١٨٥٢ رسالة الى فيديمير[٤٣] Weydemeyer يقول فيها : « إن ما حاولت البرهنة عليه هو أن وجود الطبقـات يـكون مرتبطا بمراحل تاريخية فى تطور الانتاج ، وأن الصراع الطبقى يؤدى — بالضرورة — الى ديكتاتورية البروليتاريا ، وأن هذه الديكتاتورية ذاتها تشكل فقط تحولا نحو الغاء كل الطبقات وظهور مجتمع لا طبقى »[٤٤] •

= الاخير تناقضات الدول الاولى ، ومن ثم تصبح الثورة العالمية أمرا ممكنا • انظر مناقشتنا التفصيلية لهذه النقطة فى : السيد الحسينى ، علم الاجتماع والتنمية ، المرجع السابق •

(42) Marx and Bngels, op. cit. p. 243.

(43) Ibid. p. 135.

(44) Ibid. p. 455.

والواقع أننا لسنا بصدد مناقشة مدى الكفاءة النظرية والواقعية للماركسية بوجه عام . إن ما يعنينا هنا هو توضيح مدى تأكيد ماركس للثورة كوسيلة للتغير السياسى ، مستبعدا بذلك آية احتمالات أخرى للتغير . ومع أنه كان دائم الاشارة الى الاخطاء العديدة التى يقع فيها كثير من المفكرين ، الا أنه — برغم بحوثه التاريخية المستفيضة — لم يخصص حيزا كبيرا من كتاباته لديناميات الثورة الاجتماعية . لذلك نجد انجلز يحاول من بعده تطوير كثير من القضايا الثورية مستندا فى ذلك الى الكتابات الماركسية ذاتها . لكننا نجد انجلز يصر على أهمية القوة بالنسبة لطبقة البروليتاريا دون أن يوضح كيفية استخدامها لها ؛ مما دفع الماركسيين المحدثين الى تناول هذه النقطة وتوضيح أبعادها . واذا ما أمعنا النظر فى كتابات ماركس عن الثورة ، وجدناها تمثل انعكاسا حقيقيا للواقع الثورى الذى شهدته أوربا خلال منتصف القرن التاسع عشر ، حين ظهرت وتعددت الحركات الثورية بشكل لا يمكن تغافله . فلقد أشار روبرتسون Robertson الى أن الدول الصغيرة فى أوربا قد شهدت فى سنتى ١٨٤٨ و ١٨٤٩ مالا يقل عن خمسين حركة[٤٥] . ولم يحدث بعد هذا التاريخ أن تكررت هذه الحركات الثورية بنفس الكثافة[٤٦] . ومن الأحداث الهامة التى جذبت اهتمام ماركس كميونه باريس . فلقد لمس انتفاضة الثوار الذين يمثلون الطبقة العاملة التى طالما خصها ماركس باهتمامه ، لكنه — مع ذلك — وجد أن الطريق ما يزال طويلا حتى تحقق هذه الطبقة ما أراد لها .

واذا ما حاولنا دراسة التأثير المباشر للفكر الماركسى على الثورات

---

(45) Priscilla Robertson, Revolutions of 1948, a Social History, Harper, New York, 1966.

(٤٦) ومع ذلك فلقد حدث خلال السنوات اللاحقة مباشرة على سنة ١٩٤٨ أن قلت الحركات الثورية فى أوربا بشكل واضح . لذلك نجد ماركس يخصص جانبا كبيرا من وقته لدراسة هذه الحركات فى مختلف أنحاء أوربا . وكمراسل صحفى نجده يكتب الكثير عن تطور الاحداث الثورية فى أسبانيا خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر . انظر : Ibid. p. 554.

الاجتماعية التى ظهرت خلال البدايات الاولى للقرن العشرين ، وجدنا أنها (أى الثورات) لم تنهل الا القليل من الكتابات الماركسية • فلقد نشبت هذه الثورات فى دول متخلفة اقتصاديا كالمغرب وتركيا والمكسيك وايران ، وكانت القوى المشكلة لها مؤلفة من بعض القطاعات المثقفة والفئات الفقيرة من السكان التى تهدف ـ أساسا ـ الى احداث بعض التعديلات الاجتماعية الملائمة لمصالحها • ويمكن أن ينطبق ذلك ـ الى حد ما ـ على الثورة الروسية الفاشلة التى نشبت فى سنة ١٩٠٥ • وباستثناء الثورة الاخيرة ، نجد أن قادة الثورات الاخرى قد استندوا فى مبرراتهم النظرية للتمرد على كثير من الأفكار الواردة فى الثورة الفرنسية(٤٧) • لقد أحس هؤلاء القادة أن دولهم قد تخلفت عن ركب التقدم الاقتصادى الذى أحرزته أوربا الغربية خلال القرن التاسع عشر ، بحيث باتت الرغبة فى التحديث هى المحرك الاول لثوراتهم ، وبالتالى تغيير الأنظمة السياسية البالية • وفى هذه الحالات يمكننا التعرف بسهولة على الثورة كوسيلة للتغير الاجتماعى • أما فيما يتعلق بالدول الأوربية فربما كانت القضية مختلفة الى حد ما • فالثورة لا تظهر كمطلب أساسى وحاسم الا اذا تعرضت الحكومة للضعف وتردت الظروف الاقتصادية والسياسية للشعب •

وربما أمكننا الاستشهاد على ذلك بثورة أكتوبر فى روسيا ، حيث تعد مثالا حيا على كيفية الارتباط بين الاسلوب والدافع • لقد كان لينين Lenin هو الذى اتخذ القرار بأن يكون الانقلاب هو طريق الثورة(٤٨) ، ثم بدأ تنفيذه كل من تروتسكى Trotsky وأوفسينكو Ovseenko ، حيث تمكنا من السيطرة

---

(٤٧) انظر على سبيل المثال :

Robert E. Quirk, The Mexican Revolution, 1914-1915, Indiana Univ. Press, 1960.

كذلك يمكننا أن نجد تحليلا اضافيا فى : السيد الحسينى ، القرية فى الدول النامية ، دراسة نقدية لاتجاهات التغير الاجتماعى فى : السيد الحسينى ، دراسات التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق .

(48) Goodspeed, D. J., The Consprators, A Study of the Coup d'Etat, Macmillan, London, 1962.

على بيتروجراد مستعينان فى ذلك بالحركات العمالية النشطه • وهكذا تمكنا من عزل الحكومة بأساليب يغلب عليهـا الطابع الفنى أكثـر من الطـابع العسكرى • وما أن قبض لينين على مقاليد القوة حتى بدأ يلجا الى أساليب من شأنها احداث مزيد من الضعف على موقف الحكومة غير المستقرة ، الى أن استطاع فى نهاية الامر ايجاد تنظيم جديد للدولة ، تنظيم بدا فى نظـر مؤيديه برهانا صادقا على صدق النظرية الماركسية(٤٩) • على أن نجـــاح الثورة الروسية فى سنة ١٩١٧ قد أدى الى تفسيرات متضاربة لنظرية ماركس فى حتمية الحل الثورى • فلم تكن الأحداث التى شهدتها روسيا مجرد أحداث تلقائية قامت بها البروليتاريا ، ولم تكن انقـلابا دبرته الجماعة القـائدة لهذه الحركة ، انها ببساطة تمثل تحالفا مدنيا ــ عسكريا سعى الى القبض على مقاليد السلطة باسم الطبقة العاملة • والواقع أن قيادة لينين لهـذه الحركة قد برهنت على أنه ليس من الضرورى الحصول على التأييد المطلق للبروليتاريا حتى يمكن القيام بثورة تحمل اسمها • واذا كان هذا التفسير لا يلقى قبولا من جانب بعض الثوريين المحدثين ، الا أن الأحداث الفعلية التى مرت بهـا روسيا تؤيده الى حد بعيد •

ومع أن الثورة الروسية كان لها الفضل الاكبر فى تعميق معنى الثورة وديناميانها ، الا أنها تمثل ــ فى نفس الوقت ــ اضافة هامة الى الفكـر الماركسى • ولقد اتضح فيما بعد أن انجلز قد أسهم فى بلورة مفهوم الثورة بدرجة أكبر من ماركس ، وأن لينين قد أنجز فى هذا المجال مالم يستطيعا انجازه • وليس من الصعب علينا التعرف على أسباب ذلك • اذ أن ماركس لم تتح له فرصة تحليل حادثة ثورية أدت بجماعة معينة الى القبض على مقاليد السلطة وخلق واقع اجتماعى جديد • فلقد كانت الأحداث الثورية التى

---

(49) Leiden, Carl, and Schmitt, Karl., The Politics of Violence : Revolution in the Modern World, Prentice-Hall, Englewood-Cliffs, N. J. 1968.

حيث نجد أيضا معالجة حديثة لعدد من ثورات القرن العشرين •

وقعت خلال حياته « بوجوازية » الطابع ، بما فى ذلك كميونة باريس التى بدت « بروليتارية » الى حد ما لكنها باءت بالفشل . لذلك فان وجهات نظر ماركس عن التطورات الثورية لم تكن مكتملة ، كما أنه قد وجد صعوبة بالغة فى الاستشهاد بأمثلة واقعية . لكن ذلك كله لا ينفى أن أفكاره عن الثورة كانت موحيه وتنطوى على بصيرة نفاذة .

ولعل الانجاز الرئيسى الذى قدمه انجلز فى هذا المجال هو تأكيده أن التغير الاجتماعى الذى يطمح فى احداثه لا يمكن أن يتم الا بالتدمير العنيف للدولة . فالدولة هى مصدر قوة البرجوازية التى تتبدى فى الأجهزة البيروقراطية والتنظيمات العسكرية ، انها قوة لممارسة الكبت والكبح . ولا يمكن تحطيمها ـ كما يرى انجلز ـ الا اذا تم الاستيلاء على وسائل الانتاج باسم البروليتاريا واقامة ديكتاتوريتها . وحتى يمكن ازالة كل معالم الدولة يتعين على الطبقة العاملة أن تطور أساليبها الخاصة فى القمع العسكرى الى أن تتم ازالة السيطرة البرجوازية . حينئذ تستطيع البروليتاريا تصفية قواها العسكرية ، لأن الدولة ستكون قد اختفت وتلاشى معها الاستغلال الطبقى(٥٠) . ومن الامور الواضحة أن تصور انجلز لطبيعة مجتمع ما بعد الثورة كان مختلفا أشد الاختلاف عن طبيعة أى مجتمع ظهر الى حيز

---

(٥٠) يتعين الاشارة هنا الى أن ماركس قد ميز بين مرحلتين أساسيتين يمر بهما المجتمع الشيوعى العالمى ، ذلك المجتمع الذى سينشأ بعد ثورة البروليتاريا. أما المرحلة الاولى فقد أطلق عليها الشيوعية الاولية التى تمثل النظام الذى يخضع فيه المجتمع لديكتاتورية العمال عشية قلب النظام البرجوازى والسيطرة على وسائل الانتاج وتحويلها الى ملكية جماعية تمارسها الطبقة العاملة . أما المرحلة الثانية فقد أطلق عليها الشيوعية العليا وفيها ستتكفل القوى الانتاجية التى ظهرت بفضل النظام الرأسمالى والتى تحررت بفصل ثورة البروليتاريا من انتاج السلع الكافية للتوزيع بحيث يتم هذا التوزيع طبقا للحاجات . وبذلك تتحقق للأفراد انسانيتهم ، ويصبح العمل وسيلة للتعبير الذاتى . ويمكننا أن نجد تطويرا لهذه الفكرة فى :

Tucker, R., The Marxian Revolutionary Idea. Unwin University Press, 1970.

الوجود ، كما كان تصوره معارضا تماما لتصور الفوضويين . الذين ذهبوا الى أنه بتدمير الدولة لن يظهر أى حكم آخر . بل ستظهر ظروف تتيح التفاعل الحر المستقل بين الافراد • وطبقا لوجهة النظر هذه فان الدوافع الانسانية ستتحدد بواسطة الافراد وباسم روح المجتمع الجديد • لقد رفض انجلز هذا التصور الفوضوى ، لأنه اعتقد أن ذلك يعود بالمجتمع الى حالة المنافسة والصراع ، وما تلبث الأنانية أن تعود ، ممهدة بذلك الفرصة الفريدة لظهور البرجوازية •

وفضلا عن ذلك لم يقدم انجلز التفصيلات الضرورية لشكل الحكم بعد نجاح الثورة • فحينما قبض لينين على مقاليد السلطة فى سنة ١٩١٧ وجد من الضرورى قيادة وتوجيه السوفيت من خلال مجالس العمال والفلاحين . واتخاذ القرارات فى كثير من الامور العاجلة ، مما أدى الى نتائج اجتماعية بعيدة المدى • والملاحظ أن هذه المجالس تمثل خاصية هامة من خصائص الحركات الثورية ، كما أن أهميتها تزداد باتساع نطاق الثورة ، فضلا عن أنها (أى المجالس) تشكل بديلا مؤقتا للحكومة التى يريد الثوار تشكيلها • ومع أن لينين كان يعبر عن السوفييت ، الا أنه لم يكن يدين لهم فى حصوله على السلطة بقدر ما كان يدين لحركة الاستيلاء على الحكم تحت قيادة تروتسكى • واذا كان لينين قد استند فى قراراته الثورية الى مصالح الطبقة العاملة ، فان تروتسكى قد أخذ مكانه التاريخى بفضل الدور النضالى الذى قام به •

ويقدم لينين فى مؤلفه « الدولة والثورة »[٥١] State and Revolution تبريرا قويا واضحا لموقفه • فلقد خصص جانبا كبيرا من مناقشاته لتوضيح

---

(51) Vladimir Ilych Lenin, State and Revolution, International Publishers, New York, 1968.

على أن يلاحظ أن هذا الكتاب الصغير لا يتضمن كل وجهات نظر لينين فى الثورة الروسية . لذلك يمكن الرجوع أيضا الى المجلدات الثلاث من أعماله المختارة .

صحة وجهة نظره الذاهبة الى أن انهيار الدولة كان أمرا حتميا ، وأن ذلك لم يكن ليتحقق دون استخدام العنف • أى أن مؤلفه هذا كان بمثابة أول تبرير ودفاع عن مجرى أحداث ثورة أكتوبر • ولقد كان هذا التبرير ضروريا لأن بعض الماركسيين المترمتين قد تشككوا فى أسلوب الثورة من حيث أنها لم تكن ملائمة للتنبؤات التاريخية التى كان ماركس وانجلز قد توصلا اليها • وكانت طريقة التبرير التى استخدمها لينين تتمثل فى الهجوم على الآخرين ، وعلى الأخص ما أطلق عليهم « بالمراجعين » ، حيث نعى عليهم اصرارهم على ضرورة زوال حكومة ما بعد الثورة • كما شن هجوما عنيفا على أولئك الذين أثاروا الشكوك حول مستقبل الحكم بعد الثورة بل وفعالية الاجراءات الثورية ذاتها • ولقد أشار لينين الى أن وجود المجالس واللجان هو أفضل برهان على صدق الطابع البروليتارى للثورة ، كما ألمح الى أن الاجراءات الثورية قد قضت على المزايا الخاصة التى كان يتمتع بها رفاقه الشوريون الذين اشتركوا معه الحكم • ويعتبر لينين أن ذلك — فى حد ذاته — يعد كافيا ، وأن على الثوار أن ينفذوا نصيحة انجلز بأن يمارسوا أفضل سيطرة ممكنة على كل جوانب الحياة فى الاتحاد السوفييتى[٥٢] •

ولقد كان لينين واعيا كل الوعى بأن الطابع الديكتاتورى للبروليتاريا هو الطريق الوحيد المؤدى الى ايجاد مجتمع شيوعى حقيقى حين قال : « على المستغلين الذين عانوا من الحرمان طويلا أن يقهروا المستغلين الذين طالما مارسوا الظلم والعدوان » • كذلك يجب مقاومة أى نزعة فردية أو وصولية يمكن أن تلوح فى الأفق • وباختصار فان على البروليتاريا أن تستعين بكل الوسائل والاساليب التى من خلالها يمكن ارساء سيطرتها على دعائم مستقرة ودائمة ، فذلك هو الشرط الضرورى الذى على أساسه يمكن اقامة مجتمع تسيطر عليه الطبقة العاملة • ولا نستطيع أن نغفل تأثير ذلك على بلورة مفهوم الثورة خلال القرن العشرين • لقد كانت الثورة الروسية فى حد

---

(52) Gross, Feliks, The Seizure of Political Power in a Century of Revolution, Philosophical Library, New York, 1958.

ذاتها حدثا فريدا • اذ بدت روسيا القيصرية خلال فترة الحرب العالمية الاولى تتعرض للتحلل والانهيار مؤدية بذلك الى ظهور حركات قومية انفصالية عديدة فى مناطق مختلفة من العالم • ولا شك أن كل الثوار قد انجذبوا وانبهروا بما حدث فى الاتحاد السوفييتى من اقامة نظـام جديد مستند الى دعائم ايديولوجية قوية ، وبدا لاول مرة ان النضال الثورى يمكن أن تكون له نتائج ملموسة(٥٣) • وفى نفس الوقت نجد لينين يؤكد أن أسلوبه النضالى السياسى يجب أن يتبع ، وأنه بذلك قد حقق انجازات لم تستطع الثورة الفرنسـية تحقيقها ، وهى ايجاد مجتمع ثورى لا يمكن الحكام القدامى من العودة الى حكمه مرة ثانية • وهكذا نجد المفهوم الماركسى للثورة يحتل مكانة تاريخيـة هامة • فهو لا يستند فقط الى مجرد هدم أركان مجتمع ضعيف مترهل ، بل يستند أيضا الى اقامة مجتمع جديد يتمتع بالقوة والدوام والمثالية • ويمكننا الاستشهاد على ذلك بما حدث خلال فترة حكم ستالين Stalin • فعلى الرغم مما تميزت به هذه الفترة من قهر وقص لأجنحة المعارضة ؛ الا أن كثيرا من المحللين كانوا يفسرون ذلك فى ضوء مفهوم « الثورة المضادة » داخل الاتحاد السوفييتى ، وكانت الانجازات المحققة آنئذ تبدو وكأنها تبريرا قويا لسياسة ستالين •

---

(٥٣) كان لهذه الحقيقة نتائج بالغة على طابع الايديولوجيـات المعاصرة والدور الذى تلعبه فى مختلف دول العالم . فعلى سبيل المثال نجد الماركسية تجذب كثيرا من المعنيين بقضية تخلف الدول النامية ، على أساس أن الرأسـمالية قد فشلت فى تحقيق التقدم لهذه الدول ، بينما يستطيع الفكر الماركسى أن يجيب على كثير من قضايا التخلف . ولقد دفع ذلك بعض المفكرين الى تطوير فكر ماركس الكلاسيكى بحيث يتلاءم مع التطورات العالمية المعاصرة . ويمكننا أن نشير فى هذا المجال الى أعمـال بول باران Baran ومانديل Mandel وبيتلهايم Bettlheim وجاليه Jalée . انظر : السيد الحسينى ، علم الاجتماع والتنميـة ، المرجع السابق ، وانظر أيضا :

J. C, Davies, «Towards a Theory of Revolution» American Sociological Review, Vol. 27, 1962, pp. 5-19.

(٥)

هذا وقد أوضحت التطورات اللاحقة أن الثورة الروسية لم تؤثر فقط على خريطة العمل النضالى فى مختلف مناطق العالم ، ولكنها انعكست أيضا على الحركات السياسية التى بدا أنها فى تعارض معها • ويمكننا أن نستشهد على ذلك بما حدث فى ايطاليا وألمانيا ؛ أعنى الفاشية والنازية • لقد أفاد موسولينى Mussolini من دروس الثورة الروسية ، لكنه ظل — فى نفس الوقت — عدوا ايديولوجيا لدودا لها • كما أنه قد تبنى مفهوم الديكتاتورية بعد أن جرده من مضامينه الثورية التى أكدها لينين مرارا • والملاحظ أن موسولينى قد تأثر بمكيافيلى تأثرا واضحا ، حيث اعتبر العنف هو الأداة الطبيعية والمألوفة فى ممارسة السياسة ، بل انه قد دافع عن مفهوم الانقلاب الذى كان تروتسكى قد بلوره ومنحه معنى خاصا • وفضلا عن ذلك فلقد كان موسولينى يعيش فى مجتمع يخضع لضغوط داخلية حادة ، لكنه لم يصل الى درجة الانهيار السياسى والاجتماعى الذى شهدته روسيا نتيجة الحرب العالمية الأولى • لذلك نجده يؤكد أن خلاص المجتمع الايطالى من هذه الضغوط يكمن فى تشكيل جيش خاص والقضاء على الجماعة الحاكمة • وكان الفكر السياسى فى ايطاليا — وقتئذ — يشجع على مثل هذه الافكار كما يتبدى ذلك فى كتابات موسكا Mosca وباريتو Pareto عن « الطبقة » أو الصفوة السياسية[٥٤] • فالأخير يذهب الى أن استمرار صفوة حاكمة فى ممارسة السلطة لفترة طويلة يمكن أن يؤدى الى الثورة ، مما أسهم فى ظهور مفهوم « دورة الصفوة » • وبذلك يصبح التاريخ — كما يقول باريتو — هو « مقبرة

---

(٥٤) انظر مقدمتنا للترجمة العربية لكتاب ت . ب . بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ . كذلك يراجع الفصل الاول من الكتاب حيث نجد تحليلا تاريخيا لمفهوم الصفوة عند ماركس وباريتو وموسكا . انظر أيضا :

James H. Meisel, Pareto and Mosca, Prentice Hall, Englewood Cliffs, N. J., 1965, pp. 15-17.

الارستقراطيات »[٥٥] .

غير أن موسولينى يدين بالكثير للمفكر الفرنسى سوريل Sorel وعلى الأخص فيما يتعلق بفهمه للأسلوب الثورى[٥٦] . فلقد وعى الاخير الظروف التى حالت دون وصول قادة الحركات الاشتراكية الى السلطة ، وذهب الى أنه اذا كان ماركس محقا فيما ذهب اليه ، فلماذا لا تعارض الحركات الاشتراكية نظم الحكم الرأسمالى ؟ ولماذا يندمج قادتها فى العمل السياسى الذى لا يقود الى الاشتراكية بالضرورة ؟ ومن هذين التساؤلين يستنتج سوريل أن هناك خطرا حقيقيا على الثورة حينما تنشب ، يتمثل فى وجود جماعات محافظة رافضة لها ، ثم يلقى الشكوك على النجاح الذى تحققه الثورات . فهو ليس نجاحا حقيقيا بمعنى الكلمة ، انه متوهم لا يؤمن به القادة ، على الرغم من أنهم يدفعون الجماهير الى الايمان به . لذلك فان تصديق الناس لأسطورة النجاح الثورى هو أهم ما تأتى به الثورات والانتفاضات . ولقد أيد سوريل وجهات نظره هذه عن أهمية الاسطورة بالاشارة الى مؤلف جوستاف ليبون Le Bon « سيكولوجية الحشد » Psychologie de Foules الذى أكد أن من أبشع الاخطاء الاعتقاد بوجود غريزة ثورية للحشود ، وأنها (أى الحشود) ذات ميول محافظة ، بينما الطبقة الوسطى هى التى تحمل فى عقولها النزعات الاشتراكية[٥٧] . لذلك فان هناك

---

(٥٥) انظر الفصل الذى خصصه تيماشيف لمعالجة باريتو : نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عودة ومحمد الجوهرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ .

(56) Georges Sorel, Reflections on Violence, Translated by T. E. Hulme and J. Roth, The Free Press, Glencoe, III. 1950.

(57) Gustave Le Bon. The Crowd, A Study of the Popular Mind, Intro. Robert K. Merton, Viking Press, New York, 1960.

وهناك دراسة حديثة نسبيا تناولت دور الحشد فى الثورة الفرنسية. انظر:

George Rudè. The Crowd in History. A Study of Popular Disturbances in France and England, John Wiley, New York, 1964.

مجالا لخلق أسطورة جديدة هى « الحرب الطبقية » • فعن هذا الطريق يمكن الوصول الى السلطة من خلال اضراب عام تقوم به البروليتاريا • وليس من الضرورى أن يحقق الاضراب فى النهاية أهدافه المرجوة ، اذ أن الاسطورة سوف تقوم بدورها بحيث تصبح سندا لأى وسيلة ناجحة للحكم •

وعلى الرغم من أن تأكيد سوريل لفكرة الاضراب لم تنل نصيبها من التحليل السياسى المتعمق ، الا أنها قد تحققت بالفعل فى عدد من الدول مثل كوستاريكا والسيلفادور ، حيث أدى الاضراب الجماهيرى الى اسقاط حكومات قائمة وظهور أخرى جديدة • كذلك نجد موسولينى يبدى اعجابه الشديد بفكرة الخداع المتعمد لعقول الجماهير من أجل خلق أسطورة الحركة الثورية التى يمكن أن تعجل بالانتصار • وهكذا نجد مسيرته الى روما فى سنة ١٩٢٢ تمثل نموذجا حيا على التضليل والخداع • ولقد دعت هذه الحقائق مالابارت Malaparte الى عقد مقارنة بين ما فعله موسولينى فى ايطاليا وما قام به لينين فى روسيا[٥٨] • فلقد لجأ الأول الى استخدام أساليب معينة فى الاتصال الجماهيرى وتحكم فيها لكى يخلق الاحساس بسيطرته على السلطة مما ساعده على تشكيل حكومة جديدة • ويذهب مالابارت أيضا الى أنه اذا كان تروتسكى قد سعى الى مجرد عزل حكومة كيرينسكى Kerensky حتى تصبح عاجزة عن اتخاذ أى قرار حاسم ، فان موسولينى قد حاول أن يحقق ذلك فى بلده عن طريق الخداع ، بحيث استطاع الوصول الى السلطة متمتعا بأكبر قدر من الشرعية ، قادرا على التحكم فى الدولة وتوجيهها الوجهة التى أرادها • لذلك فإن التحكم فى وسائل الاتصال كان شرطا لازما لنجاحه فى مهمته • ولا نستطيع انكار التأثير الذى تركه وصول موسولينى الى السلطة على التطورات التى شهدتها بعض الدول الأوربية • فخلال فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى ظهرت عدة انقلابات فى دول وسط أوربا والبلقان ، تبنت بعض المفاهيم الفاشية فى برامجها السياسية ، على الرغم من أنها كانت انقلابات ذات طابع قومى استهدفت اعادة تشكيل — لا قلب — الأنظمة السياسية •

---

(58) Malaparte, Curzio; Coup d'Etat, The Technique of Revolution. Trs. Sylvia Saunders, E. P. Dutton and Co., New York. 1932.

ويمكننا أن نجد تأييدا اضافيا لما سبق اذا ما تأملنا كيفية وصول هتلر الى السلطة فى سنة ١٩٣٣ • فلقد تبنى أساليب موسولينى ثم أدخل عليها بعض التعديلات ، بالاضافة الى خلق أسطورة القومية والتمركز حولها • غير أن الاسطورة هنا استندت الى بعض الانجازات الواقعية حتى تنهض برهانا على الصمود الثورى • والأهم من ذلك كله أن هتلر قد بالغ فى استخدام الجيش لتحقيق الأغراض السياسية ، كما أقام جهازا مزدوجا للتحكم فى القوات المسلحة يتميز بخصائص فريدة • ولا شك أن استخدام هتلر للجيش قد أثار اهتمام بعض الدارسين بالدور الذى يمكن أن يلعبه فى احداث التغييرات السياسية • ففى سنة ١٩٤٣ نشرت كورلى Chorley مؤلفا هاما[٥٩] تضمن عرضا لدراسات عديدة عن دور الجيش فى السياسة • ولقد توصلت كورلى الى استنتاج مؤداه : « أن القادة الثوريين ــ باستثناء الروس ــ قد عالجوا مشاكلهم بطريقة متعجلة لا تنم عن استيعاب واضح لأية نظرية واضحة أو خبرة تاريخية مفيدة • وليس من المدهش بعد ذلك ألا نجد دراسة تاريخية شاملة عن العصيان المسلح فى علاقته بجيش النظام الحاكم فى أية دولة »[٦٠] • وفضلا عن ذلك تذهب كورلى الى أن الاختلافات الايديولوجية للثورات لا تعنى وجود اختلافات موازية فى أساليب الوصول الى السلطة • ويشبه ذلك التصور القديم للثورة الذى كان يشمل كل أشكال التغير السياسى العنيف[٦١] •

(٦)

ولقد شهد العالم المعاصر استراتيجيات ثورية جديدة فرضها تعقد المتغيرات القومية والدولية من ناحية ، وتنوع الايديولوجيات والاساليب النضالية من ناحية أخرى • وربما كانت حرب العصابات أوضح مثال يعبر

(59) Katharine C. Chorley, Armies and the Art of Revolution, Faber and Faber, London, 1943.

(60) Ibid. p. 20.

(61) Ibid. p. 27.

عن ذلك[٦٢] • لقد ظهر هذا النوع من الحروب أو النضال (ان شئنا دقة التعبير) من خلال اليأس والمعاناة لا من خـلال القوة والسيطرة • ومن المعروف أن تعبير « حرب العصابات » قد ظهر خـلال حرب الاسـتقلال الأسبانية فى سنة ١٨٠٨ للاشارة الى جماعات صغيرة كانت تقوم باشتباكات عسكرية خاطفة ، بحيث تصيب القوات النظاميـة بالمفاجأة مما يمكنها من الانتصار عليها • وعندما ينتهى الاشتباك العسكرى تلجأ هذه الجمـاعات الى مناطق مجهولة معروفة لها تماما • ومعنى ذلك أن هذه الجماعات كانت تستند الى أسلوبين هما : المفاجأة فى الهجوم ، واللجوء الى مناطق نائيـة منعزلة • غير أن هذا الموقف قد ينطوى على صعوبات من وجهـة النظـر الثورية • ففى حالة عدم وجود وسائل اتصال فعالة (وهو ما يزال قائما حتى بالنسبة لرجال العصابات فى السنوات الأخيرة) يصبح من الصعب على هذه الجماعات الثورية المتفرقة أن تتوصل الى استراتيجية عامة مما قد يحرمها من القدرة على تحديد نوع الحكم المقبل فور نجاح نضالها[٦٣] •

على أن حرب العصابات كأسلوب ثورى لم تظهر الى حيز الوجـود خلال القرن التاسع عشر • لكنها ما لبثت ان ظهرت بعد ذلك فى دول أمريكا اللاتينية حينما بلغت حكوماتها درجة كبيرة من الضعف السياسى • وكان الثوريون فى هذه الدول يهدفون الى تحقيق هدفهم الأسمى وهو السيطرة على الحكم • ويمكننا أن نجد لذلك تأكيدا اضافيا فيما حدث فى الصـين •

---

(62) J. Petras and M. Zeitlin (eds), Latin America : Reform or Revolution, 1968.

(٦٣) على أن يلاحظ أن هذا الموقف لا ينطبق تماما على حالة الحرب الاهلية الاسبانية ، ذلك أن رجال العصابات كانوا يشعرون بالولاء لحكومة كان لهـا مكانتها خارج منطقة النزاع . كما أن هؤلاء الرجال كانوا يتمتعون بتأييد عام من جانب قطاع كبير من الشعب الاسبانى . ومثل هذا التأييد لا يتوافر على الدوام بالنسبة لكل رجال العصابات الذين يشنون حروبا خاطفة . اذ عليهم أن يبذلوا جهدا للحصول على مثل هذا التأييد . لمزيد من التفصيل انظر :

Che Guevara, Guerrilla Warfare, Pelican, 1969, Stone, Lawrence, «Theories of Revolution», World Politics, XVIII, No. 2, January, 1966, pp. 159 ff.

فلقد ظهر مفهوم حرب العصابات منـــذ فترة مبكرة نسبيا ، لكنه لم يتبلور كوسيلة نضالية الا خلال عشرينيات القرن العشرين ، حينما بات واضـــحا أن من الصعب اقامة حكومة مركزية قوية ، مما أدى الى ظهور مقاطعات عديدة خضعت لحروب فيما بينها لا تكاد تنتهى • وفى ســـنة ١٩٣٢ غـــزا اليابانيون اقليم منشوريا ، مما ساعد على ظهور حرب العصابات كوسيلة طبيعية للصمود أمام القوى العسكرية اليابانية • ومع ذلك فلقد كان ماوتسى تونج هـــو أول من منح حرب العصابات معناها الحقيقى ، حينما اضطر الى العودة الى نقاط حصينة فى مقاطعة ينان Yenan[٦٤] • ومن خلال هذه الخبرة النضالية بدأ ماو فىتطوير أفكاره ومفاهيمه عنحرب العصاباتكأسلوب ثورى ، حيث أبدى وعيا شديدا بقيمة القـــاعدة التى يستند اليها وبأهمية تعليم المواطنين حتى يضمن تأييدهم لحـــركته وهى تمارس نشـــاطها من الخارج • ولقد اعتبر ماو أن الروح الشـــيوعية التى تتمتـــع بها جماعاته الصغيرة فى مواجهة عدو قوى هى أفضل ضمان للنجاح فى النضال • لكن على هذه الجماعات ألا تكتفى بتأييد العمال الحضريين ذوى الاتجاهات الماركسية لها ، بل تسعى أيضا الى الحصول على تأييد الفلاحين الذين يشكلون الغالبية الغالبة فى الصين • ولقد اعتبر ماو الفلاحين بمثابة سند هام ، وان كانوا يفتقدون الثقافة السياسية على حد تعبيره • وهذا هو السبب الذى جعـــل رفاق ماو يبدون اهتماما بمعتقدات الفـــلاحين وأعرافهم كأســـاس لتكوين اتجاهات اشتراكية لديهم[٦٥] •

لكن حرب العصابات لم تعدم وجودها خارج الصين • فلقد نشبت فى مناطق مختلفة من العالم الثالث كوسيلة للتحرر من الاستعمار والتبيعة كما هو الحال فى الفيلبين ومصر وكوبا • وكنتيجة لذلك بدأت القوى الاستعمارية

(64) Stuart R. Schram (ed.), The Political Thought of Mao Tse-Tung, Paul Mall, London and Praeger, New York, 1964.

(65) Andrew C.. Janos, «The Communist Theory of the State and Revolution», in Cyril E. Black and Thomas P. Thornton, Communism and Revolution, The Strategic Uses of Political Violence, Princeton University Press, Princeton, 1964.

تغير من أساليبها فى الحكم وتركز قواتها فى مناطق بعيدة حصينة[٦٦] • وخلال خمسينيات القرن العشرين بدأ مفهوم حرب العصابات يشكل رافدا هاما من روافد المفهوم الاشمل وهو الثورة • ففكرة التثقيف السياسى للجماهير (التى تشكل أحد أسس حرب العصابات) قد أضافت بعدا جديدا للنظرة الى الثورة باعتبارها حركة جماهيرية لا مجرد انقلاب عسكرى • ولا ينطبق ذلك فقط على التصورات الماركسية للثورة ، بل ينطبق أيضا على التصورات غير الماركسية لها • وهكذا أصبحت المفاجأة والقتال عن بعد من المفـاهيم المرتبطة بالثورة ، مما يعنى أن الفكر الماركسى الثورى قـد ترك بصـمات واضحة على الفكر المحافظ على الاقل فيما يتعلق بالنظرة الى الثورة كحركة اجتماعية هادفة •

لكن يظل صحيحا مع ذلك أن الفكر الماركسى هو الذى أكـد فـكرة الثورة الدائمة كما يتبدى ذلك فى كتابات ماوتسى تونج • فلقد أقر ماو تفسير لينين لأهمية ديكتاتورية البروليتاريا ، على الرغم من أن الطبقة العاملة كانت تعنى بالنسبة له الفلاحين أولا ثم العمـال الحضريين ثانيا[٦٧] • لكن ماو ما لبث أن انتقد فيما بعد العناصر التى ضمنها لينين برنامجه بعد نجـاح الثورة • فلقد ذهب ماو الى أن روسيا فى عصر خورتشوف وبداية الوفاق والتعايش قد فقدت خواصها الثـورية • اذ أن ذلك كان بداية لضعف أو اختفاء الحماس الثورى بما يتطلبه من نضال • واذا كان لهذا الحماس أن يظهر فلابد وأن يصبح النضال هو الشعار الرائد • ولكى يحقق ذلك ماو فى

---

(٦٦) وهنا لا يمكن أن نغفل الاشارة الى بعض الكتابات الهامة التى أسهمت فى اكتشاف أبعاد ومعانى جديدة لحرب العصابات . انظر على سبيل المثال :

T. E. Lawrence, The Seven Pillars of Wisdom. A Triumph, M. Pike with H. J. Hodgson, London, 1962, F. Fanon, The Wretched of the Earth, Penguin Books, Harmondsworth, Middlosex, 1967.

(٦٧) شانين ، الدور التاريخى للفلاحين ، ترجمة السـيد الحسينى ، محمد الجوهرى وزملاؤه ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، حيث نجد تحليلا لست ثورات لعب فيهـا الفلاحون دورا بارزا .

الصين استعان بالشباب الذين نضجوا خلال فترة حكمه واستوعبوا دروسه ، وشكل منهم قوات الحرس الأحمر التى ما لبثت أن انتشرت فى المصانع والحقول للكفاح ضد أية اتجاهات ثورية مضادة • غير أن الممارسة قد كشفت عن أخطاء عديدة ارتكبتها هذه القوات • من ذلك مثلا أن استخدام العنف قد أدى الى موت بعض من ذوى التخصصات النادرة[٦٨] •

والمحقق أن فكرة الثورة الدائمة قد لعبت دورا هاما فى ظهور ما يعرف « بثورة الشباب العالمية » • وعلى الرغم من أننا لا نكاد نعرف دولة واحدة لم تتأثر بهذه الثورة ، الا أن الأحداث الطلابية فى فرنسا خلال عام ١٩٦٨ تعد مثالا بارزا على ذلك[٦٩] • وهناك تحليلات سياسية عديدة حاولت تفسير ظهور هذه الثورة فى ضوء الواقع الدولى المعاصر • ويمكننا أن نطرح فى هذا المجال عدة قضايا يمكن أن تخضع للمناقشة • فالملاحظ أن هذه الثورة قد صاحبت أو عاصرت حركة المد التحريرى التى شهدتها دول العالم الثالث • كما أن الماركسية لم تعد تعارض الاستعمار بمعناه التقليدى فقط ، ولكنها مدت معارضتها الى الاستعمار الجديد أو الامبريالية ان شئنا الدقة • فالروابط الاقتصادية والسياسية التى تربط العالم المتقدم بالعالم المتخلف تعكس سيطرة من جانب وخضوعاً من جانب آخر[٧٠] • ومن الطبيعى أن ينعكس ذلك على نظرة الشباب للنظرية الاجتماعية والسياسية ، مما أسهم فى نمو الاتجاهات الراديكالية ونبذ التفكير المحافظ • وفى نفس الوقت بدأت الدراسات الاجتماعية النقدية تحوز على اهتمام دارسى العلوم الاجتماعية

---

(68) Paul Mall, Permanent Revolution, The Total State in a World War, Harper, New York, 1942.

(٦٩) يمكننا الاشارة الى تحليل سياسى هام لأحداث الطلاب فى فرنسا . انظر :

Patrick Searle and Maurcen Mc Conville, French Revolution., 1968, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1969.

(٧٠) السيد الحسينى ، العالم الثالث ، تنمية أم تبعية ، السيد الحسينى وآخرون ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، المرجع السابق .

والسياسية ، وبدا واضحا أن النظرية لا تنفصل بأى حال عن الممارسة ، وأن الفكر الاجتماعى بأكمله قد دار حول مسلمات يتعين مناقشتها[٧١] •

ولا شك أن وصول كاسترو الى السلطة باستخدام حرب العصابات قد ترك تأثيرا بعيدا على النظرية السياسية والممارسة النضالية • لقد بدا واضحا أن حرب العصابات تمثل أسلوبا سحريا لتحقيق المعجزات فى بلد متخلف مثل كوبا • ويبدو ذلك واضحا فى كتاب جيفارا Che Guevara « حرب العصابات » الذى يتضمن مهارات عديدة لازمة لشن مثل هذا النوع من الحرب[٧٢] • ومن الأمور التى لها دلالتها فى هذا المجال أن قادة الثورة الكوبية كانوا شبانا فى عصر سيطر على سياسته كبار السن • وبرؤية ثورية نفاذه استطاعوا تحقيق أهدافهم ، فحققوا المساواة للعمال والفلاحين الكوبيين واستردوا لهم كرامتهم التى فقدوها خلال فترة الحكم الأجنبى • وفى كل ذلك لعب الشباب دورا هاما كما هو الحال بالنسبة للفرق التى قامت بحملة القضاء على الأمية فى سنة ١٩٦١ •

والمحقق أن الممارسات العملية والظروف الواقعية قد أكسبت مفهوم الثورة معانى جديدة ، بحيث بدا على درجة كبيرة من الاتساع والشمول • فلم يعد يشير الى مجرد تحقيق أهداف سياسية عن طريق استخدام وسائل معينة ، بل أصبح يشير أيضا الى ضرورة ايجاد صورة مثالية للحياة • ولا يعنى ذلك أن المعانى القديمة أو التقليدية لمفهوم الثورة قد اختفت • اذ لا تزال الكتابات الثورية تزخر بأفكار العنف ، والاطاحة بالنظام السياسى، والصمود فى مواجهة السيطرة ، والاستقلال الداخلى والخارجى • وفى نفس الوقت نجد أفكارا جديدة قد بدأت تظهر الى حيز الوجود • من ذلك — مثلا —

---

(٧١) يصعب أن نحصر الدراسات النقدية التى ظهرت فى هذا المجال . وعموما فلقد كان علم الاجتماع أكثر تقدما من علم السياسة فى ابراز أزمة العلوم الاجتماعية . ويعبر عن ذلك بوضوح أعمال جولدنر وركس وواتكنسون وأصحاب الاتجاه اليسارى الجديد بوجه عام .

(72) Ernste (Che) Guevara, Guerrilla Warfare, op. cit.

مواجهة الانفجار السكانى ، والتغلب على الضغوط الاجتماعية ، واعادة النظر فى النظام العالمى ككل .

وربما شكلت الثورة الكوبية مثالا على ذلك . فلقد سعى الثوار الكوبيون الى تحقيق الزعامة الايديولوجية بالنسبة لدول العالم الثالث ، حيث أكدوا أن التجربة الثورية فى كوبا قد اتخذت طريق التحرر من الضغوط السياسية والاقتصادية ، وان ذلك لم يكن ليتحقق دون شن حرب العصابات والاحتفاظ بروح النضال . كذلك نجد ريجيس دبراى Regis Debray فى مؤلفه « ثورة داخل الثورة »[٧٣] ينظر الى مؤلف جيفارا الشهير على أنه نظرية فى العمل الثورى . فهو يؤكد أن جماعة صغيرة من الثوار يمكن أن تشكل أساسا لثورة اشتراكية بفضل شنها حرب عصابات . ومن الواضح أن فكرة حرب العصابات بهذا المعنى قد تبدو جذابة واقتصادية ، فضلا عن أنها ممكنة التحقيق فى أى مكان ، ليس فقط فى الأحياء الحضرية بالدول المتخلفة بل أيضا فى جامعات الدول المتقدمة . وبالاضافة الى ذلك فان من الامور التى قد تحقق اشباعا سيكولوجيا أن تتمكن أمم صغيرة من هزيمة أمم كبيرة بفضل جهودها وامكانياتها الذاتية .

على أن الفشل الذى لحق بنظرية حرب العصابات يكمن أساسا فى كيفية تطبيقها . فلقد سعى الثوار البوليفيون بزعامة جيفارا الى القيام بثورة على مستوى أمريكا اللاتينية بأسرها . وما لبثوا أن تعرضوا للتصفية والمحاصرة من جانب القوات المسلحة البوليفية التى كانت تستخدم بنجاح أساليب ومعدات عسكرية سريعة ومرنة ، مما كان له أكبر الاثر على مقاومة

---

(73) Règis Debray, Revolution in the Revolution, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1969.

ويلاحظ أن دبراى كان قد طور افكاره فى دراسة سابقة . انظر :

Regis Debray, «Latin America : The Long March», New Left Review, 33, September, October, 1956.

كذلك يمكن للقارىء أن يجد معالجة اضافية لفكر دبراى الثورى فى : السيد الحسينى ، علم الاجتماع والتنمية ، المرجع السابق .

حرب العصابات فى فيتنام • والواقع أن مصرع جيفارا وهو لم يتجـاوز تسعة وثلاثين عاما قد شكل مأساة حقيقية وهز مشاعر كثير من المتعاطفين مع الحركات الثورية فى مختلف مناطق العالم[٧٤] • وربما لمسنا موقفا مختلفا الى حد ما فى فيتنام • فلقد نشبت الحرب على نطاق واسع واستخدمت فيها الأسلحة المتقدمة من كلا الطرفين ، فضلا عن أنها كانت حربا ذات طابع دولى أكثر منه قومى أو داخلى • والواقع أن هذه الحرب قد أكدت الانطباع الذى مؤداه ، أن باستطاعة الطرف الضعيف أن يعتمد على قواه الذاتية فى مقاومة هجوم الطرف القوى ، كما ساعدت على ظهور قوى جديدة داخل الولايات المتحدة معارضة للسياسة الخارجية للحكومة الامريكية • ويمكننا أن نضيف الى ذلك حالات العنف التى شهدتها المدن الامريكية ، والتى بدا منها — فى بعض الاحيان — قبولا لشن حروب عصابات محدودة •

(٧)

واذا ما أعدنا النظر فى التراث النظرى المعاصر الذى يتناول الثورة ، وجدنا أربع مواقف فكرية متميزة وان كانت تشترك جميعها فى نقاط معينة • أما الموقف الاول فينطلق من مفاهيم وتصورات اقتصادية • فالثورة هى — فى المحل الأول — ظاهرة اجتماعية لها أسباب اقتصادية واضحة • ومع ذلك فليس هناك اتفاق كبير حول طبيعة هذه الاسباب • لكن يبدو أن وجهة نظر ماركس تحتل أهمية خاصة فى هذا المجـال ، أى أن الثورة تنجم عن زيادة البؤس وانتشار الفقر • وهناك وجهة نظر أخرى أكدها توكفيل Tocqueville هى أن الثورة تنشأ عن زيادة الرخاء • وقد يؤيد ذلك التطورات الحديثة التى طرأت على حركات الشباب فى العالم الغربى والتى أشرنا اليها فى موضع سابق • وعلى أية حال فلقد ظهرت خلال السنوات الاخيرة تحليلات اقتصادية غير ماركسية للثورة • من ذلك — مثلا — أن « ثورة التوقعات » التى يشهدها العالم المعاصر (وعلى الاخص الدول النامية) تؤدى الى احباطات متزايدة

---

(74) Daniel James (ed.), The Complete Bolivian Diaries of Che Guevara and Other Capturd Documents. Stein and Day, New York, 1968.

نتيجة عجز الحكومات عن تحقيق الآمال الاجتماعية للجماهير(٧٥) .

أما الموقف الفكرى الثانى فينطلق من أن الثورة ظاهرة اجتماعية ، لكنها قد تنشأ نتيجة فشل المجتمع فى مواجهة المتطلبات الاجتماعية للجماهير . ومن المحاولات النظرية التى تتسق مع هذا الموقف تلك التى قدمها جونسون Johnson حيث عرض تصنيفا لمختلف الحركات الثورية ميز فيه بين التمرد الفوضوى ، والثورة الشيوعية ، والانقلاب التآمرى ، والعصيان الجماهيرى المسلح(٧٦) . ومع أن هذا التصنيف يعانى من جمود نظرى مصدره عدم ارتباط هذه الحركات الثورية بأسبابها الاجتماعية ، الا أن استخدام جونسون لهذا التصنيف كان ينطوى على أهمية كبيرة بالنسبة لدراسة مختلف أنماط الحركات الثورية . ولقد أشار لورانس ستون Stone فى مقال له(٧٧) الى أن تصنيف جونسون يمكن أن يفيد المؤرخ فائدة محققة فى دراسة الاحداث الثورية التاريخية .

ويستند الموقف الفكرى الثالث الى قضية أساسية هى : أن الثورة تستند الى احساس الفرد بالاغتراب عن المجتمع الذى يعيش فيه . ويمكننا أن نجد تأكيدا وتطويرا لهذه القضية فى كتابات بعض علماء الاجتماع البارزين أمثال تالكوت بارسونز Parsons وروبرت ميرتون Merton . والواقع أن هذين العالمين قد تأثرا — بدرجات متفاوتة — فى كتاباتهما عن الثورة بأعمال علماء النفس السلوكيين والمحللين النفسيين . وعلى الرغم من أن بارسونز وميرتون قد ذهبا فى معظم أعمالهما النظرية الى أنهما ينطلقان من مفاهيم سوسيولوجية فى معالجة الظواهر الاجتماعية ، الا أن تحليلاتهما للثورة قد كشفت عن نزعة سيكولوجية واضحة . وهكذا بدت الحركات الثورية — فى نظرهما — وكأنها حالات مرضية علاجها ربط الفرد بالمجتمع وتكامله معه .

---

(75) James C. Davies, «Towards a Theory of Revolution», The American Sociological Review, XXVII. No. 1, February, 1962, p. 5.

(76) Chalmers Johnson., Revolution and the Social System., op. cit.

(77) Chalmers Stone, «Theories of Revolution». World Politics, XVIII. No. 2. January 1966. p. 159.

ويمكننا أن نجد تفسيرا أعمق لذلك اذا ما علمنا أن هذين العالمين قد انطلقا فى تحليلاتهما من النزعة البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع التى لا تمنح التغير الثورى دوراً هاما فى تحديد حركة المجتمع[٧٨] •

وأخيرا ينطلق الموقف الفكرى الرابع من أن الثورة ظاهرة سياسية تتعلق أساسا باستبدال القوة السياسية • ويمثل هذا الموقف أرسطو ومكيافيلى ولوك • ونتيجة لذلك يمكن تفسير التحولات الاجتماعية فى ضوء المعنى السياسى للثورة، اذ أنه دون وجود عنصر التغير السياسى، فانهيصعب وصف التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية بأنها تغيرات ثورية بأى معنى من المعانى • والواقع أن تقييم هذا الموقف الفكرى من الثورة — شأنه شأن المواقف الفكرية الثلاث السابقة — يعتمد على مضمونه الايديولوجى ونظرته الى الغاية القصوى للحدث الثورى • ولا شك أن ذلك يطرح قضايا هامة فى هذا المجال • من ذلك — مثلا — الشرعية ، واستخدام القوة فى العلاقات الانسانية • ان كل ثورة تسعى الى اكساب نفسها قدرا كبيرا من الشرعية ، حتى قبل أن تظهر الى حيز الوجود • وبدون هذه الشرعية تصبح الثورة عملا موضوعيا لا معنى له الا التمرد والعصيان •

وتتصل المواقف الفكرية السابقة بتقييم السلوك الجماعى المرتبط بالثورة بما فى ذلك سلوك الزعماء والجماهير والصفوة الحاكمة بوجه عام • ومع أن هناك ارتباطا واضحا بين هذه الأطراف الثلاث ، الا أن الصفوة الحاكمة قد حظيت بأكبر اهتمام من جانب علماء الاجتماع[٧٩] • ويعتبر جوستاف لوبون

---

(78) Talcott Parsons and Edward A. Shils (eds), Towards a General Theory of Action, Harber, New York, 1962. Robert K. Merton, Contemporary Social Problems., An Introduction to the Sociology of Deviant Behavior and Social Disorganization., Harcourt Brace and World. New York. 1961.

ويمكننا أن نجد انتقادات اضافية لكتابات هذين العالمين فى مؤلفنا : النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم ، المرجع السابق .

(٧٩) انظر مقدمتنا للترجمة العربية لكتاب ت. ب. بوتومور ، الصفوة والمجتمع ، دراسة فى علم الاجتماع السياسى المرجع السابق .

Le Bon من أوائل العلماء الاجتماعيين الذين حاولوا فهم سلوك الجماهير أو الحشود[٨٠] • فالفرد داخل الحشد يكتسب فى سلوكه خصائص الانسان البدائى ، حيث يتحرر — وقت الضرورة — من التزاماته الجماعية ويتبع غرائزه التى تملى عليه القتال والقتل • ولقد بدت وجهة نظر لوبون جذابة لبعض العلماء بسبب بساطتها الشديدة وتأكيدها المتزايد على المظاهر الأخلاقية • غير أن نظرية لوبون ما لبثت أن خضعت لنقد مرير من جانب سيجموند فرويد Freud ، حيث أوضح أنه برغم ما كشفت عنه هذه النظرية من بصيرة نفاذة ، الا أنها أغفلت جانبا هاما هو علاقة الحشد بالقائد أو الزعيم[٨١] • فالفرد — فى نظر فرويد — يتوحد مع الزعيم بتثبيت طاقته الغريزية عليه بوصفه بديلا عن الاب • وبالاضافة الى ذلك استخدم بعض العلماء نظرية فى تفسير ما أطلقوا عليه « بالعصاب الجماعى » ، وفهم السلوك الجماعى فى الدول الاشتراكية[٨٢] •

وخلال السنوات الاخيرة تطور الاهتمام بدراسة السمات السيكولوجية للزعامة أو القيادة • وربما كان مؤلف « الشخصية التسلطية »[٨٣] علامة هامة فى هذا المجال ، مما دفع بعض العلماء المحدثين الى ادخال مفهوم التسلطية فى دراسة الثورات • فعلى سبيل المثال نجد فولفينشتاين[٨٤] Wolfenstein بعد تحليله لحياة ثلاثة زعماء بارزين هم لينين وتروتسكى وغاندى يثير عدة تساؤلات يمكن أن تكون بمثابة موجهات لبحوث تاريخية هامة • وبرغم أهمية هذه الدراسات ، الا أن التساؤل الرئيسى يظل قائما وهو : هل هناك

---

(80) Gustave Le Bon, The Crowd., A Study of the Popular Mind, (tran), Viking Press, New York, 1960.

(81) Sigmund Freud, Group Psychology and the Analysis of the Ego, tran. Sames Strachey, Bantam Books, New York, 1956.

(٨٢) انظر على سبيل المثال :

Hannah Arendt, On Revolution, Faber and Faber, London, 1963.

(83) T. W. Adorno, et al. The Authoritarian Personality, John Wiley, N. Y. 1960.

(84) E. Victor Wolfenstein, The Revolutionary Personality; Lenin, Trotsky, Ghandi, Princeton University Press, Princeton, 1967.

خصائص سيكولوجية معينة تميز الثوار ؟ والاجابة على ذلك ليست يسيرة بطبيعة الحال ، وان كان بالامكان القول إن أهم ما يميز الثوار قوة التزامهم السياسى ، وقدراتهم التنظيمية ، واستعدادهم لتجاوز الواقع الخاص الذى يعيشون فيه وخلق واقع جديد • والواقع أن هذا المعنى الاجتماعى هو ما يؤكده علماء الاجتماع على الدوام • فلقد ظهرت خلال السنوات الاخيرة محاولات سوسيولوجية عديدة لدراسة الحركات الاجتماعية والسياسية • من ذلك — مثلا — دراسة سميلسر Smelser بعنوان « نظرية السلوك الجمعى [٨٥] » ، حيث نجد تطويرا وتطبيقا لفكرة « الأنومى » كما بسطها اميل دوركايم Durkheim • والملاحظ أن هذه الفكرة قد استخدمت فى هذا السياق للاشارة الى حالة اغتراب الفرد عن المجتمع ، مما شجع بعض العلماء السياسيين على تطبيقها على الدول النامية • وطبقا لهذا الاستخدام يمكن تفسير أحداث الشغب والعصيان والتمرد على أنها انعكاس لحالة « الأنومى » أو الاغتراب عن المجتمع ، وأنها علامة على أن النظام السياسى بحاجة الى اعادة النظر فى بعض جوانبه •

وبرغم ذلك كله فلا يزال بعض العلماء الاجتماعيين يعتقدون ان من الضرورى التمييز بين ما يطلق عليه « الثورات الكبرى » من ناحية والعنف السياسى أو الحرب الداخلية من ناحية أخرى ، وان كنا نجد اهتماما أكبر « بالثورات الكبرى » لما تتضمنه من دلالات ايديولوجية عميقة وقدرة على احداث تأثيرات بعيدة المدى ، فضلا عن أنهـا أقل تكرارا من « الحروب الداخلية » • ولا شك أن اهتمام بعض علماء الاجتماع باقامة نظريات كبرى شاملة قد ساعد على دراسة المشكلات والقضايا الاساسية التى تعد الثورات احداها • وفى سنة ١٩٢٨ نشر ادواردز Edwards مؤلفا شهيرا بعنوان « التاريخ الطبيعى للثورات »[٨٦] ذهب فيه الى أن الثورة حادثة لها دلالة

---

(85) N. J. Smelser, Theory of Collective Behavior, Routledge and Kegan Paul, London, 1962.

(86) Lyford, P. Edwards, The Natural History of Revolution, Russell and Russel, New York, 1965.

اجتماعية أقوى من دلالتها السياسية • ذلك أن الاطاحة بالملكية والنظـام الاقطاعى فى فرنسا لم يحدث نتيجة الثـورة الفرنسية • ان الشىء البارز الذى أوضحته هذه الثورة هو أن السلطة الحقيقية فى فرنسا قد انتقلت الى أيدى أفراد الطبقة الوسطى • وبغض النظر عن تأثر ادواردز بوجهة نظر ماركس فى هذا المجال ، فان الامر الواضح هنا هو أنه قد رفض كل الحركات والأحداث الاخرى لأنها تخلو من أى معنى اجتماعى واضح • وعلى ذلك فان الأحداث العنيفة التى شهدتها دول البلقان وأمريكا اللاتينية لا تعد ثورات بالمعنى الحقيقى ، ولكنها مجرد انتفاضـات لم تسـهم فى تغيـير الأنظمة الاجتماعية والسياسية القائمة(٨٧) • وفضلا عن ذلك يذهب ادواردز الى أن عملية الثورة تبدأ « بتحول ولاء المثقفين » من النظام القديم والسعى لاقامة تصور واضح عن شكل المجتمع الجديد • بذلك تصبح الثورة بمثابة اعادة تكامل للمجتمع • ويؤدى انهيار النظام القديم الى زيادة حركة المجتمع ، وسيطرة روح التفاؤل ، وانخفاض معدل الجرائم العادية • وخلال هـذه الفترة يظهر الثوار كقوة متميزة ويتصرفون بثقة من أجل تشكيل المجتمـع الجديد • ولا تخلو هذه الفترة ــ فى نظر ادواردز ــ من ممارسة قدر من الارهاب حتى يمكن تحقيق الانسجام بين قطاعات المجتمع • وما أن يتحقق ذلك كله حتى تسود الظروف الطبيعية ويتجه المجتمع نحو الاستقرار •

ومن الواضح أن تحليل ادواردز « للثورات الكبرى » قد اسـتند فى معظمه الى مجريات أحداث الثورة الفرنسية • لذلك نجد برنتون Brinton وبيتى Pettee يقدمان تعديلات على وجهة نظر ادواردز • فعلى سبيل المثال نجد برنتون فى دراسته يقيم تفرقة واضحة بين الثورات الفرنسية والانجليزية والامريكية والروسية ، بل ويحذر الدارسين الآخـرين من الاعتمـاد على نموذج واحد فى دراسة الثورات(٨٨) • ومن المحاولات القليلة التى تأثرت

---

(87) Ibid, pp. 16-17.

(88) Crane Brinton, The Anatomy of Revolution, op. cit. p. 3.
ويلاحظ أن معظم الدارسين المعاصرين لم يأخذوا ــ بالفعـل ــ بالتحذير الذى أشار اليه برنتون •

بوجهة نظر برنتون تلك التى قام بها ليدن Leiden وشميت Schmitt حيث درسا الثورات فى أربع دول هى المكسيك وتركيا ومصر وكوبا(٨٩) ، وان كانا قد تراجعا عما ذهب اليه ادواردز من أن مفهوم الثورة يجب أن يقتصر على الظواهر النادرة . لذلك نجد الثورة عندهما تضم كل التغييرات السياسية العنيفة الناجحة . والواقع أن دراسة الثورات تتطلب الماما شاملا بمختلف جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والا يكون الاهتمام مقصورا على الأحداث العنيفة المرتبطة بها . ولقد قال بيتى Pettee « إن الانقلاب لا يعدو أن يكون جزءا من عملية الثورة . فبدون دراسة الجوانب الاجتماعية ـ بمعناها الشامل ـ تصبح الثورة وكأنها مجرد حادث من حوادث العنف السياسى »(٩٠) .

وفضلا عن الاهتمام « بالثورات الكبرى » نجد اهتماما بأحداث العنف داخل المجتمع أو ما يطلق عليه « بالحروب الداخلية » . فلقد قدم سوروكين Sorokin دراسة مبكرة عن « سوسيولوجية الثورة »(٩١) اعتمد فيها على خبراته الشخصية ، وان كانت قد فتحت المجال لاجراء مزيد من الدراسات الواقعية . غير أن سوروكين ما لبث أن وضع نتائج دراسته فى المجلد الثالث من مؤلفه الشهير «الديناميات الاجتماعية والثقافية»(٩٢) Social and Cultural Dynamics . وفى هذا المجلد نجد تحليلا لأهم الاضطرابات الداخلية المسجلة التى حدثت فى عدد من الدول كاليونان وايطاليا وفرنسا وألمانيا وانجلترا وأسبانيا وهولندا وروسيا . أما معيار الاهمية فهو ورودها فى الحوليات

---

(89) Carl Leiden and Karl M. Schmitt, The Politics of Violence : Revolution in The Modern World, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, N. Y, 1968.

(90) George Sawyer Pettee, The Process of Revolution, Harper, and Brothers, New York, 1938, p. XI.

(91) Pitrim A. Sorokin, The Sociology of Revolution, J. B. Lippincott Co., Philadelphia, 1925.

(92) Pitrim A. Sorokin, Social and Cultural Dynamics, III : Fluctuation of Social Relationships, War and Revolution, American Book Co. N.Y. 1937.

التاريخية كحوادث مؤثرة • ثم قدم سوروكين بعد ذلك تحليلا كميا وكيفيا لهذه الاضطرابات • ومن المظاهر الكمية التى اعتمد عليها : المدى النسبى للمنطقة الاجتماعية التى حدثت فيها الاضطرابات ، وعدد السكان المشاركين فيها ، ومدى العنف والتخريب المترتب عليها • ومن النتائج التى توصل اليها سوروكين أنه كلما ازداد المدى النسبى للمنطقة الاجتماعية للاضطرابات، ازداد عدد السكان المشاركين فيها ، وازدادت كثافتها وديمومتها(٩٣) • والواقع أن أهم النتائج التى توصلت اليها هذه الدراسة كانت بسيطة كل البساطة ، ولكنها تنطوى على أهمية كبيرة وهى ، أن هناك عددا كبيرا جدا من الاضطرابات السياسية تستحق الدراسة والتحليل ، وأن المجتمعات تتفاوت فيما بينها فيما يتعلق بشدة هذه الاضطرابات وديمومتها ، حتى أنه قد قدر أن كل دولة من الدول التى درسها تشهد اضطرابا اجتماعيا واحدا بمعدل كل ست سنوات • وفيما يتعلق بعنف هذه الاضطرابات ، ذهب سوروكين الى أن هناك شبها كبيرا بين الدول التى درسها فى هذا المجال باستثناء روسيا ، حيث بلغ فيها العنف أقصاه • وعلى الرغم من طرافة هذه النتائج ، الا أن النظرة الدائرية التى تبناها سوروكين فى دراسته للتغير الاجتماعى تجعلنا نتحفظ على كثير منها • ان الثورة تعد واحدة من أهم الأحداث المؤثرة على تطور المجتمعات ، وهى أحد وسائل التغير السياسى الذى ينبغى النظر اليه من زاوية واسعة تضم فيما تضم أنساق المعتقدات السياسية ، والأهداف القصوى ، والمصالح المختلفة • وبدون أن نأخذ ذلك فى الاعتبار نكون أسرى تصور متحيز جامد • ان الثورة لا تعنى فقط مجرد الاطاحة بنظام معين واستبداله بنظام آخر ، ولكنها تعنى أيضا اعادة تنظيم المجتمع ، وتنظيم ممارسة السلطة ، واقامة نظام دستورى جديد ، ووضع قواعد اجتماعية جديدة •

---

(93) Ibid. p. 340.

قائمة ببليوجرافية

الطبقة والنظام السياسى :

- Abrams, M. and Rose, R., Must Labour Lose ? London, 1960.
- Allen, V. L., Militant Trade Unionism, London, 1966.
- Almond, G., The Appeals of Communism, Princeton, 1963.
- Aron, R., «Social Structure and the Ruling Class», British Journal of Sociology, January and March, 1950.
- Azrael, J. R., «The Party and Society» in Kassoff, A. (ed.) Prospects for Soviet Society, London, 1966
- Barber, B., «Social Stratification», in International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968.
- Bauman, Z., «Economic Growth, Social Structure, Elite Formation». International Social Science Journal, No. 2, 1964.
- Bendix, R. and Lipset, S., Class, Status and Power, Glencoe, 1953.
- Blau, P.M., and Duncan, O. D., The American Occupational Structure, New York, 1967.
- Blau, P., Exchange and Power in Social Life, New York, 1964.
- Bonham, J., The Middle Class Vote, London, 1954.
- Bottomore, T. B., «Social Stratification in Voluntary Organizations, in Glass, D. V. (ed.), Social Mobility in Britain, London, 1954.
- Bottomore, T. B., Classes in Modern Society, London, 1965.
- Bruce, M., The Coming of the Welfare State, London, 1965.
- Childs, D., From Schumacher to Brandt : The Story of German Socialism 1945-1965, London, 1966.
- Cliff, T., Stalinist Russia : A Marxist Analysis, London 1956.
- Converse, P. E., «The Nature of Belief Systems in Mass Publics», in Apter, D. E. (ed.), Ideology and Discontent, Glencoe, 1964.
- Crosland, C. A. R., The Future of Socialism, London, 1956.
- Dahrendorf, R. Class and Class Conflict in Industrial Society, London, 1959.

- —— Society and Democracy in Germany, London, 1968.
- —— «On the Origin of Inequality among Men», in Bèteille, A., (ed.) Social Inequality, London, 1969.
- Djilas, M., The New Class, London, 1956.
- Engels, F., The Condition of the Working Class in England in 1844, London, 1892.
- Feinstein, W., «Income Distribution in the United Kingdom», in Marchal, J. and Ducros, B. (eds.) The Distribution of National Income, London, 1968.
- Feldmesser, R., «Social Classes and Political Structure» in Black, C. E. (ed.), The Transformation of Russian Society, Harvard, 1969.
- —— «Towards the Classless Society ? », in Inkeles, A. and Geiger, K., Soviet Society, London, 1961.
- Galbraith, J. K., The Affluent Society, London, 1958.
- Galbraith, J. K., The New Industrial State, London, 1967.
- Gerth, H. H. and Mills, C. W., From Max Weber, London, 1948.
- Glennerster, H., «Democracy and Class», in Lapping, B. and Radice, G., More Power to the People, London, 1968.
- Glezerman, G.E., «From Class Differentiation to Social Homogeneity» in Hollander, P. (ed.) American and Soviet Society, Englewood Cliffs, 1969.
- Goldthorpe, J., H. Lockwood, D. Bechhofer, F. and Platt, J., The Affluent Worker : Industrial Attitudes and Behaviour, Cambridge, 1968.
- Goudsblom, J., Dutch Society, New York, 1967.
- Gouldner, H., Pand Gouldner, A., Modern Sociology, London, 1963.
- Hoggart, R., The Uses of Literacy, London, 1958.
- Hollander, P. (ed.) American and Soviet Society, Englewoon Cliffs, 1969.
- Inkeles, A. «Social Stratification and the Modernization of Russia» in Black, C. E. (ed.), The Transformation of Russian Society, Harvard, 1960.

- Jackson, B. and Marsden, D., Education and the Working Class, London, 1962.

- Kerr, C. Dunlop, J. T. Harbison, F. H., and Myres, C. A., Industrialism and Industrial Man, London, 1962.

- Kornhauser, W., The Politics of Mass Society, London, 1959.

- Kriesberg, L., «The Bases of Occupational Prestige : The Case of Dentists», American Sociological Review, April 1962.

- Lenski, G., Power and Privilege, New York, 1966.

- Lewis, O., A Study of Slum Culture, New York, 1968.

- Lipset, S.M., and Bendix, R., Social Mobility in Industrial Society, London, 1959.

- Lockwood, D., «Sources of Variation in Working Class Images of Society», Sociological Review, November 1966.

- Marchal, J. and Ducros, B. (eds), The Distribution of National Income, London, 1968.

- Marx, K., Selected Writings in Sociology and Social Philosophy, edited by Bottomore, T.B., and Rubel, M. London, 1958.

- Mayer, K. B., Class and Society, New York, 1955.

- Meade, J.E., Efficiency, Equality and the Ownership of Property, London, 1964.

- Merton, R. K., Social Theory and Social Structure, Glencoe, 1957.
- Michels, R., Political Parties, New York, 1962.
- Miliband, R., The State in Capitalist Society, London, 1959.

- Miller. S.M., «Comparative Social Mobility», Current Sociology, No. 1, 1960.

- Mills, C. W., White Collar, New York 1956.

- Moser, C. A., and Hall, J. R. «The Social Grading of Occupations» in D. V. Glass (ed.), Social Mobility in Britain, London, 1954.

- Newton, K., The Sociology of British Communism, London, 1959.

- Osipov, G. V., (ed.) Industry and Labour in the USSR, London, 1966.

- Ossowski, J., Class Structure in the Social Consciousness, London, 1965.
- Reissman, L., «Social Stratification», in Smelser, N. J. (ed.) Sociology, New York, 1967.
- Runciman, W.G., «Class, Status and Power», in J.A. Jackson (ed.) Social Stratification, Cambridge, 1968.
- Skharaton, O. I., «The Social Structure of the Soviet Working Class» in Hollander, P. (ed.) American and Soviet Society, Englewood Cliffs, 1969.
- Svalastoga, K., «Social Mobility : The Western European Model» Acta Sociologica, 1965.
- Titmuss, R.M., Income Distribution and Social Change, London, 1962.
- Veblen, T., The Theory of the Leisure Class, New York 1899.
- Waterman, H., Political Change in Contemporay France, Columbus, 1969.
- Westergaard, J. H., «The Withering Away of Class : A Contemporary Myth» in Anderson, P. and Blackburn, R. (eds.) Towards Socialism, London, 1905.
- Witt De N., Soviet Professional Manpower, Washington, 1955.

الصفوة وبناء القوة :

–Aron, R., «Social Structure and the Ruling Class», British Journal of Society, I (1), March, 1950, pp. 6-16. I (2), June, 1950, pp. 126-43.

——, The Opium of the Intellectuals (London; Secker and Warburg), 1957.

– Armstrong, J., The SovietBureaucratic Elite : A Case Study of the Ukranian Apparatus (London, Stevens and Sons), 1959.

– Almond, G. Coleman, J., The Politics of the Developing Areas (Princeton, Princeton University Press, 1960.

– Borkenau, F., Pareto, London, Chapman and Hall, 1936.

– Burham, J., Machiavellians : Defenders of Freedom, London, Putnam and Co. 1943.

– Baltzell, E. An American Business Aristocracy, New York, Coller Books, 1962.

– Berle, A. Means, G., The Modern Corporation and Private Property, New York, Macmillan, 1933.

– Burnham, J., The Managerial Revolution, London, Putman and Co. 1943.

– Bottomore, T.B. «Higher Civil Servants in France», Transactions of the Second World Congress of Sociology, London, International Sociological Association, 1954.

– Clifford-Vaughan, M., «Some French Concepts of Elites», British Journal of Sociology, XI (4), December, 1960, pp. 319-331.

– Cole, G. Studies in Class Structure, London, Routledge and Kegan Paul, 1955.

– Clements, R., Managers : A Study of Their Careers in Industry, London, Allen and Unwin, 1958.

– Djilas, M., The New Class, London, Thames and Hudson, 1957.

– Eisenstadt, S. N.. The Political Systems of Empires : The Rise and Fall of the Historical Bureaucratic Empires, New York, Collier – Macmillan, 1963.

- Florence, P., The logic of British and American Industry, London, Routledge and Kegan Paul, 1953.
- Finer, S., The Man on Horseback : The Role of Military in Politics, London, Pall Mall Press, 1962.
- Ginsberg, M., «The Sociology of Pareto», in Reason and Unreason in Society, London, Longmans, Green and Co., 1947.
- Guttsman, W., The British Political Elite, London, Mac - Gibbon and Kee, 1963.
- Kelsall, R., Higher Civil Servants in Britain, London, Routledge and Kegan Paul, 1955.
- Kerr, C., et al. Industrialism and Industrial Man, Cambridge, Harvard University Press, 1960, Chap. 3.
- Lasswell, H. et al. The Comparative Study of Elites (Hoover Institute Studies, Series B : Elites, No. 1, Stanford, 1952.
- Lipset, S., Political Man, London, Heinemann, 1960, Chap. X.
- ——, and Bendix, R., Social Mobility in Industrial Society, University of California Press, 1949.
- Meisel, J., The Myth of the Ruling Class : Gaetano Mosca and the Elite, Ann Arbor, University of Michigan Press, 1958.
- Mills, C. Wright, The Power Elite, New York, Oxford University Press, 1956.
- Mosca, G., The Ruling Class, New York, McGraw-Hill, 1939.
- Marvick, D. (ed.) Political Decision Makers, Glencoe, The Free Press, 1961.
- Michels, R., Political Parties, Glencoe, The Free Press, 1962.
- Miller, W. (ed.), Men in Business : Essays on the Historical Role of the Entrepreneur, New York, Harper and Rownew, 1962.
- Michels, R., «Intellectuals», Encyclopedia of the Social Sciences, (ed.) by Seligman, E.R., New York, Macmillan, 1932.
- Nadel, S., «The Concept of Social Elites, International Social Science Bulletin, VIII (3), 1956, pp. 413-424.

– Niel, R., The Emergence of the Modern Indonesian Elite, The Hague, W. Van Hoeve, 1960.

– Ostrogorski, M., Democracy and the Organization of Political Parties, London, Macmillan, 1957.

– Pareto, V., The Mind and Society, London, Jonathan Cape, 1953.

– Runciman, W; Social Science and Political Theory, Cambridge, Cambridge University Press, 1963. Chap. IV.

– Schumpeter, J. A., Imperialism and Social Classes. Oxford, Basil Blackwell, 1951.

– Shils, E., The Intellectual Between Tradition and Modernity : The Indian Situation, The Hague, Mouton and Co. 1961.

– Smythe, H. H. and Smith, M. M., The New Nigerian Elite, Stanford University Press, 1960.

– Titmus, R., Income Distribution and Social Change, London, Allen and Unwin, 1962.

– UNESCO, International Social Science, Bulletin, VIII (3), 1956, Symposium on «African Elites», pp. 413-488.

الحراك والتغير السياسي :

- Abrams, M., and Rose, R., Must Labour Lose ? Penguin Books, Harmondworth, Middlesex, 1960.
- Almond, Gabriel, A., and Coleman, James eds.), The Politics of The Developing Areas, Princeton University Press, Princeton, 1960.
- Apter, D. The Politics of Modernization, University of Chicago Press, Chicago, 1955.
- Arikpo, O., The Development of Modern Nigeria, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1967.
- Bell, D., The End of Ideology, Collier-Macmillan, New York, 1961.
- Bendix, R., Max Weber : an Intellectual Portrait, Heinemann, London, 1961.
- Bendix, R., Lipset, S. (eds.), Class, Status and Power, Routledge and Kegan Paul, London, 1966.
- Blau, P. and Duncan, O., The American Occupational Sttructure, John Wiley, New York, 1967.
- Blauner, R., Alienation and Freedom, University of Chicago Press, Chicago, 1964.
- Blondel, J., Voters, Parties and Leaders, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1963.
- Burnham, J., The Managerial Revolution, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1941.
- Cohen, P., Modern Social Theory, Heinemann, London, 1968.
- Crosland, C.A., The Future of Socialism, Jonathan Cape, London, 1956.
- Dahrendorf, R., Class and Class Conflict in Industrial Society, Routledge and Kegan Paul, London, 1959.
- Davies, I., African Trade Unions, Penguin Books, Harmonsworth, Middlesex, 1966.
- Djilas, M., The New Class, Thames and Hudson, London, 1957.
- Durkheim, E., The Division of Labour in Society, Free Press, Glenocoe, III : 1947.

- Easton, D., The Political System, Knopf, New York, 1953.
- Eisenstadt, S., Modernization : Protest and Change, Prentice-Hall, Englewood-Cliffs, N. J, 1966.
- Esien-Udom, E., Black Nationalism, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1962.
- Etzioni, A., The Active Society, The Free Press, New York, 1968.
- Fanon, F., The Wretched of the Earth, Mac Gibbon and Kee, London, 1965.
- Freedman, M., Capitalism and Freedom, University of Chicago Press, Chicago, 1962.
- Freund, J., The Sociology of Max Weber, Allen Lane, Penguin Press, London, 1968.
- Germani, G., «Social Change and Inter-Group Conflict», in I. L. Horowitz (ed.), The New Sociology, New York, 1964.
- ——, «Social and Political Consequences of Mobility, In N. J. Smelser and S. M. Lipset, Social Structure and Mobility in Economic Development, Routledge and Kegan Paul, London, 1966.
- Gerth, H., and Mills, C., Wright, From Max Weber, Oxford University Press, New York, 1946.
- Guttsman, W., The British Political Elite, Mac Gibbon and Kee, London, 1963.
- Halsey, A., Floud, J., and Anderson, C., (eds.), Education, Economy and Society, The Free press, New York, 1961.
- Hobsbawm, E., Primitive Rebels, University of Manchester Press, Manchester, 1959.
- Kornhauser R., et al., Industrial Conflict, McGraw-Hill, New York, 1956.
- Landekker, W., «Class Boundaries», American Sociological Review, 25, 1960, pp. 868-77.
- Landsberger, H., «The Labor Elite : Is It Revolutionary», in S. m. Lipset and A. Solari (eds.), Elites in Latin America, Oxford University Press, New York, 1968.

– Lefebvre, H., The Sociology of Marx, Allen Lane, The Penguin Press, London, 1968.

– Lerner, D., The Passing of Traditional Society, University of Chicago Press, Chicago, 1958.

– Lipset, S.M., and Bendix, R., Social Mobility in Industrial Society, Heinemann, London, 1959.

– Lockwood, D., «Social Integration and System Integration», in G. K. Zollschan and W. Hirsh (eds.), Explorations in Social Change, Routledge and Kegan Paul, London, 1964, pp. 244-56.

– Lockwood et al. The Affluent Worker, 4 vols. Cambridge University press, Cambridge, 1965-70.

– Mc Clelland, D., The Achieving Society, John Wiley, New York 1961.

– Marsh, R., Comparative Sociology, Harcourt, Brace and World, New York, 1967.

– Marx, K., «The Eighteenth Brumaire of Louis Napoleon», in K. Marx and F. Engels, Selected Works, Foreign Language publishing House, Moscow, 1950.

– Marx K., Selected Writings in Sociology and Social Philosophy, edited and introduced by T.B. Bottomore and M. Rubel, Publish-Books, Harmonsworth, Middlesex, 1963.

– Merritt, R., and Rokkan, S., (eds). Comparing Nations, Yale University Press, New Haven, 1966.

– Michels, R., Political Parties, Collier Books, New York, 1962.

– Miller, S., «Comparative Social Mobility», Current Sociology, 9, 1960.

– Moore, B. Jr., Social Origins of Dictatorship and Democracy, Allen Lane, The Penguin Press, London, 1966.

– Nettl, J., Political Mobilization, Faber and Faber, London, 1966.

– Nisbet, R., The Sociological Tradition, Routledge and Kegan Paul, London, 1967.

– Rokkan, S., Comparative Research Across Cultures and Nations, Mouton et Cie, Paris, 1968.

- Runciman, W., Relative Deprivation and Social Justice, Routledge and Kegan Paul, London, 1966.

- Sahlins, M. and Service, E., Culture and Evolution.

- Schueller, G., «The Politburo», in H. D. Lasswell and D. Lerner (eds.), World Revolutionary Elites, The M. I. T. Press, Cambridge, Mass. 1966, 97-178.

- Smelser, N., «Mechanics of Change and adjustment to Change», in T. Burns (ed.), Industrial Man, Penguin Books, Hormonsworth, Middlesex, 1969.

- Smelser, N., and Lipset, S., Social Structure and Mobility in Economic Development, Routledge and Kegan Paul .London, 1966.

- Sorokin, P., Social and Cultural Mobility, The Free Press, Glencoe, III. 1959.

- De Tocqueville, A., Democracy in America, Doubleday, Garden City, N. Y. 1955.

- Tumin, M., Class and Social Change in Puerto Rico, Princeton University Press, Princeton, 1964.

- Veliz, C., (ed.), Obstacles to Change in Latin America, Oxford University Press, 1965.

- Weber, M., Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Allen and Unwin, London, 1030.

- Wittfogel, K., Oriental Despotism, Yale University Press, New Haven, 1957.

- Worsley, P., The Trumpet Shall Sound, MacGibbon and Kee, London, 1968.

- Zeitlin, M., Revolutionary Politics and the Cuban Working Class, Princeton University Press, Princeton, 1967.

البيروقراطية والسلطة :

– Albrow, M., «The Study of Organizations - Objectivity or Bias ?», in Penguin Social Sciences Survey 1968, edited by Julius Gould, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1968, pp. 146-67.

– Allen, C., Bureaucracy Triumphant, Oxford University Press, London, 1931.

– Baum, B., The Decentralization of Authority in a Bureaucracy, Prentice-Hall, Englewood Gliffs, N. J. 1961.

– Beck, C., «Bureaucracy and Political Development in Eastern Europe», in Bureaucracy and Political Development, edited by J. La Palombara, 1963, pp. 268-300.

– Bendix, R., «Bureaucracy : The Problem and its Setting», American Sociological Review. Vol. 12, 1947, pp. 493-507.

– ——, Higher Civil Servants in American Society, University of Colorado Studies, Boulder, Colorado, 1949.

– ——, Work and Authority in Industry, John Wiley, New York, 1956.

– ——, Max Weber : An Intellectual Portrait, Heinemann, London, 1960.

– Berger, M., Bureaucracy and Society in Modern Egypt, Princeton University Press, Princeton, 1957.

– Blau, P., Bureaucracy in Modern Society, Random House, New York, 1956.

– Burin, F., «Bureaucracy and National Socialism : A Reconsideration of Weberian Theory», in Reader in Bureaucracy, edited by R. K. Merton et al. 1952, pp. 33-47.

– Burnham, J., The Managerial Revolution, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1955.

- Cohen, H., The Demonics of Bureauracy, Iowa State University Press, Ames, Iowa, 1965.
- Cole, G., History of Socialist Thought, Macmillan, London, 1963.
- Constas, H., «Max Weber's Two Conceptions of Bureaucracy», American Journal of Sociology, Vol. 63, 1957-58, pp. 400-9.
- Crider, J., The Bureaucrat, J. B. Lippincott, New York, 1944.
- Crossman, R., Planning For Freedom, Hamish Hamilton, London, 1965.
- Eisenstadt, S., «Bureaucracy and Bureaucratization», Current Sociology, Vol. 7, 1958, pp. 97-164.
- ——, The Political System of Empires, The Free Press, Glencoe, III, 1963.
- Etzioni, A., Modern Organizations, Prentice - Hall, Englewood Cliff, N. J. 1964.
- Fainsod, M., «Bureaucracy and Modernization : The Russian and Soviet Case», in Bureaucracy and Political Development, edited by J. La Palombara, 1963, pp. 233-267.
- Friedman, G., Industrial Society, The Free Press, Glencoe, Ill. 1955.
- ——, «Some Observations on Weber's Analysis of Bureaucracy, in Reader in Bureaucracy, edited by R. K. Merton et al. 1952, pp. 27-33.
- Gouldner, A., «Metaphsical Pathos and the Theory of Bureaucracy», American Political Science Review, Vol. 49, 1955, pp. 496-507.
- Hall, R.H., «Concept of Bureaucracy — an Empirical Assessment», American Journal of Sociology, Vol. 69, 1963, pp. 32-40.
- Handman, Max, «The Bureauractic Culture Pattern and Political Revolutions», American Journal of Sociology, Vol. 39, 1933, pp. 301-13.
- Hegel, G. W. F., Hegel's Philosophy of Right, translated by T. M. Knox, Oxford University Press, London 1924.
- Hewart, Lord, The New Despotism. Ernest Benn, London, 1929.

- Hinings, C. R., Pugh, D. S., Hickson, D. J., Turner, C. «An Approach to the Study of Bureaucracy», Sociology, Vol. 1, 1967, pp. 61-72.
- Jacob, C. E., Policy and Bureaucracy, Jan Nostrand, New York, 1966.
- Jacobs, P. and Landau, S., The New Radicals, Penguin Books, Harmondworth, Middlesex, 1966.
- Kingsley, J. D., Representative Bureaucracy, Antioch Press, Yellow Springs, Othio, 1944.
- Laski, Harold, «Bureaucracy», Encyclopeadia of the Social Sciences, Vol. 3. Macmilian, New York, 1930, pp. 70-4.
- Lasswell, H. D. and Kaplan, Abraham, Power and Society : A Framework for Political Inquiry, Yale University Press, New Haven, 1950.
- Lenin, V. I., «The State and the Revolution», in Collected Works, Vol. 25, Foreign Language Publishing House, Moscow, 1964.
- Lichtheim, G., Marxism, Routledge and Kegan Paul, London, 1961.
- Mannheim, R., Freedom, Power and Democratic Planning, Routlege and Kegan Paul, London, 1951.
- Mao Tse-Tung, Thoughts of Chairman Mao Tse-Tung, Anthony Gibls, London, 1967.
- March, J. G. and Simon Herbert A., Organizations, John Wiley, New York, 1958.
- Meisel, J. H., The Myth of the Ruling Class. University of Michigan, Ann Arbor, 1958.
- Merton, R., « Bureaucratic Structure and Personality», in Reader in Bureaucracy, edited by R. Merton et al. The Free Press, Glencoe, Ill. 1952, pp. 361-71.
- Meyanud, Jean, Technocracy, Faber, and Faber London, 1968.
- Michels, R; Political Parties, Collier Books, New York, 1962.
- Mills, C. W; The Power Elite, Galaxy Books, New York, 1959.
- Mouzelis, N, P; Organization and Bureaucracy : An Analysis of Modern Theories, Routledge and Kegan Paul, London, 1967.

– Muir, R., Peers and Bureaucrats, Constable, London, 1919.

– Mussolini, B. The Corporate State, Vallachi, Florence, 1938.

– ——, The Doctrine of Fascim, Ardita, Rome, 1935.

– ——, My Autobiography, Hutchinson, London, 1952.

– Nettl, J. P., Political Mobilization, Faber and Faber. London, 1967.

– Schachtman, M., The Bureaucratic Revolution, Donald Press, New York, 1962.

– Schumpeter, J. A., Capitalism and Democracy, Allen and Union, London, 1950.

– Selznick, P., «An Approach to a Theory of Bureauucracy», American Sociological Review, Vol. 8, 1943, pp. 47-54.

– —— T V A and the Grass Roots, Harper Torch-books, New York, 1966.

– Sjoberg, G. Brymer, R. A. and Faris, B. «Bureaucracy and the Lower Class», Sociology and Social Research, Vol. 50, 1966, pp.

– Stewart, R., The Reality of Management Heinemann, London, 1963.

– Strauss, E., The Ruling Servants, Allen and Unwin, London, 1961.

– Stroup, H. Bureaucracy in Higher Education, Free Press, New York, 1966.

– Tullock, G. The Politics of Bureaucracy, Public Affairs Press, Washington, D. C. 1965.

– Udy, S. R. «Bureaucracy and Rationality in Weber's Organization Theory», American Sociological Review, Vol. 24, 1959, pp. 791-5.

– Wittfogel, Karl A. Oriental Despotism, Yale University Press, New Haven, 1957.

— ——— «Ruling Bureaucracy of Oriental Dispotism : A phenomenon that Paralyzed Marx», Review of Politics, Vol. 15, 1953, pp. 350-9.

— Woll, p., American Bureaucracy, W. W. Norton, New York, 1963.

— Yang, C. K. «Some Characteristics of Chinese Bureaucratic Behaviour», in Confucianism in Action, edited by D. S. Nivison and A. F. Wright, Stanford University, Press, Stanford, California, 1959, pp. 134-64.

الحركات الاجتماعية والسياسية :

- Almond, G. Coleman, J., The Politics of the Developing Areas, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1960.
- Arendt, H., The Origins of Totalitarianism, Allen and Unwin, London, 1967.
- Avineri, S., The Social and Political Thought of Karl Marx. Cambridge University Press, 1968.
- Benedict, R., Race, Science and Politics, Modern Age Books, New York, 1940.
- Berlin, I. Karl Marx, Oxford University Press, London, 1960.
- Blackham. H., Religion in a Modern Society, Constable, London, 1960.
- Blau, P., Exchange and Power in Social Life, Wiley, New York, 1964.
- Briggs, A. Saville, J., (eds.), Essays in Labour History, London, 1960.
- Bullock, A., Hitler : A Study in Tyranny, Odhams, London, 1952.
- Carmichael, S. Hamilton, C., Black Power, Jonathan Cape, London, 1968.
- Carr, E., Nationalism and After, Papermac Edition, London, 1968.
- Carsten, F., The Rise of Fascism, Batsford, London, 1967.
- Castles, F., Pressure Groups and Political Culture : A Comparative Study, Routledge and Kegan Paul, London, 1967.
- Chadwick, H., The Nationalities of Europe and the Growth of National Ideologies, Cambridge University Press, London, 1966.
- Cobban, A., National Self Determination, Methuen, London, 1970.
- Cole, G., A Short History of the British Working Class Movement 1789-1947, Allen and Unwin, London, 1948.
- Cole, M., The Story of Fabian Socialism, Heinemann, London, 1961.

– Comas, J., Racial Myths, Unesco, 1958.

– Dahl, R., Pluralist Democracy in the United States, Rand Mac-nally, Chicago, 1967.

– Dubois, W. E. B., Bloch Folk, Then and Now. An Essay in the History and Sociology of the Negro Race, H. Holt and Co. New York, 1940.

– Durkheim, E., The Division of Labour, The Free Press, Glencoe, III. 2nd edn. 1947.

– Duverger, M., Political Parties, Methuen, London, 1964.

– Eisenstadt, S. N., Max Weber on Charisma and Institution Building, Chicago University Press, Chicago, 1968.

–Elkins, Stanley M., Slavery, Chicago University Press, Chicago, 1959.

– Essien – Undom, E., The Black Muslims, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1966.

– Etzioni, A. A., Comparative Analysis of Comlex Organization, The Free Press, III. 1961.

– Figgis, J., Churches in the Modern State, Longmans, London, 1913.

– Franklin, J., From Slavary to Freedom : A History of American Negroes, Alfred A. Knopf, New York, 1948.

– Friedrich, C. and Brezezinski, Z., Totalitarian Dictatorship and Autocracy, Harvard University Press, Cambridge, Mass, 1656.

– Galenson, W., Comparative Labor Movements, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, New Jersey, 1952.

– Gerth, H. and Mills, C. W., From Max Weber, Oxford University Press, London, 1948.

– Gierke, O., Natural Law and the Theory of Society, 1500-1800, 2 Vol., Cambridge University Press, London, 1913.

– Glazer, N., The Social Basis of American Communism, Harcourt Brace, New York, 1961.

– Goldthrope, J. and Lokwood, D. «Affluence and the British Class Structure», Sociological Review, Vol., XI, No. 2, July 1963.

- Heberle, R., Social Movements : An Introduction to Political Sociology, Appleton — Century Crofts Inc. New York, 1951.
- —— «Types and Functions of Social Movement», in International Encyclopaedia of the Social Sciences, Collier Macmillan, New York, 1968, pp. 438-44
- Hertz, F.O., Nationality in History and Politics, London, 1944.
- Hobsbawn, E., Primitive Rebels, Manchester University Press, Manchester, 1959.
- Hobson, J. A., Imperialism : A Study, Allen and Uwin London, 1902.
- Hoggart, R., The Uses of Literacy, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1958.
- Hook, S., Marx and the Marxists : The Ambiguous Legacy, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1955.
- Horowitz, D., The Italian Labour Movement, Harvard University Press, Cambridge, Mass, 1963.
- Kaebner, R. and Schrutt, H. D., Imperialism — A Political World, 1840-1960, Cambridge University Press, London, 1964.
- Kedourie, E., Nationalism, Hutchinson, London, 1960.
- Kendall, W., The Revolutionary Movement in Britain 1900-1921, Weidenfeld and Nicolson, 1969.
- King, M. L., Chaos or Community ? Hodder and Stoughton, London, 1958.
- Kohn, H., The Idea of Nationalism : A Study in its Origins and Background, Macmillan and Co. New York, 1945.
- Kolarz, W., Religion in the Soviet Union, St. Martin's Press, New York, 1961.
- Kornhauser, W. «Mass Society and Mass Phenomena», in International Encyolopedia of Social Sciences, Vol. 10, Collier Macmillan, 1968, pp. 58-64.
- —— The Politics of Mass Society, Routledge and Kegan Paul, London, 1960.

- Lanternari, V., The Oppressed, Montor Books, New York, 1965.
- La Palombara, J. G., Interest Groups in Italian Politics, University Press, Princeton, New Jersey, 1964.
- Lashi, H., A Grammar of Politics, Yale University Press, New Haven, 1925.
- Le Bon, G., The Growd, Ernest Benn, London, 1896.
- —— The Psychology of Peoples, Macmillan, New York, 1896.
- —— The Psychology of Socialism, Macmillan, New York, 1966.
- —— The Psychology of Revolution, Putnam, New York, 1913.
- —— The World in Revolt, T. F. Unwin, London, 1921.
- Lenin, V. «'Left-Wing' Communism, An Infantile Disorder», in Selected Works, Vol. II, Part 2, Moscow, 1951.
- Lincolin, C. E., The Black Muslims in America, Boston, 1961.
- Lipset, S.M., The First New Nation : The United States in Historical and Comparative Perspective, Heinemann, London, 1964.
- Locke, Hume, Rosseau, Social Contract, World Classics Edition, Oxford University Press, London, 1947.
- Lorwin, L., The International Labour Movements : History, Policies, Out-look, Harper, New York, 1953.
- Lorwin, V. R., The French Labour Movement, Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1954.
- Lowenthal, and Guterman, Prophet of Deceit, A Study of the Techniques of the American Agitator, Harper, New York, 1949.
- McBriar, A. M; Fabian Socialism and English Politics, Cambridge University Press, London, 1962.
- Mackenzie, W. J. M., Politics and Social Science, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1967.
- Mcmurry, D., Coxcy; Army. A study of the Industrial Army Movement of 1894, Introduction by John D. Hicks. University of Washington Press, 1968.
- MacRae, D., Ideology and Society, Papers in Sociology and Politics, Heinemann, London, 1961.

– Mannheim, K., Ideology and Utopia, Routledge and Kegan Paul, London, 1936.

– Marx, K., Capital, Progress Publishers, Moscow, 1965.

– —— Economic and Philosophic Manuscripts of 1944, Progress Publishers, Moscow, 1959.

– Marx, K. and Engels, F., The Communist Manifesto, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1957.

– —— Selected Correspondence, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1953.

– Metthews, Herbert, Castro : A Political Biography, Allen Lane, London, 1969.

– Moore, B., Social Origins of Democracy and Dictatorship, Allen Lane, The Penguin Press, London, 1967.

– Mydral, J., Objectivity in Social Research, Duckworth, London, 1970.

– Newton, K., The Sociology of British Communism, Allen Lane The Penguin Press, London, 1969.

– Neibuhr, H. R., The Social Sources of Denominationalism, first published 1929, Harper, New York, 1957.

– Parkin, F., Middle Class Radicalism : The Social Bases of the British Compaign for Nuclear Disarmament, Manchester Press, Manchester, 1968.

– Perlman, S., The Theory of the Labour Movement, Kelley, New York, 1928.

– Robertson, R., The Sociological Interpretation of Religion, Blackwell, Oxford, 1969.

– Rudé, G., The Crowd in the French Revolution, Clarendon Press, London, 1959.

– Schapiro, L., The Communist Party of the Soviet Union, Second edition, Methuen, London, 1970.

— Schumpeter, J., A., Capitalism, Socialism and Democracy, Harper, New York, 1942.

— Selznick, P., The Organizational Weapon. A Study of Bolshevik Strategy and Tactics, Rand Corporation Research Study, New York, 1952.

— Semmel, B., Imperialism and Social Reform, Allen and Unwin, London, 1960.

— Smleser, N., Theory of Collective Behaviour, Routledge and Kegan Paul, London, 1962.

— Sombart, W., Socialism and the Social Movement, First English Translation, Dent, London, 1909.

— Sorel, G., Reflections on Violence, Translation by T. E. Hulme and J. Roth, with an introduction by Edward A. Shils, Collier Books, New York, 1961.

— Stark, W., The Sociology of Religion : A Study of Christondom, Vol. 4, Routledge and Kegan Paul, London, 1969.

— Stein, Lorenz Von., The History of the Social Movement in France 1789-1850, edited and translated by Dr. K. Mengelberg, Bedminster Press, Totowo, New Jersey, 1964.

— Talmon, J. L., The Origins of Totalitarian Democracy, Secker and Warburg, London, 1952.

— Tawney, R. H. Religion and the Rise of Capitalism, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1969.

— Thornton, A. P., The Imperial Idea and its Enemies, Macmillan, London, 1959.

— Tocqueville, Alexis De., Democracy in America, World Classics Edition, Oxford University Press, London, 1952.

— Tonnies, F., Community and Association, Routledge and Kegan Paul, London, 1955.

— Troeltsch. The Social Teachings of the Christian Churches, English Translation by Olive Wyon, Allen and Unwin, London, 1931.

— Webb. S., and B., Industrial Democracy, Longmans, London, rev. edn., 1920.

– Weber, M., The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Allen and Unwin, London, 1965.

– —— The Sociology of Religion, Methuen, London, 1965.

– —— The Theory of Social and Economic Organization, edited and introduced by Talcott Parsons. The Free Press, Glencoe, Ill, 1964.

– Weldon, T. D., The Vocabulary of Politics, Penguin Harmondworth, Middlesex, 1955.

– Williams, R., Culture and Society 1750-1950, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex. 1961.

– Wilson, B., Patterns of Secterianism : Organization and Ideology in Social and Religious Movements, Heinemann, London, 1967.

– —— Religion in Secular Society, Watts and Co. London, 1966.

– Woodcook G., Anarchism, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1967.

– Woolf. S. J., European Fascism, Weidenfeld and Nicolson, London, 1966.

– Worsley, P., The Trumpet Shall Sound : a Study of «Cargo» Cults in Melanesios, MacGibbon and Kee, London, 1957.

– Young, Coretta, My Life with Martin Luther King, Hodder and Stoughton, London, 1970.

– Young, Michael, The Rise of the Meritocracy 1870-2033 : an essay on education and equality, Thames and Hudeon. London, 1958

الثورة والعنف :

- Almond, G. and Coleman, James S. The Politics of the Developing Areas, Princeton University Press, Princeton, 1960.
- Arendt, H., On Revolution, Faber and Faber, London, 1963.
- Brogan, E. A. Wallis, The Papyrus of Ani, Putnam, New York, 1913, 3 Vols.
- Caesar, J., The Civil War, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1967.
- Calvert, P., Study of Revolution, Clarendon Press, Oxford, forthcoming.
- Chorley, C., Armies and the Art of Revolution, Faber and Faber, London, 1643.
- Debray, R., «Latin America : The Long March», New Left Review, 33, September — October 1955, p. 17.
- ——— Revolution in the Revolution ? Penguin Books, Harmonsworth, Middlesex, 1969.
- Denton, F. and Philips, W., «Some Patttern in the History of Violence», The Journal of Conflict Revolution, XII, No. 2, June 1968, p. 182.
- Fall, B., Ho Chi Minh On Revolution : Selected Writings, 1920-66, Pall Mall, London, 1967.
- Fanon, F., The Wretched of the Earth, Penguin Books, Harmondsworth, Middlesex, 1967.
- Feierabend, Ivo K. and Feierabend, R. L. «Aggressive Behaviours within Politics, 1948-1962, a Cross — National Study», Journal of Conflict Resolution, X, N. 3, September 1966, p. 249.
- Finer, Samuel E., The Man on Horseback, Pall Mall, London, 1962.
- Freud, S., Group Psychology and the Analysis of the Ego (1921), trs. James Strachey, Banton Books, New York, 1950.
- Goodspeed, D. J., The Conspirators, A Study of the Coup d'Etat, Macmillan, London, 1962.

- Cross, F., The Seizure of Political Power in a Century of Revolutions, Philosophical Library, New York, 1958.
- Guevara, De La Serna, Ernesto. The Complete Bolivian Dairies of the Guevara and other captured Documents, ed. and intro. Daniel James, Stein and Daz New York. 1968.
- Hegel, G. W. F., Hegel's Philosophy of Rights, trs. T. M. Knox, Claredon Press, Oxford, 1962.
- Hoffer, E., The True Believer : Thoughts on the Nature of Mass Movements, Harper, New York, 1951.
- Jamos, Andrew C., The Seziure of Power : a Study of Force and Popular Consent, Center of International Studies, Woodrow Wilson School of Public and International Affairs, Princeton University, Research Monograph N. 16 1964.
- Kropotkin, A., Memoirs of a Revolutionist, ed. James Allen Rogers, Doubleday, Garden City, New York, 1992.
- Lenin, J., Selected Works, Foreign Languages Publishing House, Moscow, 1968, 2 vols.
- Luttwak, E. Coup d'Etat, a Practical Handbook,, Allen Lane The Penguin Press, London, 1968.
- Machiavelli, N., The Prince and the Discourses, Random House, New York, 1950.
- Mao Tse - and Guevara, E; Guerrille Warfare, Cassell, London, 1964.
- Mazzini, G., The Duties of Man and other Essays by Joseph Marzini Dent, London and Duton, New York, 1912.
- Nasution, Abdul Haris, Fundamentals of Guerrilla Warfare, fascimile ed. intro. Otto Heilbrunner, Praeger. New York, 1965.
- Neumann, S., Permanent Revolution, Totalitarianism in the Age of International Civil War, Pall Mall, London 1965. Second edn. of Permanent Revolution : The Total State in a World at War, Harper, New York, 1942.
- Nkrumah, K., Handbook of Revolutionary Warfare, a Guide to the Armed Phase of the African Revolution, Panaf Books, London, 1968.

-- Pettee, S., The Process of Revolution, Harper Brothers, New York, 1938.

— Rosenau, James N. International Aspects of Civil Strife, Princeton University Press, Princeton, 1964.

— Rudé, G. The Crowd in History : A Study of Popular Disturbances in France and England, 1730-1848. John Wiley and Sons, New York, 1964.

— Smelser, Neil J., Theory of Collective Behaviour, Routledge and Kegan Paul, London, 1962.

— Sorel, G., Reflections on Violence, trs. T. B. Hulme and J. Roth, intro. Edward A. Shils, The Free Press, Glencoe, III. 1950.

— Sorokin, P., The Sociology of Revolution, J. B. Lippincott Company, Philadelphia and London, 1926.

— Tanter, R., and Midlarsky, M., «A Theory of Revolution», The Journal of Conflict Revolution, XI, No. 3, September 1967, p. 264.

— Tilly, C. and Rule J., Measuring Political Upheaval, Center of International Studies, Woodrow Wilson School of Public and International Affairs, Princeton University, 1965, Research Monography No. 19.

— Trotsky, L., History of the Russian Revolution to Brest-Litovsk, Gollancy, London, 1966.

Vo Nguyen Giap, People's War, People's Army Prager, New York, 1965, 2nd edn.

— Wolfenstein, E. Victor, The Revolutionary Personality : Lenin, Trotsky, Gandli, Princeton University Press. Princeton, 1907.

سلسلة علم الاجتماع المعاصر

صدر منهـــا :

الكتاب الأول :

ميادين علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعليــاء شكرى ومحمود عودة ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعــارف ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثانى :

نظرية علم الاجتماع : تأليف نيقولا تيماشيف ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث :

أساليب الاتصال والتغيـر الاجتمــاعى : تأليف الدكتــور محمود عوده ، دار المعارف ، ١٩٧٠ .

الكتاب الرابع :

تمهيد فى علم الاجتماع : تأليف بونومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعــارف ، الطبعـــة الخامسة ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس :

مجتمع المصنع : دراسة فى علم اجتماع التنظيم : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الهيئة العامة للكتاب بالاسكندرية ، ١٩٧٢ .

الكتاب السادس :

الصفوة والمجتمع : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمـــد الجـــوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعـــة الثانيـــة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ .

الكتاب السابع :

الطبقات فى المجتمع الحديث : تأليف بوتومور ، ترجمـــة الدكاترة محمـــد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن :

علم الاجتماع الفرنسى المعاصر : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع :

قراءات معاصرة فى علم الاجتماع : للدكاترة علياء شكرى ومحمد على محمد ومحمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب العاشر :

دراسات فى التنمية الاجتماعية : تأليف الدكاترة السيد الحسينى ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى عشر :

مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية : تأليف جون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرح ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .

الكتاب الثانى عشر :

التغير الاجتماعى : تأليف الدكتور محمد الجوهرى وآخرون ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثالث عشر :

دراسة علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الرابع عشر :

علم الاجتماع الريفى والحضرى ، للدكتور محمد الجوهرى والدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

الكتاب الخامس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع : تأليف الكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب السادس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى ، تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ .

الكتاب السابع عشر :

علم الفولكلور : الجزء الاول ، تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن عشر :

النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم : تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب التاسع عشر :

مصادر دراسة الفولكلور العربى ، اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب العشرون :

الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية ، اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب الحادى والعشرون :

علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث : تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والعشرون :

علم الفولكلور ، الجزء الثانى ، دراسة المعتقدات الشعبية : تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والعشرون :

بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة السعودية : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الرابع والعشرون :

التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الأوربية : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الخامس والعشرون :

الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الاسرة : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب السادس والعشرون :

دراسات معاصرة فى علم الاجتماع : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب السابع والعشرون :

عادات الطعام فى الوطن العربى : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، تحت الطبع .

الكتاب الثامن والعشرون :

الفلاحون والدولة : تأليف الدكتور محمود عودة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع والعشرون :

تاريخ علم الاجتماع : الجزء الأول : تأليف الدكتور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثلاثون :

علم الاجتماع والمنهج العلمى : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الاولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى والثلاثون :

أصول علم الاجتماع السياسى : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الاولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثانى والثلاثون :

جماعات الغجر مع اشارة لغجر مصر والبلاد العربية : تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والثلاثون :

الانثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية : تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الرابع والثلاثون :

علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضايا : تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والثلاثون :

علم الاجتماع العسكرى : التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة العسكرية: تأليف الدكتور أحمد خضر ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

الكتاب السادس والثلاثون :

الفكر الاجتماعي : نظرة تاريخية عالمية ، تأليف هاينز موس ، ترجمة الدكتور السيد الحسيني والدكتورة جهينة سلطان العيسى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٨١ .

الكتاب السابع والثلاثون :

التنمية والتخلف : دراسة تاريخية بنائية ، تأليف الدكتور السيد الحسيني . الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن والثلاثون :

المدينة : دراسة في علم الاجتماع الحضري ، تألف الدكتور السيد الحسيني ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب التاسع والثلاثون :

النظرية الاجتماعية المعاصرة : دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع ، تأليف الدكتور على ليلة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الاربعون :

علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية ، تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الحادى والاربعون :

البناء السياسي في الريف المصري : تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة ، تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والاربعون :

علم الاجتماع الامريكي : دراسة لاعمال تالكوت بارسونز ، تأليف جى روشية ، ترجمة الدكتور محمد الجوهري والدكتور احمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثالث والاربعون :

البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والانثروبولوجيا : المفاهيم والقضايا : تأليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الرابع والاربعون :

علم الاجتماع والنقد الاجتماعي : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهري والسيد الحسيني وعلى ليلة وأحمد زايد ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والاربعون :

الاقتصاد والمجتمع في العالم الثالث : تحرير الن مونتجوى ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهري وعلى ليلة واحمد زايد .

الكتاب السادس والاربعون :

وقت الفراغ فى المجتمع الحديث : تأليف الدكتـــور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ .

الكتاب السابع والاربعون :

علم الاجتماع : تأليف جونسون ، ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شـــكرى ومحمد الجوهرى وعلى ليلة وأحمد زايد وحسن الخولى . تحت الطبع .

الكتاب الثامن والاربعون :

الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث : مدخل اجتمـــاعى ثقافى ، تأليف الدكتور حسن الخولى . تحت الطبع .

الكتاب التاسع والاربعون :

المرأة المصرية بين البيت والعمل ، تأليف الدكتور محمـــد ســـلامة آدم ، تحت الطبع .

رقم الايداع ٤٠٨٥ لسنة ١٩٨١

مطابع سجل العرب

